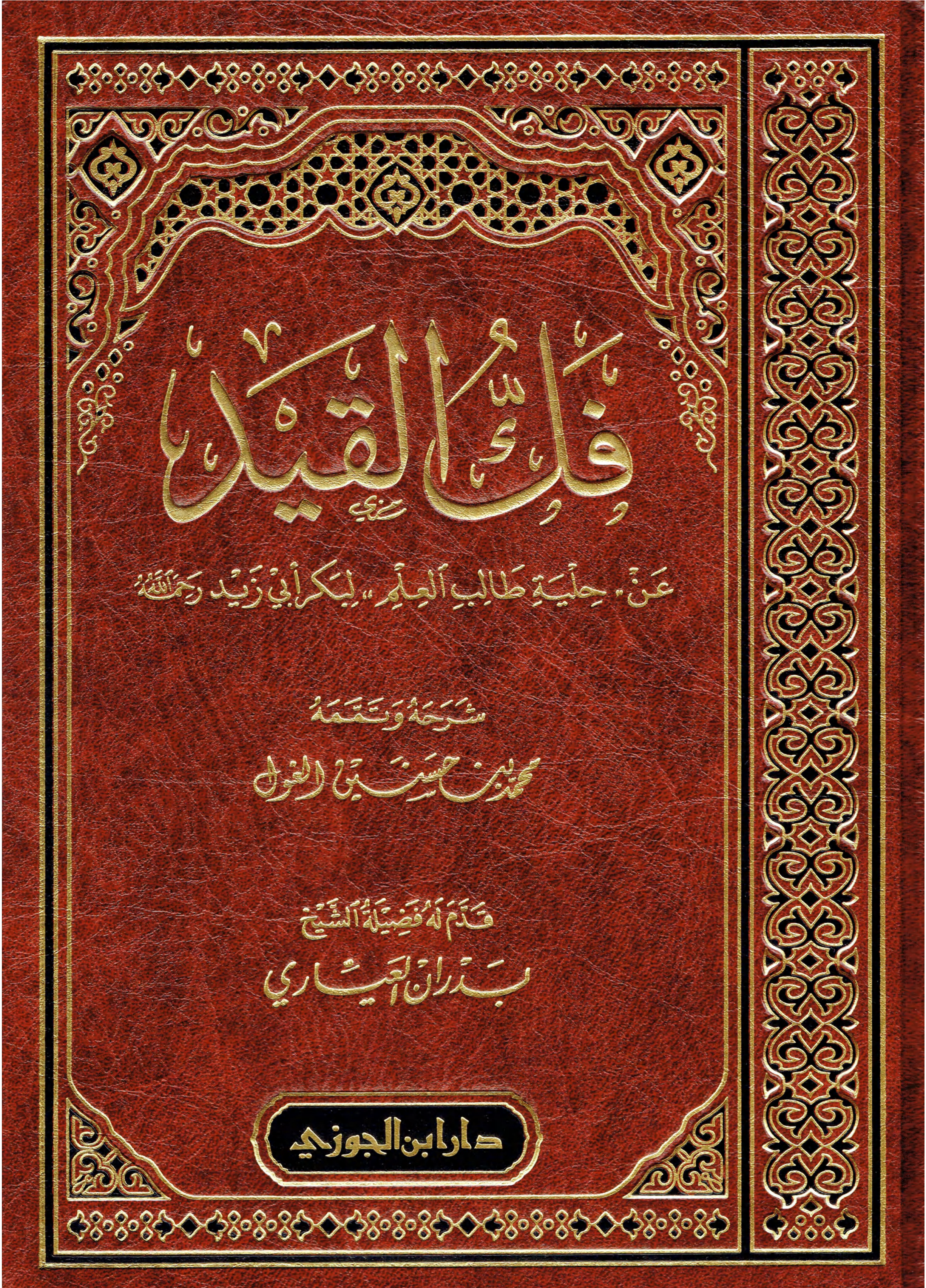
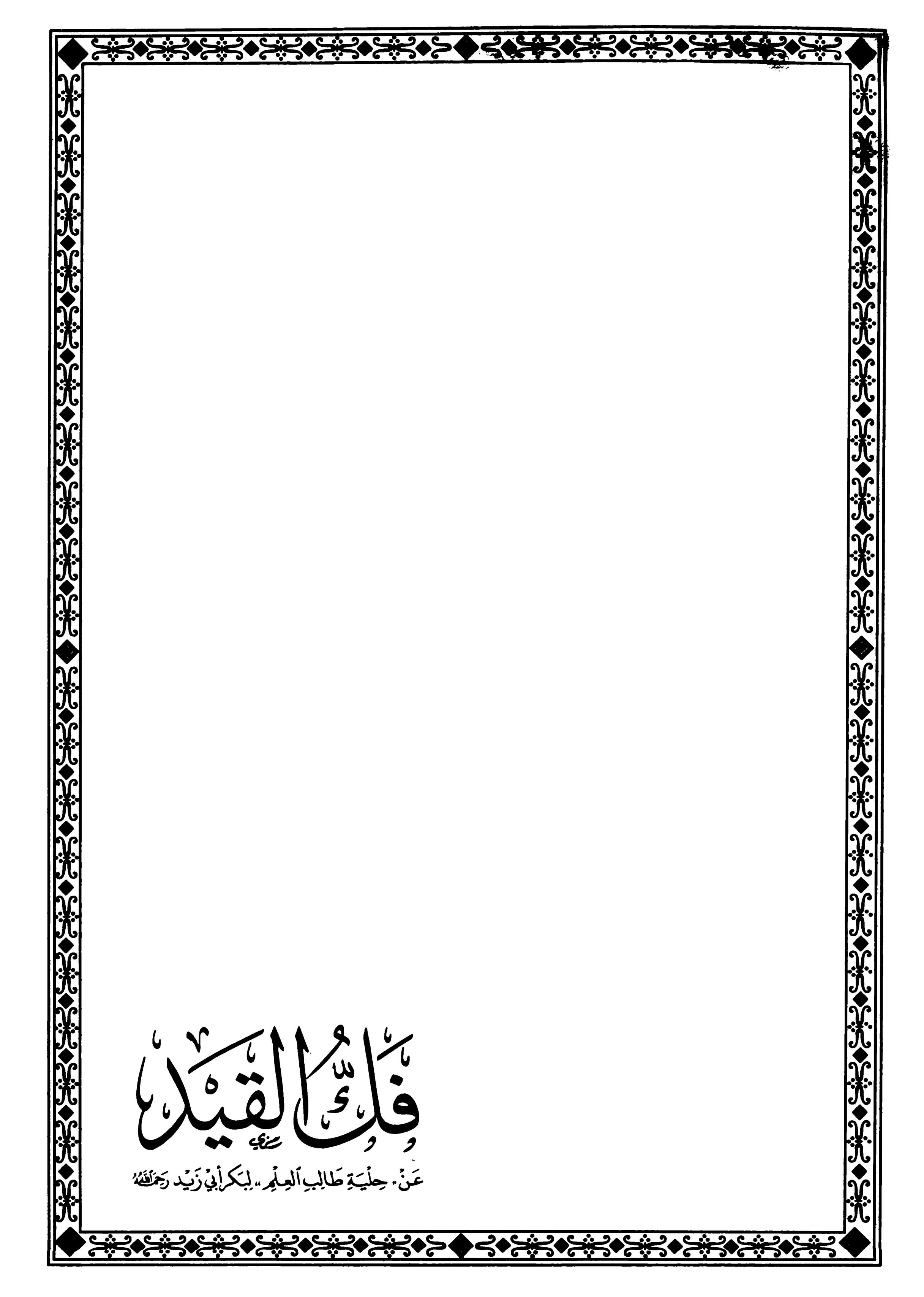

فك القيد
عن «حلية طالب العلم» لبكر أبي زيد رحمه الله
شرحه وتممه
محمد بن حسين الغول
قدم له فضيلة الشيخ
بدران العياري
دار ابن الجوزي


فكّ القيد
عن «حلية طالب العلم» لبكر أبي زيد رحمه الله





دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٥٧

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي: ٨٤٠٦ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت

هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:

aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com



فك القيد

عن "حلية طالب العلم" لبكر أبي زيد رحمه الله

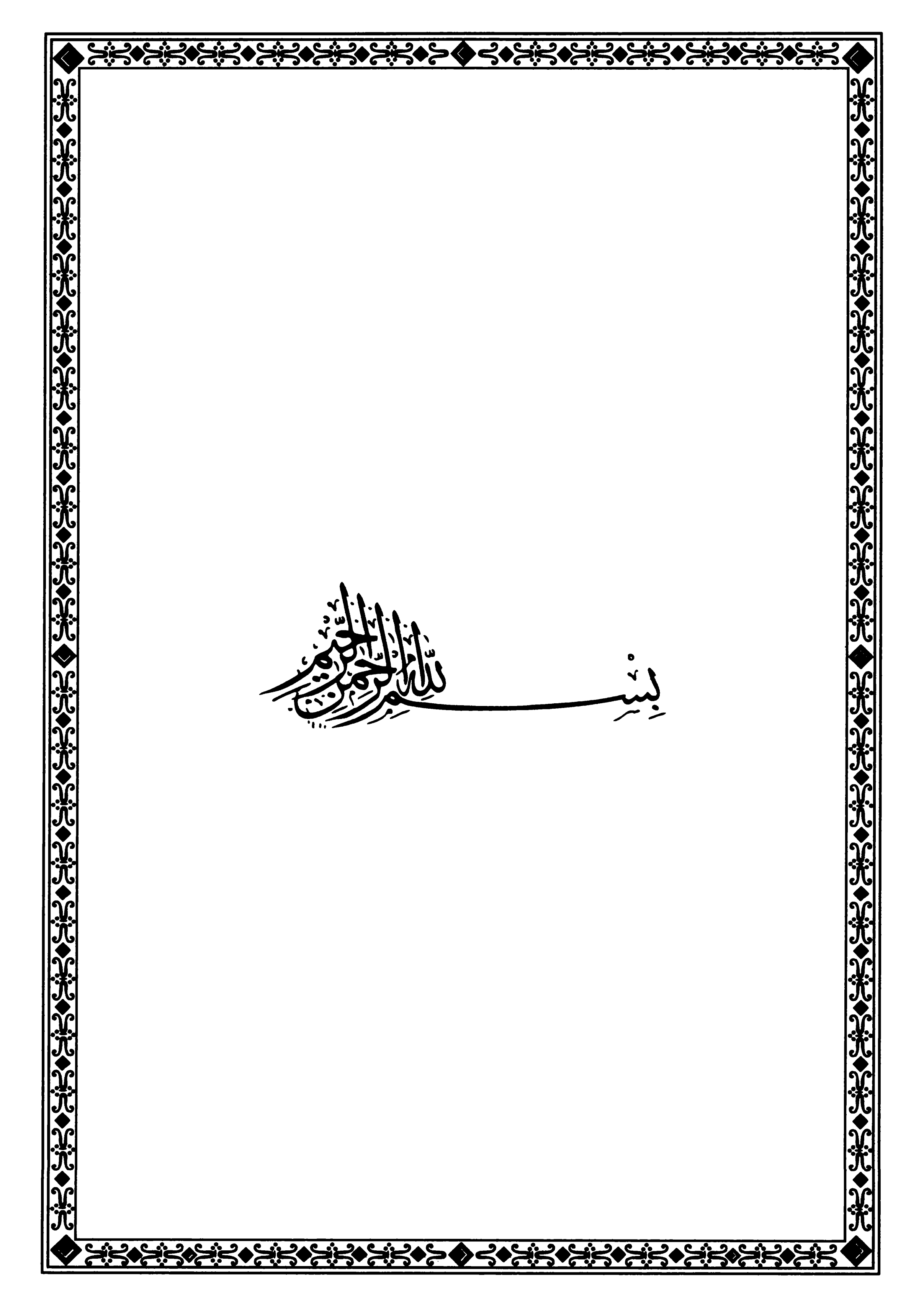
شرحه وتممه

محمد بن حسنين الغول

قدم له فضيلة الشيخ

بدران العياري

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

أوْدَعْتُ فيه من الآداب

ما تزْكو بهِ النفوس، وَتقرُّ به العيون، وتَبهَجُ به الأرواح

بتوفيق الله تعالى

ومـا لـيَ سِـوَىٰ قلبـي وفـيك أذبـتُهُ

وسـوىٰ دمعـي وفـيك سـكبْتُهُ

لطائف المعارف (٢٣٨)

أخـذتَ قلبـي وغُمْـضَ عَيـنـي

سـلبتني الـنوم والهُجـوعا

فَـذرْ فـؤادي وخُـذْ رُقَـادي

فقـال: لا؛ بـلْ هُمَـا جمـيعا

جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٩٣)

الإهداء

إلى أمي الغالية أم محمد ومصطفى ومحروس وأسامة حفظهم اللَّه، ثم إلى بهجة قلبي : طلبة الحديث النبوي الشريف؛ خاصة خادم الكتاب أبو عمران محمود بن إدريس القزاز جزاه الله عنا خيراً على ما قدَّم هو وأصحاب الدعوة السلفية المباركة بكرداسة،

أسأل الله أن يرضى عنهم جميعًا

ثم لزوجتي «أم محمد بنت إبراهيم هديب»، جزاها الله عني خيرًا

وأبنائي : محمد وفاطمة وعزة رعاهم الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة الشيخ بدران العياري

ـ حفظه اللَّه ـ

إن الحمد للَّه؛ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب اللَّه، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة.

وبعد:

فإن من إكرام اللَّه للعالم أو المربي أن يُرزق بطلاب أوفياء، يقومون بعلمه ويأتمرون بأمره، ويكونون عند رغبته في نصرة الشريعة والقيام بحق اللَّه عليهم في الدعوة إلىٰ اللَّه؛ في المنشط والمكره والعسر واليسر.

وكنت صحبت شيخنا الشيخ حسن أبو الأشبال في ليلة مباركة ودعوة

كريمة إلىٰ كرداسة ـ محل الأخ المؤلف الشيخ البحاثة محمد حسنين[1] ـ قبل انتخابات مجلس النواب «البرلمان»؛ في مؤتمر لنصرة إخواننا السلفيين وغيرهم من أصحاب الاتجاه الإسلامي؛ فوجدت عددًا يفوت الحصر، وقلوبًا متآلفةً علىٰ نصرة الدين، وبينهم من الحب والود ما يشرح الصدر ويسر الخاطر، وعلمت أن هٰذا لم يأت في يوم وليلة؛ بل جهود ربع قرن من الزمان من جهود شيخنا الشيخ أبي الأشبال ـ أيده اللَّه بنصره ـ في العمل في حقل الدعوة في منطقة الهرم وما حولها، ثم توالت الأيام، وازدادت محبتي لأولٰئك النفر الكرام من شباب الدعوة السلفية في كرداسة وأبي رواش وبني مجدول وغيرهم، وتوطدت العلاقة بهم أكثر من خلال لقائنا الأسبوعي في مسجد «أهل السنة» بالتجمع الأول؛ إذ نسهر في قراءة صحيح البخاري بعد درس المصطلح إلىٰ قريب من الفجر، ووجدت فيهم من نباهة الذهن وجودة القريحة وعلو الهمة ما يرشح لبذل جهد أكبر معهم؛ ليكونوا ـ بإذن اللَّه تعالىٰ ـ من العلماء العاملين والدعاة الربانيين، وأحسبهم أهلًا لذٰلك ـ إن شاء اللَّه تعالىٰ ـ.

وعرض عليَّ المؤلف ـ حفظه اللَّه تعالىٰ ـ هٰذا الشرح البديع، ومعه كتابه الآخر الماتع «شأن علم العلل»[2]، فبادرت بتصفحه، فوجدته أهلًا لأن يطبع ليعم به النفع بين الطلاب؛ خاصةً وأن طريقة الشرح وافقت رغبةً قديمةً عند المؤلف العلامة الإمام الفقيه بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإنه قال في المقدمة:

«ولم أَعنِ الاستيفاء؛ لٰكن سياقتها تجري علىٰ سبيل ضرب المثال قاصدًا الدلالة علىٰ المهمات؛ فإذا وافقت نفسًا صالحةً لها تناولت هٰذا القليل

---

(١) وهو ـ حفظه اللَّه ـ من طلاب الحديث النابِهين، من أقدم طلاب العلامة المحدث الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) وكتاب «شأن علم العلل وشرف أهله» من أجود الكُتب دِرَاسَةً ونَهجًا في بابه علىٰ مثالٍ لم يسبق من قبل، بَيَّنَ فيه حقيقة وعظمة أهل النقد الجهابذة من المتقدمين، وهو قيم في بابه لدارسه وقارئه وفاهمه، وقد طبع في مجلد بدار أصحاب الحديث بالأزهر الشريف.

فكثرته، والمجمل ففصلته».

فاختص اللَّه تعالىٰ ـ بعد ربع قرن من الزمان من تقييد العلامة الشيخ بكر لها ـ أخانا الفاضل محمد بن حسنين الكرداسي، فقام علىٰ أكمل وجه وأيسر منهج لما تمناه الشيخ بكر رَحِمَهُ اللَّهُ لرسالته؛ فشرح غوامضها، وجلَّىٰ فوائدها، وفصل مجملها بنقول من كلام أئمة سلفنا وعلمائنا، وبارك اللَّه له في النقل فأكثر النقل جدًّا عن أئمة السلف إلىٰ القرن الرابع، وخف يده من النقل عن المتأخرين إلا قليلًا ممن لا يُستغنىٰ عن كلامهم ونور بيانهم من أئمة السلف المتأخرين؛ كابن الجوزي وابن القيم وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم ممن قادوا تحرير الأمة من قيود الشرك والبدع والضلالات؛ فلله دره أصلح اللَّه شأنه، وأسأل اللَّه تعالىٰ أن ينفع بالشرح كما نفع بالأصل؛ إنه جواد كريم.

وصلىٰ اللَّه علىٰ البشير النذير ـ نبينا محمد ـ وآله، وسلم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدين.

وكتب

أ. د / بدران العياري

حامدًا ومستغفرًا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

«وبعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب اللَّه، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»(١).

أما بعد:

□ «فليس يجهلُ فَضلَ العِلْم إلَّا أهلُ الجهل؛ لأنَّ فضلَ العِلم إنما يُعرفُ بالعلم، وهو(٢) أبلغُ في فضله؛ لأنَّ فضله لا يُعلَم إلَّا به، فلمَّا عَدِمَ الجُهَّالُ العِلمَ الذي به يتوصَّلُون إلىٰ فَضلِ العِلْم جَهِلُوا فَضْلَه، واسترذلُوا أهلَه(٣)، وتوهَّمُوا أنَّ ما تميلُ إليه نفوسُهم مِنَ الأموال المقتَناة، والطُّرَفِ(٤) المشتهاة

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم والنسائي وغيرهما؛ من حديث جابر بن عبداللَّه رضي الله عنهما، وتسمىٰ: «خطبة الحاجة»؛ أودعها كتابًا قيمًا العلامةُ الألباني ـ رحمه اللَّهُ وطيب ثراه ـ أستاذ الصنعة ومقدمها.

(٢) في المطبوعة: وهٰذا.

(٣) أي: رأوهم أرذالًا لا قيمةَ لهم.

(٤) الطُّرَف: النفائس.

أَوْلىٰ أن يكونَ إقبالُهم عليها، وأحْرَىٰ أن يكون اشتغالُهم بها» اهـ[١].

من المعلوم أن كتاب «حلية طالب العلم» للعلامة القاضي الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب قيم في بابه، فرد في محرابه، حوىٰ دررًا مكنونة وجواهر مصونة، طرب به العلماء والفضلاء، وأنس به المجدون والنبهاء، وتأججت به همم النجباء والبلغاء، وانتفع به القاصي والداني؛ فقرئ في الحلقات والمجالس والندوات، فكان حقًّا حليةً للجلساء، وزيادةَ أدب للنبلاء والأجِلَّاء، فعكفوا عليه مرات تلو كرَّات، يَشْحَذُون به الهمم كلما ضعفت أو كلَّت، ويداوون به النفوس كلما تعبت أو ملت، أو اعتراها الكسل والفتور أو الكِبَر والقصور.

وقد أودع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه هٰذا جواهر ودررًا التقطها من بحور كتب أهل العلم القديمة والحديثة علىٰ مر العصور والأزمنة، نَهج فيه نَهجًا قويمًا علىٰ أسلوب عالٍ من الأدب والفهم القيم، ثم إني وَدِدتُ أن أكمله وأتممه علىٰ نفس طريقة «الحلية» ونوادر الآثار القيمة الشيقة التي لا غِنىٰ عنها لعالم أو طالب علم مع عظيم بركة «الحلية» علىٰ صغر حجمها، وهٰذا ذكَّرني بشيخ الإسلام ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين رأىٰ كتاب «الكاشف» للذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي اختصر فيهِ كتاب شيخه المزي «تهذيب الكمال»؛ فقال: «لمَّا نظرت في هٰذه الكتب؛ وجدت تراجم «الكاشف» إنما هي كالعنوان؛ تتشوق النفوس إلىٰ الاطلاع علىٰ ما وراءه، وهٰذا لا يروي الغُلة ولا يَشفي العِلة»[٢].

فسلكتُ في شرحي هٰذا مسلك الشيخ في كتابه «الحلية» علىٰ نفس نَهجه ومنواله، لا آتي بلفظةٍ من عندي إلا لضرورة بيان وتوضيح، حفاظًا علىٰ أصل «الحلية» وجواهرها، وكان هٰذا من توفيق الله لي في الشرح حتىٰ جاء علىٰ الوجه المرضي، فحمدًا لله علىٰ ما وَفَّق وألهم وأعان، فشرعت في انتقاء درر الآثار من نفائس الكتب النادرة؛ كما كان يفعل الشيخ بكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

---

(١) «آداب الدين والدنيا» للماوردي (٨٧ ـ ط: دار ابن الجوزي).

(٢) مقدمة «تهذيب التهذيب» لابن حجر (١/ ٣ ـ ط: دار المعرفة بيروت).

وأسأله تعالىٰ القبول.

وهٰذا الشرح بداية في طريق طلب العلم لكيفية الطلب؛ حتىٰ يتعلم طالب العلم ويعمل ويتأدب، ثم بعد ذٰلك يُعلم ويُؤدب ويدعو إلىٰ اللَّه تعالىٰ بإخلاص و بصيرة.

واللَّهَ أسأل أن يثيبني به جميل الذكر في الدنيا، وجزيل الأجر في الآخرة، ضارعًا إلىٰ اللَّه أن يُلْهِم من ينظر فيه أن يستر عثاري وزللي، ويسدد بسداد فضله خللي، ويصلح ما طغىٰ به القلم وزاغ عنه البصر، وقصر عنه الفهم وغفل عنه الخاطر، فالإنسان محل النسيان، وإن أول ناسٍ أول الناس[1].

هٰذا وقد كنت أسميته: «العلمَ بشرحِ حليةِ طالب العلم»؛ غير أني لما عرضت الكتاب علىٰ شيخنا الدكتور بدران العياري ـ حفظه اللَّه ـ وجدتُه اختار له اسم «فك القيد» فأعجبني! ثم عَلِمَ بذٰلك شيخنا العلامة المُحدث: أبو الأشبال الزهيري ـ حفظه اللَّه ـ فأعجبه كذٰلك، فقُلتُ: العنوان إشارة للمضمون، وكاشف عن المحتوىٰ المكنون، فحَمِدتُ له ذٰلك وآثرتُ هٰذا الاسم اللطيف والتنبيه الذكي المنيف، فاللَّهم أسْنِدْهُ إلىٰ حبل وِدادِك المُتَّصل، وارفع درجته في سلاسلِ أُولي العلمِ الذين وصلوا العلم بالعمل، وسلِّمه من شواذ القول المُتهم، وأَشْهِرْ عِلمه في الآفاق، واقبل عمله برفعه فوق الطِّباق، وأزل عنه عِلل أهل الشِّقاق، إنك جَوَاد كريم وذو فضلٍ عظيم.

وصلَّىٰ اللَّه وسَلَّم وبارك علىٰ سيدنا محمدٍ وآلهِ وصحبهِ أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين.

وكتبه

أبو محمد/ محمد بن حسنين بن رجب الغول

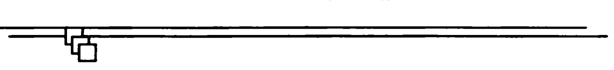
السلفي الكرداسي

عفا اللَّه عنه وعن والديه ومشايخه والمسلمين

---

(١) من مقدمة كتاب «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (ص: ٤٠ ـ ط: مؤسسة الرسالة).

التعريفُ بالمؤلِّف رحمه الله



المولد:

ولد فضيلة الشيخ العلَّامة: بكر بن عبداللَّه أبو زيد رحمه الله أول ذي الحجة عام (١٣٦٤ هـ)؛ من قبيلة بني زيد القبيلة القضاعية المشهورة بنجد، وهو من مدينة «شقرا» ثم «الدوادمي»؛ حيث ولد فيها ونشأ الشيخ نشأةً كريمةً في بيت صلاح وأدب وعلم وثراء وعراقة ونسب.

فبدأ بالكُتَّاب، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية، وأكملها في مدينة الرياض؛ حيث واصل جميع مراحل التعليم الابتدائي، ثم المعهد العالي العلمي، ثم كلية الشريعة، ثم المعهد العالي للقضاء.

حياته العلمية:

أخذ اللغة العربية عن شيخه العلَّامة «صالح بن عبداللَّه بن مطلق» القاضي المتقاعد بالرياض، وكان يحفظ من «مقامات الحريري» (٢٥ مقامة) بشرحها لأبي العباس الشريشي رحمه الله، وقد ضبطها عليه، وأخذ عنه علم الميقات، وحفظ عليه منظومته المتداولة علىٰ ألسنة المشايخ.

وقد انتفع انتفاعًا بالغًا حين رحل رحلته القيمة إلىٰ مدينة رسول اللَّه ﷺ مدينة العلم والفقه والأدب، وكان ذلك سنة (١٣٨٣هـ)، ولازم شيخه العلَّامة بديع الزمان عبدالعزيز بن باز رحمه الله وحيد زمانه في علوم الشريعة، فقرأ علىٰ سماحته عددًا من الرسائل، ودرس عليه «كتاب الحج» من «المنتقىٰ» في المسجد الحرام ـ زاده اللَّه تشريفًا ـ ، ثم لازم شيخه الحبيب غاية المنىٰ العلَّامة المفسر «محمد الأمين الشنقيطي» رحمه الله صاحب كتاب «أضواء البيان في تفسير القرآن» (ت: ١٣٩٣ هـ)، فلازمه حق الملازمة عشر سنوات في

المسجد النبوي ـ علىٰ ساكنه أفضل التحية وحُسْن الصلاة والسلام ـ ، فأخذ عنه التفسير؛ خاصةً «أضواء البيان»، والجزء الأول من «آداب البحث والمناظرة»، ومواضع من «المُذَكِّرَة في أصول الفقه»، وأخذ عنه كتاب «القصد والأَمَم في أنساب العرب والعجم» لابن عبدالبر الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد أَثَّرَ فيه الشيخ تأثيرًا بالغًا في حياته كلها، فحبب إليه النظر في «لسان العرب» وأصول اللغة العربية؛ حتىٰ صار له تأثير بالغ عليه ظاهر جدًّا في أسلوبه ونَهجه، وصار شيخه الشنقيطي روحه؛ حتىٰ أثنىٰ عليه في جميع مجالاته؛ حتىٰ ذكره هنا في كتابه «الحلية»، وأثنىٰ عليه ثناءً بالغًا جدًّا؛ تقديرًا لشيخه ومربيه ومعلمه ومؤدبه.

ثم حصل الشيخ علىٰ إجازات كثيرة بالكتب الستة وغيرها.

وتخرج في كلية الشريعة سنة (١٣٨٣هـ) منتسبًا، وكان ترتيبه الأول بين الخريجين.

ثم اختير للقضاء عام (١٣٨٨هـ)؛ فعمل قاضيًا في محكمة المدينة المنورة الكبرىٰ حتىٰ نهاية عام (١٤٠٠هـ).

وفي عام (١٣٩٠هـ) عُيِّن مدرسًا بالمسجد النبوي؛ فدرَّس فيه الفرائض والحديث حتىٰ عام (١٤٠٠هـ)، ثم عين بعدها وكيلًا لوزارة العدل، واستمرت الوكالة إلىٰ عام (١٤١٣هـ).

وعين ـ أيضًا ـ عضوًا لمجلس القضاء العالي بِهيئته العامة، ثم ممثلًا للمملكة في «مَجمَع الفقه الإسلامي»، وعين رئيسًا له من عام (١٤٠٥هـ) حتىٰ تاريخه.

وعين ـ أيضًا ـ عضوًا في «المجمع الفقهي» برابطة العالم الإسلامي. وفي عام (١٤١٣هـ) عين عضوًا في «هيئة كبار العلماء»، وعضوًا في «اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء».

وفي أثناء عمله في القضاء واصل دراسته منتسبًا في المعهد العالي

للقضاء؛ فحصل علىٰ الماجستير والدكتوراه.

وظل الشيخ يدرس ويعلم ويؤدب؛ حتىٰ وافته المنية في الثامن والعشرين من المحرم عام (١٤٢٩هـ).

وقد ترك لنا من المؤلفات القيمة النافعة المحققة كثيرًا؛ فقرئت ودرست وزاد نفعها جدًّا، وهي تمتاز بالدقة وجودة البحث وجزالة الأسلوب وعذوبة المورد، والرجوع دائمًا إلىٰ الدليل الصحيح بإذن اللَّه؛ فمنها:

(١) ابن القيم حياته وآثاره وموارده (في مجلد لطيف).

(٢) التقريب لعلوم ابن القيم.

(٣) فقه النوازل (مجلدان).

(٤) معجم النواهي اللفظية.

(٥) طبقات النَّسَابين.

(٦) معرفة النُسخ الحديثية.

(٧) التحديث فيما لا يصح فيه حديث.

(٨) عقيدة أبي زيد القيرواني.

(٩) التأصيل في أصول التخريج (طبع منه المجلد الأول وهو قيم جدًّا).

(١٠) التعالمُ وأثره علىٰ الفِكر والكِتاب.

(١١) الحلية (كتابنا هٰذا).

(١٢) لا جديد في أحكام الصلاة (رسالة صغيرة قيمة).

(١٣) تحقيق كتاب «الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث» للعامري.

(١٤) رسالة في صلاة التسابيح (قيمة جدًّا).

(١٥) رسالة السبحة وحكمها.

(١٦) رسالة في هجر المبتدع.

(١٧) حراسة الفضيلة.

(١٨) رسالة في حدِّ الثوب والأُزرة.

(١٩) بدع القُرَّاء القديمة والمعاصرة .

(٢٠) رسالة في مسح الوجه باليدين بعد الدعاء.

(٢١) معجم المؤلفات المنحولة.

(٢٢) عيد اليوبيل بدعة في الإسلام نشأته وحكمه.

(٢٣) درء الفتنة عن أهل السنة.

وله كثير من المؤلفات والرسائل القيمة الفائقة التي إن دَلَّت فإنما تدل علىٰ علم غفير وفهم غزير؛ رحم اللَّه هٰذا الإمام وأسكنه فسيح جناته.

وقد تُوفِّي رَحِمَهُ اللَّهُ في ظهر يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر اللَّه المحرم؛ لعام ألف وأربعمئةٍ وتسعة وعشرين من الهجرة النبوية؛ الموافق (٥ فبراير ٢٠٠٨م).

مقدِّمةُ كتاب: «حِليةُ طالب العلم»

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الحمد للَّهِ، وبعد[١]:

فأقيِّدُ معالم هٰذه «الحلية» المباركة عام (١٤٠٨هـ)، والمسلمون ـ وللَّه الحمد ـ يعايشون يقظةً علميةً تتهلل لها سُبحاتُ الوجوه، ولا تزال تُنشِّطُ ـ متقدمةً إلىٰ الترقي والنضوج في أفئدة شباب الأمة ـ مجدَها ودمَها المجدد لحياتها، إذ نرىٰ الكتائب الشبابية تترىٰ؛ يتقلبون في أعطاف العلم مثقلين بحمله؛ يَعِلُّون منه وينهلون، فلديهم من الطموح، والجامعية، والاطلاع المدهش، والغوص علىٰ مكنونات المسائل، ما يَفرح به المسلمون نصرًا، فسبحان من يُحيي ويميت قلوبًا.

لٰكن، لابد لهٰذه النواة المباركة من السَّقْي والتعهُّد في مساراتها كافة، نشرًا للضمانات التي تكفُّ عنها العثارَ والتعصب في مثاني الطلب والعمل من تموجاتٍ فكرية، وعقدية، وسلوكية، وطائفية، وحزبية...

وقد جعلتُ طوع أيديهم رسالة في «التعالم»؛ تكشف المندسِّين بينهم خشيةَ أن يُرْدُوهم، ويضيعوا عليهم أمرهم، ويُبعثروا مسيرتهم في الطلب، فيْستلُّوهم وهم لا يشعرون.

واليوم أخوك يشُدُّ عضدك، ويأخذ بيدك، فأجعل طوع بنانك رسالةً تحمل «الصفة الكاشفة» لحليتك، فها أنا ذا أجعل سن القلم علىٰ القرطاس، فاتلُ ما أرقم لك أنعم اللَّه بك عينًا[٢].

---

(١) رأيت أن يكون أصل «الحلية» بالخط الأحمر، وشرحي بالخط الأسود للعلم. (الشارح).

(٢) أوضحتُ في حرف الألف من «معجم المناهي اللفظية» أن هٰذا اللفظ: «أنعم اللَّه بك عينًا» لا =

لقد تواردت موجباتُ الشرع علىٰ أن التحلي بمحاسن الأدب، ومكارم الأخلاق، والهدي الحسن، والسمت الصالح: سمةُ أهل الإسلام، وأن العلم ـ وهو أثمن درَّةٍ في تاج الشرع المطهر ـ لا يصلُ إليه إلا المتحلي بآدابه، المتخلي عن آفاته، ولهٰذا عناها العلماء بالبحث والتنبيه، وأفردوها بالتأليف، إما علىٰ وجه العموم لكافة العلوم، أو علىٰ وجه الخصوص، كآداب حملة القرآن الكريم، وآداب المحدِّث، وآداب المفتي، وآداب القاضي، وآداب المحتسب، وهٰكذا...

والشأن هنا في الآداب العامة لمن يسلُك طريق التعلم الشرعي.

وقد كان العلماء السابقون يُلقِّنون الطلاب في حِلَق العلم آداب الطلب، وأدركتُ خبرَ آخر العِقدِ في ذٰلك في بعض حلقات العلم في المسجد النبوي الشريف، إذ كان بعض المدرسين فيه، يدرس طلابه كتاب الزَّرْنُوجي (م سنة ٥٩٣ هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المسمَّىٰ: «تعليم المتعلم طريق التعلم»[(١)].

فعسىٰ أن يصل أهلُ العلم هٰذا الحبلَ الوثيق الهادي لأقوم طريق، فيدرَجُ تدريس هٰذه المادة في فواتح دروس المساجد، وفي مواد الدراسة النظامية، وأرجو أن يكون هٰذا التقييدُ فاتحةَ خير في التنبيه علىٰ إحياء هٰذه المادة التي تهذِّب الطالب، وتسلك به الجادةَ في آداب الطلب وحمل العلم، وأدبه مع نفسه، ومع مدرسه، ودرسه، وزميله، وكتابه، وثمرة علمه، وهٰكذا في مراحل حياته.

فإليك حليةً تحوي مجموعة آداب، نواقضها مجموعةُ آفات، فإذا فات أدبٌ منها، اقترف المفرط آفةً من آفاته، فمُقلٌّ ومستكثر، وكما أن هٰذه الآداب درجاتٍ صاعدةً إلىٰ السُّنة فالوجوب، فنواقضها دركاتٌ هابطة إلىٰ الكراهة فالتحريم.

= يصح النهيُ عنه.

(١) طبع مرارًا، وهو مع إفادته فيه ما يقتضي التنويه، فليُعلَمْ، والله أعلم.

ومنها ما يشملُ عموم الخلق من كل مكلف، ومنها ما يختصُّ به طالب العلم، ومنها ما يُدرَكُ بضرورة الشرع، ومنها ما يُعرف بالطبع، ويدل عليه عمومُ الشرع، من الحَمل علىٰ محاسن الآداب، ومكارم الأخلاق، «ولم أعنِ الاستيفاء، لٰكن سياقتها تجري علىٰ سبيل ضرب المثال، قاصدًا الدلالة علىٰ المهمات، فإذا وافقت نفسًا صالحةً لها، تناولت هٰذا القليل فكثَّرته، وهٰذا المجمل ففصَّلته»[١]، ومن أخذ بها انتفع ونفع، وهيٰ بدورها مأخوذةٌ من أدب مَن بارك اللّٰه في علمهم، وصاروا أئمةً يُهتدىٰ بهم، جمعنا اللّٰه بهم في جنته، آمين»[٢].

○ ○ ○

---

(١) قلت: هٰذا ما ذكرته في مقدمتي الماضية؛ ولعل اللّٰه بكرمه قد اختصنا بذٰلك الفضل.

(٢) من هٰذه الكتب: «الجامع» للخطيب البغدادي رحمه اللّٰهُ تعالىٰ، و«الفقيه والمتفقه» له، و«تعليم المتعلم طريق التعليم» للزرنوجي، و«آداب الطلب» للشوكاني، و«أخلاق العلماء» للآجري، و«آداب المتعلمين» لسحنون، و«الرسالة المفصلة لأحكام المتعلمين» للقابسي، و«تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة، و«الحث علىٰ طلب العلم» للعسكري، و«فضل علم السلف علىٰ الخلف» لابن رجب، و«جامع بيان العلم» لابن عبدالبر، و«العلم فضله وطلبه» للأمين الحاج، و«فضل العلم» لمحمد آرسلان، و«مفتاح دار السعادة» لابن القيم، و«شرح الإحياء» للزبيدي، و«جواهر العقدين» للسمهودي، و«آداب العلماء والمتعلمين» للحسين بن منصور ـ منتخب من الذي قبله ـ ، و«قانون التأويل» لابن العربي، و«العزلة» للخطابي، و«من أخلاق العلماء» لمحمد سليمان، و«مناهج العلماء» لفاروق السامرائي، و«التعليم والإرشاد» لبدر الدين الحلبي، و«الذخيرة للقرافي» ـ الجزء الأول ـ ، والأول من «المجموع» للنووي، و«تشحيذ الهمم إلىٰ العلم» لمحمد بن إبراهيم الشيباني، و«رسائل الإصلاح» لمحمد الخضر حسين، و«آثار محمد البشير الإبراهيمي»... وغيرها كثير، أجزل اللّٰه الأجر للجميع، آمين.



آداب الطالب في نفسه

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١ ـ العلم عبادة[١]:

أصلُ الأصول في هٰذه «الحلية»؛ بل ولكل أمر مطلوب: علمك بأن العلم عبادة. قال بعضُ العلماء: «العلمُ صلاة السر، وعبادةُ القلب».

○ ○ ○

الشرح:

نعم، العلم من أجل العبادات القلبية.

▫ قال محمد بن شهاب الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما عُبد اللّٰه بشيء أفضل من العلم»[٢].

▫ وقال عبداللّٰه بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «الدراسة صلاة السر»[٣].

▫ وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولِلّٰهِ در سيد القوم وشيخ الطائفة سهل بن عبداللّٰه التستَري؛ إذ يقول: العلم كله باب من التعبد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل»[٤].

▫ وقال العلَّامة ابن جماعة الكناني[٥]: «ينبغي لطالب العلم أن يطهر قلبه من كل غش ودنس وغل وحسد وسوء عقيدة وخلق؛ ليصلح بذٰلك لقبول العلم وحفظه، والاطلاع علىٰ دقائق معانيه وحقائق غوامضه؛ فإن العلم ـ كما

---

(١) فتاوىٰ ابن تيمية (١٠/ ١٢، ١٤، ١٥، ٤٩ ـ ٥٤) و(١١/ ٣١٤) و(٢٠/ ٧٧ ـ ٧٨).

(٢) «الحلية» لأبي نعيم (٣/ ٣٦٥) وعند الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٢٣) و«جامع البيان» لابن عبدالبر (١/ ١١٩) بتحقيق شيخنا أبي الأشبال حفظه اللّٰه بلفظ «ما عبد اللّٰه بمثل الفقه» وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٢٠٤٧٩) بسند صحيح.

(٣) جامع البيان لابن عبدالبر (١/ ١٠٤) بسند ضعيف فيه انقطاع.

(٤) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٥١٢ ـ ط دار الغد).

(٥) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (ص/ ٨٦ ـ ط: دار البشائر)، و«إحياء علوم الدين» (١/ ٤٨ ـ ط: بيروت)، و«منهاج القاصدين» لابن الجوزي (١/ ٥٥ ـ ط: دار التوفيق دمشق).

قال بعضهم ـ صلاة السر، وعبادة القلب، وقربة الباطن. وكما لا تصح الصلاة ـ التي هي عبادة الجوارح الظاهرة ـ إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث؛ فكذٰلك لا يصح العلم ـ الذي هو عبادة القلب ـ إلا بطهارته».

□ وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي لطالب العلم أن يطلب الغاية فيه، ثم ينبغي أن يطلب الغاية في معرفة اللَّه تعالىٰ ومعاملته.

وبالجملة: لا يترك فضيلة يمكن تحصيلها إلَّا حصَّلها، فإن القنوع حالة الأرذال.

فَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ في الثَّرىٰ ... وهامَّةُ هِمَّتِهِ في الثُّريّا

ولو أمكنك عبور كلِّ أحدٍ من العلماء والزهاد فافعل، فإنهم كانوا رجالًا وأنت رجل، وما قعد مَن قعد إلا لدناءة الهِمَّة وخساستها.

واعلم أنك في ميدان سباق، والأوقات تُنتهَب، ولا تَخلُد إلىٰ كسل؛ فما فات ما فات إلا بالكسل، ولا نال من نال إلا بالجد والعزم، وإن الهمة لتغلي في القلوب غليان ما في القدور؛ قال بعض السلف:

قَنِعَتْ نَفسِي بِمَا رُزِقت ... وَتَمَطَّت في العُلا هِمَمِي

فسبحان من خَصَّ فريقًا بخصائص شرفوا بها علىٰ جنسهم، ولا خصيصة أشرف من العلم؛ فأقرب الخلق من اللَّه العلماء، وإنما ينال العلم مَن تَعَلَّمَه للعمل به؛ فكلما دَلَّه علىٰ فضل اجتهد في نيله؛ فحينئذ يكشف العلمُ له سِرَّه، ويسهل عليه طريقه وتعلمه، واللَّه الهادي.

وقد ثبت بالدليل القطعي شرف العلم وأهله، وأنه من أجل العبادات؛ فينبغي لطالب العلم أن يأخذ من كل علم طرفًا، ومن كل فنٍّ نُتفًا، ويهتم بالفقه وأصوله، والحديث وعلومه، ثم ينظر في مقصود العلوم، ألا وهو معاملة اللَّه سبحانه والمعرفة به والحب له والانقياد لعظمته وجلاله.

وينبغي للطالب أن يصحح قصده[1]؛ فإن فُقدان الإخلاص يمنع قبول

---

(١) القصد: النية.

الأعمال، وليجتهد في مجالسة العلماء، ومناقشتهم، ومباحثتهم، والقيام علىٰ خدمتهم؛ ولابُد له من تحصيل الكتب النافعة لكل فنٍّ؛ فإنه لا يخلو كتاب من فائدة، **وليجعل همته بعد الفهم والحفظ العملَ بما علم. وليجتهد في لزوم العبادات؛ فإنما جُعِل العلم لعبادة اللَّه وحده، والانقياد لعظمته**، والعلم الصحيح الخالص لوجه اللَّه: لابُد أن يدُل صاحبه علىٰ اللَّه ومحبته والتذلل له والانكسار بين يديه، واللَّه المعين»[(١)].

▫ وقال العلَّامة الكبير ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «فالعلم النافع من هٰذه العلوم كلها: ضبطُ نصوص الكتاب والسنة، وفهم معانيها، والتقيد في ذٰلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد والرقائق والمعارف، وغير ذٰلك، والاجتهاد علىٰ تمييز صحيحه من سقيمه أولًا، ثم الاجتهاد علىٰ الوقوف في معانيه وتفهمه ثانيًا، وفي ذٰلك كفاية لمن عقل، وشُغلٌ لمن بالعلم النافع عُني واشتغل».

---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص/ ٢٨٦، ٢٨٠، ٥١٣ ـ ط ابن خزيمة).

(٢) «فضل علم السلف» لابن رجب الحنبلي (ص/ ٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعليه، فإنَّ شرط العبادة إخلاصُ النية للَّه ﷻ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وفي الحديث الفرد المشهور عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «إنما الأعمالُ بالنيَّات...» الحديث.

فإن فَقَدَ العلم إخلاص النية انتقل من أفضل الطاعات إلىٰ أحط المخالفات.

○ ○ ○

الشرح:

□ يقول الإمام الخَطَّابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وهٰذا الحديث أصلٌ كبير من أصول الدين، ويدخل في أحكام كثيرة.

ومعنىٰ النية: قصدك الشيء بقلبك، وتحري الطلب منك له. وقيل: هي عزيمة القلب.

وقوله: «**إنما الأعمال بالنيات**»: لم يُرد به أعيان الأعمال ـ لأنها حاصِلَة حِسًّا وعيانًا بغير نِيَّةٍ ـ، وإنما معناه: أن صِحةَ أحكام الأعمال في حَقِّ الدِّين إنما تَقَعُ بالنية، وأن النيات هي الفاصلة بين ما يصح منها وبين ما لا يَصِح.

ومما يجب عليك أن تُحكمه في هٰذا الباب تقدِمةُ المعرفة بأمورٍ منها: أن تعرف الشيء الذي تَعبَّدت به، وأن تعلمَ أنك مأمورٌ به، وأن تطلب مُوافقة الآمر فيما تَعبَّدَت بِهِ؛ فإنك إذا لم تعلم صفة ما أُمِرت به لم يَتأَتَّ لك فِعلهُ علىٰ الوجه الذي تَعَبَّدت بِهِ، ومن فَعَلَ المأمور بِهِ من غير أن يعرف أَنَّهُ مأمور به أو في جُملة المأمورين بِهِ؛ لم يَكُن في فعله مُطيعًا للآمر، ومن عَرَفَ الآمر ثُمَّ لم يَقْصِد بفعلِهِ المأمور به موافقةَ الآمر، لم يكن ممتثلًا لأمرِهِ، وهٰذا جُملةٌ

---

(١) «أعلام الحديث شرح البخاري» للخطَّابي (١/ ١١٢ ـ ١١٦).

مِن أمْرِ علم النية وما يدخل في معناها» اهـ.

▫ قال الجريري: «سمعت سهلًا يقول: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص؛ فلم يجدوا غير هٰذا: أن يكون حركاته وسكونه في سره وعلانيته للّٰه وحده لا شريك له؛ لا يمازجه نفس ولا هوىً ولا دنيا»[١].

▫ وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: «الإخلاص إذا عملت عملًا صالحًا فلم تحبَّ أن تُذكر به قط وتعظَّم من أجل عملك، ولم تطلب ثواب عملك من أحد سواه؛ فذٰلك إخلاص عملك»[٢].

▫ وقال حذيفة بن قتادة المَرعشي: «جماع الخير في حرفين: حِلُّ الكِسرة[٣]، وإخلاص العمل للّٰه»[٤].

فينبغي لطالب العلم أن يبتغي وجه اللّٰه الكريم، والزلفىٰ لديه في جنات النعيم، ولا يطلبه بسوء نية أو خبث طوية؛ أو لأغراض دنيوية من جاهٍ أو مال أو مكاثرة في الأتباع والطلاب[٥].

وتصحيح النية من طالب العلم متعيِّن، فمن طلب الحديث للمكاثرة أو المفاخرة، أو ليروي، أو ليتناول الوظائف، أو ليثنىٰ عليه وعلىٰ معرفته؛ فقد خسر، وإن طلبه للّٰه وللقربة بكثرة الصلاة علىٰ نبيه ﷺ ولنفع الناس فقد فاز.

وإن كانت النية ممزوجةً بالأمرين فالحكم للغالب.

وإن كان طلبه لفرط المحبة فيه ـ مع قطع النظر عن الأجر وعن بني آدم ـ فهٰذا كثير ما يعتري طلبة العلم؛ فلعلَّ النية أن يرزقها اللّٰه بعد.

وأيضًا فمن طلب العلم للآخرة كساه العلم خشية للّٰه واستكان وتواضع، ومن طلبه للدنيا تكبَّر به وتكثَّر وتجبَّر، وازدرىٰ بالمسلمين عامةً، وكان عاقبة

(١) «شعب الإيمان» للبيهقي (٥/ ٣٤٧، رقم ٦٧٧٨ ـ الكتب العلمية بيروت).
(٢) «الحلية» لأبي نعيم (٩/ ٢٥٩) و«طبقات الصوفية» للسلمي (ص/ ١١٨).
(٣) يقصد: أكل الحلال.
(٤) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٨/ ٢٧٠) و«السير» للذهبي (٩/ ٢٨٤ ـ ط: الرسالة).
(٥) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة الكناني (ص/ ٩ ـ ط: دار ابن عباس).

أمره إلىٰ سفال وحقارة، فليحتسب المحدِّث بحديثه رجاء الدخول في قوله ﷺ: «**نضَّر اللَّهُ امرأً سمع مقالتي فوعاها، ثم أداها إلىٰ من يسمُعها**»(١).

□ وقال في «شرح الرسالة القشيرية»: «درجات الإخلاص ثلاثة: عليا، ووسطىٰ، ودنيا.

فالعليا: أن يعمل للَّه وحده امتثالًا لأمره وقيامًا بحق عبوديته.

والوسطى: أن يعمل لثواب الآخرة.

والدنيا: أن يعمل للإكرام في الدنيا والسلامة من أذيتها.

وما عدا الثلاثة فمن الرياء وإن تفاوتت أفراده» اهـ(٢).

□ قال البيضاوي في شرح «المصابيح»: «والأعمال لا تصح إلا بنية؛ لأن النية بلا عمل يثاب عليها، والعمل بلا نية هباء، ومثال النية في العمل كالروح في الجسد؛ فلا بقاء للجسد بلا روح» اهـ(٣).

والنية: قصد الشيء مقترنًا بفعله، وهي العزم علىٰ فعل عبادة تقربًا إلىٰ اللَّه تعالىٰ؛ تبتغي بذٰلك وجهه وحده ﷻ.

□ قال الإمام الزَّرنوجي: «كم من عمل يَتصور بصورة أعمال الدنيا، ويصير بحسَن النية من أعمال الآخرة! وكم من عمل يتصور بصورة أعمال الآخرة ثم يصير من أعمال الدنيا بسوء النية!.

فينبغي أن ينوي المتعلم بطلب العلم رضاء اللَّه والدار الآخرة، وإزالة

---

(١) كلام الذهبي في «الموقظة» (ص٨٦٥ ـ ط: حلب).
والحديث صحيح: أخرجه الدارمي في «سننه» (١/ ٦٥)، وأحمد في «المسند» (١/ ٤٣٧)، والترمذي (رقم ٢٦٥٧)، وابن ماجه (١/ ٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٣١)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (رقم ٢٤)، وصححه الترمذي والمناوي في «التيسير» (٢/ ٤٦٠)، والألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٦٧٦٥)؛ من حديث أنس وعبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنهم أجمعين.

(٢) «الفتوحات الإلٰهية» (١/ ٨٠)، و«مقامات المقربين» (٢/ ٨٥٨).

(٣) «الفتوحات الربانية» لابن علان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٥٦).

الجهل عن نفسه وعن سائر الجُهَّال، وإحياء الدِّين، وإبقاء الإسلام؛ فإن بقاء الإسلام بالعلم، وينوي به الشكر علىٰ نعمة العقل وصحة البدن، ولا ينوي به إقبال الناس عليه، ولا استجلاب حطام الدنيا والكرامة عند السلطان وغيره؛ فإنه يتعلم العلم بجهد كثير؛ فلا يصرفه إلىٰ الدنيا الحقيرة القليلة الفانية.

هي دنيا أقلُّ من القليل وعاشقها أذل من الذليل» اهـ[١].

◘ قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «المادح والذام عندي سواء».

قلت: وطلب العلم عزيز، وأعز منه الإخلاص.

◘ قال هشام الدستوائي: «واللَّهِ ما استطعت أن أقول: إني ذهبت يومًا قط أطلب الحديث أريد به وجه اللَّه عَزَّ وَجَلَّ».

◘ قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ معلِّقًا ـ : «ولا أنا! فقد كان السلف يطلبون العلم للَّه فَنبُلُوا وصاروا أئمةً يقتدىٰ بهم.

وطلبه قوم أولًا لا للَّهِ وحصلوه، ثم استفاقوا وحاسبوا أنفسهم، فجرَّهم العلم إلىٰ الإخلاص في أثناء الطريق؛ كما قال مجاهد وغيره: «طلبنا هٰذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق اللَّه النية بعد». ثم نشروه بنية صالحة.

وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا، وليُثنىٰ عليهم؛ فلهم ما نووا.

وقوم نالوا العلم ووَلُوا به المناصب فظلموا، وتركوا التقيد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش؛ فتباً لهم فما هٰؤلاء بعلماء» اهـ[٣].

قلت: ينبغي للعبد أن يحثيَ علىٰ رأسه ووجهه التراب، وأن يبكي الدم علىٰ نفسه؛ فأين نحن من هٰذا الكلام؟!.

◘ وهٰذا الإمام معروف الكرخي؛ كان يعاتب نفسه ويقول: «يا مسكين، كم

---

(١) «تعليم المتعلم» للزرنوجي (ص ٣٦).

(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (١/ ٦٨)، «شرح البخاري» لابن الملقن (٢/ ٤٧).

(٣) «السير» للذهبي (٧/ ١٥٢ ـ ط: الرسالة).

تبكي وتندب؟! أخلِص تَخلَص»[1].

فنسأل اللّٰه النجاة والعفو.

▫ كما قال بعضهم: «ما أنا عالم، ولا رأيت عالمًا».

وهٰكذا ينبغي أن نكون جميعًا!!.

▫ قال أبو داود الطيالسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما جاءني أحد من بغداد يطلب هٰذا الأمر للّٰه ـ يعني الحديث ـ ؛ إلا رجل واحد: بشرٌ الحافي؛ سألني حديثين، ثم انصرف»[2].

وأما حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إنما الأعمال بالنيات**»؛ فهو في الصحيحين: في البخاري (١/ ١٥) رقم (١)، كتاب بدء الوحي، وفي مسلم (٥/ ٥٣) كتاب الإمارة؛ وهو حديث فرد غريب، يرويه يحيىٰ بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن علقمة بن وقاص الليثي، عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولم يصح عنه ﷺ إلا بِهٰذا السند.

وقد ابتدأ به البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ «صحيحه» تصحيحًا للنية، وهٰذا منه في غاية الأدب والورع.

▫ قال الحافظ بدر الدين بن جَماعة[3]: «ووجه ابتدائه ـ مع بُعدِه عن معنىٰ الترجمة ـ : أنه ابتدأ الكتاب بحُسن القصد والنية لنفسه وللداخل فيه والشارع فيه؛ لأنه من أعظم العبادات، والإخلاص فيه أجدر. وفيه تحريض علىٰ قصد الإخلاص بالعبادات.

ولذٰلك ترجمه بحديث النية عملًا بالحديث فيه عند القيام من المجلس؛ فكأنه جعل كتابه مجلس علم ابتدأ فيه بنية خاصة؛ وختمه بالتسبيح المكفر

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٨/ ٤١٢)، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن (ص ٢١٦).

(٢) «المجالسة» للدينوري (رقم/ ٨١١ ـ ط الكتب العلمية بيروت).

(٣) «مناسبات تراجم البخاري» (ص ٢٨) لابن جماعة.

لما بينهما[١]» اهـ.

◻ وقال العلَّامة ابن الملقِّن رَحِمَهُ اللَّهُ: «بدأ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ بإخلاص القصد وختمه بالتسبيح حيث أورد في آخر صحيحه حديث: «كلمتان حبيبتان إلىٰ الرَّحمٰن»؛ لأن به تتعطر المجالس، وهو كفارة لما قد يقع من الجالس، واللَّه تعالىٰ يهدينا إلىٰ صراطه المستقيم»[٢].

◻ وقال الحافظ ابن حجر: «وقد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر هٰذا الحديث».

◻ قال أبو عبداللَّه: «ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنىٰ وأكثر فائدةً من هٰذا الحديث».

واتفق عبدالرَّحمٰن بن مهدي والشافعي ـ فيما نقله البويطي عنهما وعن أحمد وعلي بن المديني وأبي داود والتِّرمذي والدَّارَقُطْني وحمزة الكناني ـ علىٰ أنه ثلث الإسلام، ومنهم من قال: رُبعه. واختلفوا في تعيين الباقي.

◻ قال ابن مهدي: «يدخل في ثلاثين بابًا من العلم».

◻ وقال الشافعي: «يدخل في سبعين بابًا».

ويحتمل أن يريد بِهٰذا العدد المبالغة.

◻ وقال عبدالرَّحمٰن بن مهدي: «ينبغي أن يُجعل هٰذا الحديث رأس كل باب».

◻ وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «وهو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وكان السلف وتابعوهم من الخلف ـ رحمهم اللَّه تعالي ـ يستحبون استفتاح المصنفات بِهٰذا الحديث؛ تنبيهًا للمطالع علىٰ حسن النية، واهتمامه بذٰلك

---

(١) ذٰلك أن البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ ختم «صحيحه» بحديث: «كلمتان خفيفتانِ علىٰ اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلىٰ الرَّحمٰن: سبحان اللَّهِ وبحمده، سبحان اللَّهِ العظيم».

(٢) «شرح البخاري» لابن الملقن (٢/ ١٢٩ ـ ط: غراس).

(٣) «الفتوحات الربانية» لابن علَّان (١/ ٦٣).

والاعتناء به.

وقال عثمان بن سعيد: سمعت أبا عبيد يقول: جمع النبي ﷺ أمر الآخرة في كلمةٍ واحدة: «مَن أحدث في أمرنا هٰذا ما ليس منه فهو رد»[(١)]، وجمع أمر الدنيا في كلمة «إنما الأعمال بالنيات»[(٢)]؛ يدخلان في كل باب[(٣)].

□ قال ابن عَلَّان رَحِمَهُ اللَّهُ[(٤)]: «قال الحفاظ: لم يُرو هٰذا الحديث من طريق صحيح عن النبي ﷺ إلا عن عمر، ولم يروه عن عمر إلا علقمة، ولم يروه عن علقمة كذٰلك إلا التيمي، ولم يروه عن التيمي كذٰلك إلا يحيىٰ بن سعيد الأنصاري، وعنه اشتهر وتواتر؛ بحيث رواه عنه أكثر من مئتي إنسان أكثرهم أئمة.

وقال جماعة من الحفاظ: إنه رواه سَبْعُمئة إنسان؛ من أعيانهم: مالك والثوري والأوزاعي وابن المبارك وغيرهم.

وقد ثبت عن الحافظ أبي إسماعيل الهروي (الملقب بشيخ الإسلام) أنه كتب عن سبعمئة رجل من أصحاب يحيىٰ بن سعيد، فهو مشهورٌ بالنسبة إلىٰ آخره، غريب بالنسبة إلىٰ أوله، وما ورد من رواية نحو عشرين صحابيًّا له غير عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يصح منه شيء» اهـ.

قلت: ومن افتتح كتابه بِهٰذا الحديث غير البخاري: كثير من أهل العلم؛ منهم الإمام الهروي: في كتابه «الأربعين في دلائل التوحيد»، والعلامة ابن دقيق العيد: في كتابه «عمدة الأحكام»، والسيوطي: في «جامعه الصغير» والكَتَّاني: في كتابه «نظم المتناثر».

---

(١) رواه البخاري في «الصحيح» عن يعقوب بن إبراهيم، ورواه مسلمٌ عن محمد بن الصباح وغيره. البخاري رقم (٢٦٩٧) ومسلم (٦/ ٢٤٢) رقم (٤٤٦٧).

(٢) «فتح الباري» (١/ ١٥ ـ رقم١) و«التوضيح شرح الجامع الصحيح» لابن الملقن (٢/ ١٢٨).

(٣) «ذم الكلام» للهروي: (١/ ٢٩٦ ـ ط الغرباء بالسعودية)، و«جامع العلم والحكم» لابن رجب (١/ ٣٢ ـ ط: دار الصحابة بطنطا)، و«شرح البخاري» لابن الملقن (٢/ ١٩٧).

(٤) «الفتوحات الربانية» لابن علان (١/ ٥١).

□ ولذا قال ابن الملقن رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هٰذا الحديث عظيم الموقع، كثير الفائدة، أصل من أصول الدين، وهو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وقد نظمها بعضهم بقوله:

عُمدةُ الدينِ عندنا كلماتٌ ... أربعٌ من كلامِ خير البرية

اتقِ الشبهاتِ وازهد ودعْ ... ما ليس يعنيكَ واعملَنَّ بنية

وقال ابن دحية: لم أجد فيما أرويه من الدِّيْنِيَّات أنفعَ من قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»؛ إذ مدار العلم عليه، وهو نور يسعىٰ بين يديه».

قلتُ: رحم اللَّه عبدًا حفظ هٰذا الحديث وتفهمه، وعمل بما يدُل عليه من إخلاص النيَّة للَّه تعالىٰ في جميع أعماله وأحواله؛ حتىٰ الحركات والسكنات وكل شيء حتىٰ المباحات، ومن أهم صور الإخلاص: إخلاص النيَّة في طلب العلم الشرعي المنيف، ومراقبتها ودوام النظر إليها في جميع أحوالها، وتبصر اعوجاجها ـ إن حصل ـ، ومعاقبتها ومحاسبتها علىٰ الدوام؛ حتىٰ تصل إلىٰ ديارها ومنزلها من الآخرة وطلب رضا خالقها ورازقها جلَّ وعلا.

ونختم هٰذه النقطة بكلام قيم للإمام الماوردي:

□ حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنَّ لكُلِّ مطلوبٍ باعثًا، والباعثُ علىٰ المطلوب شيئان: رَغْبةٌ أو رَهْبة، فليكن طالبُ العِلْم راغبًا راهبًا؛ أمَّا الرَّغبة ففي ثواب اللَّه تعالىٰ لطالبي مَرْضاته، وحافظي مفترَضاته[2]، وأمَّا الرَّهْبة فمن عقاب اللَّه تعالىٰ لتاركي أوامره، ومُهمِلي زواجره، فإذا اجتمعتِ الرَّغبةُ في ثواب اللَّه، والرَّهبةُ من عقاب اللَّه؛ أدَّتا إلىٰ كُنْهِ العلمِ وحقيقة الزُّهد؛ لأنَّ الرَّغبة أقوىٰ الباعِثَيْن علىٰ العلم، والرَّهبةَ أقوىٰ السببين في الزُّهد»[3]، واللَّهُ المستعان.

---

(١) «شرح البخاري» لابن الملقن (٢/ ١٩٦ : ١٩٨ ـ ط: غراس).

(٢) المفترَضات: الفرائض.

(٣) «آداب الدين والدنيا» (ص: ١١١ ـ ط: دار ابن الجوزي بالدمام).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلا شيء يُحَطِّمُ العِلم مثل الرياء: رياء شرك، أو: رياء إخلاص.

○ ○ ○

الشرح:

▫ قال الإمام القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحقيقة الرياء: أن يعمل الطاعة للَّه وللناس ويسمي: رياء الشرك، وللناس خاصةً؛ وَيُسَمَّىٰ: رياء الإخلاص، وكلاهما يُصيِّر الطاعة إلىٰ معصية»[1]. نعوذ باللَّهِ.

▫ ويقول ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن العمل لغير اللَّه علىٰ أقسام:

ـ فتارةً يكون رياءً محضًا؛ لا يقصد به إلَّا مُراءاة المخلوقين؛ لتحصيل غرض دنيوي، وهٰذا لا يكاد يصدر عن مؤمن، ولا شك أنه يحبط العمل، وأن صاحبه يستحق المَقْت والعقوبة.

ـ وتارةً يكون العمل للَّه ويشاركه الرياء، فإن شاركه الرياء من أصله: فإن النصوص الصحيحة تدل علىٰ بطلانه؛ وإن كان أصل العمل للَّه ثم طرأ عليه نية الرياء ودفعه صاحبه؛ فإن ذٰلك لا يضره بغير خلاف.

وقد اختلف العلماء من السلف في الاسترسال في الرياء الطارئ: هل يُحبِط العمل أو لا يضر فاعله ويُجازىٰ علىٰ أصل نيته» اهـ.

▫ وذكر ابن قدامة: «أن إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت فُضيل بن عياض ليلة وهو يقرأ سورة محمد ﷺ ويبكي، ويردد هٰذه الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد]، وجعل يقول: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾!! ويردد ويقول: وتبلوا أخبارنا؟! إن بلوت أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا، إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا.

---

(١) «الذخيرة» للقرافي (١/ ٤٥).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي (١/ ٥٤، ٥٥ ـ ط: دار الصحابة بطنطا).

وسمعته يقول: تزينَت للناس، وتصنَّعَت لهم، وتَهيأَت لهم، ولم تزل تُرائي حتىٰ عرفوك فقالوا: «رجل صالح»! فقضوا لك الحوائج، ووسعوا لك في المجلس، وعظموك!! خيبة لك ما أسوأ حالك إن كان هٰذا شأنك!.

وسمعته يقول: إن قدرت ألَّا تُعرف فافعل، وما عليك ألَّا تُعرف، وما عليك إن لم يُثْنَ عليك، وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس؛ إذا كنت عند اللَّه محمودًا؟»[1].

□ وقال معمر بن راشد: «كان يقال: إن الرجل يطلب العلم لغير اللَّه ﷻ، فيأبىٰ عليه العلمُ حتىٰ يكون للَّه».

□ قال الإمام الذهبي ـ معلِّقًا ـ: «نعم؛ يطلبه أولًا والحامل له حب العلم، وحب إزالة الجهل عنه وحب الوظائف ونحو ذٰلك، ولم يكن عَلِمَ وجوب الإخلاص فيه ولا صِدْق النية، فإذا حاسب نفسه وخاف من وبال قصده، فتجيئه النية الصالحة كلها ـ أو بعضها ـ، وقد يتوب من نيته الفاسدة ويندم، وعلامة ذٰلك: **أن يقصِّر من الدَّعاوىٰ وحب المناظرة، ومِن قصدِ التكثُّر بعلمه، ويزري علىٰ نفسه؛ فإن تَكثَّر بعلمه وقال: «أنا أعلم من فلان»: فبُعْدًا له»**[2].

□ وقال صاحب «الإحياء» رَحِمَهُ اللَّهُ: «عِماد الأعمال النيَّات، والعملُ مفتقرٌ إلىٰ النيَّة ليصير بها خيرًا، والنيَّة في نفسها خيرٌ ـ وإن تعذَّر العمل بعائق ـ، فينبغىٰ للعبد عند شروعه في العمل أن يَتفَقَّد كيفية العمل ليقضي حق اللَّه تعالىٰ فيه؛ فيحسن النية فيه وفي إتمامه، ويكمل صورته، ويتعاطاه علىٰ أكمل ما يمكنه ويلازم هٰذا في جميع أحواله؛ فإنه لا يخلو في جميع أحواله من حركةٍ وسكونٍ، فإذا راقب اللَّه تعالىٰ في جميع ذٰلك قَدَرَ علىٰ عبادة اللَّه تعالىٰ فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب» اهـ[3].

---

(١) «كتاب التوابين» لابن قدامة (ص ٢٠٨).

(٢) «السير» للذهبي (٧/ ١٧).

(٣) «الإحياء» للغزالي (٩/ ١٩، ١٥٢، ٩٠٠ ـ ط: دار المنهاج السعودية).

قلت: فلابُدَّ ـ أيها الطالب ـ من جودة الإخلاص حتىٰ تَخْلَص، ثُم إدامة الدعاء لسيِّدك أن يُيَسِّر لك أعمالك الصالحة؛ عَلَّهُ يُنَجِّيكَ مِنْ هَمِّ الدنيا والآخرة.

◘ فقد قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلك علامةٌ تستأنس بها وتَصدُقُ رجائك بسببها، وهو أن تنظر إلىٰ أحوالك وأعمالك؛ فإن كُلًّا ميسَّرٌ لما خُلِقَ له؛ فإن كان قد يُسِّرَ لك سبيل الخير فأبشر؛ فإنك مُبْعَدٌ عن النار ـ بإذن اللَّه ـ، وإن كنت لا تقصد خيرًا إلَّا وتُحيط بك العوائق فتدفع، ولا تقصد شرًّا إلَّا وتتيسر لك أسبابه؛ فاعلم أنك مَقْضِيٌّ عليك؛ فإن دلالة هٰذا علىٰ العاقبة كدلالة المطر علىٰ النبات، ودلالة الدخان علىٰ النار؛ فقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار]، فاعرض نفسك علىٰ الآيتين، وقد عرفت مستقرك من الدَّارين» اهـ[1].

◘ وهٰذا قول العلَّامة ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا حضرتَ مجلس علم؛ فلا يكن حضورك إلَّا حضور مستزيدٍ علمًا وأجرًا؛ لا حضور مستغنٍ بما عندك، طالب عَثرة تُشنِّعها أو غريبةٍ تشيعها؛ فهٰذه أفعال الأراذل من الناس الذين لا يفلحون في العلم أبدًا، فإذا حضرتها علىٰ هٰذه النية فقد حصَّلت خيرًا علىٰ كل حالٍ، فإن لم تحضرها علىٰ هٰذه النية؛ فجلوسك في منزلك أروح لبدنك، وأكرم لخُلقك، وأسلم لدينك.

فإذا حضرتها ـ كما ذكرنا ـ فالتزم أحد ثلاثة أوجه ـ لا رابع لها ـ، وهي:

ـ إما أن تسكت سكوت الجُهَّال، فتحصل أجر النية في المشاهدة وعلىٰ الثناء عليك بقلة الفضول، وعلىٰ كرم المجالسة ومودة من تجالس، فإن لم تفعل:

ـ فاسأل سؤال المتعلم، فتحصل علىٰ هٰذه الأربع المحاسن، وعلىٰ خامسة وهيٰ: استزادة العلم.

---

(١) «الإحياء» (٩/ ١٥٢ ـ ط: دار المنهاج).

وصفة سؤال المتعلم: أن تسأل عما لا تدري ـ لا عما تدري ـ ؛ فإن السؤال عما تدريه سُخف وقلة عقل، وشغب لكلامك، وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك، وربما أدىٰ إلىٰ اكتساب العداوات، وهو بَعدُ عين الفضول؛ فيجب عليك ألَّا تكون فضوليًّا؛ فإنها صفة سوء، فإن أجابك الذي سألت بما فيه كفايةٌ لك فاقطع الكلام، وإن لم يجبك بما فيه كفاية، أو أجابك بما لا تفهم فقل له: «لم أفهم»، واستزده، فإن لم يزدك بيانًا وسكت، أو أعاد عليك الكلام الأول ولا مزيد، فأمسك عنه، وإلَّا حصلت علىٰ الشر والعداوة، ولم تحصل علىٰ ما تريده من الزيادة.

ـ الوجه الثالث: أن تراجع مراجعة العالم، وصفة ذٰلك: أن تعارض جوابه بما ينقده نقدًا بيِّنًا، فإن لم يكن ذٰلك عندك، ولم يكن عندك إلا تكرار قولك، أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضةً، فأمسك؛ فإنك لا تحصل بتكرار ذٰلك علىٰ أجرٍ زائد، ولا علىٰ تعليم ولا علىٰ تعلُّم؛ بل الغيظ لك ولخصمك، والعداوة التي ربما أدَّت إلىٰ المضرات.

وإياك وسؤال المتعنِّت، ومراجعة المكابر الذي يطلب الغلبة لغير علم؛ فهما خُلقا سوء، ودليلان علىٰ قلة الدين، وكثرة الفضول، وضعف العقل، وقوة السخف، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل» اهـ[1].

□ وقال الإمام العَلَم الرَّبَّاني القُدوة عبدُالقَادِر الجَيلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن آفات النفس: ركونها إلىٰ استجلاب المدح والذِّكر الطَّيب وثناء الخَلق عليها، وقد تحتمل أثقال العبادات لذٰلك، ويستولي عليها النفاق والرياء، وعلامة ذٰلك: رجوعها إلىٰ الكسل، والفشل عند انقطاع ذٰلك عنها، وذم الناس لها.

واعلم أنه لا يتبين لك آفات نفسك وشِرْكِهَا ودعواها وكَذِبِهَا؛ إلا عند الامتحان في مواطن دعواها، وعند الموازنة لها؛ لأنها تتكلم بكلام الخائفين ما لم تضطر إلىٰ الخوف، وإذا احتجت إليها في مواطن الخوف وجدتها آمنة.

---

(١) «مداواة النفوس» لابن حزم (ص/ ١١٣ : ١١٥ ـ ط: دار العقيدة).

وربما تقول قول الأبرار ما لم تُمْتَحَن بالتقوىٰ، وإذا طالبتها بشروط التقوىٰ وجدتها مُرائيةً معجِبة، وتصف وصف العارفين ما لم تحتج إلىٰ الغاية، فإذا طلبت منها ذٰلك وجدتها كذابة.

وتدَّعي دعوىٰ الموقنين ما لم تُمْتَحن بالإخلاص، وتزعم أنها من المتواضعين ما لم يحل بها خلاف هواها عند الغضب، وتدَّعي السخاء والكرم والإيثار والبذل والغنىٰ ـ وغير ذٰلك من الأخلاق الحميدة ـ تمنيًا ورعونةً وحمقًا، وحقيقتها: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]، ولو كان ثَمَّ صدق وإخلاص وصح منها القول؛ لَمَا أظهرت التزين للخَلْق الذين لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا» اهـ[١].

□ وهٰذا عين قول سيد المُحَدِّثين الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عند الصَّباح يَحْمَدُ القوم السُّرَىٰ، وعند الممات يَحْمَدُ القوم التقىٰ»[٢].

□ وقال الإمام القُدوة الطُّوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في كتابه الماتع القيم «اللُّمَع»[٣] ـ: «بل يجب علىٰ العبد ـ في كل لحظة وخطرة ـ أن يعلم أيش قصده وإرادته وخاطره؛ فإن كان حقًّا من الحقوق فواجب عليه أن يلزمه، وإن كان حظًّا من الحظوظ فواجب عليه مجانبته، والله الهادي.

والعلم مقرون عندهم بالعمل، والعمل مقرون بالإخلاص، والإخلاص أن يريد العبد بعلمه وعمله وجه الله تعالىٰ.

فمن ترك حالًا من هٰذه الأحوال ما تركها إلَّا من غلبة الغفلة علىٰ قلبه؛ نسأله السلامة.

وهٰذا الطريق لابد فيه من بذل الروح وتلَف النفس، واختيار الموت علىٰ الحياة، وإيثار الذُّل علىٰ العِز، واستحباب الشِّدة علىٰ الرَّخاء؛ طمعًا في

(١) «الغُنية» للإمام القدوة عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ٥١٧ ـ ط: التوفيقية).
(٢) «الحلية» لأبي نعيم (١٠/ ١٥) و«إتحاف السادة» للزبيدي (١٠/ ١٢٧).
(٣) «اللُّمع» (ص/ ١٨، ٦، ١٢، ١٤٢، ١٤٣ ـ طبعة: ليدن أوروبا).

الوصول إلىٰ المراد، وألَّا يريد إلَّا ما يريد خالقه ﷻ.

والناس في الأدب علىٰ ثلاث طبقات:

ـ فأما أهل الدنيا: فأكثر آدابهم الفصَاحة والبلاغة، وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب.

ـ وأما أهل الدِّين: فإن أكثر آدابهم في تأديب الجوارح، وطهارة الأسرار، وحفظ الحدود، وترك الشهوات، واجتناب الشبهات، وتجريد الطاعات والمسارعة إلىٰ الخيرات؛ كما قال سهل بن عبداللَّه التُّستري الإمام العابد: «إن القوم استعانوا باللَّه علىٰ أمر اللَّه، فصبروا علىٰ أدب اللَّه تعالىٰ».

ـ وأما أهل الكمال: فإن أكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعُقود بعد العُهود، وحفظ الوقت، وقِلَّة الالتفات إلىٰ الخواطر، واستواء السِّر عندهم والإعلان، مع حُسن الأدب في مواقف الطَّلَب، وحفظ مقامات القُرب عند روائح نعيم الأُنس بِربهم ﷻ، **فكلمة الأدب عندهم: أن تعامل اللَّه تعالىٰ بكل أدب سِرًّا وإعلانًا؛ فإذا كنت كذٰلك كنت أديبًا وإن كنت أعجميًّا**» اهـ.

□ وكان بعض الصالحين يقول: «عجبتُ للخليقة! كيف أرادت بك بدلًا منك»(١).

فإياك ـ أيها الطالب ـ من دبيب صور الرياء: رياء الإخلاص، ورياء الشرك؛ فتلك مَهلكتان قلَّما ينجو منهما أحد، فلابُد من مراقبة القلب وخطراته وسكناته، وفكره وجولانه؛ حتىٰ لا تقع، والمعصوم من تضرَّع إلىٰ مولاه بالنجاة من تلك العقبات المهلكة، والسعيد من أخلص اللُّجأ إلىٰ سيده وخالقه في أحواله كلها، واللَّه الموفق والمعين.

---

(١) «الحلية» لأبي نعيم (٦/ ١٩٥) وكتاب «التهجد» لابن أبي الدنيا (رقم/ ٤١٤).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعليه؛ فالتزم التخلص من كل ما يشوبُ نيتك في صدق الطلب؛ كحب الظهور، والتفوق علىٰ الأقران، وجعله سُلَّمًا لأغراض وأعراض، من جاه، أو مال، أو تعظيم، أو سمعة، أو طلب محمدة، أو صرف وجوه الناس إليك؛ فإن هٰذه وأمثالها إذا شابت النيةَ أفسدتها، وذهبت بركة العلم، ولهٰذا يتعين عليك أن تحميَ نيتك من شَوب الإرادة لغير اللَّه تعالىٰ؛ بل وتحمي الحمىٰ.

○ ○ ○

الشرح:

مراد الشيخ هنا العلم الذي لا ينفع.

□ وقد قال ابن رجب[١]: «وعلامة العلم الذي لا ينفع: أن يُكسب صاحبه الزهو والفخر والخُيلاء، وطلب العلو والرِّفعة في الدنيا والمنافسة فيها، وطلب مباهاة العلماء، ومماراة السفهاء، وصرف وجوه الناس إليه.

وقد ورد عن النبي ﷺ: أنَّ من طلب العلم لذٰلك فالنار النار[٢].

وربما ادَّعىٰ أصحاب هٰذه العلوم معرفة اللَّه وطلبَه، والإعراض عما سواه، وليس غرضهم بذٰلك إلا طلب التقدم في قلوب الناس من الملوك وغيرهم، وإحسان ظنهم بهم، وكثرة أتْباعهم، والتعظيم بذٰلك علىٰ الناس.

---

(١) كتاب «فضل علم السلف علىٰ علم الخلف» (ص ٧٩ : ٨٣ ـ ط: دار البشائر الإسلامية).

(٢) يشير ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ حديث جابر بن عبد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: **«لا تعلَّموا العلم لِتُباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس؛ فمن فعل ذٰلك فالنار النار»**، وفيه ابن جريج وأبو الزبير وهما مدلسان ولم يصرحا بالتحديث. وحسَّنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (رقم٦٣٨٢). أخرجه ابن حبان (٢٩٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٢٦٩)، والآجري في «أخلاق العلماء» (ص/ ٨٤)، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٨٨)، وابن عبدالبر في «جامع العلم» (١/ ١٨٧)، بتحقيق شيخنا العلامة أبي الأشبال ـ حفظه اللَّه ـ.

ومن ذٰلك ـ أيضًا[1] ـ : عدم قبول الحق والانقياد إليه، والتكبُّر علىٰ من يقول الحق؛ خصوصًا إن كان دونهم في أعين الناس، والإصرار علىٰ الباطل خشية تفرق قلوب الناس عنهم بإظهار الرجوع إلىٰ الحق، وربما أظهروا بألسنتهم ذم أنفسهم واحتقارها علىٰ رؤوس الأشهاد؛ ليَعتقد الناس فيهم أنهم عند أنفسهم متواضعون، فيُمدَحون بذٰلك، وهو من دقائق أبواب الرياء؛ كما نبه عليه التابعون فمن بعدهم من العلماء.

ويَظهر منهم قبول المدح واستجلابُه مما ينافي الصدق والإخلاص؛ فإن الصادق يخاف النفاق علىٰ نفسه، ويخشىٰ علىٰ نفسه سوء الخاتمة؛ فهو في شُغُلٍ شاغل من قبول المدح واستحسانه، **فلهٰذا كان من علامات أهل العلم النافعَ: ألَّا يرون لأنفسهم حالًا ولا مقامًا، ويكرهون بقلوبهم التزكية والمدح، ولا يتكبرون علىٰ أحدٍ.**

قال بعض السلف[2]: «ينبغي للعالم أن يضع التراب علىٰ رأسه تواضعًا لربه؛ فإنه كلما ازداد علمًا بربه ازداد خشيةً ومحبةً، وازداد له ذُلًا وانكسارًا».

وقال الإمام الكبير سَهلٌ التُّستَري: «المعرفة هي: المعرفة بالجهل».

أي: بجهل العبد علىٰ الدوام بحق اللَّه، وأن العلم ما علَّمهُ اللَّه إيَّاه، فلزم الافتقار إلىٰ اللَّه علىٰ الدَّوام، **فمن صح له الافتقار إلىٰ اللَّه، صح له الغنىٰ باللَّه بلا ريب.**

ومن علامات العلم النافع: أنه يَدُلُّ صاحبه علىٰ الهرب من الدنيا، وأعظمها الرياسة والشهرة والمدح، فالتباعد عن ذٰلك والاجتهاد في مجانبته من علامات العلم النافع. فإن وقع شيء من ذٰلك ـ من غير قصد واختيار ـ كان صاحبه في خوفٍ من عاقبته، بحيث أنه يخشىٰ أن يكون مكرًا واستدراجًا،

---

(١) أي: من علامات العلم الذي لا ينفع.

(٢) هو قول أيوب السختياني، أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٧١٦) وفي المدخل (٥٠٩) وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (١/ ٥٦٦) رقم (٩٥٢) والخطيب في «الفقيه» (٢/ ١١٣) وصححه شيخنا.

كما كان الإمام أحمد يخاف ذٰلك علىٰ نفسه عند اشتهار اسمه وبُعد صيته.

ومن علامات العلم النافع: أن صاحبه لا يدعي العلم، ولا يفخر به علىٰ أحد، ولا يَنسب غيره إلىٰ الجهل؛ إلا من خالف السنة وأهلها؛ فإنه يتكلم فيه غضبًا للَّهِ؛ لا غضبًا لنفسه، ولا قصدًا لرفعتها علىٰ أحد.

وأما من علمه غير نافع فليس له شغل سوىٰ التكبُّر بعلمه علىٰ الناس، وإظهار فضل علمه عليهم، وهٰذا من أقبح الخصال وأردئها، وربما نسب من كان قبله من العلماء إلىٰ الجهل والغفلة والسهو، فيوجب له حب نفسه وحب ظهورها، وإحسان ظنه بها وإساءة ظنه بمن سلف.

وأهل العلم النافع علىٰ ضد هٰذا؛ يسيئون الظن بأنفسهم، ويحسنون الظن بمن سلف من العلماء، ويُقِرون بقلوبهم وأنفسهم بفضل من سلف عليهم، وبعجزهم عن بلوغ مراتبهم والوصول إليها أو مقاربتها.

وكان ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ إذا ذكر أخلاق من سلف ينشد:

لا تعرضنَّ لذِكرنا في ذكرِهم ... ليس الصحيح إذا مشىٰ كالمقعدِ

▫ وقال الإمام ابن الحاج العبدري: في «مدخله»[1]: «فالحاصل من هٰذا كله: أن الفرق الذي وقع بيننا وبين سلفنا في غالب أحوالنا، إنما هو من أجل هٰذه النية التي احتوت عليها سويداء القلوب؛ إذ أنَّا نُصلي كما يصلون، ونصوم كما كانوا يصومون، وافترقنا لأجل افتراق النيات؛ فبعضنا يكون افتراقه كثيرًا، وبعضنا يكون افتراقه قليلًا بحسب الأحوال.

فمن له عقل ينبغي له ـ أو يجب عليه بحسب حاله ـ أن يصلح ما وقع من خللٍ في نفسه بنفسه؛ فيُحَسِّن نيته، ويزيل عنها الشوائب، ثم يُنميها ما استطاع جهدَه، ويلجأُ في ذٰلك كله إلىٰ مولاه، ويستغيث به؛ علَّه يمُنُّ عليه ويُلحقه بسلفه الكرام» اهـ.

---

(١) «المدخل» لابن الحاج (١/ ٢٠ ـ ط: دار الفكر).

هٰذا هو العلم النافع.

وَمَنْ علمه غير نافع: إذا رأىٰ لنفسه فضلًا علىٰ من تقدَّمه في المقال وتشقق الكلام، ظن عليهم فضلًا في العلم أو الدرجة عند اللَّه لفضلٍ خُص به عمن سبق، فاحتقر من تقدَّمه، وازدرىٰ عليه بقلة العلم، ولا يعلم المِسكين أن قلة كلام من سلف إنما كان ورعًا وخشيةً للَّه، ولو أرادوا الكلام وإطالته لما عجزوا عن ذٰلك.

▫ قال مسروق بن الأجدع (١): «بحسب الرجل من العلم أن يخشىٰ اللَّه ﷻ، وبحسب الرجل من الجهل أن يعجب بعلمه».

▫ وقال سعيد بن جبير(٢): «قال لي مسروق: ما بقىٰ شيء يُرْغَبُ فيهِ إلَّا أن نُعَفِّرْ وجُوهَنا بالتراب، وما آسىٰ علىٰ شيء إلَّا السجود للَّه تعالىٰ».

▫ وقال الإمام البيهقي(٣): «اعلم أن أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار، وذٰلك خطر عظيم، والسلامة في الخمول، وأهل العلم لم يقصدوا الشهرة، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها، فإن وقعت من قِبَلِ اللَّه تعالىٰ فرُّوا عنها، وكانوا يؤثرون الخمول.

والمذموم: طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة اللَّه تعالىٰ من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن وجودها فتنةٌ علىٰ الضعفاء، فإن مَثَلَ الضعيف كالغريق القليل الصنعة في السباحة؛ إذا تعلق به أحد غَرِقَ وَغرَّقه، فأما السابح النحرير فإن تعلُّق الغرقىٰ به سبب لنجاتِهم وخلاصهم» اهـ.

أقول لك ـ أخي طالب العلم ـ هامسًا في أُذنيك: أرأيت مَن ضاع مِن

---

(١) رواه أبو خيثمة في «العلم» (رقم ١٥، ٤٦) بسند صحيح، وذكره الذهبي في «السير» (٤/ ٦٨ ـ ط: الرسالة، «وأخلاق العلماء» للآجري (ص/ ٩٣) (رقم ٤٧).

(٢) «السير» الذهبي (٧/ ٦٦) ترجمة مسروق.

(٣) «الزهد الكبير» (ص/ ١٢٢) و«النُبَذ في آداب طلب العلم» لحمد بن إبراهيم العثمان.

العلماء وطلبة العلم؛ مِن أي شيء ضاع؟ ضاع مِن الادِّعاء وحُب الشهرة والمال، ولا تأتي هٰذه الأمراض إلَّا من سوء القصد، ثُم سوء المشرب ـ أي التربية ـ ، فمع سوء القصد رُزِقَ بعلماء سوء، فبنوا له بُنيانًا عظيمًا مزخرفًا وهمًا، فانهار عليه قبل طلوع النهار، فلا زال في ظُلمات إلىٰ مماته.

يا خسارة!!.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وللعلماء في هٰذا أقوالٌ ومواقف، بيَّنتُ طرفًا منها في المبحث الأول من كتاب «التعالم»، ويزاد عليه نهي العلماء عن «الطُّبُوليات»؛ وهي المسائل التي يراد بها الشهرة، وقد قيل: «زلَّة العالِم مضروبٌ لها الطبل»[(١)].

○ ○ ○

الشرح:

الطبوليات هي: المسائل التي ليست فيها فائدةٌ للعبد لا دنيا ولا آخرة، واشتُهرت وأُذيعت بين الناس لا يُراد بها إلا التسميع والشُّهرة وتبيين النفس.

فالطبل: لا يُسمَعُ منها إلا الصوت والثرثرة، كذٰلك المسائل والعلوم التي لا فائدة منها إلَّا تضيع الوقت وذهاب بركة العلم والعُمر وتشتيت الذهن، فلا تشغل نفسك إلَّا بما ينفعها في الدنيا والآخرة من العلوم الشرعية الصافية؛ المأخوذة من كتاب اللَّه وصحيح سُنَّة رسول اللَّه ﷺ علىٰ فهم أهل القرون الأولىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

▫ وعن تميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «اتقوا زلَّة العالم. فسأله عمر مع ابن عباس، فقال له: ما زلة العالِم؟ فقال: العالم يَزِلُّ بالناس فيؤخذ به؛ فعسىٰ أن يتوب والناس يأخذون به»[(٢)].

نعم؛ زلة العالم إذا أخطأ أو لم يُصب بعد اجتهاده؛ ربما فرح بذٰلك كثير من الجهلةِ مدَّعي العلم، وأذاعوا خبره، وهم لا يعلمون أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة اللَّه في هتك أستار منتقصيهم معلومة، لأن الوقيعة فيهم بما

---

(١) **«الصوارم والأسنّة» لأبي مدين الشنقيطي السلفي. وانظر «شرح الإحياء» وعنه «كنوز الأجداد» (ص/ ٢٦٣).**

(٢) أخرجه البيهقي في «المدخل» (٢/ ٢٨٩، رقم ٨٣٧)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ١٤٥).

هم منه براء أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم، والاختلاق علىٰ من اختاره اللَّه منهم لإنعاش العلم خلق ذميم، والاقتداء بما مدح اللَّه به قول المتبعين من الاستغفار لمن سبقهم وصفٌ كريم، إذ قال مثنيًا عليهم في كتابه وهو بمكارم الأخلاق وضدها عليم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]»[١].

فلا تفرح ـ يا هٰذا ـ بمثل ذاك، وترحم عليهم؛ فإن لم تترحم عليهم فترحم علىٰ نفسك بفواتها الأدب.

▫ قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وطلب الحديث مضبوط بالاتفاق، والأخذ عن الأثبات الأئمة، فكيف لو رأىٰ سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ طلبة الحديث في وقتنا وما هم عليه من الهنات والتخبيط، والأخذ عن جهلة بني آدم وتسميع ابن شهر:

أمــا الخـيامُ فكأنهــا كخـيامِهم ... وأرىٰ نساء الحي غير نسائهم»[٢].

▫ قال الآجُرِّي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تدبر هٰذه الخصال فعرف أن فيه بعض ما ذكرنا، وجب عليه أن يستحي من اللَّه، وأن يسرع الرجوع إلىٰ الحق»[٣].

▫ وقد قال الفقيهُ أبو المنصور ـ فتحُ بن عليٍّ الدِّمياطيُّ ـ في قصيدةٍ له، منها:

أَيُّهَــا العَــالِمُ إِيَّــاكَ الــزَّلَلْ ... وَاحْـذَرِ الهَفْـوَةَ فَالخَطْـبُ جَلَـلْ
هَفْــوَةُ العَــالِمِ مُـسْتَعْظَمَةٌ ... إِنْ هَفَـا أَصْـبَحَ في الخَلْـقِ مَـثَلْ
وَعَلَــىٰ زَلَّــتِهِ عُمْــدَتُهُمْ ... فِـيهَا يَحْـتَجُّ مَـنْ أَخْطَـأَ وَزَلْ
لا تَقُــلْ يَــسْتُرُ عِلْمِــي زَلَّتِــي ... بَـلْ بها يَحْصُلُ في العِلْـمِ الخَلَـلْ

---

(١) كلام ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ في «تبيين كذب المفتري» (ص/ ٤١ ـ ط: دار الجيل).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٦٤).

(٣) «أخلاق العلماء» للآجري (ص/ ١١٨ ـ ط: أضواء السلف).

إنْ تَكُـــنْ عِـــنْدَكَ مُـــسْتَحْقَرَةً ... فَهِـيَ عِـنْدَ اللَّـــه وَالـنَّاسِ جَبَلْ

لَـــيْسَ مَـــنْ يَتْـبَعُهُ العَـــالِمُ فِـــي ... كُـلِّ مَـــا دَقَّ مِـــنْ الأَمْـــرِ وَجَـــلْ

مِـــثْلَ مَـــنْ يَدْفَـــعُ عَـــنْهُ جَهْلُـــهُ ... إنْ أَتَـــىٰ فَاحِـــشَةً قِـــيلَ جَهِـــلْ

أُنْظُـــرْ الأَنْجُـــمَ مَهْمَـــا سَـــقَطَتْ ... مَـــنْ رَآهَـــا وَهْـــيَ تَهْـوِي لَـــمْ يُـبَلْ

فَـــإذَا الـــشَّمْسُ بَـــدَتْ كَاسِـــفَةً ... وَجِـــلَ الخَلْـــقُ لَهـــا كُـــلَّ الـوَجَلْ

وَتَـــرَامَتْ نَحْـــوَهَا أَبْـــصَارُهُمْ ... فِـــي انْـزِعَاجٍ وَاضْـطِرَابٍ وَزَجَـــلْ

وَسَـــرَىٰ الـنَّقْصُ لَهُـمْ مِـنْ نَقْـصِهَا ... فَغَـــدَتْ مُظْلِمَـــةً مِـــنْهَا الـــسُّبُلْ

وَكَـــذَا العَـــالِمُ في زَلَّـــتِهِ ... يَفْـــتِنُ العَـــالَمَ طُـــرًّا وَيُـــضِلْ

يُقْـــتَدَىٰ مِـــنْهُ بِمَـــا فِـــيهِ هَفَـــا ... لا بِمَـــا اسْتَعْـــصَمَ فِـــيهِ وَاسْـــتَقَلْ

فَهُـــوَ مِلْـــحُ الأَرْضِ مَـــا يُـصْلِحُهُ ... إنْ بَـــدَا فِـــيهِ فَـــسَادٌ أَوْ خَلَـــلْ[1]

---

(١) «المدخل» لابن الحاج المالكي (١/ ١١٢ ـ ١١٣).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعن سفيان: «كنتُ أوتيتُ فهم القرآن، فلما قبلت الصُرَّة سُلبتُه».

○ ○ ○

الشرح:

سفيان هو ابن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ، الحافظ الجهبذ العلَّامة شيخ المُحَدِّثين.

وكلامه يشير إلىٰ أن العالم إذا دخلت عليه الدنيا وقبلها؛ ربما أذهبت بعضَ المنن والفتوحات التي يفتحها اللَّه عليه في فهم النصوص ودقائقها وعلومها وبلاغتها وفصاحتها، فيتأسف لذٰلك.

▫ وقد ذكر ابن الجوزي: في «صيد خاطره»[1]، وابن جماعة في «تذكرة السامع»[1] هٰذا الأثر عن سفيان بن عيينة قال: «كنت أوتيتُ فهم القرآن؛ فلما قَبِلتُ الصُّرة من أبي جعفر سُلبته؛ فنسأل اللَّه المسامحة».

▫ وقال مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: «وجَّه إليَّ هارون الرشيد يسألني أن أحدثه فقلت: يا أمير المؤمنين، إن العلم يؤتىٰ ولا يأتي. قال: فصار إلىٰ منزلي، فاستند معي علىٰ الجدار، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن من إجلال اللَّه إجلالَ ذي الشيبة المسلم. قال: فجلس بين يدي. قال: فقال لي بعد مدة: يا أبا عبداللَّه، تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وتواضع لنا علم سفيان بن عيينة فلم ننتفع به»[2].

▫ وقال محمد بن حسان: «شهدت فضيلًا ابن عياض في مجلس سفيان ابن عيينة، فتكلم فضيل فقال: أنتم ـ يا معشر العلماء ـ سُرُج البلاد يُستضاء بكم، فصرتم ظُلمةً، كنتم نجومًا يُهتدىٰ بكم فصرتم حَيرةً، لا يستحي أحدكم

(١) «صيد الخاطر» (ص٢٥٢)، «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (ص١٩).

(٢) «الحث علىٰ طلب العلم» للعسكري (ص/ ٩٩، ١٠٠ ـ ط: المكتب الإسلامي).

أن يأخذ مال هٰؤلاء ـ وقد علم من أين هو ـ ، حتىٰ يسند ظهره فيقول: حدَّثني فلان عن فلان! فرفع سفيان رأسه فقال: هاه! هات، واللَّهِ إن كنا لسنا بصالحين إنا نحب الصالحين، فسكت فضيل، وطلب إليه سفيان فحدثنا ثلث الليلة ثلاثين حديثًا»[١].

◻ وقال أبو الهلال العسكري[٢]: «أَمَرَ الرشيد أبا يوسف القاضي بأن يجمع له أصحاب الحديث فيحدثوه وولده، فجمع له أهل الكوفة فحضروا إلا عبداللَّه بن إدريس الأودي، وعيسىٰ بن يونس السَّبيعي، فإنهما أبيا أن يحضرا، فركب إليهما الأمين والمأمون، فحدثهما عبدُاللَّه بن إدريس بمئة حديث، فلما فرغ قال له المأمون: أتأذن لي أن أقرأها عليك من حفظي؟ فقال: إن شئت، فوضع الكتاب من يده، وقرأها بأسانيدها من حفظه، وعرض عليه المأمون مالًا فلم يقبل، وسأله المأمون أن يبعث إليه بطبيب يداويه من جراحةٍ به فأبىٰ، وقال: يشفيني الذي أمرضني.

وحدثهما عيسىٰ بن يونس، فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم، فقال: **لا أقبل علىٰ حديث رسول اللَّه ﷺ شربة ماء**، فزاده المأمون عشرة آلاف أخرىٰ فلم يقبلها، وقال: **لو ملأت هٰذا المسجد لي ذهبًا لم أقبله**».

◻ وقال السمعاني[٣]: «قرأت بخط هبة اللَّه السقطي: أن ابن الدجاجي كان ذا وجاهةٍ وتقدُّمٍ وحالٍ واسعة، وعهدي به وقد أخنىٰ[٤] عليه الزمان، وقصْدُتُه في جماعة لنسمع منه وهو مريض، فدخلنا وهو علىٰ باريَّة ـ أي حصيرةٍ ـ ، وعليه جبةٌ قد حرقت النار فيها، وليس عنده ما يساوي درهمًا، فحَمل علىٰ نفسه حتىٰ قرأنا عليه بحسب شَرَهِ أهل الحديث، فلما خرجنا قلتُ: هل

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٢٤).

(٢) «الحث علىٰ طلب العلم» لأبي الهلال العسكري (ص/ ٨٧ ـ ٨٩)، و«صفة الصفوة» لابن الجوزي (٣/ ١٠١)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ٢٥٩).

(٣) «السير» للذهبي (٨/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤) والمنتظم (٨/ ٢٧١) باختصار.

(٤) أخنىٰ: أفحش.

معكم ما نصرفه إلىٰ الشيخ؟ فاجتمع له نحو خمسة مثاقيل، فدعوت بنتَه وأعطيتها، ووقفت لأرىٰ تسليمها له، **فلما أعطته لطم حُرَّ وجهه**، ونادىٰ: **وا فضيحتاه! آخذ علىٰ حديث رسول الله ﷺ عِوضًا!! لا واللَّهِ، ونهض حافيًا إليَّ، فأعدت الذهب إليهم فتصدقوا به**».

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فاستمسك ـ رحمك اللَّه تعالىٰ ـ بالعُروة الوثقىٰ العاصمة من هٰذه الشوائب؛ بأن تكون ـ مع بذلِ الجَهد في الإخلاص ـ شديد الخوف من نواقضه، عظيم الافتقار والالتجاء إليه سبحانه.

ويؤثَر عن سفيان بن سعيد الثوري ـ رحمه اللَّهُ تعالىٰ ـ قوله: «ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نيتي»[١].

○ ○ ○

❁ الشرح:

نعم: لابد لطالب العلم من مراقبة الإخلاص والنية دائمًا وأبدًا، فإن الأحوال تتقلب، والأمور تتغير، وكل يوم نحن في حالٍ!!! فالإخلاص الإخلاص، ولابد من بذل الجهد فيه.

◻ قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عرضتُ قولي علىٰ عملي إلَّا خشيت أن أكون مُكذَّبًا»[٢].

◻ وقال حفص بن ماهان: «كنا في مجلس سفيان بن عيينة، فقام إليه رجل فقال: يا أبا محمد، ناشدتك باللَّهِ: أطلبت هٰذا العلم يوم طلبته للَّه؟ فأعرض سفيان، ففعل ذٰلك ثلاثًا، فقال سفيان: اللهم لا، إنما طلبناه تأدُّبًا وتظرفًا، فأبىٰ اللَّه إلَّا أن يكون له»[٣].

◻ وجاء رجل إلىٰ سفيان الثوري ـ وهو في مجلسه بعد العصر، وحوله

---

(١) **أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص/ ٧٩) بسند صحيح، وابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٢ ـ ط دار الصحابة)، و«الدر النضيد» للغزي (ص/ ٤٥).**

(٢) «شرح السنة» للالكائي (٤/ ٨٤٧ ـ ط دار طيبة).

(٣) «المحدث الفاصل» للرامهرمزي (رقم ٣٨) (ص/ ١٨٣ ـ ط دار الفكر).

أصحاب الحديث ـ، فقال له: «يا شيخ، ما يمنعك أن تنشر ما عندك وتحدِّث به هٰؤلاء؟ فقال سفيان: لو علمتُ الذي يطلب هٰذا للَّه لٰكنت آتيه في منزله حتىٰ أحدثه»[١].

□ قال أبو داود الطيالسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما جاءني أحدٌ من بغداد يطلب هٰذا الأمر للَّه ـ يعنىٰ الحديث ـ إلا رجل واحد ـ هو بشر بن الحارث الحافي ـ؛ سألني حديثين ثم انصرف»[٢].

□ وقال جعفر بن حيان: «ملاك هٰذه الأعمال النيات؛ فإن الرجل يبلغ بنيته ما لا يبلغ بعمله»[٣].

أَخْلِصْ أَخْلِصِ النية للَّهِ، وارتَحْ.

---

(١) السابق (رقم ٤٢) (ص/ ١٨٤)

(٢) «المجالسة» وجواهر العلم للدينوري (رقم/ ٨١١ ـ ط: العلمية بيروت).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٨٩) بسند صحيح، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٧٢) رقم (٨٠٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعن عمر بن ذرٍّ أنه قال لوالده: «يا أبي! مالك إذا وعظت الناس أخذهم البكاء، وإذا وعظهم غيرُك لا يبكون؟ فقال: يا بني! ليست النائحةُ الثكلىٰ مثل النائحة المستأجرة»[1]. وفقك اللَّه لرشدك؛ آمين.

○ ○ ○

الشرح:

أحسب أن هنا خطأً في الرواية؛ فعند أبي نعيم في «الحلية»[2] أن ذرًّا قال لأبيه عمر بن ذر: «ما بالُ المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت ـ يا أبت ـ سمعتُ البكاء من هاهنا؟ فقال يا بني، ليست النائحة المستأجرة كالنائحة الثكلىٰ».

فهٰذا كلام ذر لأبيه عمر بن ذر، وليس الكلام من عمر بن ذر لأبيه، واللَّه أعلم.

والنائحة الثكلىٰ هي صاحبة البلوىٰ، فتبكي علىٰ بلوتها حقيقةً، والنائحة المستأجرة هي التي تتصنع البكاء، وقد أَخَذَت علىٰ ذٰلك أُجرةً، ولم تكن صاحبةَ البلوىٰ.

- وكان زياد بن أبي سفيان يقول: «إذا خرج الكلام من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الآذان»[3].

- وقال سوار: «كلام القلب يقرع القلب، وكلام اللسان يمر علىٰ القلب صفحًا»[4].

---

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه (١/ ٣٢٦)

(٢) «الحلية» (٥/ ١١٠ ـ ١١١) (رقم ٣٠٨).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٧٠) (١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧).

(٤) المصدر السابق.

□ وقال مالك بن دينار: «إن العالم إذا لم يعمل زَلَّت موعظته عن القلوب كما يَزِلُّ القَطْرُ عن الصفا»[١].

□ وقال الإمام القدوة الطُّوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل مَن لا يُزهِدك لَحْظُهُ عن لَفْظِهْ، لم يُغْنِكَ وعْظُهُ عَن لَفْظِهِ»[٢].

□ قلت: وقيل: «منَ لا ينفعك لَحْظُه، لا يَنفعك لَحْظَة!!».

□ وقال الصيرفي ـ عن مجلس أبي سعدِ القشيري أيضًا ـ: «وصار مجلسه روضةً للحقائق والدقائق، وكلماته مَحْرَقَةً للأكباد والقلوب، ومواجيده مقطرةَ الدماء من الجفون مكان الدموع، ومَفطرة الصدور بالتخويف والتقريع»[٣].

□ وقال أبو الحسن الباخرزي ـ عن مجلس وعظ القشيري ـ: «لو قرع الصخر بسوطِ تحذيره لذاب، ولو رُبط إبليس في مجلسه لتاب[٤]»[٥].

---

(١) ذكره أحمد في «الزهد» (٢/ ٣٠٤)، والخطيب في «الاقتضاء» (ص/ ٩٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٢) بسند صحيح، وصححه شيخنا أبو الأشبال ـ حفظه اللَّه ـ.

(٢) «اللمع» للإمام الطوسي طاووس الفقراء رَحِمَهُ اللَّهُ (ص/ ٢٩٥ ـ ط: أوروبا).

(٣) «المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور» (ص/ ٣٠٩)، ترجمة عبد اللَّه بن عبد الكريم بن هوزان القشيري.

(٤) هٰذا ـ كما لا يخفىٰ ـ علىٰ سبيل المبالغة، وإلا فقد قضىٰ رب العالمين علىٰ إبليس ألَّا يتوب.

(٥) «دمية القصر» (٢/ ٩٩٣) و«السير» للذهبي (١٨/ ٢٢٨).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الخصلة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة: محبة اللَّه تعالىٰ، ومحبة رسوله ﷺ، وتحقيقها بتمحُّض المتابعة، وقَفْو الأثر للمعصوم. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

وبالجملة؛ فهٰذا أصل هٰذه «الحلية»، ويقعان منها موقع التاج من الحُلَّة.

○ ○ ○

الشرح:

اعلم ـ أخي الحبيب ـ أن محبة اللَّه تعالىٰ ومحبة رسوله ﷺ من أعظم ما يحبُّه اللَّه ويرضاه؛ فلهٰذا شَمَّر لها المشمرون، وتسابق عليها المتسابقون، وتنافس فيها المتنافسون، وأطاع لأجلها الطائعون؛ فيا لها من عِزَّةٍ ليس بعدها عِزة، وشرف ما بعده شرف، أن تُحب اللَّه ورسوله كما يرضىٰ اللَّه ورسوله ﷺ: **«ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سَواهُما...»** الحديث[1].

◻ قال أبو عليٍّ بن الكاتب: «روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتموها، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفَوها، وتدل عليهم وإن ستروها»[2].

◻ وقال محمد بن حامد الترمذي: «لم يجد أحد تمام الهمة بأوصافها إلَّا أهل المحبة، وإنما وجدوا ذٰلك من الاتباع للسنة ومجانبة البدعة، فإن رسول اللَّه ﷺ كان أعلىٰ الخلقِ هِمة وأقربهم زُلفة».

واعلم أن محبة اللَّه تعالىٰ تنشأ تارةً من معرفته، وكمال معرفته تحصل

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» مع «الفتح» (١/ ٧٧) (رقم ١٦)، ومسلم (رقم/ ٤٣).

(٢) «طبقات الصوفية» للسلمي (ص/ ٢٩٣).

من معرفة أسمائه وصفاته وأفعاله الباهرة والتفكر في مصنوعاته وما فيها من الإتقان والحِكَم والعجائب؛ فإن ذٰلك كله يدل علىٰ كماله وقدرته وحكمته وعلمه ورحمته، وتارةً تنشأ من مطالعة النعم.

ومحبة اللَّهِ علىٰ درجتين:

ـ إحداهما فرض؛ وهي: المحبة المقتضية لفعل أوامره الواجبة، والانتهاء عن زواجره المحرمة، والصبر علىٰ مقدوراته المؤلمة؛ فهٰذا القدر لابد منه في محبة اللَّه.

□ كما قال بعض العارفين: «من ادعىٰ محبة اللَّه ولم يحفظ حدوده؛ فهو كاذب».

فمن وقع في ارتكاب شيء من المحرمات، أو أخل بشيء من فعل الواجبات؛ فلتقصيره في محبة اللَّه؛ حيث قدم محبة نفسه وهواه علىٰ محبة اللَّه، فإن محبة اللَّه لو كملت لمنعت من الوقوع فيما يكرهه، وإنما يحصل الوقوع فيما يكرهه اللَّه لنقص محبته الواجبة في القلوب، وتقديم هوىٰ النفس علىٰ محبته؛ وبذٰلك ينقص الإيمان.

ـ والدرجة الثانية من المحبة ـ وهي فضل مستحب ـ : أن ترتقي المحبة من ذٰلك إلىٰ التقرب بنوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق الشبهات والمكروهات، والرضا بالأقضية المؤلمة.

□ كما قال عامر بن عبدِ قيس: «أحببتُ اللَّه حُبًّا هَوَّن عليَّ كل مصيبة، ورضَّاني بكل بلية؛ فما أبالي ـ مع حبي إيَّاه ـ علىٰ ما أصبحت ولا علىٰ ما أمسيت»[١].

---

(١) «الحلية» لأبي نعيم (٢/ ٨٩).

وكتاب «الحلية» عندي عظيم النفع جليل القدر، كم تمنيت من اللَّه أن أخدمه خدمةً عظيمةً كخدمة سير الذهبي، وهو عندي ـ أي الحلية ـ أعظم بكثير من «السير»؛ حتىٰ إنه من عظيم شأنه أنه كان يباع بأغلىٰ الأثمان في حياة الحافظ أبي نعيم، وكانت تشد له الرحال علىٰ مر =

◻ وقال عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أصبحت وما لي سرور إلَّا في مواقع القضاء والقدر».

◻ ولما مات ولده الصالح قال: «إن اللَّه أحب قبضه، وأعوذ باللَّه أن تكون لي محبة تخالف محبة اللَّه».

◻ وقال صاحب «الإحياء» رَحِمَهُ اللَّهُ: «فما حال مَن لا يفرح إلَّا بالدنيا؛ فتؤخذ منه الدنيا وتسلَّم إلىٰ أعدائه، ثم ينضاف إلىٰ هٰذا العذاب تحسُّره علىٰ ما فاته من نعيم الآخرة والحجاب عن اللَّه تعالىٰ؛ فإن حُب غير اللَّه يحجبه عن لقاء اللَّه تعالىٰ والتنعم به، فيتوالىٰ عليه ألم فِراق جميع محبوباته وحسرته علىٰ ما فاته من نعيم الآخرة أبد الآباد، وذل الرد والحجاب عن اللَّه تعالىٰ؛ وذٰلك هو العذاب الذي يُعَذَّب به؛ إذ لا يتبع نارَ الفراق إلا نارُ جهنم؛ كما قال تعالىٰ ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين].

وأما من لم يأنس بالدنيا، ولم يحب إلا اللَّه، وكان مشتاقًا للقاء اللَّه تعالىٰ؛ فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها، وقَدِم علىٰ محبوبه، وانقطعت عنه العوائق والصوارف، وتوفر عليه النعيم؛ مع الأمن عن الزوال أبد الآباد، و﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات]» اهـ[1].

◻ وقال الإمام القدوة الطُّوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحال القرب من اللَّه تعالىٰ عندهم اقتضىٰ حالين:

- فمنهم من يغلب علىٰ قلبه الخوف من نظره إلىٰ عظمة ربه عَزَّ وَجَلَّ.
- ومنهم من يغلب علىٰ قلبه المحبة.

والأمران علىٰ حسب ما قسم اللَّه للقلوب من التصديق وحقيقة اليقين والخشية، وذٰلك لقوة التفكر في الغيوب حتىٰ تصير كأنها مشاهدة:

فإن شاهد قلبه في قربه من سيده ومولاه عظمتَه وهيبتَه وقدرته؛ فيؤديه

= الأزمنة لسماع روايته.

(١) «إحياء علوم الدين» للغزالي (٩/ ٤٩٢).

ذٰلك إلىٰ الخوف والحياء والوجل والخشية.

وإن شاهد قلبه في قربه لطفَ سيده وقديمَ عطفه وإحسانه له، أدَّاه ذٰلك إلىٰ المحبة والشوق والقلق، وذٰلك بعلمه ومشيئته وقدرته، ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام].

ـ والشوق إلىٰ لقاء اللَّه تعالىٰ لعبدٍ قد تبرم ببقائه شوقًا إلىٰ لقاء محبوبه، فمنهم من اشتاق إلىٰ ما أعد اللَّه تعالىٰ لأولياءه من الثواب والكرامه والفضل والرضوان.

ـ ومنهم من اشتاق إلىٰ محبوبه من شدة محبته وتبرمه ببقائه شوقًا إلىٰ لقائه؛ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ـ ومنهم من شاهد قرب سيده أنه حاضر لا يغيب؛ فتنعم قلبه بذكره وشكره والأنس به علىٰ كل الأحوال، حبَّذا نعيم الأحباب وشوق المحبين إلىٰ وجهه الكريم» اهـ[1].

□ وقال الإمام القدوة الشِّبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ صَوْت المُحب من أَلمِ الشوق وخوف الفِراق يورث ضُرًّا، صابَرَ الصبر فاستغاث به الصبر، فصاح المحب بالصبر: صَبرًا.

عبـراتٌ خطَّطْـنَ في الخَـدِّ سـطرَا قـد قـرأها مـن لـيس يُحسنُ يقـرا».

وأما محبة رسوله ﷺ:

فتنشأ عن معرفة كماله وأوصافه وعظيم ما جاء به، وينشأ ذٰلك من معرفة مُرسِلِه وعظمته، فإن محبة اللَّه لا تتم إلَّا بطاعته، ولا سبيل إلىٰ طاعته إلَّا بمتابعة رسوله ﷺ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

* وهي علىٰ درجتين ـ أيضًا ـ :

---

(١) «اللمع» للطوسي (ص/ ٦٤ ـ ط: ليدن).

ـ إحداهما فرض: وهي ما اقتضىٰ طاعته في امتثال ما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نَهىٰ عنه من المحرمات، وتصديقه فيما أخبر به من المخبرات، والرضا بذٰلك، وألَّا يجد في نفسه حرجًا مما جاء به ويسلم تسليمًا، وألَّا يتلقىٰ الهُدىٰ من غير مِشكاته.

ـ والدرجة الثانية: فضل مندوب إليه، وهي ما ارتقىٰ بعد ذٰلك إلىٰ اتباع سننه وآدابه وأخلاقه، والاقتداء به في هديه وسمته وحسن معاشرته لأهله وإخوانه، وفي التخلق بأخلاقه الظاهرة في الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، وفي جوده وإيثاره وصفحه وحلمه واحتماله وتواضعه، وفي أخلاقه الباطنة؛ من كمال خشيته للَّهِ، ومحبته له، وشوقه إلىٰ لقائه، ورضاه بقضائه، وتعلق قلبه به دائمًا، وصدق الالتجاء إليه تعالىٰ والتوكل عليه، ودوام لهج القلب واللسان بذكره والأُنس به، والتنعم بالخلوة بمناجاته ودعائه، وتلاوة كتابه بالتدبر والتفكر.

وبالجملة، فكان خلقه ﷺ القرآن؛ يرضىٰ لرضاه، ويسخط لسخطه، فأكمل الخلق مَن حقَّق متابعته وتصديقه قولًا وعملًا وحالًا ﷺ[(١)].

ومن محبته ﷺ ـ أيضًا ـ عند ذكره: أن يخضع، وأن يخشع ويتوقر، ويُسَكِّن من حركته، ويأخذ من هيبته ﷺ وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ﷺ.

وقد كان مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)] إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني؛ حتىٰ يصعب ذٰلك علىٰ جلسائه، فقيل له يومًا في ذٰلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليَّ ما ترون، لقد كنت أرىٰ محمد بن المنكدر ـ وكان سيد القُرَّاء[(٣)] ـ لا تكاد تسأله عن حديث أبدًا إلَّا يبكي حتىٰ نرحمه.

---

(١) من كلام ابن رجب الحنبلي في شرحه «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١/ ٥١ : ٥٤ ـ ط: دار الحرمين).

(٢) «القول البديع» للسخاوي (ص/ ٢٤٤).

(٣) القرَّاء: العلماء ـ علىٰ مصطلح السلف الصالح ـ.

ولقد كنت أرىٰ جعفر بن محمد ـ وكان كثير الدعابة والتبسم ـ ، فإذا ذُكِر عنده النبي ﷺ اصفر! وما رأيته يحدث عن رسول اللَّه ﷺ إلَّا علىٰ طهارة.

ولقد كان عبدُالرَّحمٰن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فننظر إلىٰ لونه كأنه نزف منه الدم وقد جف لسانه في فِيهِ هيبةً لرسول اللَّه ﷺ.

ولقد كنت آتي عامر بن عبدِاللَّه بن الزبير؛ فإذا ذكر عنده رسول اللَّه ﷺ يبكي حتىٰ لا يبقىٰ في عينه دموع.

ولقد رأيت الزهري ـ وكان من أهنأ الناس وأقربهم ـ ، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك وما عرفته.

ولقد كنت آتي صفوان بنَ سُليم ـ وكان من المتعبدين المجتهدين ـ ؛ فإذا ذكر النبي ﷺ بكىٰ؛ فلا يزال يبكي حتىٰ يقوم الناس عنه ويتركوه.

وكنا ندخل علىٰ أيوب السَّختياني؛ فإذا ذكر له حديث رسول اللَّه ﷺ بكىٰ حتىٰ نرحمه» اهـ .

□ وقال الإمام إبراهيم بن الجنيد[1]: «علامة المحب علىٰ صدق محبته ست خصال:

أحدها: دوام الذكر بقلبه بالسرور بمولاه

والثانية: إيثار محبة سيده علىٰ محبة نفسه ومحبة الخلائق.

والثالثة: الأنس به والاستثقال لكل قاطع يقطع عنه أو شاغل يشغل عنه.

والرابعة: الشوق إلىٰ لقائه والنظر إلىٰ وجهه.

والخامسة: الرضا في كل شدة وضُر ينزل به.

والسادسة: اتباع رسوله ﷺ».

□ وقال الفيروز آبادي[2] رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومتىٰ بطلت مسألة المحبَّة بطلت جميع

---

(١) «استنشاق نسيم الأُنس» لابن رجب (ص/ ٨٤ ـ ط: دار الصحابة).

(٢) «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (٢/ ٤٢٠ ـ ٤٢١) للفيروز آبادي.

مقامات الإيمان والإحسان، وتعطَّلت منازلُ السَّيْر، فإنها رُوح كلِّ مَقَام ومنزلةٍ وعمل، فإذا خلا منها فهو ميِّت، ونسبتها إِلىٰ الأعمال كنسبة الإخلاص إِليها؛ بل هي حقيقة الإخلاص؛ بل هي نفس الإسلام؛ فإِنَّه الاستسلام بالذُّل والحُبِّ والطَّاعة للَّهِ، فمن لا محبَّة له لا إسلام له البتَّة».

والأسبابُ الجالبة للمحبة عشرة:

الأول: قراءة القرآن بالتَّدبُّر، والتفهُّم لمعانيه، ومعرفةُ مراد اللَّه منه.

الثاني: التَّقرُّب إِلىٰ اللَّه تعالىٰ بالنَّوافل بعد الفرائض؛ فإنها توصِّل إِلىٰ درجة المحبوبيَّة بعد المحبَّة.

الثالث: دوام ذكره علىٰ كلِّ حال ـ باللِّسان والقلب والعمل والحال ـ؛ فنصيبه من المحبَّة علىٰ قدر نصيبه من هٰذا الذكر.

الرابع: إيثار مَحَابِّه علىٰ محابِّك عند غلبات الهوىٰ.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها[1]، وتقلُّبه في رياض هٰذه المعرفة ومباديها؛ فمن عرَف اللَّه ـ بأَسمائه وصفاته وأَفعاله ـ أَحبَّه لا محالة.

السادس: مشاهدة بِرِّه وإحسانه ونِعمه الظَّاهرة والباطنة.

السابع ـ وهو من أَعجبها ـ: انكسار القلب بكُلِّيَّته بيْن يديه.

الثامن: الخَلْوةُ به وقت النُّزول الإلٰهي لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقالب والقلب بين يديه، ثم خَتْم ذٰلك بالاستغفار والتَّوبة.

التَّاسع: مجالسة المحبِّين والصَّادقين، والتقاطُ أَطايب ثمرات كلامهم، وألَّا يتكلم إلَّا إذا ترجَّحت مصلحةُ الكلام، وعَلِم أَنَّ فيه مزيدًا لحالِه.

العاشر: مباعدة كلِّ سبب يحول بين القلب وبين اللَّه ﷻ.

فمن هٰذه الأسباب وصل المحبُّون إلىٰ منازل المحبَّة، ودخلوا علىٰ

---

(١) أي: مشاهدة آثارِها في الكون.

الحبيب.

◻ ومن قيم كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا شيء أطيب للعبد ولا ألذ ولا أهنأ ولا أنعم لقلبه وعيشه؛ من محبة فاطره وباريه، ودوام ذكره، والسعي في مرضاته؛ وهٰذا هو الكمال الذي لا كمال للعبد بدونه، وله خُلِق الخلق، ولأجله نزل الوحي وأرسلت الرسل، وقامت السماوات والأرض، ووجدت الجنة والنار، ولأجله شرعت الشرائع، ووضع البيت الحرام.

وعلىٰ هٰذا الأمر العظيم أسست الملة، ونصبت القبلة، وهو قطب رحىٰ الخلق والأمر؛ الذي مدارهما عليه، ولا سبيل إلىٰ الدخول إلىٰ ذٰلك إلا من باب العلم؛ فإن محبة الشيء فرع عن الشعور به. وأعرفُ الخلق باللَّه أشدهم حبًّا له؛ فكل من عرف اللَّه أحبه» اهـ.

قلت: هنيئًا للمحبين الذين يُحبُّون ربَّهم جل وعلا، وهنيئًا لمن أحب رسول اللَّه ﷺ خير البرية وسيد البشرية، جعلنا اللَّه منهم بفضله ورحمته.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيا أيها الطلاب، ها أنتم هٰؤلاء تربعتم للدرس، وتعلقتم بأنفس عِلْقٍ «طلب العلم»، فأوصيكم ونفسي بتقوىٰ اللَّه تعالىٰ في السر والعلانية، فهي العُدة، وهيٰ مهبط الفضائل، ومتنزَّلُ المحامد، وهيٰ مبعثُ القوة، ومعراج السمو، والرابط الوثيق علىٰ القلوب عن الفتن، فلا تفرِّطوا.

○ ○ ○

الشرح:

ما أجملها وما أعذبَها من نصيحة! وما أحلاها وما أنفعها لمن عمل بها!.

▫ قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالتقوىٰ جماع الخيرات، وحقيقة الاتقاء: التحرز بطاعة اللَّه من عقوبته، يقال: اتقىٰ فلان بتُرسه، وأصل التقوىٰ: اتقاء الشرك، ثم المعاصي والسيئات ثم اتقاء الشبهات ثم بعد ذٰلك ترك الفضلات»[1].

▫ وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وأحسن ما قيل في تفسير الآية: إنه إنما يتقبل اللَّه عمل من اتقاه في ذٰلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه علىٰ موافقة أمره، وهٰذا إنما يحصل بالعلم، وإذا كان هٰذه منزلة العلم وموقعه؛ عُلم أنه أشرف شيء وأجَلُّه وأفضله»[2].

▫ وقال رجلٌ لزهير بن محمد البابي: «أوصني، قال: أوصيك بتقوىٰ اللَّه؛ لأَن تتقيَ اللَّه أحب إليَّ من أن يكون لي وزن هٰذه الأسطوانة[3] ذهبًا أنفقه في سبيل اللَّه ﷻ، واللَّهِ لوددت أن جسمي قُرِّضَ بالمقاريض، وأن هٰذا الخلق أطاعوا اللَّه ﷻ»[4].

---

(١) «الرسالة القشيرية» للقشيري (ص/ ١٠٥ ـ ط: دار الخير).

(٢) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٤٥ ـ ط: دار ابن حزم بتحقيق فوَّاز أحمد زمرلي).

(٣) **الأسطوانة**: أحد أعمدة المسجد.

(٤) «الحلية «لأبىٰ نعيم (١٠/ ١٤٧)، و«المجالسة» للدينوري (١/ ٢٢٠) (٤٧٧).

□ ولما كانت فتنةُ ابن الأشعث، قال طلق بن حبيب: «اتقوها بالتقوىٰ. فقيل له: صف لنا التقوىٰ، فقال: العملُ بطاعةِ اللَّه، علىٰ نورٍ من اللَّه، رجاءَ ثواب اللَّه. وترك معاصي اللَّه علىٰ نورٍ من اللَّه، مخافةَ عذابِ اللَّه»(١).

□ قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ معلِّقًا(٢) ـ: «قلتُ: أبدعَ وأوجز، فلا تقوىٰ إلَّا بعمل، ولا عمل إلَّا بتَروٍّ من العلمِ والاتباع، ولا ينفع ذٰلك إلَّا بالإخلاص للَّه، ولا ليقال: فلانٌ تاركٌ للمعاصي بنور الفقه؛ إذ المعاصي يفتقر اجتنابُها إلىٰ معرفتها، ويكون التركُ خوفًا من اللَّه، لا ليُمدح بتركها، فمن داوم علىٰ هٰذه الوصية فقد فاز» اهـ.

□ وقال رجل لداود الطائي(٣): «أوصني، فدمعت عيناه، ثم قال: يا أخي، إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلةً مرحلةً؛ حتىٰ ينتهي ذٰلك إلىٰ آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في كل يوم مرحلة زادًا لما بين يديها فافعل، فإنَّ انقطاع السفر عن قريب ما هو، والأمر أعجل من ذٰلك، فتزود لسفرك، واقض ما أنت قاضٍ من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك، وما أعلم أحدًا أشد تضييعًا مني لذٰلك». ثم قام وتركه. اهـ.

□ وأنشد محمد بن أبي علي الأصبهاني لبعضهم(٤):

اعمل بعلمِكَ تغنمْ أيها الرجلُ ... لا ينفعُ العلمُ إن لم يحسُنِ العملُ
والعلمُ زينٌ وتقوىٰ اللَّهِ زينتُه ... والمتقون لهم في علمِهم شغلُ

وقال ﷺ: «اتقِ اللَّهَ حيثما كنت»(٥).

---

(١) «الحلية» لأبي نعيم (٣/ ٦٤)، و«السير» للذهبي (٤/ ٦٠١).
(٢) «السير» للذهبي (٤/ ٦٠١ ـ ط: الرسالة).
(٣) «اقتضاء العلم للعمل» للخطيب البغدادي (ص١١٠) (رقم ١٩٣) بتحقيق الألباني.
(٤) السابق (ص/ ٣٨) (رقم ٤٧).
(٥) حسنه الترمذي في سننه برقم (١٩٨٧)، وحسنه الذهبي، والمُناوي في «فيض القدير» (١/ ١٢١)، والألباني في «الروض النضير» (رقم ٨٥٥) و«صحيح الجامع» (رقم ٩٧). وذكر ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٤٦) (رقم ٨٢٥ ـ ط دار الصحابة) أن فيه =

□ وقال إمام الحرمين اليافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فانظر ـ رحمك اللَّه ـ إلىٰ تقوىٰ هٰؤلاء السادة، وتشبَّهْ بهم إن أردت نيل السعادة. ومن نحىٰ نحوهم ونَهج نَهجهم وصار علىٰ دربهم فهو السعيد حقًّا.

فعن السيد الجليل ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه رجع من خراسان إلىٰ الشام لردِّ قلم استعاره من هناك، ورجع ابن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بيت المقدس إلىٰ البصرة لردِّ تمرةٍ، وقالت أُختُ بِشْر الحافي للإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّا نغزل علىٰ سطوحنا فتمُر بنا مشاعلُ السلطان؛ فهل يجوز لنا الغزل علىٰ شعاعها؟ فقال لها الإمام: مَن أنتِ ـ عافاك اللَّه ـ ؟ قالت: أخت بشر الحافي، فبكىٰ أحمد وقال: من بيتكم يخرج الورع الصادق؛ لا تغزلي في شعاعها».

قلت: حُق لنا ـ واللَّه ـ البكاء علىٰ أنفسنا، كم بيننا وبين القوم! واللَّه بيننا وبين القوم مفاوزُ تنقطع فيها أعناق المَطِي، فاللهم عفوَك ومسامحتك، كثر منا الادِّعاء، وقد علمنا أنك تجبُر كسر المنكسرين؛ فاجبُر كسرنا، وارحم ضعفنا.

□ قال جعفرٌ الخلدي: «إن ما بين العبد وبين الوجود: أن تسكن التقوىٰ قلبه، فإذا سكنت التقوىٰ قلبه نزلت عليه بركات العلم، وطُرِدت رغبة الدنيا عنه»[(٢)].

□ وقال الإمام داود الطائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «ما خرج عبد من ذُل المعاصي إلىٰ

= انقطاعًا بين ميمون ومعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
والحديث أخرجه الدرامي (٢٧٩١)، والحاكم (١/ ٥٤)، والترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٥/ ٢٣٦)، ووكيع في «الزهد» (١/ ٣١٨) (٩٤)، وهناد (٩٧٧) والطبراني في «الصغير» (١/ ١٩٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٧٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٠/ ٣٨٠) (٧٦٦٢)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٢٥)؛ من طرق عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شعيب، عن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وهو بمجموع طرقه حسن؛ لولا خشية الانقطاع. واللَّه أعلم.

(١) الإرشاد والتطريز للإمام اليافعي (ص/ ٩٠ ـ ط: دار المنهاج السعودية).

(٢) «طبقات الصوفية» للسلمي (ص/ ٣٢٩).

(٣) شرح الرسالة القشيرية لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري تلميذ ابن حجر(١/ ١٤٨ ـ دار الكتب =

عز التقوىٰ؛ إلا أغناه اللَّه تعالىٰ بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس».

= العلمية بيروت).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢ ـ كنْ سلفيًّا:

كنْ سلفيًّا علىٰ الجادة، طريق السلف الصالح من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فمن بعدهم ممن قفىٰ أثرهم في جميع أبواب الدين، من التوحيد، والعبادات، ونحوها، متميزًا بالتزام آثار رسول اللَّه ﷺ، وتوظيفِ السنن علىٰ نفسك، وترك الجدالِ والمراء، والخوض في علم الكلام، وما يجلب الآثام، ويصد عن الشرع.

قال الذهبي رحمه اللَّهُ تعالىٰ[1]: «وصح عن الدَّارَقُطْني أنه قال: ما شيء أبغض إليَّ من علم الكلام.

قلت[2]: لم يدخل الرجل أبدًا في علم الكلام ولا الجدال، ولا خاض في ذٰلك، بل كان سلفيًّا» اهـ.

○ ○ ○

الشرح:

السلفية: هي منهجنا وطريقتنا ودعوتنا، وحياتنا ومماتنا وكل شيء، وللَّه الفضل والمنة والهداية.

▫ قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «السلفية هي طريق النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه، السالمة من الشبهات والشهوات»[3].

▫ وقال الإمامُ العلَّامة السفاريني[4]: «المراد بمذهب السلف: ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان اللَّه عليهم وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم

(١) «السير» للذهبي (١٦/ ٤٥٧ ـ ط: الرسالة).

(٢) أي: الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) رسالة «غربة الدين» لابن رجب الحنبلي (ص/ ٥٧).

(٤) «لوامع الأنوار» للسفاريني (١/ ٢٠).

وأئمة الدين ممن شُهِدَ له بالإمامة وعُرِف عِظَمُ شأنه في الدين، وتلقىٰ الناس كلامهم خلفًا عن سلف دون من رُمِيَ ببدعة أو شُهِرَ بلقب غير مرضي؛ مثل الخوارج والمرجئة ونحو هٰؤلاء.

قلت: فمن التزم هٰذا المنهج ـ قولًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا ـ فهو سلفيٌّ ـ وإن تأخر به الزمان ونأىٰ به المكان ـ ، وبِهٰذا صرَّح الإمام السمعاني في «الأنساب»[١]، وابن الأثير في «مختصر اللباب»[٢].

□ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «أعلامُ الهدىٰ، ومصابيح الدجىٰ؛ الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم اللَّهُ من العلم والحكمة ما برزوا به علىٰ سائر أتباع الأنبياء ـ فضلًا عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم ـ ، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جُمعت حكمةُ غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة.

ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقصَ في العلم والحكمة ـ لا سيما العلم باللَّهِ وأحكام أسمائه وآياته ـ من هٰؤلاء الأصاغر[٤] بالنسبة إليهم؟! أم كيف يكون أفراخُ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان، وورثة المجوس والمشركين، وضلال اليهود والنصارىٰ والصابئين ـ وأشكالهم وأشباههم ـ : أعلم باللَّهِ من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان؟!» اهـ.

□ «فصحابة رسول اللَّه ﷺ ومن تبعهم هم أكمل الأمة عقولًا، وأشدها اتباعًا، وأقواها إيمانًا، وأزكاها علمًا، وأتمها فهمًا، وأنه لا كان ولا يكون بعد الأنبياء مثلهم في الإيمان والعلم والفهم والعمل، ومن المُحال الممتنع أن مَن هٰذه صفته يكون مَن بعده من الخلق أتم معرفةً بالحق، وأقعد بالفهم الصحيح منهم؟! فهٰذا مُحال»[٥].

---

(١) «الأنساب» (٣/ ٢٧٣).
(٢) «مختصر اللباب» (٢/ ١٢٦).
(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٩).
(٤) يقصد أهل البدع.
(٥) «فهم السلف الصالح» للدميجي ـ حفظه اللَّه ـ (ص/ ٨٤).

فالسلفيون هم: السلف الصالح، وهم أهل الحديث، وهم أهل الأثر، وهم الطائفة المنصورة، وهم الفرقة الناجية، وهم أهل السنة والجماعة، وهم أهل الاتباع، وهم نقاوة الناس، وهم السواد الأعظم، وهم أهل الحق والدراية، وهم المتمسكون بما كان عليه النبي ﷺ.

□ قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه[١]: «أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول اللَّه ﷺ، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة ضلالة».

□ وقال ابن قدامة المقدسي رحمه الله - صاحب «المغني» - في كتابه القيم «تحريم النظر في كتب أهل الكلام»[٢]: «ونحن علىٰ طريق سلَفِنا وجادَّة أئمتنا، وسنة نبينا ﷺ، ما أحدثنا قولًا، ولا زِدنا زيادة، بل آمَنَّا بما جاء، وأمْرَرْنَا كما جاء، وقلنا بما قالوا، وسكتنا عمَّا سكتوا عنه، وسلكنا حيث سلكوا؛ فهم أهل السُنَّة المتبعون للآثار، السالِكون الطريق، فما عليهم غضاضة، ولا يلحقهم عار، منهم العلماء العاملون، ومنهم الأولياء الصالحون، ومنهم الأتقياء والأبرار، والأصفياء والأخيار، أهل الولايات والكرامات، وأهل العبادات والاجتهادات، بذكرهم تزيَّن الكتب والدفاتر، وأخبارهم تحسِّن المحافل والمحاضر، تحيا القلوب بذكر أخبارهم، وتحصل السعادة باقتفاء آثارهم، بهم قام الدين وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، فهم أصحاب المقامات الفاخرة، ولهم شرف الدنيا والآخرة.

ومن نظر في كتب العلماء التي أُفردت لذكر الأولياء لم يجد فيها إلا مِنَّا، ومتىٰ نقلت الكرامات لم تنقل إلا عَنَّا، ومتىٰ أراد واعظ أو غيره يطيب مجلسه ويزينه زينه بأخبار بعض زهادنا، أو كرامات عُبَّادنا، أو وصف علمائنا، وعند ذكر صالحينا تنزل الرحمة، وتَطِيب القلوب، ويستجاب الدعاء، ويكشف البلاء».

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص/ ١٧١)، و«طبقات الحنابلة» لأبي يعلىٰ (١/ ٢٤١).

(٢) ص(٣٩، ٤٠، ٤٥، ٤٦).

▫ قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر»[١].

▫ وقال قدوة السلف والخلف عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قف حيث وقف القوم؛ فإنهم عن علم وقفوا، وببصر ناقد قد كفُّوا، وإنهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى، فلئن قلتم: «حَدَثَ بعدهم»، فما أحدثه إلا من سلك غير سبيلهم، ورَغِبَ بنفسه عنهم، ولقد تكلموا منه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصر، وما فوقهم مُحسِّر، لقد قصر عنهم قوم فجفَوا، وطَمح آخرون عنهم فغلَوا، وإنهم فيما بين ذلك لعلى هُدًى مستقيم، فإن لزمتم سنة نبيكم ﷺ، وقبلتم وصيته، وسلكتم طريق سلفكم، وتركتم الفضول؛ فكونوا على يقين من السلامة، وأبشروا بالفضل والكرامة والخلود في دار المقامة: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ الآية [النساء: ٦٩].

▫ وقال العلَّامة السُّحيمي[٢] ـ حفظه اللَّه ـ: «ولكن لمَّا تسمت بعض الطوائف المبتدعة أهلَ السنة ـ وهم ليسوا على معتقد أهل السنة والجماعة ـ، من هنا تسمى أهل السنة والجماعة بـ«السلفيين»، وأطلقوا على دعوتِهم الدعوة السلفية، فقيَّدوا اتباع الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان؛ ممن عُرف بتمسكه بالسنة والإمامة فيها، واجتناب البدعة والتحذير منها».

▫ وأما قول الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في الإمام الدَّارَقُطْني: «**لم يدخل الرجل أبدًا في علم الكلام ولا خاض في ذلك**»؛ فقد بينه تلميذ تلميذه[٣] الخطيب البغدادي بقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «[لم يكن] من متبعي الهوى، ومن أضلهم اللَّه عن سلوك سبيل

---

(١) «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ٨٦) للالكائي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) من كتاب «كن سلفيًّا على الجادة» للسُّحيمي (ص/ ١٤).

(٣) أي البَرقاني ـ تلميذ الدارقطني ـ عليهم رحمة اللَّه أجمعين.

الهدىٰ. ومن واضح شأنهم ـ الدال علىٰ خذلانهم ـ: صدوفهم[(١)] عن النظر في أحكام القرآن، وتركهم الحِجَاجْ بآياته الواضحة البرهان، واطراحهم السنن من ورائهم، وتحكمهم في الدين بآرائهم؛ فالحَدَث منهم منهومٌ بالغزل، وذو السن مفتونٌ بالكلام والجدل، قد جعل دينه غرضًا للخصومات، وأرسل نفسه في مراتع الهلكات، وَمَنَّاهُ الشيطان دَفْعَ الحق بالشبهات، إن عُرِضَ عليه بعض كتب الأحكام المتعلقة بآثار نبينا ـ عليه أفضل السلام ـ نبذها جانبًا، وولىٰ ذاهبًا عن النظر فيها، يسخر من حاملها وراويها، معاندةً منه للدين، وطعنًا علىٰ أئمة المسلمين، ثم هو يفتخر علىٰ العوام بذهاب عمره في درس الكلام، ويرىٰ جميعهم ضالِّين سواه، ويعتقد أن ليس ينجو إلا إياه بخروجه ـ زعم ـ عن حد التقليد، وانتسابه إلىٰ القول بالعدل والتوحيد[(٢)]، وتوحيده إذا اعتُبِرَ كان شِركًا وإلحادًا؛ لأنه يجعل للَّه من خلقه شركاءَ وأندادًا، وعدله عدولٌ عن نَهج الصواب إلىٰ خلاف محكم السنة والكتاب، وكم يرىٰ البائس المسكين إذا ابتُلي بحادثةٍ في الدين، يسعىٰ إلىٰ الفقيه يستفتيه، ويعمل علىٰ ما يقوله ويرويه، راجعًا إلىٰ التقليد بعد فراره منه، وملتزمًا حكمه بعد صدوفه عنه، وعسىٰ أن يكون في حكم حادثتِه من الخلاف ما يحتاج إلىٰ إنعام النظر فيه والاستكشاف، فكيف استحل التقليد بعد تحريمه، وهوَّن الإثم فيه بعد تعظيمه؟! ولقد كان رفضُه ما لا ينفعه في الآخرة والأولىٰ، واشتغاله بأحكام الشريعة أحرىٰ وأولىٰ» اهـ[(٣)].

□ ونختم بكلام الإمام محمد بن أسلم الطوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «عليكم باتباع السواد الأعظم. قالوا: ومن السواد الأعظم؟ قال: الرجل العالم أو الرجلان المتمسكان بسنة رسول اللَّه ﷺ وطريقته، وليس المراد به مطلق المسلمين، فمن كان مع هٰذين الرجلين أو الرجل وتبِعه فهو الجماعة، ومن خالفه فقد

---

(١) الصدوف: الإعراض.

(٢) وهٰذا ما يُلقَّب به ـ في الأصل ـ المعتزلة.

(٣) «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي (ص/ ٢٠، ٢١ ـ ط: ابن تيمية مصر).

خالف أهل الجماعة» اهـ[١].

---

(١) «التاج المكلل» (ص٣٢١ ـ ط: دار السلام بالرياض).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهٰؤلاء هم «أهل السنة والجماعة»، المتَّبعون آثار رسول اللَّه ﷺ، وهم ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّهُ تعالىٰ[1] ـ : «وأهل السنة: نقاوة المسلمين، وهم خير الناس للناس» اهـ.

فالزم السبيل ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

○ ○ ○

الشرح:

□ يقول ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فمن عرف قدر السلف؛ عرف أن سكوتَهم عما سكتوا عنه ـ من ضروب الكلام، وكثرة الجدال والخصام، والزيادة في البيان علىٰ مقدار الحاجة ـ لم يكن عِيًّا ولا جهلًا ولا قصورًا؛ وإنما كان ورعًا وخشيةً للَّه واشتغالًا عما لا ينفع بما ينفع، وسواء في ذٰلك كلامهم في أصول الدين وفروعه، وفي تفسير القرآن والحديث، وفي الزهد والرقائق، والحِكَم والمواعظ، وغير ذٰلك مما تكلموا فيه.

فمن سلك سبيلهم فقد اهتدىٰ، ومن سلك غير سبيلهم ودخل في كثرة السؤال والبحث والجدال والقيل والقال، فإن اعترف لهم بالفضل وعلىٰ نفسه بالنقص؛ كان حالُهُ قريبًا.

وقد قال إياس بن معاوية: «ما من أحد لا يعرف عيب نفسه؛ إلا وهو أحمق. قيل له: فما عيبك؟ قال: كثرة الكلام».

وإن ادعىٰ لنفسه الفضل ولمن سبقه النقص والجهل؛ فقد ضل ضلالًا مبينًا، وخسر خسرانًا عظيمًا.

---

(١) «منهاج السنة» (٥/ ١٥٨ ـ ط جامعة الإمام).

(٢) «فضل علم السلف» لابن رجب (ص/ ٨٧، ٨٨ ـ ط: دار البشائر الإسلامية).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣ ـ ملازمة خشية اللّه تعالىٰ:

التحلِّي بعمارة الظاهر والباطن بخشية اللَّه تعالىٰ؛ محافظًا علىٰ شعائر الإسلام، وإظهار السنة، ونشرها بالعمل بها والدعوة إليها؛ دالًّا علىٰ اللَّه بعلمك وسمتك وعملك، متحلِّيًا بالرجولة، والمساهلة، والسمت الصالح، وملاك ذٰلك خشية اللَّه تعالىٰ، ولهٰذا قال الإمام أحمد رحمه اللَّهُ تعالىٰ: «أصل العلم خشية اللَّه تعالىٰ».

فالزم خشية اللَّه في السر والعلن؛ فإن خير البرية من يخشىٰ اللَّه تعالىٰ، وما يخشاه إلا عالم، إذن فخيرُ البرية هو العالم.

ولا يَغِبْ عن بالك أن العالم لا يُعد عالمًا إلا إذا كان عاملًا، ولا يعمل العالم بعلمه إلا إذا لزمته خشية اللَّه.

○ ○ ○

الشرح:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ٥٧﴾ [المؤمنون]، وقال أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

□ قال الحسن البصري: «عملوا واللّهِ بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُرد عليهم. إن المؤمن جمع إحسانًا وخشيةً، والمنافق جمع إساءةً وأمنًا».

والخشية أخص من الخوف؛ فإن الخشية للعلماء باللَّه تعالىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين، وعلىٰ قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية؛ كما قال النبي ﷺ: **«إني أعلمُكم باللَّهِ، وأشدُّكم له خشيةً»**(١).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٢) (رقم ١١١٠) وغيره من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فصاحب الخوف يلتجئ إلىٰ الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلىٰ الاعتصام بالعلم[(١)].

◻ وقال الإمام أبو بكر الواسطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الخوف له ظُلَم يتحير صاحبُه تحته، يطلب أبدًا المخرج منه؛ فإذا جاء الرجاء بضيائه خرج إلىٰ مواضع الراحة، فغلب عليه التمني، ولا ينفع حسنُ النهار إلا بظلمة الليل، وفيهما صلاح الكون؛ فكذٰلك القلب مرةً في ظُلَم الخوف أسير؛ فإذا طَرق طوارق الرجاء فهو أمير».

◻ وهٰذا الكلام عينُ كلام الإمام القدوة أبي بكر الورَّاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الرجاء ترويح من اللَّه تعالىٰ لقلوب الخائفين، ولولا ذٰلك لتَلِفت نفوسهم، وذُهلت عقولهم».

فيا منتهىٰ آمال الخائفين الراجين، أرحنا راحةً تُوردُنا بها مناهلَ مسرتك، وتؤدي بنا إلىٰ محبَّتك وقربك.

◻ قال عبدُاللَّه بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ليس العلم عن كثرة الحديث؛ إنَّما العلم خشية اللَّه[(٣)]»[(٤)].

والعلم قسمان[(٥)]:

أحدهما: ما كان ثمرتُه في قلبِ الإنسان، وهو العلمُ باللَّه تعالىٰ وأسمائه

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٣٩٧، ٣٩٨ ـ ط: دار الغد الجديد).

(٢) «اللمع» للإمام للطوسي (ص/ ٦٣)، (ص/ ٦٥).

(٣) لا يمكن للعالم أن يصير عالمًا إلَّا بكثرة العلم وطول الباع فيه ـ كما نص العلماء في كتب الأصول في مباحث الاجتهاد ـ، وإنما قصد ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «العلم النافع»؛ فرب رجلٍ كثيرِ الرواية واسع الاطلاع، لٰكنه لم ينتفع بعلمه، وترىٰ سلوكه ونظرته للحياة وعلاقته مع ربِّه ومع الناس لا تختلف كثيرًا عن سلوك الجُهال، وإنما النافع حقًّا ما أوقف العبد عند حدود اللَّهِ تعالىٰ، ومنعه من تجاوزها، واللَّهُ تعالىٰ أعلم.

(٤) «الحلية» لأبي نعيم (١/ ١٣١)، و«المدخل» للبيهقي (رقم ٤٨٦) بسند صحيح، وأحمد في «الزهد» (١٨٥)، وأبو داود في «الزهد» (١٨٢) والطبراني في «الكبير» (٨٥٣٤) و«روضة العقلاء» لابن حبان (ص/ ٦٧، ٦٨).

(٥) «جامع العلوم والحِكَم» لابن رجب (٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥) ط دار الصحابة.

وصفاته وأفعاله؛ المقتضي لخشيتِهِ ومهابتِه وإجلالِه والخضوع له، ولمحبَّتِه ورجائِهِ ودعائه والتوكُّل عليه... ونحو ذٰلك، فهٰذا هو العلمُ النافع.

والثاني: العلمُ الذي علىٰ اللِّسَان، وهو حجَّةُ اللَّه [علىٰ العبد]: إما لك أو عليك، فأوَّلُ ما يُرفعُ مِنَ العلم العلمُ النَّافع، وهو العلم الباطنُ الذي يُخالِطُ القلوبَ ويُصلحها، ويبقىٰ علمُ اللِّسان حُجَّةً فيتهاونُ الناسُ به، ولا يعملون بمقتضاه ـ لا حَمَلتُه ولا غيرهم ـ، ثم يذهبُ هٰذا العلمُ بذهاب حَمَلتِه، فلا يبقىٰ إلا القرآن في المصاحف، وليس ثَمَّ من يعلمُ معانيه، ولا حدوده، ولا أحكامه، ثمَّ يُسرىٰ به في آخر الزمان، فلا يبقىٰ في المصاحف ولا في القُلوب منه شيءٌ بالكُلِّيَّةِ، وبعد ذٰلك تقومُ السَّاعة[1].

فإن قال قائل[2]: ولِمَ داخل العلماء هٰذا الإشفاقُ الشديد، وخافوا من علمهم هٰذا الخوف كله؟.

قيل: علموا أن اللَّه ﷻ يسائلهم عن علمهم ما عملوا فيه، فجعلوا مساءلة اللَّه نُصب أعينهم، فألزموا أنفسهم شدة الحذر، وأخذوا بالثقة في كل أمرهم» اهـ.

قلت: لابد مع العلم من الإخلاص والخشية والعمل.

---

(١) ثبت هٰذا الكلام في حديث صحيح، من رواية حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يدرُسُ الإسلامُ كما يدرُسُ وَشْيُ الثوب، حتىٰ لا يُدرىٰ ما صيامٌ، ولا صلاةٌ، ولا نُسكٌ، ولا صدقة، وليُسرَىٰ علىٰ كتاب اللَّه ﷻ في ليلة، فلا يبقىٰ في الأرض منه آيةٌ، وتبقىٰ طوائفُ من الناس ـ الشيخ الكبير والعجوز ـ ، يقولون: أدركنا آباءنا علىٰ هٰذه الكلمة، لا إلٰه إلا اللَّه، فنحن نقولها»**. فقال له صلة بن زفر ـ الراوي عن حذيفة ـ : ما تُغني عنهم: لا إلٰه إلا اللَّه، وهم لا يدرون ما صلاة، ولا صيام، ولا نسك، ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردَّها عليه ثلاثًا، كل ذٰلك يُعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صِلة، تُنجيهم من النار ـ ثلاثًا ـ . رواه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والبزار ـ مختصرًا ـ (٢٨٣٨)، والحاكم (٤/ ٤٧٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٥٢٨)، وصححه الإمام البوصيري، والشيخ الألباني، والشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٢) «أخلاق العلماء» للآجري (ص/ ٩٨ ـ ط: أضواء السلف). أخرجه الدارمي في «مسنده» (١/ ٤٥٣) والترمذي في «سننه» (٤/ ٢١٧) والآجري (١٠٠) وقال الترمذي: هٰذا حديث حسن.

«وعن عِلمه: ماذا عمل فيه؟»[١]؛ قول الصادق المصدوق ﷺ.

▫ قال بشر بن الحارث الحافي: «أدُّوا زكاة الحديث؛ فاستعملوا من كل مئتي حديث خمسةَ أحاديث»[٢].

▫ قال الذهبي: «وأما اليوم فما بقي من العلوم القليلة إلَّا القليل، في أناس قليل؛ ما أقل أن يعمل منهم بذلك القليل، فحسبنا اللَّه ونعم الوكيل»[٣].

▫ وقال أبو عبداللَّه محمد بن الفضل البلخي: «ذهابُ الإسلام من أربعةٍ: لا يَعملون بما يعلمون، ويَعملون بما لا يعلمون[٤]، ولا يتعلمون ما لا يعلمون، ويمنعون الناس من العلم[٥]»[٦].

▫ وقال الإمام اليافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إياك أن تشتغل بالعلم وتترك العمل، فليس المرادُ من العلم إلا العمل به؛ فإن لم يعمل به كان وبالًا عليه، وكان ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، و﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وهما أخس الحيوانات؛ بل كانا هما أحسن حالًا منه؛ إذ لا عقاب عليهما ولا تبعات، ولولا الإخلاد إلىٰ أرض الشهوات واتباع الهوىٰ والركون إلىٰ الدنيا؛ لرفعه العلم إلىٰ المقام الكريم العالي الشريف؛ مقام العلماء ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»[٧].

▫ وقال ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ: «الواجب علىٰ العاقل مجانبةُ ما يدنس علمه من

---

(١) صحيح، من حديث أبي برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأما حديث معاذ فمعلول بالوقف، قال الدارقطني: والصحيح أنه موقوف «علل الدارقطني» (٦/ ٤٧)، وكذا قال ابن عساكر في كتابه «ذم من لا يعمل بعلمه» (ص/ ٢٢)، وصححه المنذري في «الترغيب» (٤/ ٢٩٩).

(٢) «أدب الإملاء» للسمعاني (ص/ ١١٠)، و«تاريخ بغداد» (٧/ ٦٩)، و«السير» (١٠/ ٤٧١).

(٣) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢١/ ١٠٣١).

(٤) وهم أهل البدع.

(٥) وقد وصف الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هٰذا الصنف الأخير بأنهم: «نُوَّابُ إبليس في الأرض». «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٦٠).

(٦) «السير» (١٤/ ٥٢٥)، و«الحلية» (١٠/ ٢٣٢)، و«الاعتصام» للشاطبي (١/ ٦٨).

(٧) «الإرشاد والتطريز» (ص/ ٩٣ ـ ط: دار المنهاج).

أسباب هٰذه الدنيا؛ مع القصد في لزوم العمل بما قدر عليه ـ ولو استعمال خمسة أحاديث من كل مئتي حديث ـ؛ فيكون كأنه قد أدَّىٰ زكاة العلم؛ فمن عجز عن العمل بما جَمع من العلم؛ فلا يجب أن يعجز عن حفظه»[١].

▫ وقال أبو إسحاق الشيرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلم الذي لا ينتفع به صاحبه: أن يكون الرجل عالمًا ولا يكون عاملًا»[٢].

فالعمل العمل ـ أيها الطلاب ـ، والعمل العمل ـ أيها العلماء ـ.

▫ قال ابن الصلاح رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عن كتاب أبي جعفر بن حمدان المخرَّج علىٰ «صحيح مسلم» ـ: «إن الشيخ القدوة أبا عثمان الحِيرِي سمعه عليه، فكان إذا بلغ منه موضعًا فيه سُنَّة لم يستعملها، وقف عندها إلىٰ أن يستعملها»[٣].

▫ وقال أبو جعفر بن حمدان رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان والدي أبو جعفر يصلي صلاةَ المغرب مع أبي عثمان الحيري، وربما أقام في بعض الليالي حتىٰ يصليَ معه صلاة العشاء الآخرة، فإذا أبطأ علينا خرجت إلىٰ مسجد أبي عثمان، فخرجت ليلةً من الليالي إلىٰ مسجد أبي عثمان، فخرج علينا لصلاة العشاء الآخرة ـ وعليه إزار ورداء ـ، فصلىٰ بنا، ثم دخل داره، ورجعت مع أبي إلىٰ البيت، فقلت لأبي: يا أبة، إن أبا عثمان قد أحْرَم؟ فقال: لا، ولٰكنه هو ذا يسمع مني «المسند الصحيح» الذي خرجته علىٰ كتاب مسلم، فإذا سمع بِسُنَّة لم يكن استعملها فيما مضىٰ أحب أن يستعملها في يومه وليلته، وإنه سمع ـ في جملة ما قرئ عليه ـ أن النبي ﷺ صلىٰ في إزار ورداء، فأحب أن يستعمل تلك السنة قبل أن يُصبح»[٤].

▫ وقد سطر الإمام الحجة الطوسي بعض ذٰلك عنهم في كتابه الماتع

(١) «روضة العقلاء» لابن حبان (ص/ ٦٥).
(٢) «الدر النضيد في أدب المُفيد والمُستفيد» (٨٦ ـ للغزي، ط: مكتبة التوعية).
(٣) «صيانة صحيح مسلم» (ص/ ٢٦).
(٤) «الجامع لأخلاق الراوي» للخطيب البغدادي (١/ ١٤٥).

القيم «اللمع»[١]؛ فقال: «سمعت أبا الطيب أحمد بن مقاتل المكي البغدادي يقول: كنت عند جعفر الخلدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوم مات الشبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فدخل عليه بُندارٌ الدِّينوري ـ وكان خادمَ الشبلي ـ، وكان بندار قد حضر موت الشبلي: فسأله جعفر: إيش رأيت منه في وقت موته؟ فقال: لما أمسك لسانه، وعرق جبينه؛ أشار إليَّ: وضِّئني للصلاة، فوضئته، فنسيت تخليل اللحية ـ أي لحيته ـ، فقبض علىٰ يديه، وأدخل أصابعه في لحيته يخللها.

قال: فبكىٰ جعفر الخلدي، وقال: إيش يتهيأ أن يقال في رجل لم يذهب عليه تخليل لحيته عند نزع روحه وإمساك لسانه وعرق جبينه؟!».

□ وقال عبدُالرَّحمٰن بن مهدىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعت سفيان يقول: ما بلغني عن رسول اللَّه ﷺ حديثٌ قط إلا عملت به، ولو مرة»[٢].

□ وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما كتبتُ حديثًا إلا وقد عملت به، حتىٰ مر بي أن النبي ﷺ احتجم وأعطىٰ أبا طيبةَ دينارًا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت»[٣].

□ وقال الثوري: «إن استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل»[٤].

□ وقيل للمُهلَّب: «بِمَ أدركتَ ما أدركتَ؟ قال:«بالعِلم، قيل له: فإن غيرك قد عَلم أكثر مما عَلِمتَ، ولم يُدرك ما أدركت، قال: ذٰلك عِلمٌ حُمِل، وهٰذا علم استُعْمل»[٥].

□ وقال عمرُو بن قيس الملائي: «إذا بلغك شئ من الخير فاعمل به ـ ولو مَرَّةً ـ تكن من أهله، ويكون العمل به سببًا لحفظه»[٦].

---

(١) «اللمع» لأبي نصر الطوسي (٢٣٢).
(٢) «السير» للذهبي (٧/ ٢٤٢).
(٣) «السير» للذهبي (١١/ ٢١٣).
(٤) «الجامع لأخلاق الراوي» للخطيب البغدادي (١/ ٢٢٣).
(٥) «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٧٨).
(٦) «الغاية في شرح الهداية» للسخاوي (ص/ ٩٦ ـ ط: أولاد الشيخ).

▫ وقال الإمام الحافظ أبو موسي المَديني عن أبي الشيخ ـ مُحدث أصبهان ـ : «وعرض كتابه «ثواب الأعمال» علىٰ الطبراني، فاستحسنه، ويروىٰ عنه أنه قال: ما عملتُ فيه حديثًا إلا بعد أن استعملته»[١].

▫ وقال الإمام الزاهد الجريري[٢]: «حضرتُ وفاة أبي القاسم الجُنيد رَحِمَهُ اللَّهُ، فلم يزل ساجدًا، فقلت له: يا أبا القاسم، أليس بلغت هٰذا المكان، وبلغ منك ما أرىٰ من الجهد؟ لو استرحت! فقال لي: يا أبا محمد، أحوجَ ما كنت إليه هٰذه الساعة، فلم يزل ساجدًا حتىٰ فارق الدنيا وأنا حاضرٌ ناظرٌ إليه».

▫ وذكر أبو نعيم الحافظ أن الحسن بن صالح كان يتمثل بِهٰذين البيتين:

إذا أنتَ لم تزرعْ وأبصرتْ حاصدًا ... ندمتَ علىٰ التفريطِ في زمنِ البَذْرِ

فما لك يوم الحشر شيءٌ سوىٰ الذي ... تزودته يوم الحساب إلىٰ الحشرِ

▫ وقال الإمام الدينوري ـ بعدهما[٣] ـ : «أراد: إذا أنت لم تعمل في الدنيا ثم قدمت الآخرة فنظرت إلىٰ ثواب العاملين؛ ندمت علىٰ تفريطك في الدنيا».

---

(١) «السير» للذهبي (١٦/ ٢٧٨).

(٢) «اللمع» للطوسي (ص/ ١٩١ ـ ط: دار الكتب العلمية بيروت).

(٣) «المجالسة» (١/ ٢٢١، ٤٧٩ ـ ط: دار الكتب العلمية بيروت).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأسند الخطيب البغدادي ـ بسند فيه لطيفة إسنادية برواية آباء تسعة ـ، فقال: أخبرنا أبو الفرج عبدُالوهَّاب بن عبدالعزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان بن زيد بن أُكينة ابن عبداللَّه التميمي من حفظه؛ قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول:سمعت عليَّ بن أبي طالب[1] يقول: «هتف العلم بالعمل، فإن أجابه، وإلا ارتحل» اهـ . وهٰذا اللفظ بنحوه مروي عن سفيان الثوري[2] رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

○ ○ ○

الشرح:

نعم؛ العلم صِنو العمل لا يفترقان، ولابد لكل واحد من الآخر لا يتأخر عنه بحال، وعلىٰ ذا دار حال السلف وكلامهم وفعلهم وهديهم وسمتهم.

«العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلَّا ارتحل».

□ وذكر ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الحافظ محمد بن أبي علي الأصبهاني أنشد لبعضهم[3]:

اعمـل بعلمـك تغـنم أيهـا الـرجلُ لا ينفعُ العلـمُ إن لـم يحسُنِ العملُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٧١)، والسمعاني في «أدب الإملاء» (ص/ ١٤٤)، والخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (ص/ ٣٥) (٤٠)، والقاداني في «الأحاديث المسلسلة» (ص/ ٦٨)، وابن عساكر في «ذم من لا يعمل بعلمه» (١٤)، وذكره ابن الجوزي في «صيد الخاطر» (ص/ ٦٧) وابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٨٣) ط دار ابن حزم.

(٢) قلت: لم أجده إلَّا عند ابن عبدالبر في «الجامع» (١/ ٧٠٧) (١٢٧٤) معلقًا، وذكره الغزالي في «الإحياء» (١/ ٩٩)، واللَّه أعلم.

(٣) «ذم من لا يعمل بعلمه» لابن عساكر(ص/ ٥٨)، و«اقتضاء العلم» للخطيب (٤٨).

والعمـلُ زيـنٌ وتقـوىٰ اللَّـهِ زينتُه ... والمـتقون لهـم في علمهـم شـغلُ
وحُجـةُ اللَّـهِ يـا ذا العلـمِ بالغـةٌ ... لا المكـرُ يـنفعُ فـيها لا ولا الحـيلُ
تعلَّـمِ العلـمَ واعمـل مـا استطعتَ به ... لا يُهليـنك عـنه اللهـوُ والجـدلُ
وعلـم الـناس واقـصد نفعهـم أبـدًا ... إيــاك إيــاك أن يعــتادَك الملــلُ

◻ وقال العلَّامة ابن حزم في «مداواة النفوس»[1]: «فرض علىٰ الناس تعلم الخير والعمل به؛ فمن جمع الأمرين فقد استوفىٰ الفضيلتين معًا، ومن علمه ولم يعمل به فقد أحسن في التعليم، وأساء في ترك العمل به، فخلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وهو خيرٌ من آخر لم يَعلمه ولم يعمل به، وهٰذا الذي لا خير فيه أمثلُ حالًا وأقل ذمًّا من آخر يَنهىٰ عن تعلُّم الخير ويصد عنه، ولو لم يَنه عن الشر إلا من ليس فيه منه شيء، ولا أمر بالخير إلا من استوعبه؛ لما نَهىٰ أحد عن شر، ولا أمر بخير بعد النبي ﷺ، وحسبك بمن أدىٰ رأيه إلىٰ هٰذا فسادًا وسوء طبع وذم حال، وباللَّهِ تعالىٰ التوفيق».

---

(١) «مداواة النفوس» (ص/ ٩٤)، ويسمىٰ ـ أيضًا ـ «الأخلاق والسير» للعلَّامة ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤ ـ دوام المراقبة:

التحلي بدوام المراقبة للَّه تعالىٰ في السر والعلن، سائرًا إلىٰ ربك بين الخوف والرجاء، فإنهما للمُسلم كالجناحين للطائر.

فأقبل علىٰ اللَّه بكليتك، وليمتلئْ قلبك بمحبته، ولسانك بذكره، والاستبشار والفرح والسرور بأحكامه وحكمه سبحانه.

○ ○ ○

الشرح:

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء: ٢١٨].

فالمراقبة[١]: مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرةٍ وخطوة، ودوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق ﷻ علىٰ ظاهره وباطنه، فاستدامته لهٰذا العلم واليقين هي المراقبة، وهي ثمرة علمه بأن اللَّه سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطلع علىٰ عمله كل وقت، وكل لحظة، وكل نَفَس، وكل طرفة عين، والغافل عن هٰذا بمعزل عن حال أهل البدايات، فكيف بحال العارفين؟!.

▫ قال الجريري: «أمرُنا هٰذا مبني علىٰ فصلين: أن تُلزم نفسك المراقبة للَّهِ، وأن يكون العلم علىٰ ظاهرك قائمًا».

▫ وقال الإمام القدوة العَلَم الجَيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا تتم المجاهدة إلا بالمراقبة، وهىٰ التي أشار إليها رسول اللَّه ﷺ حين سأله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الإحسان فقال: «**الإحسان أن تعبد اللَّهَ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢].

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٤٥٦ ـ ط: دار الغد الجديد).

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (رقم/ ٨)، وأبو داود (رقم / ٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٠)، وأحمد (٨/ ٢٧)، والآجُري في الشريعة (ص/ ١٩٨).

وحقيقة المراقبة: هي علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه، واستدامته لهٰذا العلم مراقبةً لربه، وهٰذا هو أصل كل خير، وإنما يصل إلىٰ هٰذه الرتبة بعد المحاسبه، وإصلاح حاله في الوقت، ولزوم طريق الحق، وإحسان مراعاة القلب بينه وبين اللَّه تعالىٰ، وحفظ الأنفاس مع اللَّه ﷻ، فيعلم أن اللَّه عليه رقيب، ومن قلبه قريب، يعلم أحواله، ويرىٰ أفعاله، ويسمع أقواله.

وهٰذا مقام شريف، والحذر يصحبه في ذٰلك كله، فحفظ جوارحه وقلبه، ولا ينال شيئًا من هٰذه الجملة إلا أن يقطع الأشغال كلها؛ إلا ما دَلَّهُ علىٰ هٰذا، والفَرَقُ لا يُفارق قلبه حذرًا من طوياته لقدرته عليه ﷻ، وحياءً منه لقربهِ منه؛ لأنه لم تزل منه همةٌ ولا خطرة إلا له فيه علمٌ، فيكون العالم القائم بما يحب اللَّه منه، والنازل عما يكرهه منه، ولا تكون منه خطرة ولا لحظة ولا إرادة إلا وعلم اللَّه عنده قائم في قلبه، وهو مقامُ العلماء باللَّه ﷿ علىٰ الحقيقة الخائفين العارفين الأتقياء الورعين»[1].

□ وتأمل قول الإمام سهل التُّسْتَري رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال لي خالي محمد بن سوار يومًا: ألَا تذكر اللَّه الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلُّبك في ثيابك ثلاث مرات ـ من غير أن تحرك به لسانك ـ: اللَّه معي ناظرٌ إليَّ شاهدٌ عليَّ. فلم أزل علىٰ ذٰلك سنين، فوجدت لها حلاوةً في قلبي، ثم قال لي خالي يومًا: يا سهل، من كان اللَّه معه وهو ناظرٌ إليه وشاهده؛ أيعصيه؟ إياك والمعصية»[2].

فمن راقب اللَّهَ في سره حفظه اللَّهُ في حركاته في سره وعلانيته.

والخوف[3]: اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف، وهو هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

---

(١) «الغُنية لطالبي طريق الحق» (ص/ ٥١٨ ـ ط: التوفيقية).

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص/ ٥٨ ـ ط: التوفيقية).

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم: (١/ ٣٩٦ ـ ط: دار الغد الجديد).

قال اللَّهُ تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: ١٥٠].

ومن حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا»**[١].

□ وقال الإمام داود الطائي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إلٰهي، همك عطل عليَّ كلَّ الهموم، وحال بيني وبين الرُّقَاد»[٢].

□ وقال بِشْرٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَبْ أنَّك ما تخاف، أما تشتاق؟»[٣].

□ وقال الإمام الصالح عبداللَّه بن خُبيْق رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنفع الخوف: ما حجزك عن المعاصي، وأطال منك الحزن علىٰ ما فاتك، وألزمك الفكرة في بقية عمرك، وأنفع الرجاء: ما سَهَّل عليك العمل»[٤].

والرجاء حادٍ يحدو القلوب إلىٰ بلاد المحبوب، وهو اللَّه والدار الآخرة، ويطيب لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالىٰ، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وفي «صحيح مسلم»[٥] عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول قبل موته بثلاث: **«لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسنُ الظن بربه»**.

ـ فهناك رجاءُ رجل عمل بطاعة اللَّه، علىٰ نور من اللَّه، فهو راجٍ لثوابه.

---

(١) حديث حسن: أخرجه الترمذي (٢٣١٣)، وأحمد (٥/ ١٧٣)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٢/ ٥١٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

(٢) «الحلية» لأبي نعيم (٧/ ٣٥٧)، «تاريخ بغداد» (٨/ ٣٥١)، «المجالسة» للدينوري (١/ ١٥١) (٦٧٦).

(٣) «شرح الرسالة القشيرية» لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري (١/ ١٣٥ ـ ط: العلمية بيروت).

(٤) «الرسالة القشيرية» (ص/ ٦٧).

(٥) (٢٨٧٧).

ـ ورجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها، فهو راجٍ لمغفرة اللَّه تعالىٰ وعفوه ورحمته وجوده وكرمه.

ـ ورجل متمادٍ في التفريط والخطايا، يرجو رحمة اللَّه بلا عمل؛ فهٰذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب، فالرجاء لا يصح إلَّا مع العمل[١].

□ تكلم مالك بن دينار يومًا؛ فبكىٰ حوشب بن مسلم، فضرب مالكٌ بيده علىٰ منكبه وقال: «ابك ـ يا أبا بشر ـ ؛ فإنه قد بلغني أن العبد لا يزال يبكي حتىٰ يرحمه سيده فيعتقه من النار».

□ وكان عبدُاللَّه بن عون يقول: «إن من كان قبلنا كانوا يجعلون لدنياهم ما فضل عن آخرتِهم، وإنكم تجعلون لآخرتكم ما فضل عن دنياكم»[٢].

وأمَّا الاستبشار والفرح والسرور بأحكامه وحكمه.

□ يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا ريب أن هٰذا السرور يبعثه علىٰ دوام السير إلىٰ اللَّه ﷻ وبذل الجهد في طلبه وابتغاء مرضاته، ومن لم يجد هٰذا السرور ولا شيئًا منه فليتهم إيمانه وأعماله.

وكل نفس معترضة علىٰ قدر اللَّه وقسمه وأفعاله؛ إلا نفسًا قد اطمأنت إليه وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها؛ فتلك حظُّها التسليم والانقياد والرضا»[٣].

والقلب في سيره إلىٰ اللَّه ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه؛ فمتىٰ سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتىٰ قطع الرأس مات الطائر، ومتىٰ فُقد الجناحان فهو عرضةٌ لكل صائد وكاسر، ولٰكن السلف استحبوا أن يَقوَىٰ في الصحة جناح الخوف علىٰ جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يَقوَىٰ جناح الرجاء علىٰ جناح الخوف.

---

(١) «مدراج السالكين» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٤٣٤ ـ ط: دار الغد الجديد).

(٢) «الخشية والبكاء» للحسَاوي (ص/ ١٢ ـ ط: دار القاسم، الرياض).

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٤٥٨، ٤٠٠ : ٤٦٠ ـ ط: الغد الجديد).

▫ وقال الإمام السري السقطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أشتهي أن أموت ببلدٍ غير بغداد. فقيل له: ولِمَ؟ قال: أخاف أن لا يقبلني قبري فأُفتضح»[١].

▫ قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ ـ مُعَقِّبًا علىٰ هٰذه الكلمة ـ : «قاله اتِّهامًا لنفسه، وقد كان مستور الحال بين الناس في الدنيا، فأحب أن يستره عنهم في الآخرة. ويُحتمل أن يكون أحبَّ حفظ قلوب العامَّة من أن يسوء ظنهم بالصالحين فلا ينتفعوا بهم؛ فإنهم إذا رأوا من اشتُهر بالصلاح لم يقبله قبره!! دلَّهم ذٰلك علىٰ سوء باطنه، فيسوء ظنُّهم بأمثاله فتكلم بها»[١].

قلت: هٰؤلاء الأكابر ما أبعدهم وأقصاهم من هٰذا وأمثاله من الذنوب والخطايا؛ ولٰكنهم غلب عليهم الخوف رُغم طاعتهم وخشيتهم للَّه ﷻ وضعوا أنفسهم موضع التهم والجنايات توبيخًا لها وهضمًا لها، وأولٰئك هم المتقون حقًّا، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ جعلنا اللَّه علىٰ طريقهم ودربهم.

ثم مَنَّ اللَّه عليَّ بكلام ـ يُكتب بماء الذهب ـ شبيهًا بما قلته هنا في هٰؤلاء الأكابر وحالهم مع اللَّه:

▫ فقال تاج الإسلام العلَّامة الكلاباذي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا حال هٰؤلاء الأكابر وما وقع منهم ـ ممن شدَّدَ وغلَّظ في شرائط التوبة، وارتكاب الصغائر وتعظيمها ـ ؛ فليس ذٰلك منهم علىٰ إيجاب الوعيد؛ بل ذٰلك علىٰ تعظيم الذنب في وجوب حق اللَّه في الانتهاء عما نَهىٰ عنه، ولم يجعلوا في الذنوب صغيرة إلَّا عند نسبة بعضها إلىٰ بعض، فطالبوا النفوس بإيفاء حق اللَّه تعالىٰ عما نَهىٰ اللَّه عنه، والوفاء بما أمر به اللَّه، ورؤية التقصير في شرائط العمل، وهم مع ذٰلك أرجىٰ الناس للناس، وأشدهم خوفًا علىٰ أنفسهم، حتىٰ كأن الوعيد لم يَرد إلَّا فيهم والوعد لم يكن إلَّا لغيرهم.

فقد قيل للفضيل ـ عَشِية عرفة ـ : «كيف ترىٰ حال الناس؟ قال: مغفورون لولا مكاني فيهم»!.

---

(١) «شرح الرسالة القشيرية» لشيخ الإسلام زكريا الانصارىٰ رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ١٣٣).

وقال السري السقطي: «إنى لأنظر في المرآة كل يوم مرارًا؛ مخافة أن يكون قد اسود وجهي».

وقال ابن أدهم: «لا أحب أن أموت حيث أُعرف؛ مخافةَ ألَّا تقبلني الأرض فأكون فضيحة».

ومع كل ذٰلك كانوا هُم أحسن الناس ظنونًا بربهم.

قال يحيىٰ البَكَّاء: «من لم يحسن باللَّه ظنه لم تَقَر باللَّه عينه».

وهم أسوأ الناس ظنونًا بأنفسهم، وأشدهم إزراءً بها، لا يرونها أهلًا لشيءٍ من الخير دينًا ولا دُنيا»[١].

ولا زال يدور في خاطري سؤال حيرني؛ ألا وهو:

«**هٰؤلاء القوم كانوا هم الأدب، أم هُم شيء منه؟**».

---

(١) «التعرف» لتاج الإسلام الإمام الكلاباذي (ص/ ٣٤، ٣٥ ـ ط: دار صادر بيروت).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥ ـ خفض الجناح، ونبذ الخيلاء والكبرياء:

تحلَّ بآداب النفس، من العفاف، والحلم، والصبر، والتواضع للحق، وسكون الطائر، من الوقار والرزانة، وخفض الجناح، متحملًا ذل التعلم لعزة العلم، ذليلًا للحق.

○ ○ ○

الشرح:

نعم؛ من أخلاق الأكابر والعظماء خفض الجناح، ونبذ الخيلاء والكبرياء:

□ قال ابن الأثير ـ متحدثًا عن صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «وكان حليمًا حسنَ الأخلاق، متواضعًا، صبورًا علىٰ ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره، ولا يُعلمه بذٰلك، ولا يتغير عليه. وبلغني أنه كان جالسًا وعنده جماعة، فرمىٰ بعض المماليك بعضًا بسرموز[1] فأخطأته، ووصلت إلىٰ صلاح الدين فأخطأته، ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلىٰ الجهة الأخرىٰ يكلم جليسه؛ ليتغافل عنها»[2].

□ وكان الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ كثير التغاضي عن كثير من الأمور في حق نفسه، وحينما يسأل عن ذٰلك كان يقول:

ليس الغبيُّ بسيدٍ في قومِه لٰكنَّ سيدَ قومِه المتغابي[3]

واعلم أن العلم عزيز؛ لذا يحتاج إلىٰ ذل النفس وإرغامها حتىٰ يعلمك العليم الحكيم: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، ثم تذلها للعلماء:

---

(١) السرموز: نعل معروفة وهي كلمة فارسية معناها رأس الخف.

(٢) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٥/ ٢١٤).

(٣) «الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة»، لمحمد بن إبراهيم الحمد ـ حفظه اللَّه ـ (ص/ ٢١، ٢٢).

أُهينُ لهم نفسي لكي يكرمونَها ... ولن تُكرمَ النفسُ التي لا تُهينها[١]

□ وكان ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ يريد أن يسأله عن الحديث، فيقال له: «إنه نائم. فيضطجع علىٰ الباب، فيقال له: ألا نوقظه؟ فيقول: لا»[٢].

□ ويقول ابن مفلح الحنبلي[٣]: «قال الأصمعي: مَن لم يحمل ذل التعلم ساعة؛ بقي في ذل الجهل أبدًا.

وقال عبداللَّه بن المعتز: المتواضع في طلب العلم أكثرهم علمًا؛ كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماءً.

وقد نظم هٰذا أبو عامر النسوي فقال:

العلمُ يأتي كل ذي ... خفضٍ ويأبىٰ كل آبي

كالماءِ ينزلُ في الوِهادِ ... وليس يصعدُ في الروابي».

□ وقال يحيىٰ القطان رَحِمَهُٱللَّهُ: «قال لي شعبة: كل من كتبت عنه حديثًا فأنا له عبد»[٤].

□ قال الآجري رَحِمَهُٱللَّهُ[٥]: «فإذا أحب مجالسة العلماء جالسهم بأدب، وتواضع في نفسه، وخفض صوته عن صوتِهم، وسألهم بخضوع، ويكون أكثرِ سؤاله عن علم ما تعبده اللَّه به، ويخبرهم أنه فقير إلىٰ علم ما يسأل عنه، فإذا استفاد منهم علمًا أعلمهم: أني قد أفدت خيرًا كثيرًا، ثم شكرهم علىٰ ذٰلك. وإن غضبوا عليه لم يغضب عليهم، ونظر إلىٰ السبب الذي من أجله

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٩/ ١٤٨ ـ ترجمة الشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٠٢) (٧٦١٣).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي» الخطيب البغدادي (١/ ٦٢، ٢١٧ ـ ط: بيروت).

(٣) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ٢٦).

(٤) «السير» للذهبي (٧/ ٢٠٨).

(٥) «أخلاق العلماء» للآجري (ص/ ٧٣ ـ ط: أضواء السلف).

غضبوا عليه، فرجع عنه واعتذر إليهم، لا يُضجرهم في السؤال، رفيق في جميع أموره، لا يناظرهم مناظرةً يريهم: أني أعلم منكم.

وإنما همته البحث لطلب الفائدة منهم، مع حسن التلطف لهم، لا يجادل العلماء، ولا يماري السفهاء، يحسن التأني للعلماء مع توقيره لهم، حتىٰ يتعلم ما يزداد به عند اللَّه فهمًا في دينه».

□ وقيل لابن عيينة: «إن قومًا يأتونك من أقطار الأرض فتغضب عليهم، يوشك أن يذهبوا ويتركوك!! قال: هم حمقىٰ إذًا مثلك أن يتركوا ما ينفعهم لسوء خلقي»[1].

قلت: فلابد ـ أيها الطالب ـ أن تتواضع لِعَالِمِكَ، وتصبر عليه ولو في ذُل نفسك، حتىٰ يُعطيك أحلىٰ ما عنده من العلم ـ فضلًا منه عليك ـ لأدبك وأخلاقك، وهٰذا واجب.

---

(١) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٤٥) بسندٍ صحيح.

تنبيه: لا ينبغي أن يَتخذ العالِمُ وطالبُ العلم مثلَ هٰذا الكلام ذريعةً في إساءة الخُلق مع طلابه ـ خاصةً ـ والناس ـ عامةً ـ، بل الرفق دومًا أجمل وأنفع، وخيرُ الهدي هديُ محمد ﷺ، وقد عرفتَ سيرته العطرة ولينه الكريم وخلقه السامي في التعامل مع أصحابه وغيرهم. وما قرأناه وسمعناه من شدة بعض أهل العلم في معاملةِ الطلاب ليس هو الأصلَ في التعلُّم والتعليم، بل هٰذا يُعدُّ من زلَّاتِهم المغفورة ـ بإذن اللَّه تعالىٰ ـ، فلا ينبغي الاقتداء بهم في مثل هٰذا، بل لابد من خفض الجَناح ولين الجانب والحرص علىٰ الإفادة؛ في غير ذل ولا إسقاطٍ لحرمة العلم والعالِم، وهٰذا المسلك أنفعُ وأسد للجميع، واللَّهُ الهادي إلىٰ سواء السبيل.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعليه، فاحذَر نواقض هٰذه الآداب؛ فإنها ـ مع الإثم ـ تُقيم علىٰ نفسك شاهدًا علىٰ أن في العقل علةً، وعلىٰ حرمانٍ من العلم والعمل به، فإياك والخيلاء، فإنه نفاقٌ وكبرياء، وقد بلغ من شدةِ التوقي منه عند السلف مبلغًا.

ومن دقيقه: ما أسنده الذهبي في ترجمة عمرو بن الأسود العنسي المُتوفَّىٰ في خلافة عبدِالملك بن مروان ـ رحمه اللَّهُ تعالىٰ ـ : «أنه كان إذا خرج من المسجد قبض بيمينه علىٰ شماله، فسُئل عن ذٰلك؟ فقال: مخافة أن تنافقَ يدي».

قلت: يمسكها خوفًا من أن يخطرَ بيده في مِشيته، فإن ذٰلك من الخيلاء» اهـ[١].

○ ○ ○

الشرح:

الكبر والخيلاء من أسوء أخلاق طالب العلم وغير طالب العلم.

- قال مجاهد: «لا يتعلم العلم مستحيي ولا مستكبر»[٢].
- وقال الخليل بن أحمد: «منزلة الجهل بين الحياء والأنفة»[٣].
- وقيل: «التواضع ألَّا ترىٰ لنفسك قيمة، فمن رأىٰ لنفسه قيمةً فليس له في التواضع نصيب»[٤].

---

(١) «فهرس الفتاوىٰ» (٣٦/ ١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم «فتح الباري» (١/ ٢٧٦)، ووصله أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» بسند صحيح، ورواه الدارمي في «سننه» (٥٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٧)، والبيهقي في «المدخل» (٤١٠)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (٢/ ٩٣).

(٣) «آداب المتعلم والعالم» للغزالي (ص/ ٥٩).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٢ ـ ط: دار الغد العربي).

□ وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: التكبُّر سرٌّ من الشرك؛ فإن المتكبِّر يتكبَّر علىٰ عبادة اللَّه تعالىٰ، والمشرك يعبد اللَّه وغيرَه»[١].

وأما أثر عمرو بن الأسود العنسي: فأخرجه الفريابي في «صفة النفاق» (ص/ ٧٥) (٩٠) بسند حسن، وذكره الذهبي في «السير» (٤/ ٨٠)، وفي المعنىٰ مثله بسند ضعيف عند أبي نعيم في «الحلية» (٥/ ٢١٢)، والفريابي في «ذم النفاق» (ص/ ٨٨) (١١٣) بسنده إلىٰ خالد بن معدان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «إياكم والخطرات، فإن الرجل قد تنافق يده من سائر جسده». وفيه بقية بن الوليد مدلس وقد عنعنه، وفيه محمد بن مصفي يدلس التسوية، ولٰكن له متابع عند أبي نعيم في «الحلية» (٥/ ٢١٢) فلصقت التهمة ببقية.

□ وقال معلَّىٰ بن زياد: «سمعت الحسن يحلف في المسجد باللَّه الذي لا إلٰه إلا هو: ما مضىٰ[٢] مؤمنٌ قط إلَّا وهو من النفاق مشفق، ولا مضىٰ منافق قط ولا بقي إلَّا وهو من النفاق آمن»[٣].

□ وقال معاوية بن قُرَّة: «لأن لا يكون فِيَّ نفاقٌ أحب إليَّ من الدنيا وما فيها. كان عمر يخشاه وآمنه أنا»[٤].

وكان حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خُص بعلم المنافقين، وأُفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن، وكان يسأل عن المنافقين فيُخبر بعدد من بَقي منهم ولا يُخبر بأسمائهم، وكان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَسأل عن نفسه: هل يعلم فيه شيئًا من النفاق؟ فبرَّأه من ذٰلك[٥].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٤).
(٢) أي: ما مات.
(٣) «صفة النفاق» للفريابي (ص/ ٧٣) (٨٧).
(٤) «السير» للذهبي (٥/ ١٥٤).
(٥) «إحياء علوم الدين» للغزالي (١/ ١٢٧ ـ ط: دار الحديث).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

واحذر داء الجبابرة: «الكبر»؛ فإن الكبر والحرص والحسد أول ذنب عصي اللَّه به[١]، فتطاوُلك علىٰ معلمك كبرياء، واستنكافك عمن يفيدك ممن هو دونك كبرياء، وتقصيرُك عن العمل بالعلم حمأةُ كبر، وعنوانُ حرمان.

العلمُ حربٌ للفتىٰ المتعالي　　كالسيلِ حربٌ للمكانِ العالي

○ ○ ○

الشرح:

قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر].

وفي «صحيح مسلم» قوله ﷺ: «**لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبر**»[٢].

نعم؛ أول ذنب عُصي اللَّهُ به الكبر والحرص؛ فكان الكبرُ ذنب إبليس اللعين، فآل أمره إلىٰ ما آل إليه، والحرصُ كان من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان عاقبته التوبة والهداية، فذنب إبليس حمله علىٰ الاحتجاج بالقدر والإصرار، وآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أوجب له إضافته إلىٰ نفسه والاعتراف به والاستغفار.

فأهل الكبر والإصرار والاحتجاج بالأقدار مع شيخهم وقائدهم إلىٰ النار إبليس. وأهل الحرص المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب الذين لا يحتجون عليها بالقدر: مع أبيهم آدم في الجنة[٣].

□ قال الغزالي[٤]: «ينبغي للطالب ألَّا يتكبَّر علىٰ العلم، ولا يتأمَّر[٥] علىٰ

---

(١) «السير» (٤/ ٨٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١/ ٢٧٧، ٢٦٣ ـ ط دار المعرفة).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٤ ـ ط: دار الغد الجديد).

(٤) «إحياء علوم الدين» (١/ ٨٥).

(٥) يتأمر: يرفع نفسه فوق معلِّمه، بحيث يطلب منه ما يريده هو، دون ما يأمره به المعلِّم.

معلِّم؛ بل يُلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق.

وينبغي أن يتواضع لمعلمه، ويطلب الثواب والشرف بخدمته، ولا يتكبَّر علىٰ المعلم.

ومِن تكبُّره علىٰ المعلم: أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين! وهو عين الحماقة؛ فإن العلم سبب النجاة والسعادة، والحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها، ويتقلد المِنَّة لمن ساقها إليه ـ كائنًا من كان ـ ، فلذٰلك قيل:

العلمُ حربٌ للفتىٰ المتعالي كالسيلِ حربٌ للمكان العالي».

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فالزَم - رحمك اللَّه - اللصوق إلىٰ الأرض، والإزراء علىٰ نفسك، وهضمها، ومراغمتها عند الاستشراف لكبرياء أو غطرسة أو حب ظهور أو عُجب... ونحو ذٰلك من آفات العلم القاتلة له، المُذْهِبَة لهيبَتِه، المطفِئَة لنوره، وكلما ازددت علمًا أو رِفعةً في ولاية، فالزم ذٰلك، تُحْرِزْ سعادة عظمىٰ، ومقامًا يغبطك عليه الناس.

وعن عبداللَّه ابنِ الإمام الحجة الراوية في الكتب الستة بكر بن عبداللَّه المُزني - رحمهما اللَّه تعالىٰ -، قال: «سمعت إنسانًا يحدِّث عن أبي، أنه كان واقفًا بعرفة، فَرَقَّ، فقال: لولا أني فيهم، لقلت: قد غفر لهم».

خرَّجه الذهبي[1]، ثم قال: «قلت: كذٰلك ينبغي للعبد أن يزريَ علىٰ نفسه ويهضمها» اهـ.

○ ○ ○

الشرح:

ما أحلىٰ هٰذا الكلام وأطيبه وأعذبه.

□ وقف مطرِّف بن عبدِاللَّه بن الشِّخِّير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعه بكر بن عبداللَّه المُزَني في الموقف[2]، فقال مطرف: «اللهم لا ترد أهل الموقف من أجلي! وقال بكرٌ: ما أشرفَه من مقام وأرجاه لأهله، لولا أني فيهم!»[3].

□ وقال الفضيل بن عياض لشعيب بن حرب بالموسم: «إن كنتَ تظن أنه شهد الموقف أحدٌ شرٌّ مني ومنك؛ فبئس ما ظننت»[4].

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٢١٩).
قلت: والدينوري في «المجالسة» (٣/ ٢٤)، والذهبي في «السير» (٤/ ٥٣٤).

(٢) يعني يومَ عرفة.

(٣) «لطائف المعرف» لابن رجب الحنبلي (ص/ ٤٩٨ - ط: المكتب الإسلامي).

(٤) المصدر السابق.

□ وقال الشافعي: «أرفع الناس قدرًا من لا يرىٰ قدره، وأكثرهم فضلًا من لا يرىٰ فضله»(١).

□ واشتكىٰ رجلٌ من ولد محمد بن واسع إليه؟ فقال محمد بن واسع لابنه: «تستطل علىٰ الناس وأمك اشتريتها بأربعمئة درهم، وأبوك فلا كثَّر اللَّه في المسلمين مثله»(٢).

□ وقال مُرَجَّىٰ بن وادعٍ الراسبي: «كنا ندخل علىٰ عطاء، فإذا قلنا له: زاد الطعام، قال: هٰذا من أجلي يصيبكم الغلاء، لو مِتُّ لاستراح الناس»(٣).

□ وكان عطاء السَّلِيمي إذا جاء برقٌ وريحٌ قال: «هٰذا من أجلي يصيبكم، لو مِتُّ لاستراح الناس»(٤).

□ وقال السَّري السَّقْطي: «أقوىٰ القوىٰ غلبتُك نفسك. ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز»(٥).

□ وفي ترجمة الإمام القدوة الزاهد الرِّفاعي: «أحضر بين يديه طبق تمر، فبقي ينقي لنفسه الخشن يأكله ويقول: أنا أحق بالدون؛ فإني مثلَه دون»(٦).

□ وقال القطب النيسابوري للملك العادل نور الدين زنْكي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ: «باللَّهِ لا تخاطر بنفسك، فإن أصبت في معركة لا يبقىٰ للمسلمين أحد إلا أخذه السيف، فقال: ومن محمود حتىٰ يقال هٰذا؟! حفظ اللَّه البلاد قبلي لا إلٰه إلَّا هو»(٧).

□ وقال يوسف بن أحمد الشيرازي: «لما رحلت إلىٰ شيخنا ـ رُحلة الدنيا

---

(١) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ٢٠٢).
(٢) السير للذهبي (٦/ ١٢١).
(٣) «الحلية» لأبي نعيم (٦/ ٢٢١).
(٤) السير (٦/ ٨٨).
(٥) «الحلية» لأبي نعيم (١٠/ ١٢٨) وطبقات الصوفية» للسلمي (ص/ ٥٦).
(٦) السير للذهبي (٢١/ ٨٠)
(٧) «مرآة الزمان» (٨/ ١٩٤)، و«السير» (٢٠/ ٥٣٥).

ومُسْنِد العَصْر أبي الوَقْت السِّجْزِي ـ ، فسلمت عليه، وقبَّلته، وجلست بين يديه، فقال لي: ما أقدمك هٰذه البلاد؟ قلت: كان قصدي إليك، ومُعَوَّلي بعد اللَّه عليك، وقد كتبت ما وقع لي من حديثك بقلمي، وسعيت إليك بقدمي لأدرك بركة أنفاسك، وأحظىٰ بعلو إسنادك، فقال: وفقك اللَّه لمرضاته، وجعل سعينا له وقصدنا إليه؛ لو كنت عرفتني حق معرفتي لَمَا سَلَّمتَ عليَّ ولا جلست بين يدي! ثم بكىٰ بُكاءً طويلًا، وأبكىٰ من حضره. ثم قال: اللهم استُرنا بسِترك الجميل، واجعل تحت السِّتر ما ترضىٰ به عنَّا»[١].

□ وذكر الإمام الدِّينوَري في «المجالسة» عن ابن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «يُستحب للرجل إذا دَعَا أن يقول: اللهم استُرنا بسِتْرك الجميل. والسِّترُ الجميل: أن يستُر علىٰ عبده في الدنيا، ثم يستر عليه في الآخرة ولا يُوَبِّخه»[٢].

□ وأما الدرر والذهب، فهو ما ذكره ابن القيم[٣] عن شيخه نادرة الزمان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُمَا اللَّهُ قال: «ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس اللَّه روحه ـ من ذٰلك أمرًا لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فِيَّ شيء. وكان كثيرًا ما يتمثل بِهٰذا البيت:

أنا المكدِّي وابنُ المكدِّي ... وهٰكذا كان أبي وجَدِّي

وكان إذا أُثنِيَ عليه في وجهه يقول: «واللَّهِ إني إلىٰ الآن أُجَدِّدُ إسلامي كل وقت، وما أسلمتُ بَعْدُ إسلامًا جيدًا».

وَبَعث إليَّ في آخر عمره قاعدةً في التفسير بخطه، وعلىٰ ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقيرُ إلىٰ ربِّ البريَّاتِ ... أنا المُسكينُ في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخيرُ إن يأتِنا من عنده ياتي».

---

(١) «المنتظم» لابن الجوزي (١٠/ ١٨٣)، و«السير» للذهبي (٢٠/ ٣٠٧).

(٢) «المجالسة وجواهر العلم» للإمام الدينوري (١/ ١٣)(٢).

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٤٠٦ ـ ط دار الغد الجديد).

▫ ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما تجريد رؤية الفضل: فهو ألَّا يرىٰ الفضل والإحسان إلا من اللَّه؛ فهو المانُّ به بلا سبب منك ولا شفيع لك تقدم إليه بالشفاعة، ولا وسيلة سبقت منك توسلت بها إلىٰ إحسانه».

▫ وهٰذا أستاذ الجماعة وسيد الصنعة ابن القطان[1]؛ قال عنه يحيىٰ بن معين: «جعل جارٌ له يشتمه ويقع فيه ويقول: هٰذا الخوزي، ونحن في المسجد! فجعل يحي القطان يبكي ويقول: صدق ومن أنا ومن أنا؟!».

قلت: أين نحن من هٰذا الأدب وهٰذا العلم؟! أين نحن من هٰذه الجبال التي رَسَتْ علىٰ الأرض مرةً واحدةً، ثم بقي ذكرها العاطر، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ [النازعات].

▫ وتأمل قول أيوب السختياني رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيل لعمر بن عبدالعزيز: يا أمير المؤمنين، لو أتيت المدينة! فإن قضىٰ اللَّه موتًا دفنت في موضع القبر الرابع مع رسول اللَّه ﷺ. قال: واللَّهِ لأن يعذبني اللَّهُ بغير النار؛ أحب إليَّ من أن يعلم من قلبي أني أُراني لذٰلك أهلًا»[2].

▫ وقال سهل بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحبت إبراهيم بن أدهم، فمرضت فأنفق عليَّ نفقته، فاشتهيت طعامًا فباع حماره وأنفق عليَّ ثمنه، فلما تَمَاثلْتُ قلت: يا إبراهيم: أين الحمار؟ فقال: بعناه، فقلت: فعلىٰ ماذا أركب؟ فقال: يا أخي علىٰ عنقي. فحملني ثلاثة منازل»[3]!!!!.

▫ وذكر العلَّامة اليافعي في كتابه القيم «الإرشاد والتطريز»[4]: «أن إبراهيم ابن أدهم كان يعمل حارسًا علىٰ بستان من العنب، فمَرَّ عليه جُنديٌّ من جند

---

(١) «السير» للذهبي (٩/ ١٨٠ ـ ط: الرسالة).

(٢) «تاريخ يعقوب الفسوي» (١/ ٦٠٨)، وابن سعد في «الطبقات» (٥/ ٤٠٤) بسندٍ رجاله ثقات، وذكره الذهبي في «السير» (٥/ ١٤١).

(٣) «الرسالة القشيرية» (ص/ ٣٩).

(٤) «الإرشاد والتطريز» للإمام اليافعي (ص/ ٩٧ ـ ط: دار المنهاج)، وأصل الرواية في الرسالة للقشيري (ص/ ٣٩ ـ ط: التوفيقية)، «الحلية» لأبي نعيم (٧/ ٣٧٩).

السلطان ـ وكان لا يعرفه ـ، فقال له الجندي: أعطني من هٰذا العنب؟ فقال ليس ملكي؛ إنما هو لصاحبه. وأبىٰ أن يُعطيه، فضربه الجندي علىٰ رأسه ضربًا مؤلمًا، فطأطأ له إبراهيم رأسه مرةً أخرىٰ، وقال له: اضرب رأسًا طالما عصىٰ اللَّه. فلما ذهب الجندي لاقاه رجل فقال له: هٰذا إبراهيم بن أدهم!! ألم تعرفه؟! فلما عرفه الجندي ذهب إليه واعتذر له، وأراد أن يُقَبِّل رأسه، فقال له ابن أدهم: إن الرأس الذي يُعْتَذَرُ إليه تركته ببلخ، ثم دعا له إبراهيم بالجنة!! فقيل له: تدعو له؟ فقال إبراهيم: كَرِهْتُ أن يُصيبني منه خير ويصيبه مني شر».

□ وحمل الإمام عبدُاللَّه بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا حُزمةَ حطب علىٰ كتفه، فقيل له: «يا أبا يوسف، قد كان في بَنيك وغِلمانك من يكفيك هٰذا؟ فقال: أردت أن أجرب نفسي: هل تنكره؟»[1].

□ وقال الإمام القدوة أبو عثمان الحِيْري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يرىٰ أحدٌ عيب نفسه وهو يستحسنُ من نفسه شيئًا، وإنما يراه من يتهمها في جميع الأحوال»[2].

□ وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما استحسنت من نفسي عملًا فأحتسبت به»[2].

□ وقال الإمام النصر آباذي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سجنك نفسُك، إذا خرجت منها وقعت في راحة الأبد»[2].

□ وقال ذوالنون المصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أعز اللَّه عبدًا بعزٍّ هو خيرٌ له من أن يَدُلَّه علىٰ ذُلِّ نفسه»[2].

□ وحمل تلميذٌ لشيخه الإمام القدوة جوهر العدني رسالةً من صاحب له يشتمه فيها ويوبخه، فلما وقف عليها قال: «صدق، أنا كما قال». وبكىٰ بكاءً

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٤١٦) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٢٤٧) وذكره صاحب «الإحياء» (٩/ ١٦٠).

(٢) «الغنية لطالبي طريق الحق» (ص/ ٥١٧ : ٥٢١ ـ ط: التوفيقية).

شديدًا، وأرسل إلىٰ صاحبه يقول له: إذا سُعِدُوا أصحابنا وشقينا، صبرنا علىٰ حكم القضا ورضينا، فلما ورد إلىٰ صاحبه الجواب جاء من بلاده إلىٰ الشيخ مستغفرًا، فقال له: طريقنا هٰذه لا تَصْلُح إلَّا لأقوامٍ كُنِسَت بأرواحهم المزابل»[1]!!.

(١) ونريد هنا أن ننبه إلىٰ أمرٍ هام، إذا كان السلف الصالح يتواضعون لإخوانِهم وأهل العلم ـ إذا قسوا عليهم ـ ، فإن هٰذا الإزراء الشديد علىٰ النفس لا يصلح مع كلِّ أحد؛ خاصةً عوامُّ الناس ودهمائهم، وإلا سقط العلماءُ والعُبَّادُ من عيونِهم فلم ينتفعوا منهم في دينٍ ولا دنيا، والمسلك مع العامة يختلف عنه ـ بلا ريب ـ مع الخاصة، وليس معنىٰ هٰذا أن يتعاظم العالِمُ ويتكبَّر علىٰ عوام المؤمنين، بل المسلك الرشيد في التعامل معهم هو التبسم الوقور في وجوههم، والحرص علىٰ هدايتهم، ونصحهم وإرشادهم إلىٰ ما فيه صلاحُ دينهم ودنياهم، بلا تنزُّل ولا تخاذل ولا إسقاط حُرمةٍ، واللَّهُ المستعان.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦ ـ القناعة والزهادة:

التحلي بالقناعة والزهادة. وحقيقة الزهد[١]: «الزهد بالحرام، والابتعاد عن حِمَاهُ، بالكف عن المشتبهات، وعن التطلع إلىٰ ما في أيدي الناس».

ويُؤْثَر عن الإمام الشافعي[٢]: «لو أوصىٰ إنسان لأعقل الناس، صُرِفَ إلىٰ الزهاد»[٣].

وعن محمد بن الحسن الشيباني: «لما قيل له: ألا تصنِّفُ كتابًا في الزهد؟ قال: قد صنفتُ كتابًا في البيوع».

يعنىٰ: «الزاهد من يتحرز عن الشبهات والمكروهات في التجارات، وكذٰلك في سائر المعاملات والحرف» اهـ.

○ ○ ○

الشرح:

□ قال الإمام الطوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «والزهد مقامٌ شريف، وهو أساس الأحوال الرضيَّة والمراتب السَّنيَّة، وهو أول قدم القاصدين إلىٰ اللَّه ﷻ، والمنقطعين إليه والراضين عنه، والمتوكلين عليه؛ فمن لم يُحكِم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده؛ لأن حب الدنيا رأس كل شر، والزهد في الدنيا رأس كل خير؛ فالزهد هو إذًا الزهد في الحلال، وأما الحرام والشُّبْهة فتركه واجب.

ولمَّا عَلِم القوم أن الدنيا ـ بكل ما فيها ـ لا يساوي عند اللَّه جناحَ بعوضة، ولو كانت تساوي ذٰلك ما سقىٰ منها الكافر شربة ماء، فزهدوا فيها وتركوا

---

(١) «تعليم المتعلم» للزرنوجي (ص٢٨).

(٢) السابق.

(٣) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٨٣)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٥٥)، وذكره الذهبي في «السير» (١٠/ ٩٧ ـ ٩٩).

(٤) «اللمع» (ص/ ٤٦).

جميع حظوظ النفس منها شوقًا إلىٰ ربهم وما أعد لهم من النعيم في دار المُقامَة».

▫ وقال الإمام العلَّامة الكلاباذي في كتابه «التعرف»(١): «وأهل الزهد هُم أهل العلم والحق، وهُم أشفق الناس علىٰ خلق اللَّه من فصيح وأعجم، وهُم أبذل الناس بما في أيديهم، وأزهدهم عمَّا في أيدىٰ الناس، وأشدهم إعراضًا عن الدنيا، وأكثرهم طلبًا للسُّنَّة والآثار، وأحرصهم علىٰ اتباعها، ومن كان منهم أصفىٰ سرًّا وأعلىٰ رتبةً وأشرف مقامًا؛ فإنه أشد اجتهادًا وأخلص عملًا وأكثر تَوَقِّيًا ـ إذا كان عالمًا عاملًا مُخْلِصًا علىٰ نَهج السلف الصالح؛ رضي اللَّهُ عنهم أجمعين ـ ».

▫ وقال ابن الأعرابي: «وأولىٰ الزهد: الزهد في الحرام، ثم الزهد في المباح، وأعلىٰ مراتب الزهد أن تزهد في الفضول، والفضول كل ما لك عنه غنىٰ، فكأنك تزهد في كل شيء؛ إلا فيما أمرك اللَّه، أو فيما ندبك إليه مما يقربك إليه أو ما لا بد منه، وكلّ ما كان سوىٰ ذٰلك فهو من الفضول، وهو ترك ما لا يعني».

▫ قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الزهدُ بعد المقدرة. قيل له: أنت زاهد؟ قال: كيف أكون زاهدًا ولي جُبَّةٌ وكساء؟! إنما الزاهد عمر بن عبدالعزيز؛ أتته الدنيا فتركها»(٢).

▫ وقال الربيع: «قال لي الشافعي: عليك بالزهد؛ فإن الزهد علىٰ الزاهد أحسن من الحُليِّ علىٰ المرأة الناهد»(٣).

▫ وقال سليمان بن حرب: «لو نظرتَ إلىٰ ثياب شُعبة! لم تكن تساوي عشرة دراهم، إزاره ورداؤه وقميصه، وكان شيخًا كثيرَ الصدقة».

---

(١) «التعرف» للكلاباذي (ص/ ٣٨ ـ ط دار صادر بيروت).

(٢) «الزهد وصفة الزاهدين» لابن الأعرابي (ص/ ١٨ : ٢٣).

(٣) «تاريخ ابن عساكر» (١٥/ ١١/ ١٢)، و«السير» للذهبي (١٠/ ٣٦).

□ وقال عليٌّ بن ثابت: «رأيت الثوري في طريق مكة، فقومت كل شيء عليه حتىٰ نعله؛ درهمًا وأربعة دوانيق!»[١].

□ وتأمل هٰذه الرواية عن الإمام الزاهد القدوة أبي عليٍّ الدَّقاق: «أنه سُئِلَ بنَيسابور في مجلس وعظه عن الفقر، فلم يُجِب، ثم أجاب فيها بعد، فروجع في ذٰلك؟ فقال: كان لي قميصانِ وقت السؤال، وليس لصاحب قميصين الكلام في الفقر»[٢].

وأمَّا الزهد في الدنيا: فله حقيقة، ، وأصل، وثمرة:

أما حقيقته: فهو عزوفُ النفس عن الدنيا، وانزواؤها[٣] عنها طوعًا مع القدرة عليه.

وأما أصله: فهو العلمُ والنور الذي يُشرق في القلب؛ حتىٰ ينشرح به الصدر، ويتضح به أن الآخرة خيرٌ وأبقىٰ، وأن نسبة الدنيا إلىٰ الآخرة أقل من نسبة حصًىٰ إلىٰ جوهرة.

وأما ثمرته: فهي القناعة من الدنيا بقدر الضرورة، وهو قدرُ زاد الراكب.

□ وقال رجلٌ لمحمد بن واسع: «أوصني؟ فقال: أوصيك أن تكون ملكًا في الدنيا والآخرة، قال: كيف؟ قال: ازهد في الدنيا»[٤].

قلت: لابد للزهد من العلم والإتقان، وبغير ذٰلك لا يكون زهدًا.

□ قال ابن وهب: «سمعت مالكًا رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: لقد أدركتُ بالمدينة أقوامًا لو استُسقي بهم القطر لسُقُوا، وقد سمعوا من العلم والحديث شيئًا كثيرًا، وما أخذتُ عن واحد منهم، وذٰلك أنهم قد ألزموا أنفسهم خوف اللَّه والزهد، وهٰذا الشأن ـ يعني الحديث والفتيا ـ يحتاج إلىٰ رجل معه تقًىٰ وورع وصيانة

---

(١) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ٤٢ ـ ٤٣).

(٢) «معجم السفر» للسِّلفي (ص/ ٥٨، فقرة: ١٥٦).

(٣) الانزواء: الابتعاد.

(٤) «السير» للذهبي (٦/ ١٢٠ ـ ترجمة محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ).

وإتقان وعلم وفهم، ويعلم ما يخرج من رأسه، وما يصل إليه غدًا في القيامة، فأما الزهد بلا إتقانٍ ولا معرفة فلا ينتفع به، وليس هو بحجة، ولا يحمل عنهم العلم»[(١)].

□ وقد قيل لعبدالله بن المبارك: «مَن الناس؟ فقال العلماء، قيل: ومن الملوك، قال: الزهاد، قيل: ومن السِّفْلة، قال: الذي يأكل بدينه»[(٢)].

---

(١) «إسعاف المبطأ برجال الموطأ» للسيوطي (ص/ ٥). آخر كتاب «تنوير الحوالك شرح موطأ مالك» له، دار إحياء الكتب العربية بمصر.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢/ ٢٩٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٢/ ٤٦٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ١٩٢).

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعليه، فليكن معتدلًا في معاشه بما لا يَشينه، بحيث يصونُ نفسه ومن يَعُول، ولا يَرِدُ مواطن الذِّلة والهُون.

وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي (المتوفَّىٰ في ١٧/ ١٢/ ١٣٩٣هـ) رحمه اللَّهُ تعالىٰ متقللًا من الدنيا، وقد شاهدته لا يعرف فئاتِ العملة الورقية، وقد شافهني بقوله: «لقد جئت من البلاد ـ شنقيط ـ ومعي كنزٌ قل أن يوجد عند أحد، وهو «القناعة»، ولو أردتُ المناصبَ لعرفت الطريق إليها، ولٰكني لا أوثر الدنيا علىٰ الآخرة، ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية».

فرحمه اللَّهُ تعالىٰ رحمه واسعة؛ آمين.

○ ○ ○

❁ الشرح:

قال ﷺ: «كفىٰ بالمرء إثمًا أن يُضيِّعَ من يقوت»[(١)].

□ وقال الزَّرنوجي: «وكان الناس في الزمان الأول يتعلمون الحرفة، ثم يتعلمون العلم؛ حتىٰ لا يطمعوا في أموال الناس، والعالم إذا كان طَمَّاعًا لا يبقي له حرمةُ العلم ولا يقولُ بالحق، فينبغي للمؤمن ألَّا يرجو إلَّا من اللَّه، ولا يخاف إلَّا منه»[(٢)].

□ وقال وهب بن منبِّه لعطاء الخرساني: «كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، وكانوا لا يلتفتون إلىٰ دنياهم، وكان أهلُ الدنيا يبذلون دنياهم في علمهم؛ فأصبح أهل العلم مِنَّا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبةً في دنياهم، وأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم، لِمَا رأوا

---

(١) أخرجه مسلم ـ بمعناه ـ (١/ ٤٠٠)، وأبو داود (٢/ ١٣٢)(١٦٩٢)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٣/ ٤٠٦)(٨٩٤).

(٢) «تعليم المتعلم» للزرنوجي (٩٤).

من سوء موضعه عندهم»[١].

□ وقال إبراهيم التيمي: «كم بينكم وبين القوم! أقبلت عليهم الدنيا فهربوا، وأدبرت عنكم فاتبعتموها»[٢].

□ وقال ابن عيينة: «لو أن هؤلاء الذين يطلبون العلم طلبوا به ما عند الله ﷻ لهابهم الناس بفضل علمهم، ولكن طلبوا به الدنيا فهانوا على الناس»[٣].

وأما حكاية علَّامة الزمان الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فهي من أعاجيب زماننا اليوم، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوق ذلك بكثير، ومن رآه كأنما رأى رجلًا من التابعين، وشيخُه في هذه الحكاية إمام الأئمة ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

□ قال محمد بن الفضل[٤]: «كان جدي أبو بكر بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يدخر شيئًا جهده، بل ينفقه على أهل العلم، ولا يعرفُ صِنجة الوزن، ولا يعرف العشرة والعشرين».

□ وزهد العلَّامة الإمام الشنقيطي ـ عليه رحمة الله ـ يذكرني بقول الإمام الزاهد الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حينما قال: «أدركتُ أقوامًا وصَحِبتُ طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشيءٍ من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شيء منها أدْبَرَ، وهي كانت أهون عليهم من هذا التراب الذي تطؤونه بأرجلكم، إن كان أحدهم ليعيشُ عمره كله ما طوي له ثوب، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيء قط، وأدركتُهم عاملين بكتاب ربهم وسُنَّة نبيهم، وإذا جَنَّهُمُ الليل فقيامٌ على أطرافهم، يفترشون وجُوهَهُم، تجري دموعهم

---

(١) «الحلية» لأبي نعيم (٤/ ٢٩)، و«المدخل» للبيهقي (٢/ ١٠٢، ١٠٣ ـ ط أضواء السلف).
وقد ظن العلَّامة محمد ضياء الرَّحمٰن الأعظمي ـ حفظه الله ـ محقق «المدخل» للبيهقي أن هناك روايات مفقودة من «المدخل» وهي موجودة بنصها في «المدخل إلى دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ٣٤) قلعجي، وما وجده مفقود يخص «مدخل الدلائل»، فليراجع.

(٢) «السير» للذهبي (٥/ ٦١ ـ ط: الرسالة).

(٣) «المدخل للبيهقي (٢/ ٩٥) وحسنه مُحققه ـ حفظه الله ـ.

(٤) «طبقات الشافعية» للسبكي (٢/ ١٣٥) ط دار الفكر.

علىٰ خدودهم، يُناجون ربهم في فِكَاكِ رقابِهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها، ودأبوا في شكرها، وسألوا اللَّه أن يتقبلها منهم، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا اللَّه أن يغفرها لهم، واللَّه ما زالوا كذٰلك علىٰ ذٰلك، وواللَّهِ ما سلموا من الذنوب، ولا نَجَوا إلَّا بالمغفرة»[١].

□ وقيل للإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن ابن المبارك قيل له: كيف يُعرف العالم الصادق؟ فقال: الذي يزهد في الدنيا ويُقبِل علىٰ أمر الآخرة. فقال أحمد: نعم هٰكذا ينبغي أن يكون.

وكان أحمد ينكر علىٰ أهل العلم حب الدنيا والحرص علىٰ طلبها».

□ وقال الإمام ابن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعض الخلفاء لأبي حازم: ما مالُك؟ فقال: الرضا عن اللَّه، والغنىٰ عن الناس»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٦٤٣)، وذكره الغزالي في «الإحياء» (٩/ ١٧٦ ـ ط دار المنهاج).

(٢) «رسائل ابن رجب الحنبلي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٥٦ ـ ط: دار الفاروق الحديثة).

(٣) «الحلية» لأبي نعيم (٣/ ٢٣٢)، «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٥٦)، «المجالسة» للدينوري (رقم/ ٣٣٣١) بيروت.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٧ ـ التحلي برونق العلم:

التحلي بـ«رونق العلم»: حُسن السمت، والهدي الصالح، من دوام السكينة، والوقار، والخشوع، والتواضع، ولزوم المحجة، بعمارة الظاهر والباطن، والتخلي عن نواقضها.

وعن ابن سيرين قال: «كانوا يتعلمون الهَدْي كما يتعلمون العلم».

وعن رجاءِ بن حَيْوة: أنه قال لرجل: «حَدِّثْنَا، ولا تُحَدِّثْنَا عن مُتماوت ولا طعَّان».

○ ○ ○

الشرح:

نعم: مظهر العلم ورونقه السمتُ الحسن، والهدي الجميل، واتباع السُّنن والآثار والأخلاق من هَدي نبينا ﷺ وصحبه الكرام ومن تبعهم بإحسان.

▫ قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلىٰ هديه وسمته وصلاته، ثم أخذوا عنه»[١].

▫ وقال عبدالرَّحمٰن بن يزيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سألنا حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رجل قريب السمت والهدي من النبي ﷺ حتىٰ نأخذ عنه؟ فقال: ما أحد أقرب سمتًا وهديًا ودلًّا بالنبي ﷺ من ابن أم عبدٍ[٢]»[٣].

▫ وعن مالك بن أنس: «أن ابن سيرين كان قد ثقُل وتخلَّف عن الحج، فكان يأمرُ من في الحج أن ينظر إلىٰ هدي القاسم ولبوسه وناحيته، فيبلغونه ذٰلك، فيقتدي بالقاسم»[٤].

---

(١) «التمهيد» لابن عبدالبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٤٧).

(٢) وهو عبداللَّه بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» (٣٧٦٢).

(٤) «السير» للذهبي (٥/ ٥٧).

◻ وقال أبو بكر المُطوِّعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختلفت إلىٰ أبي عبداللَّه ـ أحمد بن حنبل ـ ثنتي عشرة سنة، وهو يقرأ «المسند» علىٰ أولاده، فما كتبت عنه حديثًا واحدًا، وإنما كنت أنظر إلىٰ هديه وأخلاقه»[١].

◻ وقال أحمد بن يونس رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رجعتُ من عند سفيان الثوري أخذتُ نفسي بخير ما علمتُ، وإذا أتيت مالك بن مِغوَل تحفظت من لساني، وإذا أتيت شَريكًا رجعت بعقل تام، وإذا أتيت مِندل بنَ عليٍّ أهمتني نفسي من حُسن صلاته»[٢].

◻ وقال أبو عمرو بن العلاء: «قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال من قيس بن عاصم المِنقري، **لقد اختلفنا عليه في الحلم كما نختلف إلىٰ الفقهاء في الفقه**، بينما نحن نجالس قيس بن عاصم ـ وهو جالس بفنائه، مُحْتَبٍ بكسائه ـ ، أتته جماعةٌ فيهم مقتول ومعهم شابٌّ مكتوف، فقالوا له: هٰذا ابنك، قتله ابن أخيك! فواللَّهِ ما حل حَبوته حتىٰ فرغ من كلامه، ثم نظر إلىٰ ابنٍ له في المحشد، وقال له: قُم فأطلق ابن عمك، ووارِ أخاك، واحمل إلىٰ أمه مِئةً من الإبل فإنها غريبة. فقام ففعل ما أمره به أباه».

قلت: هٰكذا تعلم الأدب والأخلاق بالأفعال المرئية الواقعة في الحال.

◻ وهٰذا ما قال عنه شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: «التأديب بالحال أكمل منه بالمقال».

◻ وقال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «ومنها[٤]: أن يكون حزينًا منكسرًا مطرقًا صامتًا، يَظهر أثر الخشية علىٰ هيئته وكسوته، وسيرته وحركته وسكونه، ونطقه وسكوته، لا ينظر إليه ناظرٌ إلا وكان نظره مذكِّرًا باللَّه تعالىٰ، وكانت صورته

---

(١) «السير» للذهبي (١١/ ٣١٦).

(٢) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٤٠١).

(٣) «إحياء علوم الدين» للغزالي (١/ ١٢٣ ـ ط: دار الحديث بمصر).

(٤) أي: من علامات علماء الآخرة.

دليلًا علىٰ عمله، فالجوادُ عينه فُرارُه[١]، وعلماء الآخرة يُعرفون بسيماهم في السكينة والذِّلة والتواضع، وأما التهافت[٢] في الكلام والتشدق، والاستغراق في الضحك، والحدة في الحركة والنطق؛ فكل ذٰلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب اللَّه تعالىٰ وشديد سخطه، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن اللَّه دون العلماء به».

□ وقال الإمام جعفر الخَلْدِي: «كنتُ إذا أحسست من قلبي قسوةً؛ أتيتُ محمد بن واسع فنظرتُ إليه نظرةً، فكنت إذا رأيت وجهه رأيت وجه ثَكْلَىٰ، وسمعته يقول: أخوك من وعظك برؤيته قبل أن يعِظَك بكلامه»[٣].

□ وقال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: «ومن أنفع أسباب العلاج: أن تطلب صُحبة عبدٍ من عبادِ اللَّه الصالحين مجتهدٍ في العبادة، فتلاحظ أحواله وتقتدي به؛ إلا أن هٰذا علاج قد تعذَّر؛ إذ فُقِدَ في هٰذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهادَ الأولين، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلىٰ السماع؛ فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد، وقد انقضىٰ تعبهم وبقي ثوابُهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع، فما أعظم مُلْكَهُم! وما أشد حسرته من لا يقتدي بهم، ويُمَتِّع نفسه أيامًا قلائل بشهواتٍ مُكِدَّة[٥]، ثم يأتيه الموت ويُحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد، نعوذ باللَّه تعالىٰ من ذٰلك».

□ ولما بكىٰ الإمام فتحٌ الموصلي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد الدموع دمًا؛ عوتب في ذٰلك

---

(١) الفُرار ـ بضم الفاء، وقد تُفتح ـ: الأسنان. والمقصودُ من هٰذا المثل: أن مَن أراد أن يعرف قُوَّةَ أسنان الحصان فيكفيه النظر إلىٰ عينيه. وهو مثلٌ تضربُه العرب لِمَا يُغنيك منظرُه عن اختباره. ويقال ـ أيضًا ـ: «الخبيثُ عينُه فُرارُه»، أي: تعرفُ خُبثَه من النظر في عينيه. مستفاد من «لسان العرب ـ مادة: ف ر ر».

(٢) التهافت: التساقط.

(٣) «الحلية» لأبي نعيم (٢/ ٣٤٧)، وابن الجوزي في «المنتظم» (٧/ ٢٠٤)، والدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (رقم/ ١٧٩ ـ ط: العلمية بيروت).

(٤) «الإحياء» للغزالي» (٩/ ١٧٥ ـ ط دار المنهاج).

(٥) مُكدَّة: مُتعبة.

فقال: «بكيت الدموع علىٰ تخلفي عن واجب حق اللَّه، ثم بكيت الدم علىٰ الدموع لئلا تكون لم تصح لي الدموع»[1].

□ وللَّهِ درُّ من قال:

نـزف الـبكاءُ دمـوعَ عيـنِك فاسـتعِرْ ... عيـــنًا لغيـــرِكَ دمعُهـــا مِـــدرارُ

مـــن ذا يُعيـــرُك عيـــنَه تبكـــي بهـــا ... أرأيـــت عيـــنًا للدمـــوعِ تُعـــارُ؟!

(1) «الإحياء» للغزالي»(٩/ ١٨٠)، «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ١٢٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

رواهما الخطيب في «الجامع»[١]، وقال[٢]: «يجب علىٰ طالب الحديث أن يتجنب: اللعب، والعبث، والتبذُّل في المجالس، بالسخف، والضحك، والقهقهة، وكثرة التنادر[٣]، وإدمان المزاح والإكثار منه، فإنما يُستجاز من المزاح يسيره ونادره وطريفه، والذي لا يخرج عن حد الأدب وطريقة العلم، فأما متصله وفاحشه وسخيفه، وما أوغر منه الصدور، وجلب الشر، فإنه مذموم، وكثرة المزاح والضحك يضع من القدر، ويزيل المروءة» اهـ.

وقد قيل: «مَن أكثر من شيء عُرف به»[٤].

فتجنب هاتيك السقطات في مُجالستك ومحادثتك.

وبعضُ من يجهل يظن أن التبسط في هٰذا أريحية.

وعن الأحنف بن قيس قال: «جنِّبوا مجالسنا ذِكرَ النساء والطعام، إني أبغض الرجل يكون وصَّافًا لفرجه وبطنه»[٥].

وفي كتاب المحدَّث الملهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في القضاء: «ومن تزيَّن بما ليس فيه، شانه اللَّه».

وانظر شرحه لابن القيم رحمه اللَّهُ تعالىٰ[٦].

○ ○ ○

الشرح:

□ قال العلَّامة بدر الدين الغَزِّي[٧]: «قد ورد في ذم المُزاح ومدحه أخبار،

---

(١) يعني الأثرين السابقين عن ابن سيرين ورجاء بن حيوة رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وقد تقدما.
(٢) «الجامع» (١/ ١٥٦).
(٣) إلقاء الفكاهات والنوادر.
(٤) «الجامع» ـ أيضًا ـ للخطيب (٢/ ٤٥) من قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٩٤)
(٦) «إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ١٦١ ـ ١٦٢).
(٧) «المُراح في المزاح» لبدر الدين أبي البركات الغزي (ص٢ : ٤ ـ ط: مكتبة الثقافة).

فحملنا ما ورد في ذمِّه علىٰ ما إذا وصل إلىٰ حد المثابرة والإكثار؛ فإنه إزاحة عن الحقوق، ومَخْرَج إلىٰ القطيعة والعقوق، يَصِمُ المَازِح، ويَضيمُ المُمَازَح.

فوصمة المازح: أن يذهب عنه الهيبة والبهاء، ويُجرِّئ عليه الغوغاء والسفهاء، ويورث الغل في قلوب الأكابر والنبهاء.

وأما إضامة المُمَازح: فلأنه إذا قوبل بفعل مُمِضٍّ[(١)] أو قول مستكره، وسكت عليه؛ أحزن قلبه، وأشغل فكره، أو قابَل عليه جانَبَ مع صاحبه حشمةً وأدبًا، وربما كان للعداوة والتباغض سببًا، فإن الشر إذا فُتح لا يستد، وسهم الأذىٰ إذا أُرسل لا يرتد.

وقد يُعَرِّض العِرْضَ للهَتْكِ، والدماء للسفك، فحق العاقل[(٢)] يتقيه، وينزه نفسه عن وصمة مساويه».

□ قال إبراهيم النخعي: «المُزاح من سُخف أو بَطر».

□ وقال بعض الحُكماء: «من كَثُر مُزاحه زالت هيبته، ومن كثر خلافه طابت غِيبتُه[(٣)]».

□ وذكر خالد بن صفوان المزاح فقال: «يَصُكُّ أحدكم صاحبَه بأشد من الجندل، ويُنشِّقُه أحرقَ من الخردل[(٤)]، ويُفرغ عليه أحَرَّ من المِرجل[(٥)]، ثم يقول: إنما كنت أمازحك!!».

□ وفي «منظومة الآداب» للسابوري:

شرُّ مُزاح المرءِ لا يقالُ ... وخيرُه يا صاحِ لا ينُالُ

وقد يُقال: كثرة المزاحِ ... من الفتىٰ تدعو إلىٰ التَّلاحي

---

(١) مُمِضٌّ: مؤلم.

(٢) أي: العاقل الحق.

(٣) كلا؛ ليس هٰذا عذرًا لغيبة الإنسان، وإنما تباح الغيبة في حق الفاسق المجاهر ـ مثلًا ـ.

(٤) الخردل: نبات حار.

(٥) المِرجل: القِدر المغلي.

إِن المـــزاحَ بـــدؤه حـــلاوة ... لٰكـــنما آخـــرُه عَـــداوَة
يَحقِـــد مـــنه الـــرجلُ الـــشريفُ ... ويجتـــري بـــسُخفه الـــسَّخيفُ

فالمازح العاقل يتوخىٰ بمزحه إحدىٰ حالتين:

الحالة الأولى: إما إيناس المصاحَبين، والتودد إلىٰ المخاطَبين، وهٰذا يكون بما أُنس من جميل القول، فيقتصد في مزحه؛ فإن الإفراط فيه يذهب البهاء، ويجرئ السفهاء، وإن التقصير فيه يغض عنك المؤانسين، ويوحش منك المصاحبين.

والحالة الثانية: أن ينفي بالمزاح ما طرأ عليه من سأم، أو حدث من سأم، أو حدث به من همٍّ وغم، فقد قيل: «لابد للمصدور أن يَنْفُث».

□ «وعلىٰ هاتين الحالتين كان مَزحُ رسول اللَّه ﷺ وأصحابه وتابعيه، والعلماء والأئمة» اهـ.

□ وقال محمد بن النعمان بن عبدالسلام: «لم أرَ أعبدَ من يحيىٰ بن حماد، وأظنه لم يضحك».

□ قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ معلِّقًا ـ : «قلت: الضحك اليسيرُ والتبسم أفضل، وعدم ذٰلك من مشايخ العلم علىٰ قسمين:

أحدهما: يكون فاضلًا؛ لمن تركه أدبًا وخوفًا من اللَّه، وحزنًا علىٰ نفسه المسكينة.

والثاني: مذموم لمن فعله حمقًا وكِبرًا وتصنُّعًا.

كما أن من أكثر الضحك استخف به، ولا ريب أن الضحك في الشباب أخف منه وأعذر منه في الشيوخ. وأما التبسمُ وطلاقة الوجه، فأرفع من ذٰلك كله.

قال النبي ﷺ: «**تبسُّمُك في وجهِ أخيك صدقة**».

وقال جرير: «ما رآني رسول اللَّه ﷺ إلا تبسم».

فهٰذا هو خلق الإسلام، فأعلىٰ المقامات من كان بكَّاءً بالليل، بسَّامًا بالنهار.

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لن تسَعُوا الناسَ بأموالكم، فلْيَسعهُم منكم بَسطُ الوجه**».

بقي هنا شيء: ينبغي لمن كان ضحوكًا بسامًا أن يقصِّر من ذٰلك، ويلوم نفسه حتىٰ لا تمجَّه الأنفس، وينبغي لمن كان عبوسًا منقبضًا أن يتبسم، ويحسِّن خلقه، ويمقت نفسه علىٰ رداءة خلقه، وكل انحراف عن الاعتدال فمذموم، ولابد للنفس من مجاهدة وتأديب» اهـ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٨ ـ تحلَّ بالمروءة[١]:

التحلي بـ«المروءة»، وما يحمل إليها، من مكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه، وإفشاء السلام، وتحمُّل الناس، والأنفة من غير كبرياء، والعزة في غير جبروت، والشهامة في غير عصبية، والحَمِيَّة في غير جاهلية.

وعليه فتنكب «خوارم المروءة»، في طبعٍ، أو قولٍ، أو عملٍ، من حرفةٍ مُهينة، أو خَلة رديئة، كالعُجب، والرياء، والبَطَر، والخُيلاء، واحتقار الآخرين، وغشيان مواطن الريب.

○ ○ ○

الشرح:

هٰذه مكارم الأخلاق وشيم أهل الفضل المُقْتَدىٰ بهم والمهتدىٰ بهديهم.

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عن المروءة ـ : «هي استعمال ما يُجَمل العبد ويَزينه، وترك ما يُدنسه ويشينه، وهي استعمال كل خلق حسن، واجتناب كل خلق قبيح، وهي علىٰ ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: مروءة المرء مع نفسه، وهي أن يحملها قسرًا علىٰ ما يجمل ويزين، وترك ما يدنِّس ويشين؛ ليصير لها ملكة في العلانية.

الدرجة الثانية: المروءة مع الخَلق؛ بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء والخلق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه. ولْيَتخذِ الناس[٢] مِرآةً لنفسه؛ فكل ما كرهه ونفر عنه ـ من قول أو فعل أو خلق ـ فليجتنبه، وما أحبه من ذٰلك واستحسنه فليفعله، وصاحب هٰذه البصيرة ينتفع بكل من خالطه وصاحبه مِن كامل وناقص، وسيئ الخلق وحَسنِه، وعديم

---

(١) فيها مؤلفات مفردة، انظر: «معجم الموضوعات المطروقة» (ص٣٩٢).

(٢) يقصد العقلاء منهم.

المروءة وغزيرها.

الدرجة الثالثة: المروءة مع الحق سبحانه؛ بالاستحياء من نظره إليك واطلاعه عليك في كل لحظةٍ ونَفَس، وإصلاح عيوب نفسك جَهد الإمكان، ولا يلتفت إلىٰ عيب غيره» اهـ[١].

□ قال الإمام الشافعي: «للمروءة أربعة أركان: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنُّسُك»[٢].

□ وقد سئل الأحنف بن قيس عن المروءة؟ فقال: «العِفَّة والحِرفة»[٣].

قلت: ما أجملَ بطالب العلم أن تكون له حرفةٌ يتقوَّتُ بها، وتُعينه علىٰ طلب العلم وشراء نفائس الكتب والمخطوطات، وخدمة علماء أهل السُّنَّة والجماعة، مع خدمة الدعوة السلفية المباركة من الدروس الأكاديمية، والمجالس العامَّة الحافلة بعلماء الأمة، ثم إعانة طلبة العلم الشرعي، ومراعاة أحوالهم وظروفهم، وتيسير تعليمهم بالكتب والشرائط، وكل ما يعينهم علىٰ بُغيتهم في الطلب، وكل ذٰلك من شيم أهل المروءة وأهل الفضل، واللَّه المُنعم بفضله علىٰ من يشاء.

□ وقال محمد بن النضر الحارثي[٤]: «أول المروءة: طلاقة الوجه. والثاني: التودد إلىٰ الناس، والثالث: قضاء الحوائج، ومن فاته حَسَبُ نفسه لم ينفعه حسب أبيه».

□ وقال ابن أبي فُدَيك[٥]: «سألت أبا نصرٍ الجُهَيْني عن المروءة؟ فقال: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وتوقي الأدناس، واجتناب المعاصي ـ كبيرها وصغيرها ـ . قلت له: فما السخاء؟ قال: جهد المقل، قلت له: فما البخل؟

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٦٩، ٧٠ ـ ط: دار الغد العربي).
(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٨٨)، «مناقب الشافعي» لابن أبي حاتم (ص/ ١٢٢).
(٣) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٤١٣)، «المجالسة» للدينوري (١/ ٣٢٠)(٨٢٤).
(٤) «المجالسة» للدينوري (٨٢٨)، «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٤١٣).
(٥) «الذهب المسبوك» للإمام الحميدي (ص/ ٢٢١)، «المجالسة» للدينوري (رقم/ ٩٧٥).

فقال: أُفٍّ ـ وحوَّل وجهه عني ـ ، فقلت له: لم تُجبني بشيء، قال: بلىٰ قد أجبتك».

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٩ ـ التمتع بخصال الرجولة:

تمتَّع بخصال الرجولة؛ من الشجاعة، وشدة البأس في الحق، ومكارم الأخلاق، والبذل في سبيل المعروف، حتىٰ تنقطع دونك آمال الرجال.

وعليه، فاحذر نواقضها، من ضعف الجأش، وقلة الصبر، وضعف المكارم، فإنها تهضم العلم، وتقطع اللسان عن قولة الحق، وتأخذ بناصيته إلىٰ خصومة في حالة تلفحُ بسمومها في وجوه الصالحين من عباده.

○ ○ ○

الشرح:

لا عيش إلَّا بخصال الرجولة حقًّا، من الأدب والحِشمة، والشجاعة والكرم، وبذل النفس والمال، والإحسان والصبر والمواساة، والمناصحة والأخوة وغيرها.

◻ قال أبو العباس المُبَرِّد: «حدثني بعض مشايخنا قال: كنت عند بشر بن الحارث يومًا، فرأيته مغمومًا، ما تكلم حتىٰ غربت الشمس، ثم رفع رأسه فقال:

ذهب الرجالُ المقتدَىٰ بِفِعالِهم ... والمنكِرون لكل أمرٍ منكرِ
وبقيتُ في خلفٍ يزيِّنُ بعضهم ... بعضًا ليدفع مِعورٌ عن معورِ»[1].

قلت: أين من يغفر الزَّلة، ويستُر العورة، ويقيل العثرة، ويرحم العَبْرَة، ويرد الغِيبة، ويقبل المعذرة، ويحفظ الخُلَّة، ويرعىٰ الذمة، ويحسن النصرة، ويشكر النعمة، ويجيب الدعوة، ويقبل الهدية، ويكافئ الصلة، ويقضي الحاجة، ويشفع المسألة، ويرد الضالة، ويوالي ولا يعادي، ويحب لغيره ما يحب لنفسه، ويكره لغيره ما يكره لنفسه، ويصبر علىٰ الأذىٰ والقذىٰ؟.

(١) «فضل الكلاب علىٰ كثير ممن لبس الثياب» (ص/ ١٢) لابن المرزبان.

وأين من يُصبِّرك ويَصبِر معك علىٰ الطريق الحق والدعوة إلىٰ اللَّه؟ وأين من يؤنسك ولا يوحشك؟ وأين من يأخذ بيديك في النوائب والشدائد؟ وأين من يُذكرك ويُرغبك ويُرَهِّبُك؟ وأين من يُذهب عنك الهموم و الغموم؟ وأين من يُبكيك في اللَّه وللَّه؟ وأين من يُحبك فيه ويبغضك فيه؟ وأين من يكون معك في مواطن الشدة والهلكة والإعواز وشدة الحاجة وطلب المؤنة؛ مع تمام المودة والوفاء وتمني العافية لك في الدارين؟.

فصار اليوم أبعد الناس سفرًا من كان سفره في طلب الرجال.

فعليك ـ أخي الطالب ـ بخصال الرجولة، وشيَم الأخلاق، وأدب الصداقة الصادقة مع الحفاظ عليها، وخدمة أهل الإسلام وإعانتهم ومودتِهم بالرحمة.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٠ ـ هَجْرُ التَّرَفُّهِ:

لا تسترسل في «التنعُّم والرفاهية»؛ فإن «البذاذة من الإيمان»[١]، وخذ بوصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في كتابه المشهور، وفيه: «وإياكم والتنعم وزي العَجَم، وتمعددوا، واخشوشنوا...»[٢].

وعليه، فَازْوَرَّ[٣] عن زيف الحضارة؛ فإنه يؤنث الطباع، ويرخي الأعصاب، ويقيِّدك بخيط الأوهام، ويصل المُجِدُّون لغاياتهم وأنت لم تبرح مكانك، مشغولٌ بالتأنق في ملبسك، وإن كان منها شيات ليست مُحَرَّمَةً ولا مكروهة، لٰكن ليست سمتًا صالحًا، والحلية في الظاهر كاللباس عنوان علىٰ انتماء الشخص، بل تحديد له، وهل اللباس إلا وسيلة التعبير عن الذات؟!.

فكن حذرًا في لباسك، لأنه يعبِّر لغيرك عن تقويمك، في الانتماء، والتكوين، والذوق، ولهٰذا قيل: «الحلية في الظاهر تدل علىٰ ميل في الباطن»، والناس يصنفونك من لباسك، بل إن كيفية اللبس تعطي للناظر تصنيف اللابس من: الرصانة والتعقل، أو التمشيخ والرهبنة، أو التصابي وحب الظهور.

خذ من اللباس ما يَزينك ولا يشينك، ولا يجعل فيك مقالًا لقائل، ولا لمزًا لِلامِز، وإذا تلاقىٰ ملبسك وكيفية لبسك بما يلتقي مع شرف ما تحمله من العلم الشرعي، كان أدعىٰ لتعظيمك والانتفاع بعلمك؛ بل بحسن نيتك يكون قربة، إنه وسيلة إلىٰ هداية الخلق للحق.

وفي المأثور عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٤]: «أحبُّ إليَّ أن

---

(١) كما صح عن النبي ﷺ، راجع له: «السلسلة الصحيحة» (رقم ٣٤١) و«تعظيم قدر الصلاة» (رقم ٤٨٤) لابن نصر المروزي.

(٢) «مسند علي بن الجعد» (١/ ٥١٧) (رقم ١٠٣٠)، وعنه «الفروسية» لابن القيم (ص٩)، و«أدب الإملاء والاستملاء» (ص١١٨). وأصله في الصحيحين وغيرهما.

(٣) ازوَرَّ: ابتعد.

(٤) «الإحكام» للقرافي (ص٢٧١).

أنظر القارئ أبيض الثياب».

أي: لِيَعْظُمَ في نفوس الناس، فَيُعَظَّمَ في نفوسهم ما لديه من الحق.

والناس ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ: كأسراب القَطَا[١]، مجبولون علىٰ تشبه بعضهم ببعض[٢].

فإياك ثم إياك من لباس التصابي، أما اللباس الإفرنجي، فغير خافٍ عليك حكمه، وليس معنىٰ هٰذا أن تأتىٰ بلباس مشوَّه، لٰكنه الاقتصاد في اللباس برسم الشرع، تَحُفُّهُ بالسمت الصالح والهدي الحسن.

وتطلب دلائل ذٰلك في كتب السنة والرقاق، لا سيما في «الجامع» للخطيب[٣].

ولا تستنكر هٰذه الإشارة، فما زال أهل العلم ينبهون علىٰ هٰذا في كتب الرقاق والآداب واللباس[٤]، واللَّه أعلم.

○ ○ ○

الشرح

نعم؛ هٰذه الإشارة قيمة للغاية، ومفيدة للعامل وللناظر وللمهتدي بهدي الشرع القيم الجميل الرائع.

□ قال الميموني: «ما أعلم أني رأيت أحدًا أنظف بدنًا، ولا أشد تعهدًا لنفسه وشاربه وشعر رأسه وشعر بدنه، ولا أنقىٰ ثوبًا بشدةٍ بياض من أحمد ابن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ»[٥].

---

(١) القطا: طائر صغير يُشبهُ اليمام.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ١٥٠).

(٣) «الجامع» (١ / ١٥٣ ـ ١٥٥).

(٤) «أدب الإملاء والاستملاء» (ص١١٦ ـ ١١٩)، «اقتضاء الصراط المستقيم»، «مجموع الفتاوىٰ» (٢١ / ٥٣٩)، وانظر «الروح» لابن القيم (ص٤٠).

(٥) «السير» للذهبي (١١/ ٢٠٨).

□ وقال ابن عيينة: «قال لي ربيعة بن عبدالرَّحمٰن: أدركت مشيخة أهل المدينة لهم الغدائر، وعليهم المورَّد والمُعَصْفَر، وفي أيديهم المخاصر وبها آثار الحِنَّاء: ودين أحدهم أبعد من الثُّريا إذا أُريد دينه»[١].

قلت: وهٰذا بعيدٌ عن قول أحدهم: «أطعِم الفَم تَستحي العَين».

□ وقال مطرف: «سمعت مالكَ بن أنس يقول: قلت لأُمِّي: أذهب فأكتب العلم؟ فقالت لي: تعالَ فالبس ثياب العلماء ثم اذهب فاكتب. فألبستني ثيابًا مشمَّرةً، ووضعت الطويلة علىٰ رأسي، وعمَّمَتني فوقها، ثم قالت: اذهب الآن فاكتب»[٢].

قلت: هٰذا هو اللباس المطلوب مع حسن الأدب، وجميل الهدي وتبسُّم الروح ونسائم العطر الفيَّاح من الياسمين الملطف بالعود الهندي؛ حتىٰ يَبهج القلب وتَسعَد الروح وتهدأ الجوارح.

وأما لباس الشُهرة فناهيك عنه.

□ قال الإمام الذهبي: «ومن مليح قول شَهر: من ركب مشهورًا من الدواب، ولبس مشهورًا من الثياب، أعرض اللَّه عنه وإن كان كريمًا»[٣].

قلت ـ أي الذهبي ـ : «من فَعَلَهُ ليُعِزَّ الدين، ويُرْغِم المنافقين، ويتواضع ـ مع ذٰلك ـ للمؤمنين، ويحمد رب العالمين؛ فحسن، ومن فَعَلَه بَذَخًا وتِيهًا وفخرًا؛ أذله اللَّه وأعرض عنه، فإن عوتب ووعِظ فكابر، وادَّعىٰ أنه ليس بمختال ولا تيَّاه، فأعْرِض عنه؛ فإنه أحمق مغرور بنفسه».

□ وقال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم ـ أيها الطالب ـ أن المذموم من الزِّي هو: التنقل من زيٍّ متكلف لا معنىٰ له؛ إلىٰ زيٍّ آخر مثله في التكلف، وفي أنه لا

---

(١) «المجالسة» للدينوري (٥٣٧)، «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٤١٦).

(٢) «الإلماع» للقاضي عياض (ص/ ٦١)، و«المدارك» له (١/ ١٣٠)، و«الديباج المذهب» لابن فرحون (ص/ ٢٠).

(٣) «السير» للذهبي (٤/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦).

معنىٰ له.

وأما من استعمل من الزيِّ ما أمكنه مما به إليه حاجة ـ مع ترك التزيد مما لا يُحتاج إليه ـ، **فهٰذا عينٌ من عيون العقل والحكمة كبير**.

وقد كان رسول اللَّه ﷺ ـ وهو القدوة في كل خير، والذي أثنىٰ اللَّه تعالىٰ علىٰ خُلُقِهِ، والذي جمع اللَّه فيه جميع الفضائل بتمامها، وأبعده برحمته عن كل نقص وعيب ـ، كان يعود المريض مع أصحابه راجلًا أقصىٰ المدينة بلا خُفٍّ ولا نعلٍ ولا قلنسوة ولا عِمامة، ويلبس الشعر إذا حضره ويلبس الوشيَّ من الحبرات إذا حضره، ولا يتكلف إلىٰ ما لا يحتاج إليه، ولا يترك ما يحتاج إليه، ويستغني بما وجد عمَّا لا يجد، وربما يمشىٰ بالخُف، ويركب البغلة الرائعة الشَّهْباء، وربما مشىٰ حافيًا راجلًا ـ صلوات اللَّه عليه ـ، وربما يركب الفرس عريًا، ومرةً يركب النَّاقة، ومرةً يركب حمارًا، ويردف عليه بعض أصحابه، ومرةً أكل التمر دون خبز، والخبز يابسًا، ومرة يأكل البطيخ بالرطب، ويبذل الفضل، ويترك ما لا يحتاج إليه، ولا يتكلف فوق مقدار الحاجة إليه، ولا يغضب لنفسه؛ بل يغضب لربه ﷻ؛ هٰذا هو فعله صلوات اللَّه عليه»[(١)].

◻ ومن جميل الأدب وحسن الحوار القيم: «أن الفضيل بن عياض قال: دخل سيار ـ أبو الحكم ـ علىٰ مالك بن دينار في ثياب جياد، فقال له مالك: مثلك يلبس هٰذا اللباس؟! فقال: ثيابي تضعني عندك أم ترفعني؟ قال: بل تضعك، فقال: هٰذا التواضع. ثم قال: يا مالك، إني أخاف أن يكون ثوباك قد أنزلا بك من الناس ما لم ينزلا بك من اللَّه»[(٢)].

رُحماك ـ يا رب ـ بنا، اللهم علمنا وفهمنا، وبصِّرنا بعيوبنا حتىٰ نصلحها وترضىٰ عنا، وتجعلنا من خاصة عبادك الصالحين المهتدين بهدي سلفهم الكرام الطيبين.

---

(١) «مداواة النفوس» لابن حزم (ص/ ١٠٢، ١٠١).

(٢) السير للذهبي (٥/ ٣٩٢).

▫ وقد قال الفضيل: «احذروا عالم الدنيا؛ لا يصدكم بسُكره. ثم قال: إن كثيرًا من علمائكم زيُّه أشبه بزي كسرىٰ وقيصر منه بزي محمد ﷺ، إن محمدًا ﷺ لم يضع لبنةً علىٰ لبنة، ولا قصبةً علىٰ قصبة، ولٰكن رُفع له عَلَمٌ فشَمَّر إليه»[١].

وإذا وجدت من عالمٍ تواضعًا في ملبسٍ فلا تحدث نفسك بغير الأدب والاحترام[٢].

▫ قال ابن عمار في جرير بن عبدالحميد الضَّبِّي: «هو حجة، وكانت كتبه صحاحًا، وما كان زيُّه زي محدِّث، فإذا حدث أي: كان يشبه العلماء».

▫ وقال ابن عمار ـ أيضًا ـ : «كنت إذا نظرت إلىٰ يحيىٰ القطان ظننت أنه لا يحسن شيئًا بزي التجار؛ فإذا تكلم أنصت له الفقهاء»[٣].

قلت: تعلم أو تَبَلَّمْ؛ يعني اسكُت!!.

▫ وقال علَّامة الحرمين الإمام اليافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن استعمال المباحات دائمًا ربما يؤدي إلىٰ خصال لا تُحمد عقباها، والسعيد من احترز لآخرته.

وإن قال قائل: التزين بالمباح مباح؟.

قلت ـ أي اليافعي ـ : الجواب ما قاله الإمام أبو حامد الغزالي: التزين بالمباح ليس بحرام، ولٰكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتىٰ يشق عليه تركه، واستدامة الزينة لا تمكن إلا بمباشرة أسباب ـ في الغالب ـ يلزم من مراعاتها بعض المعاصي؛ منها: المداهنة، ومراعاة الخلق ومراءاتُهم، وأمور أخرىٰ محظورة.

ودواء ذٰلك اجتناب ذٰلك؛ لأن من خاض في الدنيا لا يسلم منها البتة، ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض؛ لكان ﷺ لا يبالغ في ترك الدنيا حتىٰ نزع القميص المطرز بالعَلَم وغيره».

---

(١) «رسائل ابن رجب الحنبلي» (١/ ٥٣).
(٢) «السير» (٩/ ١١).
(٣) «السير» (٩/ ١٧٩).

ثم قال اليافعي: «وهو كما قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ فإنه يتطرق إلىٰ ذٰلك آفات كثيرة سابقة ولاحقة.

فمن جملة السابقة: فساد الاقتصاد، ومن جملة اللاحقة: حصول الإعجاب إلَّا من عصمه اللَّه تعالىٰ ـ وقليل ما هم ـ ، علىٰ أن ترك ذٰلك مع العصمة أفضل، ولما كتب الإمام يحيىٰ النوفلي إلىٰ الإمام مالك بن أنس قوله: أما بعد فقد بلغني أنك تلبس الثياب الدِّقاق، وتأكل الرِّقاق، وتجلس علىٰ الوطاء، واتخذت علىٰ بابك حاجبًا، وقد جلست مجلس العلم، واتخذك الناس إمامًا؛ فاتقِ اللَّه ـ يا مالك ـ ! فكتب إليه الإمام مالك: فأما ما ذَكرتَ أنىٰ آكل الرِّقاق وألبس الدِّقاق، وأحتجب وأجلس علىٰ الوطاء؛ فنحن نفعل ذٰلك ونستغفر اللَّه، وقد قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف].

وإني أعلم أن ترك ذٰلك خيرٌ من الدخول فيه[1].

وانظر إلىٰ هٰذا الأدب المفقود كليَّة:

□ قدم حمادُ بن أبي سليمان البصرة، فجاء فرقدٌ السَّبَخي ـ وعليه ثياب صوف وسخة ـ ، فنظر إليه حماد مُغضبًا، ثم قال له: يا فرقد، ضع نصرانيتك هٰذه عنك، **فلقد رأيتُنا نأتي إبراهيم النخعي رَحِمَهُٱللَّهُ: فيخرج إلينا وعليه ثياب جياد ومُعصفرة، ونحن نرىٰ أن الميتة قد حلَّت له، وكان يُجالس قومًا أدنياء لئلا يُذَكَّر باللَّه، وكان يريد بذٰلك إخفاء نفسه وستر عمله؛ فرضىٰ اللَّه عن هٰؤلاء القوم**»[2].

قلت: قل لي بربك: أين هٰذا الأدب؟!.

---

(١) «الإرشاد والتطريز» لليافعي (ص/ ٩٥ ـ دار المنهاج)، «إحياء علوم الدين» (١/ ٦٧).
(٢) «المجالسة» للدينوري (رقم/ ١٩٢٠)، «عيون الأخبار» (١/ ٤١٥).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١١ ـ الإعراض عن مجالس اللغو:

لا تَطَأْ بساط من يَغْشون في ناديهم المنكر، ويهتكون أستار الأدب، متغابيًا عن ذٰلك، فإن فعلت ذٰلك، فإن جنايتك علىٰ العلم وأهله عظيمة.

○ ○ ○

الشرح:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وذكر النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**ومَن حام حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه**»(١).

هٰكذا يُربي القائد المُعَلِّم ﷺ صحابته الكرام قبل أن يقع من أحدهم شيء فيندم عليه، فهو يَسُدُّ عليهم الباب حتىٰ لا يأتِيَ الحرج، و كان معهم في كل شيء ناصحًا أمينًا، حتىٰ خرج هٰذا الجيل الذي لم يكن علىٰ مثال سبق ولا مثال آتٍ؛ فهم الجواهر والدرر واللؤلؤ والمرجان، وكفاهم قوله تعالىٰ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

والمقصود أنك ـ دائمًا وأبدًا ـ لابد أن تكونَ بعيدًا عن الشبهات وما يشينك؛ حتىٰ لا يصدَّكَ ذٰلك عن إتمام رسالتك في هٰذه الحياة.

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ٢٠) رقم ٥٢)، و«صحيح مسلم» (٥/ ٥٠) (رقم ٤١٧٨).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٢ ـ الإعراض عن الهَيْشات:

التَّصَوُّن من اللغط والهيشات، فإن الغلط تحت اللغط، وهٰذا ينافي أدب الطلب.

ومن لطيف ما يُستحضر هنا ما ذكره صاحب «الوسيط في أدباء شنقيط» وعنه في «معجم المعاجم»: أنه وقع نزاع بين قبيلتين، فسعت بينهما قبيلة أخرىٰ في الصلح، فتراضَوا بحكم الشرع، وحكَّموا عالمًا، فاستظهر قتل أربعةٍ من قبيلة بأربعة قتلوا من القبيلة الأخرىٰ، فقال الشيخ بابُ بن أحمد: مثل هٰذا لا قصاص فيه! فقال القاضي: إن هٰذا لا يوجد في كتاب. فقال: بل لم يخلُ منه كتاب. فقال القاضي: هٰذا «القاموس» ـ يعني أنه يدخل في عموم كتاب ـ فتناول صاحب الترجمة «القاموس» وأول ما وقع نظره عليه: «والهيشة: الفتنة، وأم حبين[1]، وليس في الهيشات قَوَد»، أي: في القتيل في الفتنة لا يدري قاتله، فتعجب الناس من مثل هٰذا الاستحضار في ذٰلك الموقف الحرج» اهـ ملخصًا.

١٣ ـ التحلي بالرفق:

التزم الرفق في القول، مجتنبًا الكلمة الجافية، فإن الخطاب اللين يتألف النفوس الناشزة، وأدلة الكتاب والسنة في هٰذا متكاثرة.

○ ○ ○

الشرح:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وفي «صحيح مسلم» من حديث عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه يُحبُّ الرفق**»[2].

---

(١) هي دُوَيبةٌ.

(٢) مسلم (٢/ ٤٣٣)، وأبو داود (٤٨٠٨)، والخطيب في «الجامع» (٢/ ٤٧).

◻ ويقول ابن حبان[١]: «الواجب علىٰ العاقل لزوم الرفق في الأمور كلها، وترك العجلة والخفة فيها، إذ اللَّه تعالىٰ يحب الرفق في الأمور كلها، ومن مُنع الرفق مُنع الخير، كما أن من أُعطي الرفق أُعطي الخير، ولا يكاد المرء يتمكن من بُغيته في سلوك قصده في شيء من الأشياء علىٰ حسب الذي يحب إلا بمقارنة الرفق ومفارقة العجلة:

الرفق أيمنُ شيءٍ أنت تتبعه والخُرقُ أشأمُ شيءٍ يُقدِمُ الرجُلا

وذو التثبت من حمدٍ إلىٰ ظفَرٍ مَن يركبِ الرفق لا يستحقبِ الزللا

فالعاقل يلزم الرفق في الأوقات، والاعتدال في الحالات؛ لأن الزيادة علىٰ المقدار في المبتغىٰ عيب، كما أن النقصان فيما يجب من المطلب عجز، ومن لم يصلحه الرفق لم يصلحه العنف، ولا دليل أمهر من رفقٍ، كما لا ظهير أوثق من العقل، ومن الرفق يكون الاحتراز، وفي الاحتراز تُرجىٰ السلامة، وفي ترك الرفق يكون الخُرق، وفي لزوم الخُرق تخاف الهَلَكة، فالرافق لا يكاد يُسبق، كما أن العَجِل لا يكاد يَلحق.

وكما أن من سكت لا يكاد يندم، كذٰلك من نطق لا يكاد يسلم، والعَجِل يقول قبل أن يَعلم، ويُجيب قبل أن يَفهم، ويَحمد قبل أن يُجَرِّب، ويَذم بعدما يَحمد، يعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم، والعجل تصحبه الندامة، وتعتزله السلامة، وكانت العرب تُكَنِّي العجلة: أم الندامات» اهـ.

◻ قال رياح القَيسي: «قال لي عتبة الغلام: يا رياح، إن كنتُ كلما دعتني نفسي إلىٰ الكلام تكلمتُ فبئس الناظر أنا. يا رياح، إن لها موقفًا تغتبط فيه بطول الصمت عن الفضول»[٢].

◻ وقال نصر بن علي للمتوكل ـ أمير المؤمنين[٣] ـ: «يا أمير المؤمنين،

---

(١) «روضة العقلاء» (ص/ ٢٦٠، ٢٦١ ـ ط: الباز السعودية).

(٢) «الحلية» لأبي نعيم (٦/ ٢٣٢).

(٣) المنتخب من كتاب «السياق لتاريخ نيسابور» (١٢٠) لإبراهيم بن محمد الصريفيني.

أنشدني الأصمعي في الرفق بيتين، فقال: ما هما ـ يا نصر ـ؟ فقلت:

لم أرَ مثلَ الرفقِ في لينهِ قد أخرج العذراء من خدرها
من يستعن بالرفق في أمره يستخرج الحيةَ من جُحرها

قال: فقال: يا غلام، الدواة والقرطاس. فكتبهما بيده».

□ وقال حبيب بن حُجْر القيسي: «ما أحسن الإيمان يزينه العلم! وما أحسن العلم يزينه العمل! وما أحسن العمل يزينه الرفق! وما أضيف شيء إلىٰ شيء أزينُ من علم إلىٰ حلم»[1].

---

(١) «الزهد» لابن المبارك (٢/ ٧٩٧)، «تاريخ الفسوي» (٣/ ٤٠٣)، المجالسة» (٧٩٨).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٤ ـ التأمل:

التحلي بالتأمل، فإن من تأمل أدرك، وقيل: «تأمل تُدرك».

وعليه، فتأمل عند التكلم: بماذا تتكلم؟ وما هي عائدته؟ وتَحَرَّز في العبارة والأداء ـ دون تعنت أو تحذلق ـ، وتأمل عند المذاكرة: كيف تختار القالب المناسب للمعنىٰ المراد؟ وتأمل عند سؤال السائل: كيف تتفهم السؤال علىٰ وجهه حتىٰ لا يحتمل وجهين؟ وهٰكذا.

○ ○ ○

الشرح:

نعم ـ أخي الحبيب ـ ؛ التأمل صفة القوم في الأمور كلها، وما كانت العجلة شيمتهم أبدًا، لذا لازمتهم السلامة علىٰ جميع الأحوال، وهٰذا ما حيَّر قلوب الحاسدين، وأبهج قلوب المحبين، لأنهم تأملوا فأدركوا، وتكلموا علىٰ علم فنجوا.

▫ قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذُل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن أطلق أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه».

▫ وقال الأوزاعي: «من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير، ومن عرف أن منطقه من عمله قَلَّ كلامه»[2].

▫ لذا قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن تأمل ظفر، ومن جَدَّ وَجَد»[3].

---

(١) «طبقات الصوفية» للسلمي (ص/ ٤٠ ـ ط: العلمية بيروت).

(٢) «السير» للذهبي (٧/ ١١٧)، و«الحلية» (٦/ ١٤٣).

(٣) «هُدَىٰ الساري» لابن حجر (ص/ ١٣).

تنبيه: اعلم أن مقدمة «فتح الباري» الاسم الصحيح لها هو: «هُدىٰ الساري» بضم الهاء، وليس «هَدي الساري» بفتح الهاء. كذا وجد بخط ابن حجر علىٰ مخطوطة مقدمة «الفتح»، =

□ وقال عبدُاللَّه بن الحسن بن عقيل لابنه يومًا: «يا بُني، استعن علىٰ الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلىٰ القول، فإن للقول ساعاتٍ يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب».

وكانوا يتأملون ويتفهمون السؤال علىٰ وجهه حق التفهم.

□ ذكر ابن القيم[1] عن أيوب السختياني: «أنه كان إذا سأله السائل عن شيء قال له: أعِد. فإن أعاد السؤال كما سأله عنه أولًا أجابه، وإلا لم يُجبه».

□ قال ابن القيم بعده: «وهٰذا من فهمه وفطنته، وفي ذٰلك فوائد عديدة:

منها: أن المسألة تزداد وضوحًا وبيانًا بتفهم السؤال.

ومنها: أن السائل لعله أهمل فيها أمرًا يتغير به الحكم، فإذا أعادها ربما بيَّنه له.

ومنها: أن المسؤول قد يكون ذاهلًا عن السؤال أولًا، ثم يحضر ذهنه بعد ذٰلك.

ومنها: أنه ربما بان له تعنت السائل، وأنه وضع المسألة، وأنها لا حقيقة لها، وأنها من الأغلوطات التي لا يجب الجواب عليها» اهـ.

فتأمل قبل أن تتكلم حتىٰ لا تندم، وربما كان الصمت أكمل وأحسن في مواطن هو فيها أجمل، واللَّه الموفق.

= هٰكذا مُشَكَّلة بضم الهاء وقد نبهنا علىٰ ذٰلك أخونا المحقق حسنين سلمان مهدي ـ حفظه اللَّه ـ في تحقيقه لكتاب «هداية الساري لسيرة البخاري»، للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (ص/ ١٨ ـ ط: دار البشائر).

(١) «إعلام الموقعين» لابن القيم (٣/ ٤٤٦)، وأخرجه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٢٣٤)، وابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٢٤٧)، والبيهقي في «المدخل» (ص/ ٨٢٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٥ ـ الثبات والتثبت:

تحلَّ بالثبات والتثبت ـ لا سيما في المُلِمَّات والمهمات ـ ، ومنه: الصبر والثبات في التلقي، وطي الساعات في الطلب علىٰ الأشياخ، فإن «من ثبت نبت».

○ ○ ○

الشرح

من شِيَمِ أهل العلم الثبات والتثبت.

□ قال أبو حنيفة: «ثَبَتُّ عند حماد بن سليمان فنبتُّ»[١].

□ وقال محمد بن سيرين: «التثبت نصف العلم»[٢].

ومن صور الثبات: التفقه والتعلم علىٰ يقين.

□ فقد ذكر أبو الحسين أحمد بن محمد بن جعفر القدوري: «أن أبا جعفر الطحاوي كان يقرأ علىٰ المُزني، فقال له يومًا: والله لا أفلحت! فغضب وانْفَلَّ من عنده، وتفقه علىٰ مذهب أبي حنيفة فصار إمامًا، فكان إذا دَرَسَ وأجاب في المشكلات يقول: رحم الله أبا إبراهيم؛ لو كان حيًّا ورآني؛ كَفَّرَ عن يمينه»[٣].

□ قال عبدالرَّحمٰن بن مهدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنا في جنازة فيها عبيدالله بن الحسن ـ وهو علىٰ القضاء ـ ؛ فلما وضع السرير جلس وجلس الناس حوله، قال: فسألته عن مسألة، فغلط فيها، فقلت: أصلحك الله، القول في هٰذه المسألة كذا وكذا؛ إلا أني لم أُرد هٰذه، إنما أردتُ أن أرفعك إلىٰ ما هو أكبر منها.

---

(١) «تعليم المتعلم» للزَّرنوجي (ص/ ٤١).

(٢) «الكفاية» للخطيب (١/ ٤٨٩) (٥٠٠)، وضعفه محققه أبو إسحاق ابراهيم آل بحبح، وأسأل الله أن يجازيه خير الجزاء علىٰ خدمته لكتاب «الكفاية»، وأن يجعله في ميزان حسناته.

(٣) «وفيات الأعيان» (١/ ٧١)، و«معجم السفر» للسِّلفي (١٦).

فأطرق ساعة ثم رفع رأسه، فقال: إذًا أرجع وأنا صاغر، إذًا أرجع وأنا صاغر؛ لأن أكون ذَنَبًا في الحق أحبُ إليّ من أن أكون رأسًا في الباطل»[1].

قلت: رحم اللَّه مَنْ تَثَبَّت وتَفَهَّم وتَعلَّم.

---

(١) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١٠/٣٠٨) (٥٤٥٦).



كيفية الطلب والتلقي

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٦ ـ كيفية الطلب ومراتبه:

«من لم يتقن الأصول، حُرم الوصول»[١]، و«من رام العلم جملة، ذهب عنه جملة»[٢]، وقيل ـ أيضًا ـ: «ازدحام العلم في السمع مَضلة للفهم»[٣].

وعليه، فلابد من التأصيل والتأسيس لكل فن تطلبه، بضبط أصله ومختصره علىٰ شيخ متقن، لا بالتحصيل الذاتي وحده، آخذًا الطلب بالتدرج.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١].

○ ○ ○

الشرح:

◘ قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: «فإن صاحبَ التناتيفَ، ونظر في علومٍ كثيرة، فهٰذا لا يمكنُ أن يبلغَ الإمامةَ في شيءٍ منها، وقد قال العقلاء: ازدحامُ العلوم مضِلَّةُ الفهوم، ولذٰلك تجدُ من بلغَ الإمامةَ من المتقدمين في علمٍ من العلوم لا يكاد يشتغل بغيره، ولا يُنسبُ إلىٰ غيره» اهـ.

◘ وقال الإمام الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: «من طلب العلم جُملةً فاته جُملة، وإنما يُدرك العلم حديثٌ وحديثان»[٥].

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٤٤).
(٢) «فضل العلم» لأرسلان (ص١٤٤).
(٣) «شرح الإحياء» (١/ ٣٣٤)، «المجالسة» للدينوري (١٦٤٠)، «عيون الأخبار» (٢/ ١٨٣).
(٤) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ١٢٥).
(٥) «جامع بيان العلم» (١/ ١٠٤).

◻ وقال أبو عبيد ـ القاسم بن سلام ـ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عجبت لمن ترك الأصول وطلب الفصول»[١].

◻ وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبعد حفظ القرآن يحفظ في كل فن مختصرًا، ويبدأ بالأهم، ومن أهمها الفقه والنحو، ثم الحديث والأصول، ثم الباقي علىٰ ما تيسر» اهـ[٢].

◻ وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «أما العلم النافع فهو المزكي للقلوب والأرواح، المثمِر لسعادة الدارين، وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث وتفسير وفقه، وما يعين علىٰ ذٰلك من علوم العربية ـ بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان ـ ، وتعيين ذٰلك يختلف باختلاف الأحوال، والحالة التقريبية: أن يجتهد طالب العلم في حفظ مختصر من مختصرات الفن الذي يشتغل فيه، فإن تعذر أو تعسر عليه حفظه لفظًا، فليكرره كثيرًا متدبرًا لمعانيه حتىٰ ترسخ معانيه في قلبه، ثم تكون باقي كتب هٰذا الفن كالتفسير والتوضيح لذٰلك الأصل الذي عرفه وأدركه، فإن الإنسان إذا حفظ الأصول وصار له مَلكةٌ تامةٌ في معرفتها هانت عليه كتب الفن كلها صغارها وكبارها، ومن ضيَّع الأصول حُرم الوصول، فمن حرص علىٰ هٰذا الذي ذكرناه واستعان بالله، أعانه الله وبارك في علمه وطريقه الذي سلك، ومن سلك في طلب العلم غير هٰذه الطريقة النافعة، فاتت عليه الأوقات ولم يدرك إلا العناء ـ كما هو معروف ـ ، فإن يسر الله له معلمًا يحسن طريقة التعليم ومسالك التفهيم تمَّ له الطريق الموصل إلىٰ العلم النافع بحمد الله» اهـ.

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي» رقم (١٦١٢).
(٢) «المجموع شرح المهذب» (١/ ٣٨).
(٣) «بهجة قلوب الأبرار» للسعدي (ص/ ٤٤، ٤٥ ـ تحقيق بدر البدر حفظه الله ورعاه).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فأمامك أمورٌ لابد من مراعاتها في كل فن تطلبه:

١ ـ حفظُ مختصر فيه.

٢ ـ ضبطه علىٰ شيخ متقن.

٣ ـ عدم الاشتغال بالمطوَّلات وتفاريق المصنفات قبل الضبط والإتقان لأصله.

٤ ـ لا تنتقل من مختصر إلىٰ آخر بلا موجب، فهٰذا من باب الضجر.

٥ ـ اقتناص الفوائد والضوابط العلمية.

٦ ـ جمع النفس للطلب والترقي فيه، والاهتمام والتحرق للتحصيل والبلوغ إلىٰ ما فوقه حتىٰ تفيض إلىٰ المطولات بسابلةٍ موثقة.

وكان من رأي ابن العربي المالكي[1] ألَّا يخلط الطالب في التعليم بين علمين، وأن يقدم تعليم العربيةَ والشعر والحساب، ثم ينتقل منه إلىٰ القرآن.

لٰكن تعقبه ابنُ خلدون بأن العوائد لا تساعد علىٰ هٰذا، وأن المقدم هو دراسة القرآن الكريم وحفظه؛ لأن الولد ما دام في الحِجر؛ ينقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ؛ صعب جبره. أما الخلط في التعليم بين علمين فأكثر؛ فهٰذا يختلف باختلاف المتعلمين في الفهم والنشاط.

وكان من أهل العلم من يدرِّس الفقه الحنبلي في «زاد المستقنع» للمبتدئين، و«المقنع» لمن بعدهم للخلاف المذهبي، ثم «المغني» للخلاف العالي، ولا يسمح بالطبقة الأولىٰ أن تجلس في درس الثانية... وهٰكذا؛ دفعًا للتشويش.

واعلم أن ذكر المختصرات والمطوَّلات التي يؤسس عليه الطلب والتلقي

---

(١) «تراجم الرجال» للخضر حسين (ص١٠٥) و«فتاوىٰ شيخ الإسلام» ابن تيمية (٢٣/ ٥٤ ـ ٥٥) مهم.

لدىٰ المشايخ تختلف غالبًا من قُطر إلىٰ قطر باختلاف المذاهب، وما نشأ عليه علماء ذلك القطر من إتقان هٰذا المختصر والتمرُّس فيه دون غيره.

والحال هنا تختلف من طالب إلىٰ آخر باختلاف القرائح والفهوم، وقوة الاستعداد وضعفه، وبرودة الذهن وتوقده.

وقد كان الطلب في قطرنا ـ بعد مرحلة الكتاتيب والأخذ بحفظ القرآن الكريم ـ يمر بمراحلَ ثلاثٍ لدىٰ المشايخ في دروس المساجد: للمبتدئين، ثم المتوسطين، ثم المتمكنين: ففي التوحيد: «ثلاثة الأصول وأدلتها»، و«القواعد الأربع»، ثم «كشف الشبهات»، ثم «كتاب التوحيد»؛ أربعتها للشيخ محمد بن عبدالوهَّاب رحمه اللَّهُ تعالىٰ، هٰذا في توحيد العبادة.

وفي توحيد الأسماء والصفات: «العقيدة الواسطيَّة»، ثم «الحموية»، و«التدمرية»؛ ثلاثتها لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّهُ تعالىٰ، فـ«الطحاوية» مع «شرحها».

وفي النحو: «الآجُرُّومية»، ثم «مُلحة الإعراب» للحريري، ثم «قطر الندىٰ» لابن هشام، و«ألفية ابن مالك» مع شرحها لابن عقيل.

وفي الحديث: «الأربعين» للنووي، ثم «عمدة الأحكام» للمقدسي، ثم «بلوغ المرام» لابن حجر، و«المنتقىٰ» للمجد بن تيمية؛ رحمهم اللَّه تعالىٰ، فالدخول في قراءة الأمهات الست وغيرها.

وفي المصطلح: «نخبة الفِكَر» لابن حجر، ثم «ألفية العراقي» رحمهما اللَّهُ تعالىٰ.

وفي الفقه مثلًا: «آداب المشي إلىٰ الصلاة» للشيخ محمد بن عبدالوهَّاب، ثم «زاد المستقنع» للحِجاوي رحمه اللَّهُ تعالىٰ، أو «عمدة الفقه»، ثم «المقنع» للخلاف المذهبي، و«المغني» للخلاف العالي؛ ثلاثتها لابن قدامة.

وفي أصول الفقه: «الورقات» للجويني، ثم «روضة الناظر» لابن قدامة.

وفي الفرائض: «الرحبية»، ثم مع شروحها، و«الفوائد الجلية».

وفي التفسير: «تفسير ابن كثير».

وفي أصول التفسير: «المقدمة» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وفي السيرة النبوية: «مختصرها» للشيخ محمد بن عبدالوهَّاب، وأصلها لابن هشام، وفيه «زاد المعاد» لابن القيم.

وفي لسان العرب: العناية بأشعارها، كـ«المعلقات السبع»، والقراءة في «القاموس» للفيروز آبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ... وهٰكذا من مراحل الطلب في الفنون.

وكانوا مع ذٰلك يأخذون بجَرْد المطولات؛ مثل «تاريخ ابن جرير»، وابن كثير، وتفسيريهما، ويركزون علىٰ كتب شيخ الإسلام بن تيمية، وتلميذه ابن القيم رحمهما اللَّه تعالىٰ، وكُتب أئمة الدعوىٰ وفتاواهم، لا سيما محرراتهم في الاعتقاد.

وهٰكذا كانت الأوقات عامرةً في الطلب، ومجالس العلم، فبعد صلاة الفجر إلىٰ ارتفاع الضحىٰ، ثم تكون القيلولةُ قُبيل صلاة الظهر، وفي أعقاب جميع الصلوات الخمس تُعقد الدروس، وكانوا في أدبٍ جمٍّ وتقدير بعزة نفس من الطرفين علىٰ منهج السلف الصالح رحمهم اللَّه تعالىٰ، ولذا أدركوا وصار منهم في عداد الأئمة في العلم جمعٌ غفير، والحمد للَّه رب العالمين.

فهل من عودةٍ إلىٰ أصالةِ الطلب في دراسة المختصرات المعتمدة، لا علىٰ المذكرات، وفي حفظها لا الاعتماد علىٰ الفهم فحسب، حتىٰ ضاع الطلاب فلا حفظ ولا فهم! وفي خلوِّ التلقين من الزَّغَل والشوائب والكدر سيرٌ علىٰ منهاج السلف. واللَّه المستعان.

وقال الحافظ عثمان بن خُرَّزاد (م سنة ٢٨٢هـ)[١]: «يحتاج صاحب الحديث إلىٰ خمس، فإن عُدمت واحدة؛ فهي نقص، يحتاج إلىٰ عقل جيد، ودين، وضبط، وحِذاقة بالصناعة، مع أمانة تعرف منه».

قلت ـ أي الذهبي ـ : «الأمانة جزء من الدين، والضبط داخل في الحذق،

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٨٠).

فالذي يحتاج إليه الحافظ أن يكون: تقيًّا، ذكيًّا، نحويًّا، لغويًّا، زكيًّا، حييًّا، سلفيًّا، يكفيه أن يكتب بيديه مِئتي مجلد، ويحصِّل من الدواوين المعتبرة خَمسمِئة مجلد، وألَّا يفتر من طلب العلم إلىٰ الممات بنية خالصة، وتواضع، وإلا فلا يتعنَّ» اهـ.

○ ○ ○

الشرح

□ قال الإمام الخليلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في ترجمة عبداللَّه بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: «قال سفيان: ما بالمشرق ولا بالمغرب له نظير، وله كرمات ظاهرة، يقال: إنه من الأبدال، وقال: كتبت عن ألف وسِتِّمئة شيخ، وكان يكتب إلىٰ أن مات، فقيل له في ذٰلك، فقال: لعل الكلمة التي فيها نجاتي بعد لم تصل إليَّ»[1].

□ وقال ابن مُناذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سألت أبا عمرو بن العلاء: حتىٰ متىٰ يحسُن بالمرء أن يتعلم؟ فقال: ما دام تحسُن به الحياة»[2].

□ وقال عبدُاللَّه بن محمد البغوي: «سمعت أبا عبداللَّه ـ أحمد بن حنبل ـ يقول: أنا أطلبُ العلم إلىٰ أن أدخل القبر»[3].

□ وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قال قائل: درس الفقه إنما يكون في الحداثة وزمن الشبيبة؛ لأنه يحتاج إلىٰ الملازمة، وشدة الصبر عليه والمداومة، ولا يقدر علىٰ ذٰلك من علت سِنُّه، ولا يطمع فيه من مضىٰ أكثر عمره.

قيل: ليس مما ذكرت مانع من طلبه، ولأن تلقىٰ اللَّه طالبًا للعلم خيرٌ من أن تلقاه تاركًا له زاهدًا فيه راغبًا عنه»[4].

---

(١) «الإرشاد» للخليلي (ص/ ٤٧)، و«جامع بيان العلم» (١/ ٤٠٦) (٥٨٧)، و«شرف أصحاب الحديث) للخطيب (ص/ ١٢٨) (١٣٥ ـ ط: ابن تيمية).

(٢) «جامع بيان العلم (١/ ٤٠٧) (٥٨٨).

(٣) «شرف أصحاب الحديث (ص/ ١٢٩) (١٣٦).

(٤) «الفقيه والمتفقه» للخطيب، «باب: فضل العلم والعلماء» (٢/ ١٦٥ ـ ط: دار ابن الجوزي).

▫ وقال الإمام ابن باكويه رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت أبا عبدالله بن خفيف يقول: اشتغِلوا بتعلم العلم، ولا يغرنكم كلام الصوفية؛ فاني كنت أخبئُ مِحبرتي في جيب مرقعتي، والكاغد في حزة سراويلي، وكنت أذهب خُفية إلىٰ أهل العلم، فإذا علموا بي خاصموني، وقالوا: لا تفلح. ثم احتاجوا إليَّ بعد ذٰلك».

▫ وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يرىٰ المحابر بأيدي طلبة العلم فيقول: «هٰذه سُرُج الإسلام».

▫ وكان هو يحمل المَحبرة ـ علىٰ كِبَر سنه ـ، فقال له رجل: «إلىٰ متىٰ ـ يا أبا عبد الله ـ؟ فقال: مع المحبرة إلىٰ المقبرة».

▫ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«لا تزالُ طائفةٌ من أمتي منصورين؛ لا يضرهم من خذلهم حتىٰ تقوم الساعة»**، فقال أحمد: «إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم!».

▫ وقال ـ أيضًا ـ: «إن لم يكن أصحاب الحديث الأبدال؛ فمن يكون؟».

▫ وقيل له: «إن رجلًا قال في أصحاب الحديث: إنهم كانوا قوم سوء! فقال أحمد: هو زنديق».

▫ وقد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيتُ رجلًا من أصحاب الحديث؛ فكأني رأيت رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ».

▫ وقال يوسف بن أسباط رَحِمَهُ اللَّهُ: «بطلبة الحديث يدفع الله البلاء عن أهل الأرض».

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٧ ـ تلقِّي العلم عن الأشياخ:

الأصل في الطلب أن يكون بطريق التلقين والتلقي عن الأساتيذ، والمثافنة للأشياخ، والأخذُ من أفواه الرجال ـ لا من الصحف وبطون الكتب ـ ، والأول من باب أخذ النسيب عن النسيب الناطق ـ وهو المعلم ـ ، أما الثاني عن الكتاب، فهو جماد، فأنىٰ له اتصال النسب؟.

وقد قيل: «من دخل في العلم وحده؛ خرج وحده»[(١)]؛ أي: من دخل في طلب العلم بلا شيخ؛ خرج منه بلا علم، إذ العلم صنعة، وكل صنعة تحتاج إلىٰ صانع، فلابد ـ إذًا ـ لتعلمها من معلمها الحاذق، وهٰذا يكاد يكون محل إجماع كلمة من أهل العلم.

○ ○ ○

الشرح:

نعم تلقِّي العلم عن الأشياخ هو أصل الأصول، وأساس بِنْيَة طالب العلم، وبغير هٰذا لا يكون علمًا أبدًا، إلَّا ما شاء اللَّه لصاحبه من خيرٍ وفهم، أما طريق العلم الحقيقي هو التأدُّب والتعلُم والتَربِّي علىٰ أيدي المشايخ من أهل العلم المختصِّين به في كل فنٍّ من فنونه؛ فلا تأخذ الفن إلَّا من أهله، وهٰذا ما يُسَمَّىٰ: الأدب، ثم حقيقة العلم ولازمه لا محالة.

□ قال ابن عون: «لا تأخذوا العلم إلا ممن شُهِدَ له بالطلب»[(٢)].

□ وقال أبو الهلال العسكري[(٣)]: «قال بعض الأوائل: لا يتم العلمُ إلا بستة أشياء: ذهن ثاقب، وزمان طويل، وكفاية، وعمل كثير، ومعلم حاذق، وشهوة، وكلما نقص من هٰذه الستة، نقص بمقداره من العلم» اهـ .

---

(١) «الجواهر والدرر للسخاوي (١/ ٥٨).

(٢) «التمهيد» لابن عبدالبر (١/ ٤٥)، و«الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ١٤٧).

(٣) «الحث علىٰ طلب العلم» للعسكري (ص/ ٥١).

▫ وقال ابن جماعة [١]: «ينبغي للطَّالِب أن يقدم النظر، ويستخير اللَّه فيمن يأخذ العلم عنه، ويكتسب حُسْنَ الأخلاق والآداب منه. وليكن ـ إن أمكن ـ ممن كَمُلَت أهليته، وتحققت شفقته، وظهرت مروءته، وعُرفت عفته، واشتُهرت صيانته، وكان أحسن تعليمًا، وأجود تفهيمًا.

ولا يرغب الطالب في زيادة العلم مع نقص في ورع أو دين، أو عدم خلق جميل.

وليجتهد علىٰ أن يكون الشيخ ممن له علىٰ العلوم الشرعية تمام الاطلاع، وله مع من يوثق به من مشايخ عصره كثرةُ بحثٍ وطول اجتماع، لا ممن أخذ من بطون الأوراق، ولم يُعْرَف بصحبة المشايخ الحذاق.

قال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من تفقَّه من بطون الكتب ضيَّع الأحكام».

وكان بعضهم يقول: «من أعظم البلية تشيخ الصُّحُفية».

أي الذين تعلموا من الصحف» اهـ.

فمن أخذ علمه من كتب كان كحاطب ليل.

▫ كما قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هٰذا مثل حاطب ليل، يقطع حزمة الحطب فيحملها، ولعل فيها أفعىٰ تلدغه وهو لا يدري» [٢].

▫ وقال أبو علي الثقفي: «لو أن رجلًا جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلَّا بالتأدب علىٰ شيخ أو إمام أو مؤدِّب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من آمرٍ له وناهٍ؛ يُرِيهِ عيوب أعماله ورعونات نفسه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات» [٣].

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (ص/ ٨٥).
(٢) «آداب الشافعي» لابن أبي حاتم (ص/ ٧٤).
(٣) «طبقات الصوفية» للسلمي (ص/ ٢٧٧)، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن (ص/ ٢٢٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهٰذا يكاد يكون محلَّ إجماع كلمة من أهل العلم؛ إلا من شذ مثل: علي ابن رضوان المصري الطبيب (م سنة ٤٥٣هـ)، وقد رد عليه علماء عصره ومن بعدهم.

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمته له[١]: «ولم يكن له شيخ، بل اشتغل بالأخذ عن الكتب، وصنف كتابًا في تحصيل الصناعة من الكتب، وأنها أوفق من المعلمين، وهٰذا غلط» اهـ.

وقد بسط الصَّفَدي في «الوافي» الرد عليه، وعنه الزَّبيدي في «شرح الإحياء» عن عدد من العلماء معللين له بعدة علل؛ منها ما قاله ابن بَطْلَان في الرد عليه[٢].

السادسة: يوجدُ في الكتاب أشياء تصدُّ عن العلم، وهيٰ معدومة عند المعلِّم، وهيٰ التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ، والغلط بِزَوَغَانِ البصر، وقلة الخبرة بالإعراب، أو فساد الموجود منه، وإصلاح الكتاب، وكتابة ما لا يُقرأ، وقراءة ما لا يُكتب، ومذهب صاحب الكتاب، وسقم النسخ، ورداءة النقل، وإدماج القارئ مواضع المقاطع، وخلط مبادئ التعليم، وذكر ألفاظ مصطلح عليها في تلك الصناعة، وألفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة، كالنوروس، فهٰذه كلها معوِّقة عن العلم، وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته علىٰ المعلم، وإذا كان الأمر علىٰ هٰذه الصورة، فالقراءة علىٰ العلماء أجدىٰ وأفضل من قراءة الإنسان لنفسه، وهو ما أردنا بيانه.

قال الصَّفَدي: ولهٰذا قال العلماء: «لا تأخذ العلم من صُحَفي ولا من

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ١٠٥). وانظر: «شرح الإحياء» (١/ ٦٦)، و«بغية الوعاة» (١/ ١٣١، ٢٨٦)، و«شذرات الذهب» (٥/ ١١)، و«الغنية» للقاضي عياض (ص١٦ ـ ١٧).

(٢) «شرح الإحياء» (١/ ٦٦ ـ ط: دار الفكر).

مُصْحَفي، يعني: لا تقرأ القرآن علىٰ من قرأ من المُصْحَف، ولا الحديث وغيره علىٰ من أخذ ذٰلك من الصُّحُف...» اهـ.

○ ○ ○

الشرح:

قلت: وتمام كلام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في ترجمة ابن رضوان المصري ـ، قال: «كان أبوه خبازًا، ولما تميَّز خدم الحاكمَ بالطب، فصيَّره رئيس الأطباء، وعاش إلىٰ القحط الكائن في الخمسين وأربعِمئة، فسَرقت يتيمةٌ رباها عنده نفائسَ وهربت، فتعثر واضطرب، وكان ذا سفهٍ في بحثه، ولم يكن له شيخ، بل اشتغل بالأخذ عن الكتب، وصنف كتابًا في تحصيل الصناعة من الكتب، وأنها أوفق من المعلمين، وهذا غلط، وكان مسلمًا موحدًا، ومن قوله: أفضل الطاعات النظر في الملكوت، وتمجيد المالك لها» اهـ.

▫ وتمام كلام الزَّبيدي رَحِمَهُ اللَّهُ في «إتحاف السادة المتقين»[١]: «وقد أجمع العلماءُ علىٰ فضل التعليم والتعلم من أفواه المشايخ؛ إلَّا ما كان من علي بن رضوان المصري؛ فإنه صنف كتابًا في إثبات أن التعلم من الكتب أوفق من المعلمين، وكان رئيس الأطباء للحاكم بمصر، ولم يكن له معلمٌ في صناعة الطب ينسب إليه، وهو كلام لا يُعبأ به ولا يلتفت إليه.

قرأت في «الوافي بالوفيات» للصلاح الصفدي: أن ابن بطلان وغيره من أهل عصره ومن بعدهم قد ردُّوا عليه هٰذا القول، وبينوه وشرحوه، وذكروا له العِلَلَ التي من أجلها صار التعلمُ من أفواه الرجال أفضل من التعلم من الصُّحف إذا كان قبولهما واحد:

الأولى منها: وصول المعاني من النسب إلىٰ النسيب، خلاف وصولها من غير النسيب، والنسيب الناطق أفهم للتعليم ـ وهو المُعلِّم ـ، وغير النسيب له

---

(١) «إتحاف السادة المتقين» (١/ ٦٦ ـ ٦٧).

جماد ـ وهو الكتاب ـ.

الثانية: النفسُ العلامة علامةٌ بالعقل، وصدور العقل عنها يقال له: «التعليم»، والتعليمُ والتعلم من المُضاف، وكل ما هو للشيء بالطبع أخص مما ليس هو بالطبع، والنفس المتعلمة علامةٌ بالقوة، وقبول العلم فيها يُقال له: «تعلُّم»، والمضافان معًا بالطبع؛ فالتعليم من المُعَلِّمِ أخص بالمُتعلم من الكتاب.

الثالثة: المتعلم إذا استعجم عليه ما يفهمه المعلِّم من لفظه، نقله إلىٰ لفظٍ آخر، والكتاب لا ينقل من لفظ إلىٰ لفظ. فالفهم من المُعلِّم أصلح للمُتعلِّم من الكتاب، وكل ما هو بِهٰذه الصفة في إيصال العلم أصلح للمتعلم.

الرابعة: موضوعهُ اللفظ، واللفظ علىٰ ثلاثة أضرب:

ـ قريب من العقل، وهو الذي صاغه العقل مثالًا لما عنده من المعاني.

ـ متوسط: وهو المتلفظ به بالصوت وهو مثال العقل.

ـ وبعيد: وهو المثبت في الكتاب، وهو مثال ما خرج باللفظ، فالكتاب مثالُ مثالِ مثالِ المعاني التي في العقل، والمثال لا يقوم مقام المِثل، فالمثال الأول هو اللفظ، والثاني هو الكتاب، فالفهم من لفظ المُعلِّم أسهل من لفظ الكتاب.

الخامسة: وصول اللفظ الدال علىٰ المعنىٰ إلىٰ العقل من جهة حاسة غريبة من اللفظ ـ وهو البصر ـ؛ لأن الحاسة النسبية للفظ هي السمع؛ لأنه تصويت. والشيء الواصل من النسيب ـ وهو اللفظ ـ أقرب من وصوله من الغريب وهو الكتابة، فالفهم من المعلم باللفظ أسهل من الفهم من الكتابة بالخط» اهـ.

السادسة: ذكرها الشيخ بكرٌ آنفًا، ولا نطيل أكثر من ذٰلك خشية الملل.

❁ ❁ ❁

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والدليل المادي القائم علىٰ بُطلان نظرة ابن رضوان: أنك ترىٰ آلاف التراجم والسير ـ علىٰ اختلاف الأزمان ومر الأعصار وتنوع المعارف ـ ، مشحونة بتسمية الشيوخ والتلاميذ، ومستقل من ذٰلك ومستكثر، وانظر شذرة من المكثرين عن الشيوخ حتىٰ بلغ بعضهم الألوف؛ كما في «العُزَّاب» من الأسفار لراقمه.

○ ○ ○

الشرح:

قلت: ولو قرأ ابن رضوان رَحِمَهُ ٱللَّهُ هٰذا الرد عليه بكامله، لرجع عن رضوانه، وأخذ من مشايخ أوانه، ولم يتقلد ما قاله في زمانه.

وهٰذا اجتهاد منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويكفينا التأدب معه والترحم عليه، ومَن مثل هٰؤلاء الأكابر علىٰ اجتهادهم وما نقلوه بفهمهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ!.

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكان أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (م سنة ٧٤٥ هـ)[١]؛ إذا ذكر عنده ابن مالك، يقول: «أين شيوخه؟».

وقال الوليد[٢]: «كان الأوزاعي يقول: كان هٰذا العلم كريمًا يتلاقاه الرجال بينهم، فلما دخل في الكتب، دخل فيه غير أهله».

ورُوي مثلها ابن المبارك عن الأوزاعي.

ولا ريب أن الأخذ من الصُّحُف وبِالإجَازة يَقع فيه خَلل، ولا سيما في ذٰلك العصر، حيث لم يكن بعدُ نَقطٌ ولا شكل، فتتصحف الكلمة بما يُحيل المعنىٰ، ولا يقع مثل ذٰلك في الأخذ من أفواه الرجال، وكذٰلك التحديث من الحفظ يقع فيه الوهم، بخلاف الرواية من كتاب محرَّر» اهـ.

ولابن خلدون مبحث نفيس في هٰذا، كما في «المقدمة» له[٣].

ولبعضهم:

مَن لم يُشافِهْ عالمًا بأصوله ... فيقينُه في المشكلاتِ ظنونُ

وكان أبو حيان كثيرًا ما ينشد:

يظن الغَمْرُ أن الكُتْبَ تهدي ... أخا فهمٍ لإدراك العلومِ

وما يدري الجَهُولُ بأن فيها ... غوامضَ حيَرت عقلَ الفهيمِ

إذا رُمْتَ العلوم بغير شيخ ... ضَلَلْتَ عن الصراط المستقيمِ

وتَلْتَبِسُ الأمورُ عليك حتىٰ ... تصيرَ أضلَّ من «تُوما الحكيم»

○ ○ ○

---

(١) مقدمة التحقيق لكتاب «الغنية» للقاضي عياض (ص١٦ ـ ١٧).

(٢) «السير» (٧/ ١١٤).

(٣) مقدمة ابن خلدون (٤/ ١٢٤٥).

الشرح:

□ وكلام ابن خلدون رَحِمَهُ اللَّهُ بنصه للفائدة[١]: «والسبب في ذٰلك: أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل: تارةً علمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارةً محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة، إلَّا أن حصول الملَكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكامًا وأقوىٰ رسوخًا، فعلىٰ قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، والاصطلاحات في تعليم العلوم مختلطة علىٰ المتعلم؛ حتىٰ لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم، ولا يدفع عنه ذٰلك إلَّا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيدُه تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أنحاءُ تعليم وطرق توصيل، وتُنهض قواه إلىٰ الرسوخ والاستحكام في الملكات، ويصحح معارفه ويميزها عن سواها، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم، وهٰذا لمن يَسَّر اللَّه عليه طُرق العلم والهداية؛ فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]».

□ ثم إني وجدت كلامًا قيمًا للشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «موافقاته»[٢]؛ حيث يقول: «وإن كان الناس اختلفوا: هل يمكن حصول العلم دون معلِّم أم لا؟ فالإمكان مُسَلَّمٌ، ولٰكن الواقع في مجاري العادات أن لابد من المعلم، وهو متفق عليه في الجملة ـ وإن اختلفوا في بعض التفاصيل ـ، واتفاق الناس علىٰ ذٰلك في الوقوع وجريان العادة به كافٍ في أنه لابد منه، وقد قالوا: «إن العلم كان في صدور الرجال ثم انتقل إلىٰ الكتب، وصارت مفاتحه بأيدي الرجال».

وهٰذا الكلام يقضي بأن لابد في تحصيله من الرجال؛ إذ ليس وراء هاتين

---

(١) «المقدمة» (٣/ ١١٢٠).

(٢) «الموافقات» للشاطبي: (١/ ٧٠ : ٧٤ ـ ط: الهيئة العامة للكتاب بمصر).

المرتبتين مرمًىٰ عندهم، وأصل هٰذا في الصحيح: «**إن اللّٰه لا يقبضُ العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولٰكن يقبضُه بقبض العلماء...**»[1] الحديث، فإذا كان كذٰلك فالرجال هم مفاتحه بلا شك.

فإذا تقرر هٰذا فلا يؤخذ إلا ممن تحقق به، إذ من شروطهم في العالِم أن يكون عارفًا بأصوله وما ينبني عليه ذٰلك العلم، عارفًا بما يلزم عنه، قائمًا علىٰ دفع الشبه الواردة عليه فيه، فإذا نظرنا إلىٰ ما اشترطوه، وعرضنا أئمة السلف الصالح في العلوم الشرعية؛ وجدناهم قد اتصفوا بها علىٰ الكمال؛ غير أنه لا يشترط السلامة عن الخطأ البتة، فلا يقدح في كونه عالمًا ولا يضر في كونه إمامًا مقتدًىٰ به.

وللعالم المتحقق بالعلم أمارات وعلامات:

إحداها: العمل بما عَلِمَ؛ حتىٰ يكون قوله مطابقًا لفعله، فإن كان مخالفًا له فليس بأهلٍ لأن يؤخذ عنه، ولا أن يُقتدىٰ به.

والثانية: أن يكون مِمَّن رَبَّاه الشيوخ في ذٰلك العلم ـ لأخذه عنهم وملازمته لهم ـ؛ فهو الجدير بأن يتصف بما اتصفوا به من ذٰلك.

فأول ذٰلك ملازمة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لرسول اللّٰهِ ﷺ، وأخذهم بأقواله وأفعاله، واعتمادهم علىٰ ما يَرِدُ مِنْهُ ـ كائنًا ما كان، وعلىٰ أي وجهٍ صدر ـ، سواء فهموا مغزىٰ ما أراد به أَوْ لا؛ حتىٰ علموا وتيقنوا أنه الحق الذي لا يُعارض، والحكمة التي لا ينكسر قانونها، ولا يحوم النقص حول حِمَىٰ كمالها، وإنما ذٰلك بكثرة الملازمة وشدة المثابرة.

والثالثة: الاقتداء بمن أُخِذَ عنه والتأدب بأدبِهِ؛ كما كان الصحابة مع النبي ﷺ واقتداءَ التابعين بالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهٰكذا في كل قرن.

وإذا ثبت أنه لابُد من أخذ العلم عن أهله؛ فلذٰلك طريقان:

---

(١) «صحيح البخاري» (رقم/ ١٠٠ ـ ط: بيت الأفكار الدولية).

أحدهما: المشافهة، وهي أنفع الطريقين وأسلمهما لوجهين:

الأول[1]: خاصية جعلها اللَّه تعالىٰ بين المُعَلِّمْ والمُتَعَلِّم؛ يشهدها كل من زاول العلم والعلماء، فكم من مسألة يقرؤها المُتَعَلِّم في كتاب ويحفظها ويرددها علىٰ قلبه فلا يفهمها، فإذا ألقاها إليه المعلم فهمها بغتةً، وحصل له العلم بها بالحضرة[2]. وهٰذا الفهم يحصل إما: بأمر عادي من قرائن أحوال وإيضاح موضع إشكال لم يخطر للمتعلم ببال، وقد يحصل بأمر غير معتاد؛ ولٰكن بأمر يهبه اللَّه للمتعلم عند مثوله بين يدي المعلم ظاهر الفقر بادي الحاجة إلىٰ ما يلقىٰ إليه، وهٰذا ليس ينكر؛ فقد نَبَّه عليه الحديث الذي جاء أن الصحابة أنكروا أنفسهم عند ما مات رسول اللَّه ﷺ.

الطريق الثاني: مطالعة كتب المصنفين ومدوني الدواوين، وهو ـ أيضًا ـ نافع في بابه بشرطين:

الأول: أن يحصل له من فهم مقاصدِ ذٰلك العلم المطلوب ومعرفة اصطلاحات أهله ما يتم له به النظر في الكتب؛ وذٰلك يحصل بالطريق الأول من مشافهة العلماء، أو مما هو راجع إليه[3]، وهو معنىٰ قول من قال: «كان العلم في صدور الرجال، ثم انتقل إلىٰ الكتب، ومفاتحه بأيدي الرجال».

والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئًا دون فتح العلماء، وهو مشاهد معتاد.

والشرط الثاني: أن يتحرىٰ كتب المتقدمين من أهل العلم المراد؛ فإنهم أقعد به من غيرهم من المتأخرين، فالمتأخرُ لا يبلغ من الرسوخ في علمٍ ما بلغه المتقدم، فأعمال المتقدمين في إصلاح دنياهم ودينهم علىٰ خلاف أعمال المتأخرين، وعلومهم في التحقيق أقعد، فتحقق الصحابة بعلوم الشريعة ليس

---

(١) وقد فات الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ التنبيه علىٰ الثاني.

(٢) **الحضرة**: الحضور بين يدي الشيخ.

(٣) ولا ريب أن تلقي العلم ـ في عصرنا هٰذا ـ عن طريق الأشرطة النافعة لعلماء أهل السنة والجماعة من أهم سبل الطلب في هٰذا الزمان.

كتحقق التابعين، والتابعون ليسوا كتابعيهم... وهٰكذا إلىٰ الآن، ومن طالع سِيَرهم وأقوالهم وحكاياتِهم أبصر العجب في هٰذا المعنىٰ» اهـ بتصرف.

📖 📖 📖



الفصل الثالث

أدب الطالب مع شيخه

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٨ ـ رعاية حُرْمَة الشَّيخ:

بما أن العلم لا يؤخذ ابتداء من الكتب؛ بل لابد من شيخ تُتْقِن عليه مفاتيح الطلب، لتأمن من العثار والزلل، فعليك إذًا بالتحلي برعاية حرمته، فإن ذٰلك عنوان النجاح والفلاح والتحصيل والتوفيق، فليكن شيخك محل إجلال منك وإكرام وتقدير وتلطف، فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه، والتحدث إليه، وحسن السؤال والاستماع، وحسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه ومع الكتاب، وترك التطاول والمماراة أمامه، وعدم التقدم عليه بكلام أو مسير أو إكثار الكلام عنده، أو مداخلته في حديثه ودرسه بكلام منك، أو الإلحاح عليه في جواب، متجنبًا الإكثار من السؤال، ولا سيما مع شهود الملأ، فإن هٰذا يوجب لك الغرور وله الملل.

ولا تناديه باسمه مجردًا، أو مع لقبه كقولك: يا شيخ فلان! بل قل: «يا شيخي! أو يا شيخنا»! فلا تُسَمِّهِ، فإنه أرفع في الأدب، ولا تخاطبه بتاء الخطاب، أو تناديه من بُعْدٍ من غير اضطرار.

وانظر ما ذكره اللَّه تعالىٰ من الدلالة علىٰ الأدب مع معلم الناس الخير ﷺ في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا...﴾ [النور: ٦٣].

وكما لا يليق أن تقول لوالدك ذي الأبوة الطينية: «يا فلان»، أو: «يا والدي فلان» فلا يجمُل بك مع شيخك.

○ ○ ○

الشرح:

ما أمثل هٰذا الأدب! وما أجمله! وما أحلاه لمن تحلَّاه وراعىٰ خُطاه واقتدىٰ بهداه! فما أحوجَنا لهٰذا الأدب مع مشايخنا وتاج رؤوسنا وزينة مجالسنا ومَقْدُمَة كلامنا، ومرجع فهومنا، وفكاكِ مُشْكلاتنا.

□ قال الإمام الآجُرِّي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا أحبَّ مُجالسة العلماء جالسهم بأدب، وتواضعَ في نفسه، وخفض صوته عند صوتهم، وسائلهم بخضوع، ويكون أكثر سؤاله عن علم ما تعبده اللَّه به، ويخبرهم أنه فقيرٌ إلىٰ علم ما يسأل عنه، فإذا استفاد منهم علمًا أعلمهم أني قد أفدت خيرًا كثيرًا، ثم شكرهم علىٰ ذٰلك وإن غضبوا عليه لم يغضب عليهم، ونظر إلىٰ السبب الذي من أجله غضبوا عليه، فرجع عنه، واعتذر إليهم، لا يضجرهم في السؤال، رفيق في جميع أموره، لا يناظرهم مناظرة يريهم أني أعلم منكم؛ وإنما همته البحث لطلب الفائدة منهم، مع حسن التلطف لهم، لا يجادل العلماء، ولا يماري السفهاء، يحسن التأتي للعلماء مع توقيره لهم، حتىٰ يتعلم ما يزداد به عند اللَّه فَهْمًا في دينه»[1].

□ «فلا يكن حضورك إلَّا حضور مستزيد علمًا وأجرًا؛ لا حضور مستغن بما عندك، طالب عثرة تشيعها أو غريبة تشنعها؛ فهٰذه أفعال الأراذل الذين لا يفلحون أبدًا»[2].

ولابد أن تنظر إلىٰ شيخك بعين الإجلال ومهابة الإفضال.

□ قال إسحاق الشهيدي[3]: «كنتُ أرىٰ يحيىٰ القطان يصلي العصر، ثم يَستندُ إلىٰ أصل منارة المسجد، فيقف بين يديه علي بن المديني والشاذكوني وعمرو بن علي وأحمد بن حنبل ويحيىٰ بن معين وغيرهم؛ يسألونه عن الحديث ـ وهم قيام علىٰ أرجلهم ـ إلىٰ أن تحين صلاة المغرب!! لا يقول لواحدٍ منهم: اجلس، ولا يجلسون هيبةً له وإعظامًا».

□ وقال محمد بن سيرين: «جلست إلىٰ عبدالرَّحمٰن بن أبي ليلىٰ، وأصحابه يعظمونه كأنه أمير»[4].

---

(١) «أخلاق العلماء» للآجري (ص/ ٧٣ ـ ط: أضواء السلف).
(٢) كتاب «الأخلاق والسير» لابن حزم (ص/ ١٩٣).
(٣) «تهذيب الكمال» للمزي (٣١/ ٣٣٩ ـ ط: مؤسسة الرسالة).
(٤) «السير» للذهبي (٤/ ٢٦٣ ـ ط: الرسالة).

▫ وقال الشافعي: «كنت أصفِّح الورقة بين يدي مالك رَحِمَهُ اللَّهُ صفحًا رقيقًا هيبةً له لئلا يسمع وقعها»[١].

▫ وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وينبغي ألا يخاطب شيخه بتاء الخطاب وكافِهِ، ولا يُناديه مِن بعد، بل يقول: «أيها العالم»، «أيها الحافظ»، ونحو ذٰلك: «ما تقولون في كذا»، و«ما رأيكم في كذا» وشبه ذٰلك، ولا يسميه في غَيبته - أيضًا - باسمه إلا مقرونًا بما يُشْعِر بتعظيمه، كقولك: «قال الشيخ» أو «الأستاذ» أو «قال شيخنا كذا».

وعليه أن يعرف للشيخ حقه، ولا ينسىٰ فضله، وأن يعظم حُرمته، ويرد غَيبته، ويغضب لها؛ فإن عجز عن ذٰلك قام وفارق ذٰلك المجلس، وينبغي أن يَدْعُوَ للشيخ مُدَةَ حياته، ويرعىٰ ذُريته وأقاربه وأُوُدَّاءه[٢] بعد وفاته، ويتعمد زيارة قبره والاستغفار له والصدقة عنه، ويسلك في السمت والهدي مسلكه، ويقتدي بحركاته وسكناته في عاداته وعباداته، ويتأدب بآدابه، ويتخلق بأخلاقه، ولا يدع الاقتداء به» اهـ[٣].

---

(١) «فيض القدير» للمناوي (٣/ ٢٥٣) (٣٣٢٢).

(٢) أي: أحبابه. «مختار الصحاح» للرازي (١/ ٧٤٠) مادة (و د د) بتصرف.

(٣) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (ص/ ٨٩).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والتزم توقير المجلس، وإظهار السرور من الدرس والإفادة به، وإذا بدا لك خطأ من الشيخ أو وهم؛ فلا يسقطه ذٰلك من عينك، فإنه سبب لحرمانك من علمه، ومن ذا الذي ينجو من الخطأ سالمًا؟.

○ ○ ○

الشرح:

هٰكذا فلتكن مع شيخك في درسه؛ في غاية البهجة والسرور والإنعام؛ كأنك في مجلس معه في جنة الرضوان، فأي مجلسٍ في الدنيا يساوي هٰذا النعيم.

▫ وإذا بدا لك خطأ أو وَهَم من شيخك؛ فلا عليك إلا أن تقول له كما قال العلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ حين وجد مثل ذٰلك مع بهجة قلبي شيخ الإسلام الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : «ولا توجب هٰذه الزَّلةُ من شيخ الإسلام إهدار محاسنه وإساءة الظن به؛ فمحلُّه من العلم والإمامة والمعرفة والتقدم في طريق السلوك المحل الذي لا يُجهل، وكل أحد فمأخوذٌ من قوله ومتروك؛ إلا المعصوم صلوات اللَّه وسلامه عليه، والكامل من عُدَّ خطؤه»[1].

▫ وقال العلَّامة الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] ـ في شيخه نادرة الزمان ابن تيمية شيخ الإسلام ـ : «وقد انفرد بفتاوىٰ نِيل من عِرضِهِ لأجلها، وهي مغمورة في بحر حسناته وعلمه، فاللَّهُ تعالىٰ يسامحه ويرضىٰ عنه، فما رأيت مثله، وكل أحد من الأمة فيؤخذ من قوله ويترك فكان ماذا؟» اهـ.

قلت: فهٰذا الأدب مع المشايخ، أما نحن اليوم!!! فكان ماذا؟!!.

▫ وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي للطالب بين يدي شيخه أن يُحْضِرَ قلبه

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٧١).

(٢) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٤/ ١٤٩٧).

ويجمع همه وفهمه؛ لتستوي أجزاء القلب في تناول العلم استواء الأرض الدَمِثَة في نيل المطر، وليدع رأيه لرأي مُعَلِّمِهِ؛ فإن خطأ المعلم أنفع للمتعلم من صواب نفسه».

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

واحذر أن تمارس معه ما يُضجره، ومنه ما يسميه المولَّدون «حرب الأعصاب»[١]؛ بمعنىٰ امتحان الشيخ علىٰ القدرة العلمية والتحمل.

○ ○ ○

الشرح:

▫ قال الحاكم النيسابوري: «سمعت محمد بن داود بن سليمان يقول: كنا عند الحسن بن سفيان، فدخل ابن خزيمة وأبو عمرو الحيري وأحمد بن علي الرازي، وهم متجهون إلىٰ فراوة[٢]، فقال الرازي: كتبت هٰذا الطبق من حديثك قال: هات. فقرأ عليه، ثم أدخل إسنادًا في إسنادٍ، فَرَدَّهُ الحسن، ثم بعد قليل فعل ذٰلك، فَرَدَّهُ الحسن، فلما كان في الثالثة قال له الحسن: ما هٰذا؟ قد احتملتك مرتين ـ وأنا ابن تسعين سنة ـ ؛ فاتق اللّٰه في المشايخ، فربما استجيبت فيك دعوة! فقال له ابن خزيمة: مه! لا تؤذِ الشيخ، قال: إنما أردت أن تعلم أن أبا العباس يَعْرِفُ حديثه»[٣].

▫ قال يحيىٰ بن سعيد القطان[٤]: «قدمت الكوفة، وبها ابن عجلان، وبها ممن يطلب الحديث مُليح بن الجراح أخو وكيع، وحفص بن غياث، ويوسف ابن خالد السمتي، فقلنا: نأتي ابن عجلان، فقال يوسف السمتي: هل نقلب عليه حديثه حتىٰ ننظر فهمه؟ قال: ففعلوا؛ فما كان عن سعيد جعلوه عن أبيه، وما كان عن أبيه جعلوه عن سعيد. قال يحيىٰ: فقلت لهم: لا أستحل هٰذا، فدخلوا عليه فأعطوه الجزء، فمر فيه، فلما كان عند آخر الكتاب انتبه الشيخ، فقال: أعد. فعرض عليه، فقال: «ما كان عن أبي فهو عن سعيد، وما كان عن

---

(١) **«معجم التراكيب» لأحمد أبو سعد (ص ٢٨٣)، تركيب مولد.**

(٢) فراوة: هي بلد من أعمال نَسَا ذكرها ياقوت في «معجمه» (٤/ ٢٤٥).

(٣) «السير» للذهبي (١٤/ ١٥٩ ـ ط: الرسالة).

(٤) «المحدث الفاصل» للرامهرمزي (٣٩٩)

سعيد فهو عن أبي. ثم أقبل علىٰ يوسف فقال: إن كنت أردت شيني وعيبي، فسلبك اللَّه الإسلام. وقال لحفص: ابتلاك اللَّه في دينك ودنياك. وقال لمليح: لا نفعك اللَّه بعلمك.

قال يحيىٰ: فمات مليح قبل أن ينتفع بعلمه، وابتلي حفص في بدنه بالفالج، وفي دينه بالقضاء، ولم يمت يوسف حتىٰ اتُّهم بالزندقة».

□ وقال مسلمةُ بن القاسم[1]: «كان العقيلي جليل القدر، عظيم الخطر، ما رأيت مثله، وكان كثير التصانيف، فكان من أتاه من المحدثين، قال: اقرأ من كتابك، ولا يخرج أصله، قال: فتكلمنا في ذٰلك. وقلنا: إما أن يكون من أحفظ الناس، وإما أن يكون من أكذب الناس.

فاجتمعنا؛ فاتفقنا علىٰ أن نكتب له أحاديث من روايته، ونزيد فيها وننقص، فأتيناه لنمتحنه، فقال لي: اقرأ، فقرأتُها عليه، فلما أتيت بالزيادة والنقص، فطن لذٰلك، فأخذ مني الكتاب، وأخذ القلم، فأصلحها من حفظه، فانصرفنا من عنده، وقد طابت نفوسنا، وعلمنا أنه من أحفظ الناس» اهـ.

□ وقال أبو النصر الوائلي: «لما ورد أبو الفضل الهمذاني نيسابور تعصبوا له ولقبوه: بديع الزمان، فأُعْجِبَ بنفسه ـ إذ كان يحفظ المئة بيت إذا أُنْشِدَتْ مرة، ويُنشدها من آخرها إلىٰ أولها مقلوبة ـ ، فأنكر هو علىٰ الناس قولهم: فلان الحافظ في الحديث، ثم قال: وحِفظُ الحديث مما يُذكر؟! فسَمِعَ به الحاكم النيسابوري ابن البَيِّع، فوَجَّه إليه بجُزءٍ وأجَّل له جُمْعَةً في حِفظه، فرد إليه الجزء بعد الجمعة، وقال: من يحفظ هٰذا؟ قال محمد بن فلان وجعفر ابن فلان عن فلان؟ أسامٍ مختلفة وألفاظ متباينة؟ فقال له الحاكم: فاعرف نفسك، واعلم أن هٰذا الحفظ أصعب مما أنت فيه»[2].

□ وقال أبو الأزهر رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان بسمرقند أربعُمئةٍ ممن يطلبون الحديث،

---

(١) «السير» للذهبي (١٥/ ٢٣٧ ـ ط: الرسالة).

(٢) «السير» للذهبي (١٧/ ١٧٣ ـ ط: الرسالة).

فاجتمعوا سبعة أيام، وأحبوا مغالطة محمد بن إسماعيل البخاري؛ فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق، وإسناد اليمن في إسناد الحرمين؛ فما تعلقوا منه بسقطة لا في الإسناد ولا في المتن»[١].

---

(١) السابق (١٢/ ٤١١).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

وإذا بدا لك الانتقال إلىٰ شيخ آخر فاستأذنه لذٰلك؛ فإنه أدعىٰ لحرمته وأملك لقلبه محبتك والعطف عليك.

○ ○ ○

الشرح:

□ قال الخطيب البغدادي: «استشرت البَرقاني في الرحلة إلىٰ أبي محمد النحاس بمصر أو إلىٰ نيسابور إلىٰ أصحاب الأصم، فقال: إنك إن خرجت إلىٰ مصر إنما تخرج إلىٰ واحدٍ؛ إن فاتك ضاعت رحلتك، وإن خرجت إلىٰ نيسابور ففيها جماعة؛ إن فاتك واحدٌ أدركت من بقي. فخرجت إلىٰ نيسابور»[١].

□ وقال الحافظ الهمذاني لبعض تلامذته ـ وقد استأذنه أن يرحل ـ، فقال له: «إن عرفت أستاذًا أعلم مني ـ أو في الفضل مثلي ـ؛ فحينئذٍ آذن إليك أن تسافر إليه، اللهم إلا أن تسافر إلىٰ الحافظ ابن عساكر؛ فإنه حافظ كما يجب، فقلت: من هٰذا الحافظ؟ فقال حافظ الشام أبو القاسم يسكن دمشق. وأثنىٰ عليه»[٢].

□ وأخيرًا: قال الحافظ الكبير أبو علي النيسابوري: «استأذنت ابن خزيمة في الخروج إلىٰ العراق، فقال: توحشنا مفارقتك ـ يا أبا علي ـ، فقد رحلتَ وأدركتَ العوالي، وتقدمت في الحفظ، ولنا فيك فائدة. فما زلت به حتىٰ أذن لي، وقال لي ابن خزيمة: لقد أصبت في خروجك؛ فإن الزيادة علىٰ حفظك ظاهرة»[٣].

قلت: وهناك إذن الوالدين ـ أيضًا ـ في الرحلة إلىٰ المشايخ:

---

(١) «طبقات الشافعية» للسبكي (٤/ ٣٠)، و«السير» (١٨/ ٢٧٥).
(٢) «طبقات الشافعية» للسبكي (٧/ ٢١٨)، و«السير» (٢٠/ ٥٦٣).
(٣) «السير» للذهبي (١٦/ ٥٦).

□ قال محمد بن بشار: «أردت الخروج ـ يعني الرحلة ـ ، فمنعتني أمِّي، فأطعتها، فبورك لي فيه»(١).

□ وقال جعفر الخلدي: «كان الأبَّار من أزهد الناس، استأذن أُمَّهُ في الرحلة إلىٰ قتيبة فلم تأذن له، ثم ماتت، فخرج إلىٰ خراسان، ثم وصل إلىٰ بَلْخٍ ـ وقد مات قتيبة ـ ، فكانوا يعزونه علىٰ هٰذا، فقال: هٰذا ثمرة العلم، إني اخترت رضا الوالدة»(٢).

---

(١) «السير» للذهبي (١٢/ ١٤٥).
(٢) «السير» للذهبي (١٣/ ٤٤٣).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

إلىٰ آخر جملة من الآداب يعرفها بالطبع كلُّ موفَّق مبارك؛ وفاءً لحق شيخك في «أُبوته الدينية»، أو ما تسمِّيه بعض القوانين باسم «الرضاع الأدبي»[(١)]، وتسميةُ بعضِ العلماء له «الأبوة الدينية» أليق وتركه أنسب.

○ ○ ○

الشرح:

◻ يقول الإمام اللَّقَّاني: «والشيوخ بمنزلة الآباء، فمن لا شيوخَ له، لا آباء له، ولا نسب له»[(٢)].

◻ وقال ـ أيضًا ـ : «ولابد أن يراعيَ كلٌّ من المتعلِّم والمعلِّم الآخر؛ خصوصًا الأول؛ لأن معلِّمَه كالأب له ـ بل أعظم ـ ؛ لأن أباه أخرجه إلىٰ دار الفناء، ومعلِّمَه دلَّه علىٰ دار البقاء»[(٣)].

◻ ويقول ابن الجوزي: «لذٰلك صار حق المُعَلِّم أعظم من حق الوالدين؛ فإن الوالد سبب للوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلِّم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة، وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابُّوا ويتعاونوا؛ فحق تلامذة الرجل الواحد التحاب، ولا يصح ذٰلك إلا أن يكون مقصدهم الآخرة لا الدنيا الفانية»[(٤)].

---

(١) **«مقاصد الشريعة» لعلال الفاسي (ص/ ٣٣).**

(٢) «قضاء الوطر» للقاني (١/ ٣٢٧ ـ ط: الدار الأثرية).

(٣) السابق (١/ ٤٤٢).

(٤) «منهاج القاصدين» لابن الجوزي (١/ ٦١ ـ ط: دار التوفيق دمشق).

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أنه بقدر رعاية حرمته يكون النجاح والفلاح، وبقدر الفوت يكون من علامات الإخفاق.

○ ○ ○

❁ الشرح:

عَلِمَ اللَّه أني قَلما رأيت مثل أدب القشيري مع مشايخ وقته ومؤدبيه؛ فقد كان غايةً في الأدب والأخلاق الحميدة، وانظر إلىٰ أدبه مع شيخه ومربيه وصهره:

□ إذ يقول: «لم أدخل علىٰ الأستاذ أبي عليٍّ الدَّقَّاق في وقت بدايتي إلا صائمًا، وكنت أغتسل قبله، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة؛ فأرجع من الباب احتشامًا منه أن أدخل عليه، فإذا تَجَاسَرْتُ مرةً ودخلت، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبني شِبْهُ خَدِرٍ؛ حتىٰ لو غَرَزَ فِيَّ إبرة مثلًا لعلي كنت لا أحس بها، ثم إذا قعدت لواقعةٍ وقعت لي لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة، فكلما كنت أجلس كان يبتدئ بشرح واقعتي، وغير مرةٍ رأيت منه هٰذا عيانًا، وكنت أفكر في نفسي كثيرًا: أنه لو بعث اللَّه ﷻ رسولًا إلىٰ الخلق هل يمكنني أن أزيد في حشمته علىٰ قلبي فوق ما كان منه، فكان لا يُتصور لي أن ذٰلك ممكن، ولا أذكر أني في طول اختلافي إلىٰ مجلسه، ثم كوني معه بعد حصول الوصلة، أن جرىٰ في قلبي أو خطر ببالي عليه اعتراض إلىٰ أن خرج ـ رحمه اللَّهُ تعالىٰ ـ من الدنيا»[1].

قلت: واللَّه هٰذا هو الأدب بعينه، يا ربنا أسألك أن تؤدبنا بآداب هٰؤلاء القوم، وأن تغفر لنا ما قدمنا من سوء أدب مع علمائنا ومشايخنا.

□ قال الحسن بن علي الخلال: «كنا عند معتمر بن سليمان يُحدثنا؛ إذ

---

(١) «الرسالة القشيرية» للقشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص/ ٢٩٧ ـ ط دار الخير بيروت).

أقبل ابن المبارك، فقطع معتمر حديثه، فقيل له: حدِّثنا! فقال: إنا لا نتكلم عند كبرائنا»[١].

◻ وقال أبو سعدٍ السمعاني[٢]: «دخلت بروجرد، فقعدت أنسخ في جزء بجامعها، وإلىٰ جانبي شيخ، فقال: ما تكتب؟ فتبرمت بسؤاله، وقلت: الحديث. قال: حديث من؟ قلت: من رواية أهل مرو. قال: من تعرف من علماء الحديث بمرو؟ قلت: عبدان، وصدقة بن الفضل، وابن منير. فقال: وما اسم عبدان؟ قلت: عبداللَّه بن عثمان. ثم نظرت إليه بعين الأدب معه، فقال: ولم لُقِّب عبدان؟ فقلت: يفيدنا الشيخ. قال: وجود «عبد» في اسمه وفي كنيته، فلقب بهما علىٰ التثنية. فقلت: عمن يأثره الشيخ؟قال: عن شيخنا محمد بن طاهر المقدسي».

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ٣٢٠)، «الطيوريات» للسِّلفي (٣/ ٨٧٢).

(٢) «التحبير» للسمعاني (٢/ ٢٤٨)، «معجم البلدان» للبلاذري (١/ ٤٠٤)، «السير» للذهبي (١٠/ ٢٧٠).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

تنبيه مهم: أُعيذك باللَّه من صَنيع الأعاجم والطُّرُقية والمبتدعة الخَلَفية، من الخضوع الخارج عن آداب الشرع، مِن لحسِ الأيدي، وتقبيل الأكتاف، والقبض علىٰ اليمين باليمين والشمال عند السلام، كحال تودد الكبار للأطفال، والانحناء عند السلام، واستعمال الألفاظ الرِّخوة المتخاذلة: سيدي، مولاي ونحوها من ألفاظ الخدم والعبيد.

وانظر ما يقوله العلامة السلفي محمد البشير الإبراهيمي الجزائري (م سنة ١٣٨٠ هـ) رحمه اللَّهُ تعالىٰ في «البصائر»؛ فإنه فائق السياق[١].

○ ○ ○

الشرح:

قد قلنا قبلُ: تمتع بخصال الرجولة وأدب العلم وقوته وهديه ومنظره، وما ذكره الشيخ بكرٌ هنا لا يُعَدُّ شيئًا من هٰذه الخصال المحمودة؛ فليس العلم والذل لأهل العلم والخضوع لهم بأمثال هٰذه الأفعال؛ لذٰلك شَدَّدَ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا علىٰ هٰذه السمات، وأنها لا تَمُتُّ لطلب العلم بشيء أبدًا.

أما أصل العلم: فناهيك بأدبه، وهٰذا سيد البشر ﷺ كان يُنكر علىٰ أحبابه من الأصحاب وخاصته عند قيامهم له؛ فكيف بنا اليوم وقد انتشرت هٰذه الخصال التي من رآها علم نكيرها ـ فضلًا عن ثبوتها وروايتها ـ ؟!.

أدبنا اللَّه وإياك بأدب سيد الأدب رسول اللَّه ﷺ وصحبه الكرام وخِيرَة أهل القرون الأولىٰ، فرضي اللَّه عن هٰؤلاء الأئمة ومن سار علىٰ هديهم وطريقهم.

---

(١) آثاره (٤/ ٤٠ ـ ٤٢).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٩ ـ رأس مالك ـ أيها الطالب ـ من شيخك:

القدوةُ بصالح أخلاقه وكريم شمائله، أما التلقي والتلقين فهو ربح زائد، لٰكن لا يأخُذُك الاندفاع في محبة شيخك فتقع في الشناعة من حيث لا تدري، وكلُّ من ينظر إليك يدري؛ فلا تقلده بصوت ونغمة، ولا مِشية وحركة وهيئة؛ فإنه إنما صار شيخًا جليلًا بتلك، فلا تسقُط أنت بالتبعية له في هٰذه.

○ ○ ○

الشرح:

أصل العلم: التأدُّب بأدب مشايخك ومُعَلِّميك، والتأسي بأخلاقهم وشمائلهم وكريم أفعالهم؛ خاصةً العلماء العاملين الذين تظن أنهم مخلصون، هٰذا ولا تستنكف أبدًا عن هَدي مشايخك؛ إذ هُم تأسوا بأدب من قبلهم ممن علموهم وأدبوهم؛ مع العلم أنهم تعلموا قبلك، واستنوا بالآثار قبل أن تستن أنت، فأنت إذا اهتديت بهديهم؛ فقد أخذت عُصارة علمهم وتعب أيامهم فهنيئًا لك.

وانظر ـ أخي الطالب ـ إلىٰ هٰذا الهَدي وتعلمه:

▫ قال أبو بكر المطوِّعي: «اختلفت إلىٰ أبي عبداللّٰه ـ أحمد بن حنبل ـ ثنتي عشرة سنة وهو يقرأ «المسند» علىٰ أولاده؛ فما كتبت عنه حديثًا واحدًا، إنما كنت أنظر إلىٰ هديه وأخلاقه»[١].

▫ وقال بشر بن الحارث الحافي: «إني لأذكر المُعافَىٰ بن عِمران اليوم فانتفع بذكره، وأذكر رؤيته فأنتفع»[٢].

▫ وقال ابن الجوزي عن شيخه الأنماطي: «كنت أقرأ عليه وهو يبكي،

---

(١) «السير» للذهبي (١١/ ٣١٦).

(٢) «السير» للذهبي (٩/ ٨٢).

فاستفدت ببكائه أكثر من استفادتي بروايته، وانتفعت به ما لم أنتفع بغيره»[١].

□ وقال ابن حبان: «قال مغيرة بن إبراهيم: إن هٰذه الأحاديث دين؛ فانظروا عمن تأخذوا دينكم. كنَّا إذا أتينا الرجل لنأخذ عنه؛ نظرنا إلىٰ سمته وإلىٰ صلاته ثم أخذنا عنه»[٢].

□ ولقد رحل الإمام يحيىٰ بن بُكير التميمي إلىٰ الإمام مالك رضي الله عنه للسماع منه، وحصل له ذٰلك تامًّا، ثم بقي عند الإمام مالك بعدها سنين؛ فسئل عن ذٰلك فقال: «أقمتُ لأَستفيد من شمائله»[٣].

□ وقال أبو عليٍّ القالي: «إن عمر بن عثمان قال: حدثني رجل من أهل مَنْبِج قال: قدم علينا الحكم بن المطلب ـ ولا مال معه ـ، فأغنانا كلَّنا!! فقلنا كيف؟ قال: عَلَّمَنا مكارمَ الأخلاق، فعَادَ غَنِيُّنا علىٰ فقيرِنا فغنينا كلُّنا»[٤].

□ وقال حبيب بن الشهيد لابنه: «يا بني، اصحب الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم، فإن ذٰلك أحبُّ إليَّ من كثير من الحديث».

□ وقال مخلدُ بن الحسين لابن المبارك: «نحن إلىٰ كثير من الأدب أحوج منَّا إلىٰ كثير من الحديث».

□ وقال سفيان بن عيينة: «إن رسول اللَّه ﷺ هو الميزان الأكبر، وعليه تُعرض الأشياء ـ علىٰ خُلُقِهِ وسِيرَتِهِ وهديه ـ، فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل»[٥].

---

(١) «المنتظم» لابن الجوزي (١٠/ ١٠٨)، و«السير» (٢٥/ ١٣٦).
(٢) «المجروحين» لابن حبان (المقدمة: ١/ ٢٣).
(٣) «مقدمة الرحلة» للخطيب البغدادي (ص/ ٢٧).
(٤) «ذيل الأمالي والنوادر» لأبي علي القالي (ص/ ٢١٦).
(٥) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة الكناني (ص/ ٣٨، ٣٩ ـ ط: مكتبة ابن عباس).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٠ ـ نشاط الشيخ في درسه:

يكون علىٰ قدر مدارك الطالب في استماعه، وجمع نفسه، وتفاعل أحاسيسه مع شيخه في درسه ولهٰذا فاحذر أن تكون وسيلة قطعٍ لعلمه بالكسل والفتور والاتكاء وانصراف الذهن وفتوره.

○ ○ ○

الشرح:

◻ قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الإحياء»[1]: «فلا يُنال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق]. ومعنىٰ كونه «ذا قلب»: أن يكون قابلًا للعلم فهِمًا، ثم لا تعينه القدرة علىٰ الفهم حتىٰ يُلقي السَمْعَ وهو «شهيد» حاضر القلب ليستقبل كل ما أُلقي إليه بِحُسن الإصغاء والضَّرَاعَة والشكر والفرح وقبول المِنة، فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دَمِثَة نالت مطرًا غزيرًا؛ فشرِبَت جميع أجزائها وأذعنت بالكلية لقبوله».

◻ قال ابن أبي حاتم: «سمعت المُزني يقول: قيل للشافعي: كيف شهوتك للعلم؟ قال: أسمع بالحرف ـ مما لم أسمعه ـ ؛ فتودُّ أعضائي أن لها أسماعًا تتنعَّمُ به مثل ما تنعمت الأذنان به، فقيل له: كيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجَموع المنوع في بلوغ لذته للمال، فقيل له: كيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المُضلَّةِ ولدَها ليس لها غيره»[2].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ٨٥ ـ دار الحديث بالقاهرة ـ الطبعة الأولىٰ بالفهارس).

(٢) «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (ص/ ٢٢).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الخطيب البغدادي[(١)]: «وحق الفائدة أن لا تُسَاقَ إلا إلىٰ مُبْتَغِيها، ولا تُعرض إلا علىٰ الراغب فيها، فإذا رأىٰ المحدث بعض الفتور من المستمع فليسكت، فإن بعض الأدباء قال: نشاط القائل علىٰ قدر فهم المستمع».

ثم ساق بسنده عن زيد بن وهب قال: «قال عبداللَّه: حدِّث القوم ما رمقوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فترةً فانزع» اهـ.

○ ○ ○

الشرح:

أثر عبداللَّه بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هٰذا في «الجامع» للخطيب (١/ ٣٨١)، وفي كتاب «العلم» لأبي خيثمة (ص/ ٢٥) رقم (٩٨، ٩٩)، وذكره عنه ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٢/ ١٠١).

قلت: أخرج البخاري في «صحيحه» (٦٣٣٧) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «حدِّث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرات، ولا تُمِلَّ الناس هٰذا القرآن، ولا تأت القوم وهم في حديث فتقطع عليهم حديثهم، ولٰكن أنصت؛ فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه، وإياك والسجع في الدعاء؛ فإني عهدت رسول اللَّه ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذٰلك».

□ قال الحافظ بن حجر[(٢)]: «وفيه كراهية التحديث عند من لا يُقبل عليه، والنهي عن قطع حديث غيره، وأنه لا ينبغي نشر العلم عند من لا يَحْرِص عليه، ويُحدث من يشتهي أن ينتفع به».

□ وقال عبداللَّه بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ كما ثبت عنه بسند صحيح في كتاب «العلم» لأبي خيثمة ـ، قال: «لا تُمِلُّوا الناس»[(٣)].

---

(١) **«الجامع» (١/ ٣٣٠).**

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ١٣٩).

(٣) «العلم» لأبي خيثمة (رقم/ ٩٩)، وأفدته من كتاب «النبذ في آداب طالب العلم» (ص/ ١٣٢) =

□ وفي «الصحيحين»[1] عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنه كان يُذَكِّرُ كل يوم خميس، فقال له رجل: يا أبا عبدالرَّحمٰن، إنا نُحب حديثك ونشتهيه، ولَوَدِدْنَا أنك حدثتنا كل يوم، فقال: ما يمنعني أن أحدثكم إلا كراهيةَ أن أُمِلَّكُمْ، إن رسول اللَّه ﷺ كان يَتَخَوَّلُنا بالموعظة مخافة السآمة علينا».

□ وقال العلَّامة ابن المُلقِّن في «شرح البخاري»[2]: «معنىٰ «يتخولنا»: يصلحنا ويقوم علينا. يُخولُ خَوَلًا: إذا ساسه، وأحسن القيام عليه، والخائل: المُتعاهد للشيء المُصْلِح له.

وقال الخطابي: «يتخولنا»: يتعهدنا ويُراعي الأوقات في وعظنا، ويتحرىٰ منها ما كان مظنة القبول، ولا يفعله كل يوم لئلا نسأم.

وقال أبو عمرو الشيباني: الصواب: «يتحولنا» بالحاء المهملة، أي: يطلب أحوالهم التي ينشطون فيها للموعظة، فيعظهم ولا يُكثر عليهم فيملوا».

□ وذكر ابن مُفلح الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «أن عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول: تحدثوا بكتاب اللَّه وتجالسوا، وإذا مللتم فحديث من أحاديث الرجال حسن جميل».

□ وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ـ تلميذ ابن حجر رَحِمَهُمَا اللَّهُ ـ: «فالشيخ المُقتَدىٰ به ينبغي أن يكون طبيبًا عارفًا بسائر الأدوية والأمراض؛ فيداوي كل عليل بالدواء اللائق بمرضه»[4].

قلت: هٰذه الفائدة ـ أخي الطالب ـ مهمة جدًّا في آداب التعليم الموصلة إليه، وهو أسلوبٌ قيم عند إلقاء المعلومة؛ فلابُد من آذانٍ صاغية وقلوب

= للشيخ الفاضل حمد بن إبراهيم العثمان.

(١) البخاري في «العلم» (٦٨)، ومسلم (٢٨٢١).

(٢) «التوضيح شرح الجامع الصحيح» (٢/ ٣٣٣ ـ ط: غراس الكويت).

(٣) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ٨٩).

(٤) «شرح الرسالة القشيرية» لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري (١/ ١٤٦ ـ ط: العلمية بيروت).

واعية وأبصار شاخصة وجوارح حاضرة؛ حتىٰ يصل العلم إلىٰ الآذان فتعيه القلوب وتتفهمه، فتعمل به الجوارح علىٰ الوجه المرضي، وباللَّهِ التوفيق.

📖 📖 📖

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢١ ـ الكتابة عن الشيخ حال الدرس والمذاكرة:

وهي تختلف من شخص إلىٰ آخر فافهم، ولهٰذا أدب وشرط:

أما الأدب: فينبغي لك أن تُعْلِمَ شيخك أنك سَتكتب، أو كتبت ما سمعته مذاكرةً.

وأما الشرط: فتشير إلىٰ أنك كتبته من سماعه من درسه[1].

٢٢ ـ التلقي عن المبتدع:

احذر «أبا الجهل» المبتدع الذي مسَّه زيغ العقيدة، وغَشِيَتْهُ سُحب الخرافة، يُحَكِّمُ الهوىٰ ويسميه العقل، ويَعدل عن النص، وهل العقل إلا في النص؟! ويستمسك بالضعيف، ويَبعُد عن الصحيح، ويقال لهم ـ أيضًا ـ : «أهل الشبهات»[2]، و«أهل الأهواء»؛ ولذا كان ابن المبارك[3] رحمه اللَّهُ تعالىٰ يسمىٰ المبتدعة: «الأصاغر».

○ ○ ○

الشرح:

آهِ آهِ من أهل الأهواء والبدع العيَّابين السذج؛ الذين ماتت قلوبهم فهم في غَيهم يترددون، وفي ظلماتٍ يَعمهون، فهم شركاء الطغاة، وسفهاء الأحلام، وأمثال الأنعام، وعار أهل الإسلام، ولو علموا ذٰلك لاستراحوا وأراحوا، ولٰكن هٰذا ليس من بضائعهم؛ لأنهم قد حُجِبوا عن معرفة حقيقة أمرهم، وهٰذا لأجل أربعة أمور ـ بل خمسة ـ؛ منها: الجهل، والإصرار، ثم محبة الدنيا، ثم إظهار الدعوىٰ، ثم محبة الشُّهْرَة التي هي شبكة إبليس.

---

(١) الجامع للخطيب (٢/ ٣٦ ـ ٣٨).

(٢) الجامع الخطيب (١/ ١٣٧).

(٣) في «الزهد» (٦١) له، وانظر «السلسلة الصحيحة» للألباني رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٩٥).

فالجهل أورثهم السُّخف، والإصرار أورثهم التهاون، ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة بالأمل، وإظهار الدعوىٰ أورثتهم الكبر والإعجاب والرياء.

□ وهم كما قال إمام الأئمة الشافعي: «ما تردَّىٰ[١] أحدٌ بالكلام فأفلح».

□ وهٰذا الأمر حَيَّر الإمام الكبير ابن بطة حتىٰ قال: «اعلموا أني فكرت في السبب الذي أخرج أقوامًا من السنة والجماعة، واضطرهم إلىٰ البدعة والشناعة، وفتح باب البلية علىٰ أفئدتِهم، وحجب نور الحق عن بصيرتِهم، فوجدت ذٰلك من وجهين:

أحدهما: البحث والتنقير وكثرة السؤال عما لا يعني، ولا يضر العاقل ولا ينفع المؤمن فهمه.

والآخر: مجالسة من لا تؤمن فتنته وتفسد القلوب صحبته»[٢].

قلت: وأزيد كلام ابن بطة رَحِمَهُ اللَّهُ بأمر ثالث ألا وهو: البطالة في طلب العلم الصافي النافع المفيد، ثم عدم الفهم الناتج من سوء النية والطوية، وهٰذا لا يَحتاج إلىٰ شرح.

□ قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَأَنْ يَلْقَىٰ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ المرء بكل ذنب ـ ما خَلا الشِرك باللَّه تبارك وتعالىٰ ـ خيرٌ له من أن يلقاه بشيء من الأهواء»[٣].

واعلم ـ أخي الطالب ـ أن هٰذا الداء من أخطر الأمراض الفتَّاكة لمن يدَّعي العلم ومعرفته، فلا يكاد يبرأ منه صاحبه أبدًا؛ إلَّا إذا أخلص الدُّعاء للَّه أن يُبصِّره ويهديه إلىٰ طريق الحق والنور؛ فمنه الهداية.

□ وهٰذا علَّامة الأندلس ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ يصفهم بقوله[٤]: «فدَاؤُهُم وضررهم علىٰ الناس عظيم؛ فلا تجدهم إلا عيَّابين وقَّاعين في الأعراض، ومجانبين

---

(١) من ارتداء الشيء، واللَّهُ أعلم.

(٢) «الإبانة» (١/ ٣٩٠) لابن بطة.

(٣) «آداب الشافعي» لابن أبي حاتم (ص/ ١٤٣).

(٤) «مداواة النفوس» (ص/ ١٠١).

للحقائق، مُكبين علىٰ الفضول، وربما كانوا ـ مع ذٰلك ـ متعرضين للمشاتمة والمهارشة[١] ـ أعاذنا اللَّه منهم برحمته ـ؛ فإنه كلما نقص العقل توهم صاحبه أنه أوفر الناس عقلًا.

وهٰذه طائفةٌ سوء نصبت أنفسها للقعود علىٰ طريق العلم، يَصُدُّون الناس عنها ليكثر نظرائهم من الجُهال، ولا تنفع حكمة حكيم أبدًا عند خبيث الطبع؛ بل يظنه خبيثًا مثله، وقد شاهدت أقوامًا ذَوِي طبائع رديئة، وقد تصور في أنفسهم الخبيثة أن الناس كلهم علىٰ مثل طبائعهم، لا يصدقون أصلًا بأن أحدًا هو سالمٌ من رذائلهم بوجهٍ من الوجوه، وهٰذا أفسد ما يكون من فساد الطبع والبعد عن الفضل والخير، ومن كانت هٰذه صفته لا تُرجىٰ له معافاةٌ أبدًا؛ أعاذنا اللَّه من تلك الأمراض وهٰذه الأوبئة» اهـ.

قلت: هٰؤلاء السفهاء ما خلا منهم عصر ولا مِصر، وربما كثروا في بلد عن بلد ومكانٍ عن مكان، وهم أقرب الناس إلىٰ إبليس واللعب بعقولهم، فسوَّل لهم الشيطان وزخرف لهم، فظنوا بعلماء الأمة الأكابر ـ المهتدين بهدي أهل الفضل ـ السوء؛ فتكلموا عنهم ببهتان حتىٰ كَذبُوا عليهم، وظن كبيرهم أنه: أبو حاتم الرازي أو أبو زرعة الرازي في الجرح والتعديل؛ فأخذ يتكلم في أسياده وتاج رأسه ومعلميه بأشد الألفاظ الرديئة؛ فصار الرويبضة الذي لا يساوي فلسًا يتكلم في عظماء الأمة وكبرائها، ولا نقول: إن هٰؤلاء العظماء معصومون؛ حاشا وكلا، وإنما إن وقع منهم شيء فلابُد من الأدب والاحترام، وحمل المعاذير والرجوع إليهم، وتنبيههم بكل أدب وتواضع وسكون بغير مِنَّة ولا كبر ولا غطرسة ولا فضيحة؛ هٰذا هو العلم، وبغير ذٰلك لا يكون أبدًا.

وكل بدعةٍ لها صولةٌ وجولةٌ ونارٌ عن قريب تكون رمادًا كأن لم تَغْن بالأمس، فلا تعجب ممن انحرف كيف انحرف، ولٰكن اعجب ممن استقام كيف استقام.

---

(١) المهارشة: الخصام.

نسأله السلامة في أمورنا كلِّها، وأن يجعلنا ممَّن تأدب مع أكابرهم ومعلميهم.

▫ قال أيوب السختياني: «قال لي أبو قلابة: احفظ عني أربعًا: لا تقولن في القرآن برأيك، وإياك والقدر، وإذا ذُكِرَ أصحاب محمد ﷺ فأمسك، ولا تُمَكِّن أصحاب الأهواء من سَمْعِك»(١).

▫ وقد وصفهم ـ أيضًا ـ الإمام الكبير الزاهد الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «إذا شئت لقيته أبيض بَضًّا، حديدَ النظر، ميت القلب والعمل، أنت أبصر به من نفسه، ترىٰ أبدانًا ولا قلوب، وتسمع الصوت ولا أنيس، أخصب ألسنة، وأجدب قلوبًا»(٢).

قلت: نِعم الوصف!!.

▫ ونصيحتي لك نصيحة الإمام عبداللَّه بن مصعب؛ حيث أجاد بقوله:

لا تصحبن أخا بدعة ... ولا تسمعن له الدهر قيلَا

فإن مقالتهم كالظِّلال ... يوشك أفياؤها أن تزولَا

إذا أحدثوا بدعةً بينهم تعاووا ... فكانوا عليها عُدولَا

فَخَلِّهِمْ والذي يهضبون ... وولِّهِم منك صمتًا طويلَا(٣).

▫ وآخرهم كما قال السيد الجليل العلَّامة ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل فريق منهم بديهم حسن، ثم يصيرون بعد للشَّنَع»(٤).

فنعوذ باللَّهِ من فتنة القلب وسوء العمل.

---

(١) «شرح السُّنَّة» للالكائي (١/ ١٣٤) (٢٤٦)، و«الإبانة» لابن بطة (١/ ٤٠)

(٢) «الزهد» لابن المبارك (رقم/ ١٨٦)، «أمالي الشجري» (٢/ ١٥٥)، «المجالسة» (٩٥٥).

(٣) «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (١/ ٦٢).

(٤) «المجالسة» (٢/ ١٣) (١١٩٤).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الذهبي[١]: «إذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث وهات «العقل»، فاعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل وهات الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر، أو قد حلَّ فيه، فإن جبُنتَ منه فاهرب، وإلا فاصرعه وابرك علىٰ صدره، واقرأ عليه آية الكرسي واخنقه» اهـ.

وقال أيضًا[٢]: «وقرأت بخط الشيخ الموفَّق قال: سمعنا درسه ـ أي ابن أبي عصرون ـ مع أخي أبي عمر وانقطعنا، فسمعت أخي يقول: دخلت عليه بعد فقال: لمَ انقطعتم عني؟ قلت: إن أُناسًا يقولون: إنك أشعري، فقال: واللَّه ما أنا أشعري. هٰذا معنىٰ الحكاية» اهـ.

وعن مالكٍ قال[٣]: «ولا يؤخذ العلم عن أربعة: سفيه يعلن السفه ـ وإن كان أروىٰ الناس ـ، وصاحب بدعة يدعو إلىٰ هواه، ومن يكذبُ في حديث الناس ـ وإن كنت لا أتهمه في الحديث ـ، وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ ما يحدث به».

فيا أيها الطالب، إذا كنت في السعة والاختيار فلا تأخذ عن مبتدع: رافضي أو خارجي أو مرجئ أو قدري أو قبوري... وهٰكذا، فإنك لن تبلغ مبلغ الرجال صحيح العقد في الدين، متين الاتصال باللَّه صحيح النظر تَقْفُو الأثر إلا بِهَجْر المبتدعة وبِدَعِهِم، وكتب السير والاعتصام بالسنة حافلةٌ بإجهاز أهل السنة علىٰ البدعة، ومنابذة المبتدعة، والابتعاد عنهم كما يبتعد السليم[٤] عن الأجْرَب المريض، ولهم قصص وواقعات يطول شرحها[٥]، لٰكن يطيب

---

(١) «السير» للذهبي (٤/ ٤٧٢).
(٢) «السير» (٢١/ ١٢٩).
(٣) كما في «السير» (٨/ ٦١).
(٤) السليم: الملدوغ.
(٥) وفي رسالة «هجر المبتدع» لراقمه أصول مهمة في هٰذه المسألة.

لي الإشارة إلىٰ رؤوس المقيدات فيها:

فقد كان السلف ـ رحمهم اللَّه تعالىٰ ـ يحتسبون الاستخفاف بهم، وتحقيرهم، ورفض المبتدع وبدعته، ويحذرون من مخالطتهم ومشاورتهم ومؤاكلتهم، فلا تتوارىٰ نارُ سُني ومُبْتَدِع، وكان من السلف من لا يصلي علىٰ جنازة مبتدع فينصرف، وقد شوهد من العلَّامة الشيخ محمد بن إبراهيم (سنة ١٣٨٩هـ) رحمه اللَّهُ تعالىٰ انصرافه عن الصلاة علىٰ مبتدع. وكان من السلف من ينهىٰ عن الصلاة خلفهم، وينهىٰ عن حكاية بدعهم؛ لأن القلوب ضعيفة والشبه خطافة، وكان سهل بن عبداللَّه التستري لا يرىٰ إباحة الأكل من الميتة للمبتدع عند الاضطرار، لأنه باغ لقول اللَّه تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ...﴾ الآية [البقرة: ١٧٣]، فهو باغ ببدعته[١]. وكانوا يطردونهم من مجالسهم، كما في قصة الإمام مالك رحمه اللَّهُ تعالىٰ مع من سأله عن كيفية الاستواء، وفيه بعد جوابه المشهور: «أظنك صاحب بدعة». وأمر به فأخرج.

○ ○ ○

الشرح

هٰذا الأثر عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ روي عنه بسند صحيح[٢]:

وقصة الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع هٰذا المبتدع ذكرها الإمام اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في

---

(١) **الفتاوىٰ (٢٨/ ٢١٨) انظرها فهو مهم.**

(٢) أخرجه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٦٨٤)، ومن طريقه المرزوي في «العلل ومعرفة الرجال» (١٨٥/ رقم ٣٢٨)، والخطيب في «الجامع» (١/ ٢١٢) (١٧١)، «والكفاية» (ص/ ١١٦) (١/ ٣٥٦) (٣٠٣)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ١٠٣)، والعقيلي في «الضعفاء» ـ مقدمة (١/ ١٣)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٧٩ ـ ٨٠)، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص/ ٤٠٣) (رقم/ ٤١٨)، والقاضي عياض في «الإلماع» (ص/ ٧١)، وابن عبدالبر في «التمهيد» (١/ ٦٦) و«جامع بيان العلم» (٢/ ٤٨) كلهم من طريق إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثني معن بن عيسىٰ به. وذكره السيوطي في آخر «تنوير الحوالك» (ص/ ٣) «إسعاف المبطأ». وابن أبي حاتم في «مقدمة الجرح والتعديل» (١/ ٣٢)، و«بغية الملتمس» للعلائي (ص/ ٧٨).

«شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٣٩٨) (٦٦٤)، وعبدالله بن أحمد في «السنة» (رقم/ ١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٣٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (رقم/ ٤٠٨) وَجَوَّدَ إسنادها الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٤٠٧): أنه جاء رجل إلىٰ الإمام مالك بن أنس فقال: «يا أبا عبدالله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؛ كيف استوىٰ؟ قال جعفر بن عبدالله: فما رأيت مالكًا وَجَدَ[1] من شيء كموجدته من مقالته، وعلاه الرحضاء ـ يعني العرق ـ، قال: وأطرق القوم، وجعلوا ينظرون ما يأتي منه فيه، قال: فسُرِّي عن مالك، فقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول[2]، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فإني أخاف أن تكون ضالًّا. وأمر به فأُخرج».

□ وكتب بِشْرٌ إلىٰ منصور بن عمار يسأله عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾: «كيف استوىٰ؟ فكتب إليه: استواؤه غير محدود، والجواب فيه تكلُّف، ومسألتك عنه بدعة، والإيمان بجملة ذٰلك واجب»[3].

□ وقال أحمد ابن إبراهيم الدورقي: «سمعتُ وكيعًا يقول: نُسَلِّمُ هٰذه الأحاديث كما جاءت، ولا نقول: كيف كذا؟ ولا: لِمَ كذا؟»[4].

يعني مثل حديث: «**يحمل السماوات علىٰ إصبع**»[5].

قلت: وربما تجد في هٰذه الآونة من شُرَّاح العقيدة مَن يُكثِر الكلام جدًّا في الأسماء والصفات؛ مما لو استغنوا عن هٰذا الإسهاب والتطويل والدخول فيما لا فائدة من ذكره وضرب الأمثال؛ لكان أولىٰ وأجمل، ولو اكتفوا بمنهج السلف في هٰذا المضمار لكفاهم، وظنوا أن القوم كانوا لا يقدرون علىٰ هٰذا الكلام والتوسع فيه، أبدًا، ولٰكنهم ـ أي السلف ـ علموا الأمر فهابوا، ونحن

(١) وَجَد: غضب.
(٢) يقصد أن الاستواء معناه معلوم، وهو العلو والارتفاع ـ ما دام عُدِّي بـ«علىٰ» ـ.
(٣) «تاريخ بغداد» للخطيب (١٣/ ٧٦)، والسير (٩/ ٩٧).
(٤) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٥٦).
(٥) رواه البخاري (١٣/ ٣٣٥)، ومسلم (٢٧٨٦).

ما علمنا شيئًا فتجاسرنا وتعدَّينا؛ فصار الأمر كما ترىٰ، فعلىٰ ماذا تبكي العين، واللَّه لا أدري!.

□ وانظر إلىٰ قول الإمام ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «فكلام السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مختصر يُفهم به المقصود من غير إطالة ولا إسهاب، وفي كلامهم من ردِّ الأقوال المخالفة للسنة بألطف إشارة وأحسن عبارة، بحيث يُغني ذٰلك مَن فَهِمه عن إطالة المتكلمين في ذٰلك بعدهم، بل ربما لم يتضمن تطويل كلام مَن بعدهم من الصواب في ذٰلك ما تضمنه كلام السلف والأئمة مع اختصاره وإيجازه، **فما سكت مَن سكت عن كثرة الخصام والجدال من سلف الأمة جهلًا ولا عجزًا؛ ولٰكن سكتوا عن علم وخشية للَّهِ**، وما تكلم من تكلم وتوسع من توسع بعدهم باختصاصه بعلم دونهم، **ولٰكن حُبًّا للكلام وقلةَ ورعٍ**.

(١) «فضل علم السلف» لابن رجب (ص/ ٦٠).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأخبار السلف متكاثرة في النُّفرة من المُبْتَدِعَة وهجرهم حذرًا من شرهم، وتحجيمًا لانتشار بدَعِهِم، وكسرًا لِنفوسهم حتىٰ تَضْعُف عن نَشْر البدع، ولأن في معاشرة السُّني للمُبْتَدِع تذكيةً له لدىٰ المبتدئ والعامي: والعامي[1] مشتقٌّ من العَمَىٰ، فهو بيد من يقوده غالبًا، ونرىٰ في كتب المصطلح وآداب الطلب وأحكام الجرح والتعديل والأخبار في هٰذا.

○ ○ ○

الشرح:

وقد وجدت كلاما قيمًا ـ بحمد اللَّه ـ لأبي بكر الخلال في كتابه القيم «السنة» (١/ ٢٨٨):

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فاتقوا اللَّه ـ عباد اللَّه ـ، واقبلوا وصيته، وأمسكوا عن الكلام في هٰذا؛ فإن الخوض فيها بدعة وضلالة، ما سبقكم بها من سابق، ولا نطق فيها قبلكم ناطق، فتظنون أنكم اهتديتم لما ضَلَّ عنه من كان قبلكم! هيهات هيهات، وليس ينبغي لأهل العلم والمعرفة باللَّه أن يكونوا كلما تكلم جاهلٌ بجهله أن يُجيبوه ويحاجوه ويُناظروه، ولو شاء عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يناظر صَبيغًا ويجمع له أصحاب رسول اللَّه ﷺ حتىٰ يناظروه ويحاجوه ويبينوا عليه لَفَعَلَ، ولٰكنه قمع جهله، وأوجع ضربه، ونفاه في جِلده، وتركه يتغصص بريقه، وينقطع قلبه حسرةً بين ظهراني الناس مطرودًا منفيًّا مُشَرَّدًا، لا يُكَلَّمْ ولا يُجَالَس، ولا يشفىٰ بالحجة والنظر، بل تركه يختنق علىٰ حَرَّتِهِ، ولم يبلعه ريقه، ومنع الناس من كلامه ومجالسته، فهٰكذا حكم كل من شَرَّع في دين اللَّه بما لم يأذن به اللَّه، أن يُخْبَرَ أنه علىٰ بدعة وضلالة فيُحَذَّر منه،

---

(١) منها في «الجامع» للخطيب، باب: تخير الشيوخ إذا تباينت أوصافهم (١٠/ ١٢٧) وفي كتاب «مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للسامرائي (ص/ ٢١٥ ـ ٢٥٥) وهو مهم وفي «التحول المذهبي» من «الإسفار» لراقمه. أمثلة من آثار مخالطتهم.

وينهىٰ عن كلامه ومجالسته فاسترشدوا العلم، واستحضُّوا العلماء، واقبلوا نصحهم».

وأما الكلام علىٰ رد رواية المبتدع في كتب المصطلح وأدب الطلب كما ذكر الشيخ بكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد جاء الإمام السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكلام بديع فيها في كتابه القيم «الغاية في شرح الهداية» (١/ ٢١٢):

□ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «البدعة: ما أُحْدِثَ في الدين علىٰ غير مثال متقدم، فتشمل المحمود والمذموم، لٰكنها خُصَّت شرعًا بالمذموم مما هو خلاف المعروف عن النبي ﷺ.

فالمبتدع من اعتقد ذٰلك لا بمعاندة؛ بل بنوع شُبْهَة، قال شيخنا ـ أي ابن حجر ـ: وهي إمَّا أن تكونَ بمُكَفِّرٍ؛ كأنْ يَعتقدَ ما يَستلزِمُ الكفرَ، أو بمُفسِّقٍ:

فالأوَّل: لا يَقبلُ صاحِبَها الجُمهور. وقيل: يُقبلُ مُطلقًا، وقيلَ: إِنْ كان لا يَعتقدُ حِلَّ الكذبِ لنُصرَةِ مقالَتِه قُبِل.

والتحقيق ـ حسب ما سبقه إليه ابن دقيق العيد ـ أنه لا يُرَدُّ كلُّ مُكفِّرٍ ببدعَتِه؛ لأنَّ كلَّ طائفةٍ تدَّعي أنَّ مخالِفيها مبتدِعةٌ، وقد تُبالِغُ فتُكفِّرُ مخالِفها، فلو أُخِذَ ذٰلك علىٰ الإِطلاقِ؛ لاستلزمَ تكفيرَ جميعِ الطَّوائف، فالمُعتمَدُ أنَّ الذي تُرَدُّ روايتُهُ مَن أَنْكَرَ أَمرًا مُتواتِرًا مِن الشَّرعِ، معلومًا مِن الدِّينِ بالضَّرورةِ، وكذا مَن اعتقدَ عكسَهُ، يعني أنه يُثبِت مِن الشَّرعِ مَا لَيسَ مِنْه.

فأَمَّا مَن لم يَكُنْ بِهٰذه الصِّفَةِ، وانْضَمَّ إِلىٰ ذٰلك ضَبْطُهُ لِما يَرويهِ مَعَ وَرَعِهِ وتَقْواهُ؛ فلا مانِعَ مِن قَبولِهِ.

والثاني: وهو مَن لا تَقْتَضي بدعَتُهُ التَّكفيرَ أَصلًا، وقد اختُلِفَ ـ أيضًا ـ في قَبولِهِ وردِّهِ.

فقيلَ: يُرَدُّ مُطلقًا ـ وهُو بَعيدٌ ـ، وأَكثرُ مَا عُلِّلَ بهِ أَنَّ في الرِّوايةِ عنهُ تَرْويجًا لأمرِهِ وتَنْويهًا بذِكْرِهِ. وعلىٰ هٰذا؛ فيَنْبَغي أَنْ لا يُرْوىٰ عنْ مُبْتَدعٍ شيءٌ يُشارِكُه فيهِ غيرُ مُبتدعٍ.

وقيلَ: يُقْبَلُ مُطْلَقًا؛ إلَّا إن اعْتَقَدَ حِلَّ الكَذِبِ؛ كما تقدَّمَ.

وقيلَ: يُقبَلُ مَنْ لَمْ يَكُنْ داعِيةً إلىٰ بِدعَتِهِ؛ لأنَّ تزيينَ بِدعَتِه قد يَحْمِلُهُ علىٰ تَحريفِ الرِّواياتِ وتَسويَتِها علىٰ ما يقتَضيهِ مذهَبُه، وهٰذا هو الأصَحُّ.

وأَغْرَبَ ابنُ حِبَّانَ، فادَّعىٰ الاتِّفاقَ علىٰ قَبولِ غيرِ الدَّاعيةِ مِن غيرِ تفصيل.

نَعَمْ؛ الأكثرُ علىٰ قَبولِ غيرِ الدَّاعيةِ؛ إلَّا إنْ رَوىٰ ما يُقَوِّي بِدْعَتَهُ، فيُرَدُّ علىٰ المذهَبِ المُخْتارِ، وبهِ صرَّحَ الحافِظُ أَبو إِسحاقَ إِبراهيمُ بنُ يعقوبَ الجُوْزَجاني ـ شيخُ أَبي داودَ والنَّسائِيِّ ـ في كتابِه «معرفة الرِّجال»، فقالَ في وَصْفِ الرُّواةِ: «ومِنهُم زائغٌ عن الحَقِّ ـ أيْ: عنِ السُّنَّةِ ـ، صادقُ اللَّهجَةِ قَد جَرَىٰ في النَّاسِ حَدِيثُهُ، لٰكنهُ مَخْذُولٌ في بِدْعَتِهِ، مَأمُونٌ في روَايتِه، فَليسَ فيهِ حيلةٌ؛ إلَّا أَنْ يُؤخَذَ مِن حديثِه ما لا يكونُ مُنْكَرًا إذا لم يُقَوِّ بدْعَتَهُ لكونه مُتَّهمًا بِذٰلك».

قال ابن حجر: وما قالَه متَّجِهٌ؛ لأنَّ العلَّةَ التي لها رُدَّ حديثُ الدَّاعيةِ وارِدةٌ فيما إذا كانَ ظاهِرُ المرويِّ يُوافِقُ مذهَبَ المُبْتَدِع، ولو لم يكنْ داعيةً. انتهىٰ كلام شيخنا، وهو غاية في التحقيق والتلخيص».

□ وقال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والذي تَقرَّرَ عندنا: أنه لا تُعتَبرُ المذاهبُ في الرواية، ولا نُكفِّرُ أهلَ القِبلة إلا بإنكارِ مُتواترٍ من الشريعة، فإذا اعتَبرنَا ذٰلك، وانضمَّ إليه الورَعُ والضبطُ والتقوىٰ فقد حَصَلَ مُعْتَمَدُ الرواية».

(١) «الموقظة» للذهبي (ص/ ٨٥).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيا أيها الطالب، كن سلفيًّا علىٰ الجادة، واحذر المبتدعة أن يفتنوك، فإنهم يوظفون للاقتناص والمُخَاتَلةِ سُبُلًا، يفتعلون تعبيدها بالكلام المعسول ـ وهو: (عسل) مقلوب ـ وهطول الدمعة، وحسن البِزَّةِ، والإغراء بالخيالات، والإدهاش بالكرامات، وَلَحْسِ الأيدي، وتقبيل الأكتاف... وما وراء ذٰلك إلا وَحَمُ البدعة، ورهج الفتنة، يغرسها في فؤادك، ويعتملك في شِرَاكِه، فواللَّهِ لا يصلح الأعمىٰ لقيادة العميان وإرشادهم.

أما الأخذ عن علماء السنة، فَالعَق العسل ولا تَسَل ـ وفقك اللَّه لرشدك ـ، لتنهل من ميراث النبوة صافيًا، وإلا، فليبك علىٰ الدين من كان باكيًا.

وما ذكرته لك هو في حالة السعة والاختيار، أما إن كنت في دراسةٍ نظامية لا خيار لك، فاحذر منه، مع الاستعاذة من شَرِّه، باليقظة من دسائسه علىٰ حد قولهم: «اجن الثمار وألق الخشبة في النار»، ولا تتخاذل عن الطلب، فأخشىٰ أن يكون هٰذا من التولي يوم الزَحْف، فما عليك إلا أن تتبين أمره وتتقىٰ شره وتكشف ستره.

ومن النتف الطريفة: أن أبا عبدالرَّحمٰن المقرئ حدث عن مرجئ، فقيل له: لم تحدِّث عن مرجئ؟ فقال: «أبيعكم اللحم بالعظام»[(١)].

فالمقرئ رحمه اللَّهُ تعالىٰ حدَّث بلا غررٍ ولا جهالة؛ إذ بيَّن فقال: «وكان مرجئًا».

وما سطرتُه لك هنا هو من قواعد معتقدك، عقيدةِ أهل السنة والجماعة، ومنه ما في «العقيدة السلفية» لشيخ الإسلام أبي عثمان إسماعيل بن عبدالرَّحمٰن الصابوني (م سنة ٤٤٩هـ)، قال رحمه اللَّهُ تعالىٰ[(٢)]: ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يُحبونهم ولا يَصحبونهم،

---

(١) الخطيب في «جامعه» (١/ ٢٢٤).

(٢) «العقيدة السلفية» للصابوني (ص/ ١٠٠).

ولا يَسمعون كلامهم، ولا يُجالِسونهم، ولا يُجادِلونهم في الدين، ولا يناظرونهم، ويرون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرَّت بالأذان وَقَرَّت في القلوب، ضَرَّتْ وجَرَّتْ إليها من الوساوس والخطرات الفاسدة ما جَرَّتْ، وفيه أنزل اللَّهُ ﷻ قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]» اهـ.

«وعن سليمان بن يسار أن رجلًا يقال له: صَبيغ، قَدِمَ المدينة، فجعل يسأل عن متشابه القرآن؟ فأرسل إليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد أعد له عراجين النخل، فقال: من أنت؟ قال أنا عبد اللَّه صَبيغ، فأخذ عرجونًا من تلك العراجين، فضربه حتىٰ دمىٰ رأسه، ثم تركه حتىٰ برأ ثم عاد ثم تركه حتىٰ برأ، فدعي به ليعود، فقال: إن كنت تريد قتلىٰ فاقتلني قتلًا جميلًا. فأذن له إلىٰ أرضه، وكتب إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري باليمن: لا يجالسه أحد من المسلمين»(١).

وقيل: كان متهمًا برأي الخوارج.

والنووي رَحِمَهُ اللَّهُ قال في كتاب «الأذكار»: «باب: التبري من أهل البدع والمعاصي».

وذكر حديث أبىٰ موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رسول اللَّه ﷺ برئ من الصالقة، والحالقة، والشاقة». متفق عليه.

وعن ابن عمر براءته من القدرية. رواه مسلم(٢).

والأمرُ في هجر المبتدع ينبني علىٰ مراعاة المصالح وتكثيرها، ودفع المفاسد وتقليلها، وعلىٰ هٰذا تتنزل المشروعية من عدمها، كما حرره شيخ

---

(١) الأثر في «الإبانة» لابن بطة (١/ ٤١٤)(٣٢٩)، و«البدع» لابن وضاح (٥٦)، وأخرجه الدارمي (١/ ٢٥٢) (١٤٦)، والآجري في «الشريعة» (ص/ ٥٧)، ورجاله ثقات غير أنه فيه انقطاع بين سليمان بن يسار وعمر.

(٢) وانظر أبحاثًا مهمة في: «مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية» رحمه اللَّهُ تعالىٰ (٢/ ١٣٢، ٥/ ١١٩، ١٤/ ٤٥٩ ـ ٤٦٠، ٣٦/ ١١٨)

الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّهُ تعالىٰ في مواضع[١].

والمبتدعة إنما يَكْثُرون ويظهَرُون إذا قَلَّ العلم، وفشا الجهل. وفيهم يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّهُ تعالىٰ: «فإن هٰذا الصنف يكثرون ويظهرون إذا كثرت الجاهلية وأهلها، ولم يكن هناك من أهل العلم بِالنبوَّة والمتابعة لها من يُظهر أنوارها الماحية لظلمة الضلال، ويكشف ما في خلافها من الإفك والشرك والمحال» اهـ.

فإذا اشتد ساعدك في العلم، فاقمع المبتدع وبدعته بلسان الحجَّة والبيان، والسلام.

---

(١) منها في: «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٢١٣، ٢١٦ ـ ٢١٨).



أدب الزمالة

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢٣ ـ احذر قرين السوء:

كما أن العِرْقَ دَسَّاس[(١)]، فإن «أدب السوء دساس»[(٢)]، إذ الطبيعةُ نَقَّالَة، والطِبَاع سَرَّاقَة، والناس كأسراب القَطَا مجبولون علىٰ تَشَبُّه بعضهم ببعض، فاحذر معاشرة من كان كذٰلك؛ فإنه العطب، والدفع أسهل من الرفع.

وعليه، فتخير للزمالة والصداقة من يعينك علىٰ مَطلبِكَ، ويقربك إلىٰ ربك ويوافقك علىٰ شريف غرضك ومقصدك.

○ ○ ○

الشرح:

أخي الطالب، احذر احذر قرين السوء وصديق البطالة.

□ قال العلامة محمد بن إبراهيم الوزير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن الصوارف الموعرة المسالك عن سلوك هٰذه المسالك: عدم وجدان الصديق الصدوق، الصادق البرئ من الجفاء والعقوق، القائم بما للأخوة من اللوازم والحقوق، ميمون الخلائق، مأمون البوائق، رباني الهمة رهبانيها، برهاني المعارف قُرآنيها، وما تركت الطلب حتىٰ طال ارتيادي له بالجد والجهد، فكنت كلما وجهت أملي إلىٰ وِجهةٍ لم ألق إلَّا بني سعدٍ لعدم الحظ لا لعدم المطلوب.

تيممتُ أسأل من عَنَّ لي ... من الناس هل من صديق صدوق

فقالوا: عزيزان لا يوجدان: ... صديق صدوق وبيض الأنوق».

فأسْفَرَ لي صُبحُ الخِبْرَة عن أحوال الرِّجال، فنادىٰ مُؤذن التجارب: الصلاة في الرِّحَال، وأمَرَ الفُصحاء برفع الأصوات بالنِّذَارة من كل مَنارةٍ نُفارة وَعِيتْ

---

(١) وفي ذٰلك حديث موضوع، انظر له: «العلل المتناهية» (٢/ ١٢٣، ١٢٧)، و«شرح الإحياء» (٥/ ٣٤٨).

(٢) «شرح الإحياء» للزبيدي (١/ ٧٤).

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]»[١].

◻ وقال رجل للجنيد: «مَنْ أَصْحَبُ؟ قال: من تقدر أن تُطْلِعَهُ علىٰ ما يَعلمهُ اللَّه مِنْكَ».

◻ وقيل له مَرَّة أُخرىٰ: «مَنْ أَصْحَبُ؟ قال: من يقدر أن ينسىٰ ما لَه، ويقضي ما عليه»[٢].

◻ وقال الإمام العلَّامة الزاهد القُشيري[٣]: «فأما شرط الأُخوة: فمن حق الأُخُوَّة في الدين ألَّا تُحوج أخاك إلىٰ الاستعانة بك أو التماس النصرة عنك، وألَّا تقصر في تفقد أحواله بحيث يَشكُل عليك موضع حاجته فيحتاج إلىٰ مُسَاءَلتِك. ومن حقه ألَّا تُلجئه إلىٰ الاعتذار لك؛ بل تبسط عُذره؛ فإن أَشْكَلَ عليك وجهه عُدْتَ بِاللَّائِمَةِ علىٰ نفسك في خفاء عذره عليك، ومن حقه أن تتوب عنه إذا أذنب، وتَعُودهُ إذا مَرِض، وإذا أشار عليك بشيءٍ فلا تطالبه بالدليل عليه وإبراز الحُجَّة.

ومن حَقَّه: أن تحفظ عهده القديم، وأن تراعي حقه في أهله المُتصلين به في المَشهد والمَغيب وفي حال الحياة وبعد الممات» اهـ.

واعلم أن الصديق الذي إن قرُب منح، وإن بعُد مدح، وإن ظُلم صفح، وإن ضُيِّق فَسَحْ، فإن هٰذا من ظفر به نجح وفلح.

فأصول الصداقة مبنية علىٰ: تقديم الوفاء، وحفظ الذِّمام، وإخلاص المودَّة، وكرم العهد، وبذل المال، ورعاية الغيب، وتوقر الشهادة، ورفض الموجدة، وكظم الغيظ، واستعمال الحلم، ومجانبة الخلاف، واحتمال الكَلِّ وبذل المعونة، وحمل المؤنة، وطلاقة الوجه، ولطف اللسان، وحسن الاستنابة،

---

(١) من كتاب «ترجيح أساليب القرآن علىٰ أساليب اليونان» (ص/ ١٨٧) للإمام العلَّامة محمد ابن إبراهيم الوزير رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) «طبقات الصوفية» للسلمىٰ (١/ ١٣٣) (٢١).

(٣) «لطائف الإشارات» (٦/ ٨، ٩).

والثبات على الثقة، والصبر على الضرَّاء، والمشاركة في البأساء، والعلاقة مع عدم القدح والاعتراض، وحسن الظن، وسلامة السريرة، وانتظار الإخاء لا لصفاء المودَّة، لذا قال أحد البلغاء: «ربما يثقل الصديق ـ وإن كان خفيفًا ـ في كِفة الميزان».

ومن نُدرة الصحبة ما قيل لأعرابي: «ألك صديق؟ قال: لا؛ ولٰكن أليف».

◻ قال الخليل بن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «أربع تُعْرَف بِهن الأُخوَّة: الصفح قبل الانتقاد له، وتقديم حُسن الظن قبل التهمة، وبذل الود قبل المسألة، ومخرج العذر قبل العيب، ولذٰلك نقول:

أخوك الذي يعطيك قبل سؤاله ... ويصفح عند الذنب قبل التعتُّب
يُقَدِّمُ حُسن الظن قبل اتهامِهِ ... ويَقبَل عُذر المرءِ عند جهالته».

◻ ومن أعذب وأحلى كلام الإمام أبي عثمان الحِيري رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنه سُئل عن الصحبة؟ فقال: الصحبة مع اللَّه بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول ﷺ بملازمة العلم واتباع السُّنَّة، والصحبة مع الأولياء بالاحترام والخدمة، والصحبة مع الإخوان بالبشر والانبساط وترك الإنكار عليهم ـ ما لم يكن خَرْق شريعةٍ أو هتك حُرمَةٍ ـ، قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف]، والصحبة مع الجُهَّال بالنظر إليهم بعين الرحمة، ورؤية نعمة اللَّه عليك؛ حيث لم يجعلك مثلهم، والدعاء لهم ليعافيهم اللَّه من بلاء الجهل»(٢).

وقيل لأبي عثمان مرةً: «ما شرط السلامة في الصحبة؟ فقال: أن يوسع على أخيه ماله، ولا يطمع في ماله، وينصفه ولا يطلب منه الإنصاف، ويستكثر قليل بره، ويكون إكرامه أكثر من إكرامه لنفسه».

---

(١) «جزء ابن عَمْشَلِيق» (ص/ ٣٥) (١٩ ـ ط: أولاد الشيخ).
(٢) «آداب الصحبة» للسُّلَمي (ص/ ٦٥).

□ وقال قرة العين وبهجة القلب الإمام عبدالقادر الجَيلي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «أما الصحبة مع الإخوان: فالإيثار والفُتُوَّة، والصفح عنهم، والقيام معهم بشرط الخدمة، لا يرىٰ لنفسه علىٰ أحدٍ حقًّا، ولا يطالب أحدًا بحق، ويرىٰ لكل أحدٍ عليه حقًّا، ولا يُقَصِّر في القيام بحقهم مع إظهار الموافقة لهم في جميع ما يقولون ويفعلون، ويكون أبدًا معهم علىٰ نفسه، ويتأول لهم، ويعتذر عنهم، ويترك مخالفتهم ومنافرتَهم ومجادلتهم ومشاهدتَهم، ويتعامىٰ عن عيوبهم، فإن خالفه أحدٌ منهم في شيء سَلَّم له ما يقول في الظاهر، وإن كان الأمر عنده بخلاف ما يقوله، وينبغي له أن يحفظ قلوب الإخوان، ويجتنب ما يكرهونه ـ وإن عَلِمَ فيه صلاحهم ـ ، فلا ينطوي لأحدٍ منهم علىٰ حقدٍ، وإن خامر قلب واحدٍ منهم كراهة له تخلق معه بشيءٍ حتىٰ يزول ذٰلك، فإن لم يزل زاد في الإحسان والتخلق حتىٰ يزول.

وإن وجد هو في قلبه من أحد منهم استيحاشًا وأذيَّة بغيبة أو غيرها؛ فلا يُظهر ذٰلك من نفسه، ويُري من نفسه خلاف ذٰلك» اهـ .

□ وهو عين كلام الإمام أبي الحسن الورَّاق رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيث قال: «كان أجَلُّ أحكامنا في مبادئ أمرنا: الإيثار بما يُفْتح علينا، ومن استقبلنا بمكروه لا ننتقم منه لأنفسنا؛ بل نعتذر إليه ونتواضع له، وإذا وقع في قلوبنا حقارة لأحد قمنا بخدمته! لأنه قد تسهل مقاساة الجوع والعطش والسهر، ومعالجة الأخلاق الرديئة قد تعسر وتصعب، واللَّه الموفق»[٢].

قلت: وخذ هٰذا الأدب المفقود ـ وكم من أدب مفقود ـ !.

□ ذكر أبو حيان في كتابه القيم النادر «الصداقة والصديق»[٣] قال: «تُوفِّي ابنٌ ليونس بن عُبَيد، فقيل له: إن ابن عون لم يأتك! فقال: إنَّا إذا وثقنا بمودةِ

(١) «الغُنْيَة» للإمام القدوة الجيلي (٢/ ٤٩٨ ـ ط: التوفيقية).

(٢) «الغنية» للجيلي (٢/ ٤٩٩).

(٣) «الصداقة والصديق» لأبي حيان (ص/ ١٩ ـ ط: دار الحديث بمصر).

أخٍ لا يَضُرُّنا ألَّا يأتينا».

وهٰذا الأدب منهم لأن المودة هي الأصل، والصداقة هي الركن، والثقة هي الأساس، والأخوَّة مضمونة؛ فما بقيَ بعدها مدخلٌ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وخذ تقسيم الصديق في أدق المعايير[١]:

ـ صديق منفعةٍ.

ـ صديق لذةٍ.

ـ صديق فضيلة.

فالأولان منقطعان بانقطاع موجبهما، المنفعة في الأول واللذَّة في الثاني.

وأما الثالث فالتعويل عليه، وهو الذي باعث صداقته تَبادُل الاعتقاد في رسوخ الفضائل لدىٰ كلٍّ منهما.

وصديق الفضيلة هٰذا «عُمْلَة صَعْبَة» يَعِزُّ الحصولُ عليها.

ومن نفيس كلام هشام بن عبدالملك (م سنة ١٢٥هـ) قوله[٢]: «ما بقي من لذَّات الدنيا شيءٌ إلَّا أخٌ أرفع مؤونة التحفظ بيني وبينَهُ» اهـ.

○ ○ ○

الشرح:

وما ذكره الشيخ بكر رَحِمَهُ اللَّهُ عن الإمام هشام بن عبدالملك هنا كأن هشامًا أخذ هٰذه المقولة من الإمام معاوية بن أبىٰ سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث قال[٣]: «أكلت الطعام حتىٰ لم أجد طعمه، وركبت الدواب حتىٰ استرحت إلىٰ المشي، ونكحت الحرائر والإماء حتىٰ ما أبالىٰ... وما بقي من لذتي إلَّا: جليس أطْرَحُ بيني وبينه الحِشمة».

□ قال هلال بن العلاء الرقي[٤]: «كتب فيلسوف إلىٰ من في درجته: أن

---

(١) «محاضرات إسلامية» لمحمد الخضر حسين (ص١٢٥ ـ ١٣٦).

(٢) «طبقات النسابين» (ص٣١).

(٣) «الصداقة والصديق» (ص/ ٢٠٣).

(٤) «آداب الصحبة» للسلمي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص/ ٦٣).

اكتب إِلَيَّ بشيءٍ ينفعني في عمري. فكتب إليه: بسم اللَّه الرَّحمٰن الرحيم، استَوحِش مِمن لا إخوان له وَفرَّطَ مَن قَصَّر في طَلَبِهم، وأشد تفريطًا من وَجَدَ واحدًا منهم وضَيَّعَهُ بَعْدَ وَجْدِهِ إياه ولو وجد؛ فإن الكبريت الأحمر أيسر من وجدانِ أخ أو صديق موافقٍ، وإني لفي طلبهم منذ خمسين سنة فما ظفرت إِلَّا بنصف أخٍ وتَمَرَّدَ عَلَيَّ وانقلب.

واعلم أن الناس ثلاث: مَعَارِفُ وأصدقاءُ وإخوانٌ، فالمعارف بين الناس كثير، والأصدقاء عزيزة، والأخ قَلَّ ما يوجد».

ثم إني بحمد اللَّه وجدت كلامًا يُكتب بماء الذهب للعلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٩٨):

□ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام:

أحدها: من مخالطته كالغذاء لا يستغنىٰ عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه... هٰكذا علىٰ الدوام، وهٰذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء باللَّه تعالىٰ وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون للَّه تعالىٰ ولكتابه ولرسوله ولخلقه؛ فهٰذا الضرب في مُخالطتهم الربحُ كُلُّه.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء؛ يحتاج إليه عند المرض، فما دُمْتَ صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يُستغنىٰ عنه مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هٰذا الضرب بقيت مخالطتهم من...

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء ـ علىٰ اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه ـ، فمنهم من مخالطته كالداء العُضَال والمرض المُزْمِن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دُنيا، ومع ذٰلك فلابُد مِن أن تَخْسَرَ عليه الدين

والدنيا أو أحدهما؛ فهٰذا إذا تمكنت مخالطته منك واتصلت؛ فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس، يشتد ضربًا عليك، فإذا فارقك سَكَن الألم.

ومنهم من مخالطته حُمىٰ الروح، وهو الثقيل البغيض العقل؛ الذي لا يُحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها؛ بل إن تكلم فكلامه كالعصي تنزل علىٰ قلوب السَّامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به؛ فهو يُحْدِثُ من فِيهِ كُلَّمَا تَحَدَّث، ويَظُن أنه مِسْك يُطيب به المجلس! وإن سكت فأثقلُ من نصف الرحىٰ العظيمة التي لا يُطاق حملها ولا جرها علىٰ الأرض.

ويُذكر عن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «ما جلس إلىٰ جانبي ثقيل إلَّا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر».

ورأيت يَومًا عند شيخنا ـ قدَّس اللَّه روحه ـ رجلًا من هٰذا الضرب، والشيخ يحملهُ وقد ضعفت القوىٰ عن حمله، فالتَفَتَ إليَّ وقال: «مجالسة الثقيل حُمىٰ الرِّبْع. ثم قال: لٰكن قد أدمنت أرواحنا علىٰ الحُمىٰ، فصارت لها عادة»، أو كما قال.

ومِن نكَد الدنيا علىٰ العبد أن يُبتلىٰ بواحدٍ من هٰذا الضرب، وليس له بُد من معاشرته ومخالطته؛ فليعاشره بالمعروف حتىٰ يجعل اللَّه له فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهُلك كُلُّه، ومخالطته بمنزلة أَكْل السُّم؛ فإن اتفق لأكله ترياق وإلَّا فأحسن اللَّه فيه العزاء، وما أكثر هٰذا الضرب في الناس ـ لا كثَّرَهُمُ اللَّه ـ! وهم أهل البدع والضلالة، الصَّادون عن سُنَّة رسول اللَّه ﷺ، الدَّاعون إلىٰ خلافها ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ...﴾ الآية [الأعراف: ٤٥]، فيجعلون البدعة سنة، والسنة بدعة، والمعروف منكرًا، والمنكر

معروفًا. وهم الذين رؤيتهم قذىٰ العيون، وحُمَّىٰ الأرواح، وسُقْمُ القلوب، يُضيقون الدِّيار، ويُغَلُّون الأسعار، ولا يُستفاد بصحبتهم إلَّا العار والشنار» اهـ[١].

◻ وقال الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «حدثني شيخٌ من أصحاب أيوب السَّختياني قال: صَحِبَ أيوبَ رجلٌ في طريق مكة، فآذاه الرجل بسوء خُلُقه، فقال أيوب: إني لأرحمُه؛ نحن نفارقه ويبقىٰ معه خُلُقه»!!.

◻ وقال الإمام بشر الحافي رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «النظر إلىٰ مَن تكرهُ حُمَىٰ باطنة».

◻ وقال محمد بن الحارث: «حدثنا المدائني قال[٤]: مات يتيم لعائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فجَزَعَت عليه وحزنت، فقيل لها: تَجِدين غيره، فقالت: ومن لي بسوء خلقه»!!.

وعليك ـ أخي الحبيب ـ بصُحبة الصُحبة الصَّالحة:

◻ قال مُبارك بن سعيد: «أردتُ سَفَرًا، فقال لي الأعمش: سَلِ اللَّه أن يرزقك صُحبةً صالحةً في سَفَرِكَ؛ فإن مُجَاهِدًا حدثني قال: خرجت من واسط، فسألتُ ربي أن يرزقني صُحبة ـ ولم أشترط في دُعائي ـ، فاستويت أنا وهم في السفينة، فإذا هم أصحاب طنابير!!»[٥].

واعلم أنَّكَ إن طَلَبْتَ مُنَزَّهًا عن كُلِّ عَيْبٍ لم تجد، ومن غَلَبَتْ مَحاسِنُهُ علىٰ مَسَاوِيِهِ فَهوَ الغاية، وَرَبُنا المُسْتَعَانُ في كُل هِداية.

---

(١) آخر سطرين من كلام ابن القيم ـ أيضًا ـ في «الداء والدواء» (ص/ ١٠٨).

(٢) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (٢/ ٣٧)، «المجالسة» للدينوري (٩١٠).

(٣) «شرح الرسالة القشيرية» لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري (١/ ١٣٥).

(٤) «المجالسة» للدينوري (١٣٥٠)، «البيان والتبيين» للجاحظ (١/ ٢١١).

(٥) «الغيلانيات» لأبي بكر الشافعي البزار (رقم ٣٧٨).

قال المؤلف رحمه الله:

ومِن لَطِيف ما يُقيدُ قول بعضِهِم[(١)]: «العزلةُ من غير عين العلم: زلة، ومن غير زاي الزهد: عِلَّة».

○ ○ ○

الشرح:

قلت: ومن بديع قول القشيري: «من آثر العُزلة حَصَلَ العِزُّ لَهُ»[(٢)].

□ وقال أحمد بن حنبل: «كفىٰ بالعُزلة علمًا، ورأيت الوحدة أروح لقلبي، وإني لأشتهي ما لا يكون: أشتهي مكانًا لا يكون فيه أحدٌ من الناس، وكان الهيثم بن خارجة يقول له: يا إمام أنت عروسٌ تُزار ولا تَزُور»[(٣)].

□ وقال السِّري السقطي رحمه الله[(٤)]: «من أراد أن يَسلَم له دينه ويستريح بدنه فليعتزل الناس؛ فإن هٰذا زمان وحشة، فالعاقل من اختار فيه الوحدة».

□ وقال ذو النون المصري رحمه الله[(٥)]: «لم أر شيئًا أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة؛ لأنه إذا خلا لم يَرَ غير اللَّه، وإذا لم يَرَ غير اللَّه لم يُحركه إلا حكم اللَّه، ومن أحب الخلوة فقد تَعَلَّق بعمود الإخلاص، واستمسك بِرُكنٍ كبير من أركان الصِدق، وما أَخلَصَ عَبْدٌ للَّه إلَّا أحب أن يكون في جُبٍّ لا يُعرف».

□ وقال الإمام اليافعي رحمه الله[(٦)]: «كان الكرام إذا جَنَّ الظلام دارت عليهم كؤوس مُدام الغرام، فتراهم والعيون هواجع تتجافىٰ جنوبهم عن المضاجع،

---

(١) «الإحياء» (٢/ ٢٤٣).

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص/ ١٠٣).

(٣) «الآداب الشرعية» لابن مفلح الحنبلي (٢/ ٢٦ ـ ٢٧).

(٤) «الإرشاد والتطريز» (ص/ ١٣٠) لليافعي.

(٥) «شعب الإيمان» للبيهقىٰ (٥/ ٣٥٣) (٦٩٠٩، ٦٩١١ ـ ط: بيروت).

(٦) «الإرشاد والتطريز» (ص/ ٨٣ ـ ط دار المنهاج).

يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا علىٰ الأقدام والجباه، لا تلهيهم تجارة ولا بيعٌ عن ذكر اللَّه، وإذا ذكروا اللَّه وجلت قلوبهم، وسالت دموعهم تجري علىٰ الخدود، وفي الصباح سيماهم في وجوهِهِم من أثر السجود».

□ قال ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ: «الواجب علىٰ العاقل لزوم الاعتزال عن الناس مع توقي مخالطتهم؛ إذ الاعتزال من الناس لو لم يكن فيه خَصَلَة تُحْمَد إلا السلامة من مقارفة المآثم؛ لكان حقيقًا بالمرء ألَّا يُكَدِّر وجود السَّلامة بلزوم السبب المؤدي إلىٰ المناقشة.

وأما السبب الذي يوجب الاعتزال عن العَالَم كله، فهو ما عرفتهم به من وجود دفن الخير ونشر الشر، يدفنون الحسنة، ويظهرون السيئة، فإن كان المرءُ عالمًا بَدَّعُوه، وإن كان جاهلًا عَيَّرُوه، وإن كان فوقهم حسدوه، وإن كان دونهم حقروه، وإن نطق قالوا مِهذار[1]، وإن سَكَتَ قالوا: عَيِيٌّ[2]، فالنادم في العواقِب من اغْتَرَّ بقوم هٰذا نَعْتهُم، وغَرَّه ناسٌ هٰذه صفتهم» اهـ[3].

□ وقال الخطابي[4] ـ مُوافِقًا لكلام ابن حبان ـ : «دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك؛ فليس لك منهم مال ولا جمال، إخوان العلانية أعداء السر، إذا لقُوك تملَّقوك، وإذا غبت عنهم سلقوك، ومن أتاك منهم كان عليك رقيبًا، وإذا خرج كان عليك خطيبًا، أهل نفاق ونميمة، وغلٍّ وحقدٍ وخديعةٍ، ولا تغتر باجتماعهم عليك، فما غرضهم العلم؛ بل الجاه والمال، وأن يتخذوك سُلمًا إلىٰ أوطارهم، وحمارًا إلىٰ حاجاتِهم. إن قصَّرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد الأعداء عليك، ثم يعدُّون ترددهم إليك دالةً عليك، ويرونه حقًّا واجبًا عليك، ويَعرضون لك أن تبذل عرضك ودينك وجاهك لهم فتعادي عدوهم وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم، وتنهض لهم سفيهًا وقد كنت

---

(١) **المِهذار**: كثير الكلام الفارغ.

(٢) **العيي**: الجاهل.

(٣) «روضة العقلاء» (ص/ ١٠١).

(٤) «العزلة» (ص/ ٣٠).

فقيهًا، وتكون لهم تابعًا خسيسًا بعد أن كنت متبوعًا رئيسًا؛ ولذلك قيل: اعتزال العامَّة مروءة تامَّة» اهـ.

وقال الإمام الداودي[١]:

كان اجتماع الناس فيما مضىٰ يورث البهجة والسلوة
فانقلب الأمرُ إلىٰ ضدِّهِ فصارتِ السلوةُ في الخلوة

قُلت: ولابد من أمور واجبة في العُزلة:

أولها: العلم النافع الصافي:

□ قال الجبَّائي[٢]: «كنت أسمع في «الحلية» لأبي نعيم علىٰ ابن ناصر، فَرَقَّ قَلبِي وقلت: اشتهيتُ لو انقَطَعْتُ وأشتَغِلُ بالعِبَادَة. ومضيت فَصَلَّيتُ خلف الشيخ عبدالقادر الجيلاني، فَلمَّا جلسنا نَظَرَ إليَّ وقال: إذا أردت الانقطاع فلا تنقطع حتىٰ تتفقه وتجالس الشيوخ وتتأدب، وإلَّا فتنقطع وأنت فُرَيْخ مَا ريَّشتَ».

الأمر الثاني: أن تشغل نفسك بالله وحده ﷻ.

□ يقول القُشيري رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «مَن لم يعرف قدر الخلوة مع الله، فَحَادَ عن ذكره، وأخلد إلىٰ الخواطر الردية، قيض الله له من يشغله عن الله، وهٰذا جزاء من ترك الأدب في الخلوة، وإذا اشتغل العبد في خلوته بربه، فلو تعرض له من يشغله عن ربه صرفه الحق عنه بأي وجهٍ كان. وأصعب الشياطين نفسك، والعبد إذا لم يعرف خطر فراغ قلبه واتبع شهواته، وفتح ذٰلك الباب علىٰ نفسه بقي في يد هواه أسيرًا».

□ وصورة الجلوس بين يدي الله في الخلوة والعزلة والوحدة: ما ذكرها

---

(١) «طبقات الشافعي» للسبكي (٥/ ١٢٠).
(٢) «السير» للذهبي (٢٠/ ٤٤٨).
(٣) «لطائف الإشارات» (٥/ ٣٦٦ ـ ط التوفيقية).

اليافعي بقوله: «كن في هٰذه الحال متطهرًا، نظيف الفم، مستقبل القبلة، متخشعًا ذاكرًا، متذللًا مُطْرِق الرأس، ذا حضور ومراقبة في موضعٍ خالٍ نظيف مُظلم»[١].

الأمر الثالث: ما فَصَّلَه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيث قال[٢]: «حقيقة الأمر: أن «الخلطة» تارةً تكون واجبةً أو مستحبةً، والشخص الواحد قد يكون مأمورًا بالمخالطة تارةً، وبالانفراد تارةً، فاختيار المخالطة مطلقًا خطأ، واختيار الانفراد مطلقًا خطأ. وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هٰذا وهٰذا وما هو الأصلح له في كل حال؛ فهٰذا يحتاج إلىٰ نظر خاص» اهـ.

□ وقال ابن الملقن رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «وأما في غير أيام الفتنة: العزلة أفضل أم الاختلاط؟ فذهب الشافعي والأكثرون إلىٰ تفضيل الخلطة؛ لما فيها من اكتساب الفوائد، وشهود الشعائر، وتكثير سواد المسلمين، وإيصال الخير إليهم؛ ولو بعيادة المرضىٰ، وتشييع الجنائز، وإفشاء السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، وإعانة المحتاج، وحضور الجماعة... وغير ذٰلك.

ومنهم من فضل العزلة؛ لما فيها من السلامة المحققة لمن لا يغلب علىٰ ظنه الوقوع في المعاصي واحتراز الفتن» اهـ.

□ وقال إبراهيم بن عمرو المصري: «لما عَلِمُوا أن العَطَبَ في المؤانَسَة، ألزَموا أنفسهم ترك المخالطة»[٤].

□ وقال رجل لسفيان الثوري: «أوصني. قال: هٰذا زمان السُّكوت ولزوم البيوت»[٥].

---

(١) «الإرشاد والتطريز» (ص/ ٧٤).
(٢) «مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ» (١٠/ ٤٢٥).
(٣) «شرح البخاري» لابن الملقن (٢/ ٥٦٩ ـ ط: دار غراس الكويت).
(٤) «العزلة والانفراد» لابن أبي الدنيا (ص/ ٦٧، ١٦٨ ـ مكتبة القرآن).
(٥) الخطابي في «العزلة» (ص/ ٨٧)، و«العزلة» لابن أبي الدنيا (ص/ ٤٥).

فلم يبق لي وقتٌ لذكر مخالفٍ ولم يبق لي قلبٌ لذكر موافقِ[١]

□ وذكر الإمام ابن رُشَيد السَّبْتي في كتابه الماتع «ملء العَيْبَة»[٢]: «قول شيخ الحرم بشير بن أبي بكر الجُعفي رَحِمَهُ اللَّهُ، ولمَّا لم أجد في الإنس أُنسًا جعلت أنيس نفسي: عين نفسي».

واعلم أن هٰؤلاء الأكابر ما آثروا هٰذه العزلة والانفراد والوحدة إلَّا لأجل الأُنس باللَّه ومناجاته وحبه وذكره، وكانوا من أحرص الناس علىٰ هٰذا الفضل.

□ واقرأ دُرَر كلام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: الذي سَطَّرَهُ في «جامعه»[٣]: «وهٰذان المقامان هما حقيقة مقام الإحسان:

أحدهما: مقام الإخلاص، وهو أن يعمل العبد علىٰ استحضار مشاهدة اللَّه إياه واطلاعه عليه وقربه منه، فإذا استحضر العبدُ هٰذا في عمله، وعمل عليه فهو مُخلص للَّه تعالىٰ، لأن استحضاره ذٰلك في عمله يمنعه من الالتفات إلىٰ غير اللَّه وإرادته بالعمل.

والثاني: مقام المشاهدة، وهو أن يعمل العبد علىٰ مقتضىٰ مشاهدته للَّه بقلبه، وهو أن يتنور القلب بالإيمان، وتنفذ البصيرة في العرفان.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق]، «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي**»[٤].

قال بكر بن عبداللَّه المُزني[٥]: «من مِثْلُك يا ابن آدم؟ خُلِّيَ بينك وبين المحراب والماء؛ كُلَّما شِئْتَ دخلت علىٰ اللَّه ﷻ ليس بينك وبينه تَرجُمان».

---

(١) «لطائف الإشارات» (٥/ ٤٢٩ ـ ط: المكتبة التوفيقية).

(٢) «ملء العَيْبَة» (ص/ ٢٤٨ ـ رحلة الحجاز).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١١٨ ـ ١٢٥ ـ ط: دار الصحابة).

(٤) «صحيح البخاري» (١٣/ ٣٨٤) مع «الفتح» لابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ، ومسلم (٢٦٧٥).

(٥) «الحلية» لأبي نعيم (٢/ ٢٢٩).

ومن وصل إلىٰ هٰذا في حال ذكر اللَّه تعالىٰ وعبادته، استأنس باللَّه، واستوحش من خلقه ضرورة.

دخل أبو أسامة ـ حماد بن أسامة ـ علىٰ محمد بن النضر الحارثي، فرآه مُنقبضًا، فقال له: «كأنك تكره أن تؤتىٰ؟ قال: أجل، فقلت: ألا تستوحش؟ قال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليسُ من ذكرني؟».

وقيل لمالك بن مِغول وهو جالس في بيته وحده: «ألا تستوحش؟ قال: ويستوحش مع اللَّه أحد؟».

وكان حبيب أبو محمد يخلو في بيته وحده ويقول: «من لم تَقَرَّ عَينُهُ بك فلا قَرَّت عينُه، ومن لم يأنس بك فلا أَنِسَ».

وقال غزوان: «إني أصبت راحة قلبي في مجالسة من لديه حاجتي».

وقال مسلم بن يسار: «ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة اللَّه ﷻ».

وقال مسلم العابد: «لولا الجماعة ما خرجت من بابي أبدًا حتىٰ أموت».

وقال: «ما يجد المطيعون للَّه لذَّة في الدنيا أحلىٰ من الخلوة بمُناجاة سيدهم، ولا أحب لهم في الآخرة من عظيم الثواب أكبر في صدورهم وألذ في قلوبهم من النظر إليه». ثم غُشي عليه.

وعن إبراهيم بن أدهم قال: «أعلىٰ الدرجات أن تنقطع إلىٰ ربِّك، وتستأنس إليه بقلبك وعقلك وجميع جوارحك حتىٰ لا ترجو إلَّا رَبَّك، ولا تخاف إلَّا ذنبك، وترسخ محبتُه في قلبك حتىٰ لا تؤثر عليها شيئًا، فإذا كنت كذٰلك لم تبال في بَرٍّ أو في بَحْرٍ أو في سهلٍ أو في جبل، وكان شَوْقُكَ إلىٰ لقاء الحبيب شوق الظمآن إلىٰ الماء البارد، وشوق الجائع إلىٰ الطعام الطيب، ويكون ذكر اللَّه عندك أحلىٰ من العسل، وأحلىٰ من الماء العذب الصافي عند العطشان في اليوم الصائف».

وقال الفضيل: «طوبىٰ لمن استوحش من الناس، وكان اللَّه جليسه».

وقال أبو سُليمان: «لا آنسني اللَّه إلا به أبدًا».

وقال معروفٌ لرجلٍ: «توكل علىٰ اللَّه؛ حتىٰ يكون جليسك وأنيسك، وموضع شكواك».

وقال ذو النون المصري: «من علامة المحبين للَّهِ: ألَّا يأنسوا بسواه، ولا يستوحشوا معه». ثم قال: «إذا سكن القلب حب اللَّه تعالىٰ أَنِسَ باللَّهِ؛ لأن اللَّه تعالىٰ أَجَلُّ في صدور العارفين أن يحبوا سواه» اهـ . انتهىٰ كلام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو كلام كالماء العذب واللَّهِ.



الفصل الخامس

آداب الطالب في حياته العلمية

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٤ ـ كِبَر الهِمَة في العلم:

من سَجايا الإسلام التحلي بكبر الهمة، مركز السالب والموجب في شخصك، الرقيب علىٰ جوارحك، كبر الهمة يجلب لك ـ بإذن اللَّه ـ خيرًا غير مجذوذ، لترقىٰ إلىٰ درجات الكمال، فيجري في عروقك دم الشهامة والركض في ميدان العلم والعمل، فلا يراك الناس واقفًا إلا علىٰ أبواب الفضائل، ولا باسطًا يديك إلا لمهمات الأمور.

والتحلي بها يسلب منك سفاسف الآمال والأعمال، ويجتث منك شجرة الذُّل والهوان والتملق والمداهنة، فكبير الهمة ثابت الجأش، لا ترهبه المواقف، وفاقدها جبان رعديد، تغلق فمه الفهاهة.

ولا تغلط فتخلط بين كبر الهمة والكِبْر، فإن بينهما من الفرق كما بين السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع.

كبر الهمة حِليةُ وَرَثةِ الأنبياء، والكبر داء المرضىٰ بعلة الجبابرة البؤساء.

فيا طالب العلم، ارسم لنفسك كبر الهمة، ولا تنفلت منه، وقد أومأ الشرعُ إليها في فقهيات تُلابس حياتك، لتكون دائمًا علىٰ يقظة من اغتنامِهَا، ومنها: إباحة التيمم للمُكَلَّف عند فقد الماء، وعدم إلزامِهِ بقبول هبة ثمن الماء للوضوء، لما في ذٰلك من المِنة التي تنال من الهمة مَنَالًا، وعلىٰ هٰذا فَقِسْ[1]، واللَّه أعلم.

○ ○ ○

الشرح:

اعلم أن الهمة العالية لا تزال بصاحبها تضربه بسياط اللوم والتأنيب، وتزجره عن مواقف الذُل واكتساب الرذائل وحرمان الفضائل حتىٰ ترفعه من

(١) «السعادة العظمىٰ» لمحمد الخضر حسين (ص٧٦ ـ ٧٨).

أدني دركات الحضيض إلىٰ أعلىٰ درجات مقامات المجد والسؤدُد.

□ يقول العلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن عَلَتْ همته وخشعت نفسه اتصف بكل خُلُقٍ جميل، ومن دنت همته وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل، فالنفوس الشريفة لا ترضىٰ من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها، كما يقع الذُباب علىٰ الأقذار، فالنفوس العَلِيَّة لا ترضي بالظُلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة ولا بالخيانة ـ لأنها أكبر من ذٰلك وأجَّل ـ ، والنفوس المَهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذٰلك؛ فإذا توفر المرء علىٰ اقتناء الفضائل وألزم نفسه علىٰ التَّخلُّق بالمَحَاسِن، ولم يَرْضَ من مَنْقَبةٍ إلا بأعلاها، ولم يقف عند فضيلة إلا وطلب الزيادة عليها، واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلًا، ويُبقي لها الذكر الجميل آجلًا: لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام، ويرتقي إلىٰ النهاية من الكمال، فيحوز السعادة الإنسانية والرئاسة الحقيقية، ويبقىٰ له حسن الثناء مؤبدا وجميل الذكر مُخَلَّدًا»[١].

□ وقد قال عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن نفسي تَوَّاقة، وإنها لم تُعط شيئًا من الدنيا إلا تاقت إلىٰ ما هو أفضل منه، فلما أُعْطيت ما لا أفضل منه في الدنيا، تاقت إلىٰ ما هو أفضل منه» يعني: الجنة[٢].

□ قال أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ لأصحابه: «هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلىٰ وقتنا؟ قالوا: كم قَدْرُهُ؟ فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة؟ فقالوا: هٰذا مما تفني الأعمار قبل تمامه! فقال: إنا للَّه لقد ماتت الهمم! فاختصر ذٰلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ولما أراد أن يُمْلي التفسير قال لهم نحوًا من ذٰلك، ثم أملاه علىٰ نحوٍ من قَدْر التاريخ»[٣].

---

(١) أفدته من كتاب «الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة» (ص ١٢ ـ ١٤).
(٢) «السير» للذهبي (٥/ ١٣٤).
(٣) «السير» للذهبي (١٤/ ٢٧٥).

▫ وقال الإمام العلَّامة المُرادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعت الشيخ عبدالعظيم المنذري يقول: كتبت بيدي تسعين مجلدة، وكتبت سبعمئة جزء؛ كل ذٰلك من علوم الحديث تصنيف وغيره.

قال ـ أي المرادي ـ : وكتب ذٰلك من مصنفاته وغيرها أشياء كثيرة، ولم أر ولم أسمع أحدًا أكثر منه اجتهادًا في الاشتغال؛ كان دائم الاشتغال في الليل والنهار، وجاورته في المدرسة ـ يعني بالقاهرة ـ ، وكان بيتي فوق بيته مدة اثنتي عشرة سنة، فلم أستيقظ في ليلة من الليالي ساعةً من ساعات الليل إلا وجدته ضوء السراج في بيته وهو مشتغلٌ بالعلم، وحتىٰ كان في حال الأكل والكتب عنده يشتغل فيها، وكان لا يخرج من المدرسة لا لعزاء ولا لهناء ولا لفُرْجَة ولا لغير ذٰلك إلا لصلاة الجمعة؛ بل يستغرق كل الأوقات في العلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[١].

▫ وقال أنس بن عياض: «رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له: غدًا القيامة؛ ما كان عنده مزيد علىٰ ما هو عليه من العبادة»[٢].

▫ وقال الإمام الزَّرنوجي[٣]: «لابُد من الجِد والمواظبة والملازمة لطالب العلم فقد قيل: من طلب شيئا وجَدَّ وَجَدَ، ومن قرع الباب ولجَّ وَلَج، وبقدر ما تَتعنَّىٰ تَنالُ ما تَتمنَّي».

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

▫ وتأمل هٰذا القول البديع الشيق من العلَّامة أبي المعالي الميانجي الهمذاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمغبون من لم يجعل أنفاسه أثمان المعالي، ولم يجتهد في طلب العز طول الأيام والليالي، سَأزْجي قِلاصي حتىٰ يتعين من أسر الزمان والمكان خلاصي، فأنيخ المطايا في أعز مناخٍ، وأسمو بنفسي إلىٰ

(١) «بستان العارفين» (ص/ ٢٠٣) للنووي.
(٢) «السير» للذهبي (٥/ ٣٦٦).
(٣) «تعليم المتعلم» للزرنوجي (ص ٦٨ ـ مكتبة القرآن).

مُؤاخَاة مَن هو أجلُّ مُؤَاخٍ»[(١)].

□ وعليك بوصية العلَّامة ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ينبغي لطالب العلم أن يكون جُل همته مصروفًا إلىٰ الحفظ والإعادة؛ فلو صح صرف الزمان إلىٰ ذٰلك كان الأولىٰ، غير أن البدن مطية، وإجهاد السير مظنة الانقطاع، ولما كانت القوىٰ تَكِلُ فتحتاج إلىٰ تجديد، والمطالعة والتصنيف لابُد منه ـ مع أن المهم الحفظ ـ ، فوجب تقسيم الزمان علىٰ الأمرين، فيكون الحفظ في طرفَي النهار وطرفَي الليل ويوزع الباقي بين عملٍ بالنسخ والمطالعة، وبين راحةٍ للبدن وأخذٍ لِحَظِّهِ، ولا ينبغي أن يقع الغَبْنُ بين الشركاء؛ فإنه متىٰ أخذ أحدهم فوق حقه أثَّر الغَبْن وبان أثره.

وإن النفس لتهرب إلىٰ النسخ والمطالعة والتصنيف عن الإعادة والتكرار؛ لأن ذٰلك أشهىٰ وأخف عليها؛ فليحذر الراكب من إهمال الناقة، ولا يجوز له أن يحمل عليها ما لا تطيق، ومن انحرف عن الجادة طالت طريقه، ومن طوىٰ منازل في منزل أوشك أن يفوت ما جَدَّ لأجله. فاللازم في طلب المهم والعمر أقصر وأنفس من أن يُفَرَّط منه في نَفَس».

---

(١) «زُبدة الحقائق» (ص/ ٣٠) لأبي المعالي الميانجي.

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص/ ٣٥٣ ـ ط: دار ابن خزيمة).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٥ ـ النهمة في طلب العلم:

إذا علمت الكلمةَ المنسوبة إلىٰ الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قيمة كل امرئ ما يُحْسنه»، وقد قيل: «ليس أحض علىٰ طلب العلم منها»، فاحذر غلط القائل: «ما ترك الأول للآخر»، وصوابه: كم ترك الأول للآخر، فعليك بالاستكثار من ميراث النبي ﷺ، وابذل الوسع في الطلب والتحصيل والتدقيق، ومهما بَلَغْت في العلم فتذكر: «كم ترك الأول للآخر!».

وفي ترجمة أحمد بن عبدالجليل من «تاريخ بغداد» للخطيب ذكر من قصيدة له:

لا يكونُ السريُّ مثلَ الدنِيِّ ... لا ولا ذو الذكاءِ مثلَ الغبيِّ

قيمةُ المرءِ كلُّ ما أحسنَ المرءُ ... قضاءً من الإمام عليِّ

○ ○ ○

الشرح:

□ قال ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قول الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قيمة كل امرئ ـ أو قدر كل امرئ ـ ما يحسن» من الكلام العجيب الخطير، وقد طار الناس به كل مطير؛ بل نظمه جماعة من الشعراء إعجابًا به وكلفًا بحُسنِه» اهـ.

□ وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: العامة تقول: «قيمة كل امرئ ما يحسن»، والخاصة تقول: «قيمة كل امرئ ما يطلب». يريد: أن قيمة المرء همته ومطلبه» اهـ.

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبدالبر (١/ ٤١٧) (٦٠٩) بتحقيق شيخنا العلامة أبو الأشبال ـ حفظه اللّٰه ـ. وانظر ـ أيضًا ـ حول هٰذه الكلمة: «محاضرات الأدباء» (١/ ٦٢)، «الحكم والأمثال» (ص٣٤٧)، و«عيون الأخبار» (٢/ ١٣٦)، و«ربيع الأبرار» (٣/ ١٧٠).

(٢) «علو الهمة» (ص/ ٨) للعلامة المحقق المؤدب محمد بن إسماعيل المقدم حفظه اللّٰه.

□ وقال أبو الهلال العسكري: «وإذا تدبرت قول أمير المؤمنين عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»؛ كنتَ حقيقًا بالاجتهاد في طلب العلم، وإن قدرتك عليه غير معذور في التواني عنه والتقصير فيه؛ لأن العاقل لا يعتمد تخسيس قيمته، ولا يغفل عما يرفع من قدره.

وأخذ أبو الحسن العلوي كلام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فنظمه:

فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه»[١].

ووصيتي لك ـ أخي الحبيب طالب العلم ـ : أنك إذا أحببت فنًّا من فنون العلم؛ فلابد أن تصرف جميع أوقاتك وأنفاسك وهمتك في إدراكه وتحصيله ونيله من أهل إتقانه وعارفيه، ولا تتوانَ في ذٰلك أبدًا، مع صرف كل نفيس وجليل لأجله، حتىٰ تكون من أهله المعروفين به؛ فإذا كنت كذٰلك كنت كما قيل: «قيمة كل امرئ ما يحسن».

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «وكل شيء نفيس خطير يطول طريقه ويكثر التعب في تحصيله، ولما كان العلم أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة، ولله أقوامٌ ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها فهم يبالغون في كل علم، ويجتهدون في كل عمل، ويثابرون علىٰ كل فضيلة، فإذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذٰلك قامت النيات نائبة ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون].

وأكمل أحوالهم إعراضهم عن أعمالهم؛ فهم يحتقرونها مع التمام، ويعتذرون من التقصير، ومنهم من يزيد علىٰ هٰذا، ويتشاغل بالشكر علىٰ التوفيق لذٰلك، ومنهم من لا يرىٰ ما عمل أصلًا؛ لأنه يرىٰ نفسه وعمله لسيده» اهـ.

□ وحكىٰ العلامة صديق حسن خان رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن رشد ـ سامحه الله ـ؛

---

(١) «الحث علىٰ طلب العلم» لأبي هلال العسكري (ص ٤٨، ٤٩ ـ ط: المكتب الإسلامي).

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص/ ٤٤٧ ـ ط: دار ابن خزيمة).

قال: «كان كثير الدرس والمطالعة، لا يشغله عن البحث والنظر شاغل، وتشهد بذلك كثرة مصنفاته، حتىٰ قال ابن الأبار: إنه لم يصرف ليلةً من عمره بلا درس أو تصنيف، إلَّا ليلة عرسه وليلة وفاة أبيه» اهـ[١].

---

(١) «التاج المكلل» (ص/ ٣٠٤).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٦ ـ الرحلة للطلب:

«من لم يكن له رِحلة لن يكون رُحلة»[١].

فمن لم يرحل في طلب العلم للبحث عن الشيوخ والسياحة في الأخذ عنهم، فيبعد تأهله ليُرحَل إليه، لأن هٰؤلاء العلماء الذين مضىٰ وقت في تعلمهم وتعليمهم، والتلقي عنهم: لديهم من التحريرات والضبط والنكات العلمية والتجارب ما يعزُّ الوقوف عليه أو علىٰ نظائره في بطون الأسفار.

○ ○ ○

الشرح:

▫ قال الإمام الزرنوجي: «ولابُد لطالب العلم مِن تَحمُّل النَّصَب والمشقة في سفر التعليم؛ لأن طلب العلم أمر عظيم، وهو أفضل من الغذاء عند أكثر العلماء، والأجر علىٰ قدر التعَب والنَّصَب؛ فمن صَبَرَ علىٰ ذٰلك وَجَدَ لَذَّةً تفوق سائِر لَذَّات الدنيا، كما قال أحدهم: أين أبناء الملوك من هٰذه اللَّذات» اهـ[٢].

▫ وقال الإمام ابن الملقن رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «ومن فوائد رحلة سيدنا موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ الخضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي في البخاري:

الأولىٰ: الرحلة والسفر لطلب العلم برًّا وبَحرًا، ومنه حديث رحلة سيدنا جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والمراد منهما: التنبيه علىٰ شرف العلم حتىٰ جازت المخاطرة في طلبه بركوب البحر، وركبه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في طلبه؛ بخلاف ركوبه في طلب الدنيا.

الثانية: الازدياد في العلم وقصد طلبه ومعرفة حق من عنده زيادة علم».

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم».
(٢) «تعليم المتعلم» للزرنوجي (ص ١٠٠).
(٣) «شرح البخاري» (٢/ ٣٧٩ ـ غراس الكويت).

□ وقد قال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأبي علي النيسابوري ـ حين رحل في طلب العلم واستفاد ـ : «لقد أصبت في خروجك؛ فإن الزيادة في حفظك ظاهرة» اهـ[١].

□ وقال مكحول رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «طُفْتُ الأرض كلها في طلب العلم»[٢].

□ وقال ابن المقرئ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَشيت بسبب نُسخة مُفَضَّل ابن فَضَالَة سبعين مرحلة، ولو عُرِضَت علىٰ خَبَّاز بِرَغِيفٍ لم يَقْبلها»[٣].

□ وقال محمد بن طاهر المقدسي: «رحلت مِن طوس إلىٰ أصبهان لأجل حديث أبي زُرْعة الرَّازيِّ الذي أخرجه مسلم عنه في الصَّحيح، ذاكَرني به بعض الرَّحَّالة بالليل، فلما أصبحت شددت عليَّ، وخرجت إلىٰ أصبهان، فلم أحلُلْ عنِّي حتىٰ دخلت علىٰ الشَّيخ أَبِي عَمْرو، فقرأته عليه، عن أبيه، عن أبي بكر القطَّان، عَنْ أَبِي زُرْعة، ودفع إليَّ ثلاثة أرغفة وكُمَّثراتَيْن، ثمَّ خرجتُ مِن عنده إلىٰ الموضع الذي نزلت فيه، وحَللْت عند بعض أصدقائنا، وتحدَّثت عنده ساعة، فقال لي: لأيِّ شيءٍ عبرت؟ فقلت له، فقال: وأين الدينار؟ فظننت أني قد تركته في جيبي، فطلبته فلم أجده، فضاق صدري ونمت، فرأيتُ في المنام كأنَّ قائلًا يقولُ لي: أليس قد وضعته في وسط المجلَّدة؟ فقمت مِن النَّوم، وفتحت المجلَّدة، وأخذت الدِّينار، واشتريت جميع ما طلب رفيقي، وحملته علىٰ رأسي، ورجعت إليه وقد أبطأتُ عليه، فلم أخبره بشيء إلىٰ أن أكلنا، ثم أخبرته، فضحك وقال: لو كان هٰذا قبل الأكل لكنت أبكي»[٤].

□ وقال ـ أيضًا ـ محمد بن طاهر المقدسي[٥]: «ما ركبت دابةً قط في طلب

---

(١) «السير» للذهبي (١٦/ ٥٦).
(٢) «السير» للذهبي (٥/ ١٥٨).
(٣) «السير» للذهبي (١٦/ ٤٠٠).
(٤) «تاريخ الإسلام» للذهبي (١١/ ٩٦ ـ ٩٨).
(٥) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥٣/ ٢١٨)، «السير» (١٩/ ٣٦٣).

الحديث، وكنت أحمل كتبي علىٰ ظهري إلىٰ أن استوطنت البلاد. وَبُلتُ الدم في طلب الحديث مرتين: مرة ببغداد، ومرة بمكة؛ وذٰلك لأني كنت أمشي حافيًا في حَر الهواجر بهما، فلحقني ذٰلك».

□ وقال الإمام الوخشي: «رحلت وقاسيت الذل والمشاق، ورجعت إلىٰ وخش وما عرف أحد قدري، فقلت: أموت ولا ينتشر ذكري[1]، ولا يترحم أحد عليَّ! فسهل اللّٰه، ووفق نِظام الملك حتىٰ بنىٰ هٰذه المدرسة، وأجلسني فيها أحدِّث، لقد كنت بعسقلان أسمع من ابن مصحح، وبقيت أيامًا بلا أكل، فقعدت بقرب خباز لأشم رائحة الخبز وأتقوىٰ بها»[2].

□ وقال ابن فارس في كتابه النادر «مأخذ العلم»: «وبلغنا أن ناسًا يكرهون الإجازة، يقولون: إن اقتُصر عليها بطلت الرحلة، وقعد الناس عن طلب العلم».

ونحن فلسنا نقول: إن طالب العلم يقتصر علىٰ الإجازة فقط، ثم لا يسعىٰ لطلب علمٍ ولا يرحل، لٰكنا نقول: تكون الإجازة لمن كان له في القعود عن الطلب عذرٌ من قصور نفقةٍ، أو بعد مسافة، أو صعوبة مسلك.

فأما أصحاب الحديث فما زالوا يتجشمون المصاعب، ويركبون الأهوال، ويفارقون الأوطان، وينأون عن الأحباب، آخذين بالذي حث عليه رسول اللّٰه ﷺ.

(١) الظن بالإمام رَحِمَهُ اللهُ أنه لم يقصد الرياء والسمعة، وإنما أراد أن ينتشر العلمُ الذي تعب في تحصيله من هنا وهناك، وحقًّا فإن أعظم الشقاء أن يتعب الطالبُ في ليله ونهاره لينشر علمًا يرفع قدره عند ربِّه، ثم لا يجد من يأخذُه عنه وينشره بين الخلائق. وكم من عالمٍ مكين وجهبذٍ ركين كان عنده من الفوائد والفرائد ما يستحق أن يُرحل في سبيلها الليالي والأيامِ، إلَّا أن طلابه ضيعوه، لما لم يأخذوا علمه وينشروه، ولِلَّهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعد.

(٢) «السير» (١٨/ ٣٦٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

واحذر القعود عن هٰذا علىٰ مسلك المتصوفة البطالين؛ الذين يفضلون «علم الخِرَق» علىٰ «علم الوَرَق».

وقد قيل لبعضهم: ألا ترحل حتىٰ تسمع من عبدالرزاق؟ فقال: ما يَصنعُ بالسماع من عبدالرزاق من يسمع من الخلَّاق؟!.

وقال آخر:

إذا خاطبوني بعلم الورق ... برزتُ عليهم بعلم الخِرَق

فاحذر هٰؤلاء؛ فإنهم لا للإسلام نصروا، ولا للكفر كسروا؛ بل فيهم من كان بأسًا وبلاءً علىٰ الإسلام.

○ ○ ○

الشرح:

▫ قال العباس بن مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ: «حدثني بعض أصحابنا قال: دخلت علىٰ السَّري ـ وهو شبيه بالمتغير اللون ـ، قال: قلت: يا أبا الحسن، ما لك؟ قال: استأذن عليَّ الساعة رجلٌ فأذنت له، فرأىٰ في بيتي محبرة، فلما رآها قال: لا جزىٰ اللّٰه من غرني فيك خيرًا، قال: قلت: ما لكَ؟! قال: المحبرة، إنما ذِهِ في بيوت البطالين!!!»[١].

▫ وقال أبو نصر الفاشاني: «كنت إذا أتيت هبة اللّٰه بالرِّباط، أخرجني إلىٰ الصحراء، وقال: اقرأ هنا، فالصوفية يتبرمون بمن يشتغل بالعلم والحديث، يقولون: يشوشون علينا أوقاتنا»[٢].

▫ وقال الإمام ابن الجوزي: «ولقد ذاكرت بعض مشايخنا ما يروىٰ عن جماعة من السادات أنهم دفنوا كتبهم! فقلت له: ما وجه هٰذا؟ فقال: أحسن

---

(١) «تهذيب تاريخ دمشق» (٦/ ٧٦)، «الزهد الكبير» للبيهقي (ص/ ١٨١، ٤٣١).

(٢) ذكرها الذهبي في «سيره» (١٩/ ١٩).

ما نقول أن نسكت! يشير إلىٰ أن هٰذا جهلٌ من فاعله، وتأولت أنا لهم، فقلت: لعل ما دفنوا من كتبهم ما فيه شيء من الرأي، فما رأوا أن يعمل الناس به.

ولقد رُوِّينا في الحديث عن أحمد بن أبي الحواري: أنه أخذ كتبه فرمىٰ بها في البحر، وقال: «نِعمَ الدليل كنت، ولا حاجة لنا إلىٰ الدليل بعد الوصول إلىٰ المدلول»! وهٰذا ـ إذا أحسنا به الظن ـ قلنا: كان فيها من كلامهم ما لا يرتضيه، فأما إذا كانت علومًا صحيحة، كان هٰذا من أفحش الإضاعة.

وأنا وإن تأولت لهم هٰذا؛ فهو تأويل صحيح في حق العلماء منهم؛ لأنا قد روينا عن سفيان الثوري أنه قد أوصىٰ بدفن كتبه، وكان ندم علىٰ أشياء كتبها عن قومٍ، وقال: حملني شهوةُ الحديث، وهٰذا لأنه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين، فكأنه لما عسر عليه التمييز، أوصىٰ بدفن الكل.

وكذٰلك من كان له رأيٌ من كلامه، ثم رجع عنه، جاز أن يدفن الكتب التي فيها ذٰلك. فهٰذا وجه التأويل للعلماء.

فأما المتزهدون الذين رأوا صورة فعل العلماء، ودفنوا كتبًا صالحةً، لئلَّا تشغلهم عن التعبد، فإنه جهل منهم؛ لأنهم شرعوا في إطفاء مصباح يضيء لهم، مع الإقدام علىٰ تضييع مال لا يحل تضييعه.

ومن جملةِ من عملٍ بواقعة دفن كتب العلم: يوسف بن أسباط، ثم لم يصبر عن التحديث، فخلَّط فعُدَّ في الضعفاء.

قال شعيب بن حرب: قلت ليوسف بن أسباط: كيف صنعت بكتبك؟ قال: جئت إلىٰ الجزيرة، فلما نضِب الماء دفنتها، حتىٰ جاء الماء عليها فذهبت. قلت: ما حملك علىٰ ذٰلك؟ قال: أردت أن يكون الهمُّ همًّا واحدًا.

قال العقيلي: وحدثني آدم: قال: سمعت البخاري، قال: قال صدقة: دفن يوسف بن أسباط كتبه، وكان بعد يغلب عليه الوهم، فلا يجيء كما ينبغي.

قلت[١]: الظاهر أن هٰذه كتب علم ينفع؛ ولٰكن قلة العلم أوجبت هٰذا التفريط الذي قصد به الخير، وهو شر، فلو كانت كتبه من جنس كتب الثوري ـ فإن فيها عن ضعفاء، ولم يصح له التمييز ـ قرب الحال؛ إنما تعليله بجمع الهم هو الدليل علىٰ أنها ليست كذٰلك، فانظر إلىٰ قلة العلم ماذا تؤثر مع أهل الخير!.

ولقد بلغنا في الحديث عن بعض من نعظمه ونزوره: أنه كان علىٰ شاطئ دَجلة، فبال ثم تيمم! فقيل له: «الماء قريب منك! فقال: خفت ألَّا أبلغه»!.

وهٰذا، وإن كان يدل علىٰ قصر الأمل، إلا أن الفقهاء إذا سمعوا عنه مثل هٰذا الحديث، تلاعبوا به، من جهة أن التيمم إنما يصح عند عدم الماء، فإذا كان الماء موجودًا، كان تحريك اليدين بالتيمم عبثًا، وليس من ضرورة وجود الماء أن يكون إلىٰ جانب المُحدِث؛ بل لو كان علىٰ أذرع كثيرة، كان موجودًا[٢]، فلا فعل لتيمم، ولا أثر حينئذ.

ومن تأمل هٰذه الأشياء، علم أن فقيهًا واحدًا ـ وإن قل أتباعه، وخفت إذا مات أشياعه ـ أفضل من ألوف تتمسح العوام بهم تبرُّكًا! ويشيع جنائزهم ما لا يحصىٰ.

وهل الناس إلا صاحب أثر نتبعه، أو فقيه يفهم مراد الشرع، ويفتي به!.

نعوذ باللَّه من الجهل وتعظيم الأسلاف تقليدًا لهم بغير دليل؛ فإن من ورد المشرب الأول، رأىٰ سائر المشارب كدرة.

والمحنة العظمىٰ مدائح العوام، فكم غرت! كما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أبقىٰ خفقُ النعال وراء الحمقىٰ من عقولهم شيئًا».

ولقد رأينا وسمعنا من العوام أنهم يمدحون الشخص، فيقولون: لا ينام

---

(١) يعني ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) بشرط عدم وجود مشقة شديدة في الحصول عليه، فإن وجدت تلك المشقة الشديدة أبيح له التيمم.

الليل، ولا يفطر النهار، ولا يعرف زوجة، ولا يذوق من شهوات الدنيا شيئًا، قد نحل جسمه، ودق عظمه، حتىٰ إنه يصلي قاعدًا، فهو خير من العلماء الذين يأكلون ويتمتعون! ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [النجم: ٣٠].

ولو فقهوا، علموا أن الدنيا لو اجتمعت في لقمة، فتناولها عالم يفتي عن اللَّه، ويخبر بشريعته، كانت فتوىٰ واحدة منه يرشد بها إلىٰ اللَّه تعالىٰ خيرًا وأفضل من عبادة ذٰلك العابد باقي عمره.

وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فقيه واحد أشد علىٰ إبليس من ألف عابد».

ومن سمع هٰذا الكلام، فلا يظنن أنني أمدح من لا يعمل بعلمه؛ وإنما أمدح العاملين بالعلم، وهم أعلم بمصالح أنفسهم؛ فقد كان فيهم من يصلح علىٰ خشن العيش، كأحمد بن حنبل، وكان فيهم من يستعمل رقيق العيش، كسفيان الثوري مع ورعه، ومالك مع تدينه، والشافعي مع قوة فقهه.

ولا ينبغي أن يطالَب الإنسان بما يقوىٰ عليه غيره، فيضعف هو عنه، فإن الإنسان أعرف بصلاح نفسه، وقد قالت رابعة: «إن كان صلاح قلبك في الفالوذج[١] فكله».

ولا تكونن ـ أيها السامع ـ ممن يرىٰ صورة الزهد، فرب متنعم لا يريد التنعم، وإنما يقصد المصلحة، وليس كل بدن يقوىٰ علىٰ الخشونة، خصوصًا من قد لاقىٰ الكد، وأجهده الفكر، أو أمضَّه الفقر[٢]؛ فإنه إن لم يرفق بنفسه ترك واجبًا عليه من الرفق بها.

فهٰذه جملةٌ لو شرحتها بذكر الأخبار والمنقولات لطالت؛ غير أني سطرتها علىٰ عجل حين جالت في خاطري. واللَّه ولي النفع برحمته» اهـ.

▫ وقال محمد بن جعفر الخُلْدِي: «مضيتُ إلىٰ عباس الدُّوري وأنا حَدَث، فكتبت عنه مجلسًا وخرجت، فلقيني صوفي فقال: إيش هٰذا؟ فأريته، فقال: ويحك! تدع علم الخِرَق وتأخذ علم الورق! ثم خَرَّقَ الأوراق، فدخل كلامه

---

(١) الفالوذج: حلوىٰ فارهة.
(٢) أمضَّه: آلمَه.

في قلبي، فلم أعُد إلىٰ عباس، ووقفت بعرفة ستًّا وخمسين وقفة».

□ قال الإمام الذهبي ـ معلِّقًا ـ : «ما هٰذا إلَّا صوفي جاهلٌ يُمَزِّق الأحاديث النبوية، ويحض علىٰ أمر مجهول، فما أحوجه إلىٰ العلم»[(١)].

قلت: هٰذا الصوفي الجاهل ذكرني بقول وهب بن منبِّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الأحمق إذا تكلم فَضَحهُ حُمْقُه، وإذا سكت فَضَحه عِيُّهُ، وإذا عمل أفسد، وإذا ترك أضاع، لا علمه يُعينه، ولا علم غيره ينفعه، تود أمُّه لو أنها ثكلته، وامرأته لو عَدِمَتْهُ»[(٢)].

هٰكذا يُفعل بالجُهال وقد كثروا في هٰذه الآونة ـ لا كَثَّرَهُمُ اللَّه ـ ، وقد يَدَّعُون الكرامات والمكاشفات، وهم أبعد الناس عن دين اللَّه وشرعه، وما أُتي الإسلام إلَّا مِن قِبَلِ هٰؤلاء، وما ضَرَّ المسلمين إلَّا هٰؤلاء، وما تجد واحدًا منهم اليوم متمسكًا بكتابٍ ولا سُنة، فكيف يأتي التصوف وكيف تأتي الكرامات؟!.

فحقيقة التصوف: التأدُّب بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ علىٰ فهم سلف الأمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، وما كان غير ذٰلك فهو تصوف الشيطان الرجيم.

فواللَّهِ ما وجدت مثل زهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وتابعيهم، ومثل زهد الجُنيد والدَّقاق والقُشيري وشيخ الإسلام الهروي؛ إلَّا بعض كلامه في «منازل السائرين»، فرحم اللَّه هٰؤلاء السادة الذين لا تطيب نفسي إلَّا بقراءة سِيرِهم وتراجمهم وهديهم وأدبهم.

□ وقد قال سيد الجماعة الإمام الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «علمنا هٰذا مقيد بالكتاب والسنة، من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدىٰ به في علمنا هٰذا»[(٣)].

---

(١) «السير» للذهبي (١٥/ ٥٥٩) و«تاريخ بغداد» (٢/ ٢٢٧).

(٢) «السير» للذهبي (٤/ ٥٥٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٥٥) ومن طريقه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٤٣) وإسناده صحيح.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٧ ـ حفظ العلم كتابةً[١]:

ابذُلِ الجُهْدَ في حِفظ العلم «حفظ كتاب»، لأن تقييد العلم بالكتابة أمان من الضياع، وقَصْرٌ لمسافة البحث عند الاحتياج، لا سيما في مسائلِ العِلم التي تكون في غير مظانها، ومن أَجَلِّ فوائده أنه عند كِبَرِ السِن وضعف القوىٰ يكون لديك مادة تَسْتَجِرُّ منها مادةً تَكتُب فيها بلا عَناءٍ في البحث والتقصي.

وَلِذا فاجعل لك «كُنَاشًا»[٢] أو «مُذَكِّرَةً» لتقييد الفوائِد والفرائِد والأبحاث المنثورة في غير مظانها، وإن استعملت غلاف الكتاب لتقييد ما فيه من ذٰلك، فَحَسَن، ثم تَنْقُلُ ما يجتمع لك بعدُ في مذكرة، مُرَتِّبًا له علىٰ الموضوعات، مقيدًا رأس المسألة، واسم الكتاب، ورقم الصفحة والمجلد، ثم اكتب علىٰ ما قيدته: «نقل»، حتىٰ لا يختلط بما لم ينقل، كما تكتب: «بلغ صفحة كذا» فيما وصلت إليه من قراءة الكتاب حتىٰ لا يفوتك ما لم تبلغه قراءة.

وللعلماء مؤلفات عِدَة في هٰذا، منها: «بدائع الفوائد» لابن القيم، و«خبايا الزوايا» للزركشي، ومنها: كتاب «الإغفال» و«بقايا الخبايا» وغيرها.

وعليه فقيِّد العلم بالكتاب[٣]، لا سيما بدائع الفوائد في غير مظانها، وخبايا الزوايا في غير مساقها، ودررًا منثورةً تراها وتسمعها تخشىٰ فواتها... وهٰكذا فإن الحفظ يضعف، والنسيان يَعرض.

قال الشعبي: «إذا سمعت شيئًا فاكتبه، ولو في الحائط». رواه خيثمة.

وإذا اجتمع لديك ما شاء اللَّه أن يجتمع؛ فرتبه في «تذكرة» أو «كُنَاش»

---

(١) «الجامع» للخطيب البغدادي (٢/ ١٦، ١٨٣ ـ ١٨٥).

(٢) الكُناش ـ بضم الكاف، وتخفيف النون، وشين معجمه، علىٰ وزن غراب، لفظ سرياني بمعنىٰ المجموعة، والتذكرة. وانظر «التراتيب الإدارية» (٢/ ٢٧٠).

(٣) وقد صح نحو هٰذا الأمر مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ، فانظره في «السلسلة الصحيحة» للألباني، (رقم ٢٠٢٦).

علىٰ الموضوعات، فإنه يُسْعِفُكَ في أضْيَقِ الأوقات التي قد يعجز عن الإدراك فيها كبار الأثبات.

○ ○ ○

الشرح

أثر الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رواه أبو خيثمة في «العلم» (رقم/ ١٤٦) وسنده حسن.

□ قال الشافعي: «كنت أكتب في الأكتاف والعِظام، وكنت أذهب إلىٰ الديوان فأستوهب الظهور فأكتب فيها، وكان منزلنا بمكة في شِعب الخيف، فكنت أنظر إلىٰ العظم يلوح فأكتب فيه الحديث أو المسألة، وكانت لنا جرَّة قديمة فإذا امتلأ العظم طرحتُه في الجرَّة»[(١)].

□ وقال يحيىٰ بن سعيد الأنصاري: «لأن أكون كتبت كل ما أسمع أحب إليَّ مِن أن يكون لي مثل مالي»[(٢)].

□ وقال عمار بن رجاء: «سمعت عُبَيْد بن يعيش يقول: أقمت ثلاثين سَنَةً ما أكلت بيدي بالليل؛ كانت أختي تلقمني وأنا أكتب»[(٣)].

□ وقال الإمام السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن فطيمة: «كان كثير السَّماع، حسن السيرة، مليح المجالسة، ما رأيت أخف روحًا منه ـ مع السخاء والبذل ـ ، وسمعت منه الكثير، وكتب لي أجزاء، ومن العَجَبِ أنه قُطعت أصابعه بِكِرْمَان بسبب علةِ مرض، فكان يأخذ القلم، ويترك الورق تحت رجله، ويمسك القلم بكفيه، فيكتب خطًّا مليحًا سريعًا؛ يكتب في اليوم خمس طاقات خطًّا واسعًا»[(٤)].

قلت: وكانت سيدتنا رَحِمَهَا ٱللَّهُ الشيخة هَانِم بنت صَالِح بَاوَه من المُحَفِّظَات

---

(١) «السير» للذهبي (١٠/ ١١، ٨٦) و«الحلية» لأبي نعيم (٩/ ٧٣).
(٢) السابق (٥/ ٤٧٤).
(٣) السابق (١١/ ٨١).
(٤) السابق (٢٠/ ٦٠)(٣٩).

للقُرآن علىٰ مدار خمسين سنة، وكان سِنها يقارب التسعين سنة ـ مع فقدان بصرها فِي الصِغَر ـ ، فكانت تأمرنا بحفظ الوجه من مسموع القرآن بعد كتابته مُشَكَّلًا من المصحف، فكان يتم الحفظ علىٰ الوجه التام ـ بحمد اللَّه ـ ، فرحمةُ اللَّه عليها.

والمقصود أن كتابة العلم يجعله ثابتًا في القلوب والأذهان قَلَّما يتفلت؛ بل كتابته تسهل الرجوع إليه وتداركه واستحضاره بفضل اللَّه.

فهٰذا المنهج في العلم منهج مُحرر متين، يُحرز الطالب من التقدم راحة العمر في الطلب والتحصيل.

□ قال معمر بن راشد: «حدَّث يحيىٰ بن أبي كثير بأحاديث، فقال: اكتب لي حديث كذا وحديث كذا، فقلت: يا أبا نصر، أما تكره كَتْبَ العلم؟ قال: اكتبه لي؛ فإنك إن لم تكتب فقد ضَيَّعْتَ أو عَجَزْتَ»[1].

---

(١) السابق (٦/ ٢٩).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٨ ـ حفظ الرعاية:

ابذل الوسع في حفظ العلم «حفظ رعاية» بالعمل والاتباع، قال الخطيب البغدادي رحمه اللَّهُ تعالىٰ[1]: «ويجب علىٰ طالب الحديث أن يُخْلِصَ نِيَّته في طلبه، ويكون قصده وجه اللَّه سبحانه.

وليحذر أن يجعله سبيلًا إلىٰ نيل الأعراض، وطريقًا إلىٰ أخذ الأعواض، فقد جاء الوعيد لمن ابتغىٰ ذٰلك بعلمه.

وليتق المُفاخرة والمُباهاة بِهِ، وأن يكون قصده في طلب الحديث نيل الرئاسة واتخاذ الأتباع وعقد المجالس، فإن الآفة الداخلة علىٰ العلماء أكثرها من هٰذا الوجه.

وليجعل حفظه للحديث حفظ رعاية ـ لا حفظ رواية ـ ؛ فإن رواة العلوم كثيرٌ، ورعاتها قليل، ورب حاضر كالغائب، وعالم كالجاهل، وحامل للحديث ليس معه منه شيء؛ إذ كان في اطِّرَاحه لِحُكْمِهِ بمنزلة الذاهب عن معرفته وعلمه.

وينبغي لطالب الحديث أن يتميز في عامَّة أموره عن طرائق العوام باستعمال آثار رسول اللَّه ﷺ ما أمكنه، وتوظيف السنن علىٰ نفسه، فإن اللَّه تعالىٰ يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]» اهـ .

○ ○ ○

الشرح:

□ قال أبو العباس الآدمي: «من ألزم نفسه آداب السنة، نَوَّرَ اللَّه قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله

---

(١) «الجامع» للخطيب (١/ ٨١، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ١٤٢).

وأخلاقه، والتأدب بآدابه قولًا وفعلًا وعزمًا وعقدًا ونية»[(١)].

□ وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما كتبت حديثًا إلَّا وعملت به؛ حتىٰ مَرَّ بي أن النبي ﷺ احتجم وأعطىٰ أبا طَيبة دينارًا، فأعطيت الحَجَّام دينارًا حين احْتَجَمْتُ»[(٢)].

□ وقال عبدُالرَّحمٰن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعت سفيان يقول: ما بلغني عن رسول اللَّه ﷺ حديثٌ قط إلَّا عملت به ولو مرة»[(٣)].

□ وذكر ابن عبد ربه في «العقد الفريد»[(٤)]: «أنه قيل للمُهلَّب: بمَ أدركت ما أدركت؟ قال: بالعلم، قيل له: غيرك قد علم أكثر مما علمت، ولم يدرك ما أدركت! قال: ذٰلك علم حُمِلَ، وهٰذا علم اسُتعمل».

□ وقال سفيان الثوري: «إن استطعت ألَّا تحك رأسك إلَّا بأثر فافعل»[(٥)].

□ وقال العلامة المنزلاوي: «من أراد حفظ السنة فليعمل بها، فإنها تتقيد عنده ولا ينساها»[(٦)].

□ وقال أبو عثمان الحيري: «من أَمَّرَ السنة علىٰ نفسه قولًا وفعلًا نَطَقَ بالحكمة، ومن أَمَّر الهوىٰ علىٰ نفسه نطق بالبدعة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤]»[(٧)].

فما أحلىٰ التمسك بالسنة! وما أطيب الاقتداء بسيد ولد آدم وخير البرية رسول اللَّه ﷺ!.

---

(١) «طبقات الصوفية» للسلمي (ص/ ٢٠٨)، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن (ص/ ٧١).
(٢) «السير» للذهبي (١١/ ٢١٣).
(٣) «السير» (٧/ ٢٤٢).
(٤) «العقد الفريد» (٢/ ١٧٨).
(٥) «الجامع» للخطيب (١/ ٢٢٣)
(٦) «التاج المكلل» (ص/ ٣٢٠).
(٧) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٩٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٩ ـ تعاهُدُ المحفوظات:

تعاهَدْ علمك من وقت إلىٰ آخر؛ فإن عدم التعاهد عنوان الذَّهَاب للعلم مهما كان.

عن ابن عُمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إنما مثلُ صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المُعْقَّلَة، إن عاهد عَليها أمسَكَهَا، وإن أطلقها ذَهَبَتْ».

رواه الشيخان[١]، ومالك في «الموطأ».

قال الحافظ ابن عبدالبر [٢]: «وفي هٰذا الحديث دليل علىٰ أن من لم يتعاهد علمه ذهب عنه أيًّا من كان، لأن علمهم كان ذٰلك الوقت القرآن لا غير، وإذا كان القرآن الميسَّر للذكر يذهب إن لم يُتعاهَد، فما ظنك بغيره من العلوم المعهودة؟! وخير العلوم ما ضُبِطَ أصله، واسْتُذْكِر فَرْعُهُ، وَقَادَ إلىٰ اللَّه تعالىٰ، وَدَلَّ علىٰ ما يرضاه» اهـ.

وقال بعضهم[٣]: «كُلُّ عِزٍّ لم يُؤكَّد بِعْلمٍ، فإلىٰ ذُلٍّ مَصيره»[٤] اهـ.

○ ○ ○

الشرح:

عن ابن جُريج عن أبيه قال: أتىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عمر بن ربيعة فأنشده: «أمن آل نُعْمٍ أنت غادٍ فَمُبْكِر....» حتىٰ بلغ آخرها.

فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن شئت أعدتُها عليك، فقيل له: أو قد حفظتها؟

---

(١) البخاري (٦/ ٢٣٧)، ومسلم (٦/ ٧٥).

(٢) «التمهيد» (١٤/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

(٣) «شرح الأحياء» (١/ ٩٣).

(٤) نسبه ابن عبد ربه إلىٰ الأحنف بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ في «العقد الفريد» (٢/ ١٨٦ ـ ط: دار الكتاب العربي).

قال: أو منكم من يستمع شيئًا ولا يحفظه؟!»[١].

□ عن أبي عُمر الطَّلَمَنْكِي قال: «دخلت مُرسية، فتشبث بي أهلها يسمعوا عليَّ «غريب المصنف»، فقلت لهم: انظروا لي من يقرأ لكم، وأمسك أنا كتابي. فأتوني برجل أعمىٰ يُعْرَف بابن سِيْدَه، فقرأه عليَّ من أوله إلىٰ آخره فعجبت من حفظه. قال: وكان أعمىٰ بن أعمىٰ»[٢].

□ وقال مغيرة بن مِقْسَم: «ما وقع في مسامعي شيء فنسيته»[٣].

□ قال الذهبي ـ معلِّقًا ـ : «قلت: هٰذا واللَّه الحفظ، لا حفظ من درس كتابًا مراتٍ عدة حتىٰ عرضه، ثم تخبط عليه، ثم درسه وحفظه، ثم نسيه أو أكثره».

□ وقال عليُّ بن المحسن التنُوخي[٤]: «أخبرني أبي قال: دخل الإمام أبو عبد اللَّه الخُتَّلي علينا البصرة ـ وكان مشهورًا بالحفظ جيدًا وصاحب حديثٍ جلد ـ ، فجاء وليس معه من كتبه شيء، فحدثنا شهورًا إلىٰ أن لحقتْه كتبه!! وسمعته يقول: لقد حدثتكم بخمسين ألف حديث من حفظي إلىٰ أن لحقتني كتبي».

□ وقال الإمام محمد بن الجهم[٥]: «كان شيخنا الفرَّاء يخرج إلينا وقد لبس ثيابه في المسجد، وعلىٰ رأسه قلنسوة كبيرة، فيجلس لمجلس الإملاء فيقرأ أولًا أبو طلحة الناقط عُشرًا من القرآن، ثم يقول للقارئ: أمسك، فيملي المجلس كله من حفظه ليس معه كتاب البتة»!.

□ وقال ابن مجاهد: «ما رأيت مع شيخنا الفرَّاء كتابًا قط؛ إلا كتاب يافع ويفعه، ولقد قال لنا إمامنا ثعلب: ما رأيت مع الفرَّاء كتابًا قط، ولما مات لم

---

(١) «ذيل الأمالي والنوادر» للقالي (ص/ ١٤١).
(٢) «الصلة» لابن بشكوال (٢/ ٤١٧) و«معجم الأدباء» (١٢/ ٢٣٣).
(٣) «السير» (٦/ ١١).
(٤) «نشوار المحاضرة» للتنوخي (٦/ ٨٧)، «تاريخ بغداد» (١٠/ ٢٩٠).
(٥) «نشوار المحاضرة» للتنوخي (٦/ ١٢٦)، «تاريخ بغداد» (١٤/ ١٥٢).

يوجد له إلا رؤوس أسفاط فيها مسائل تذكره وأبيات شعر».

□ وفي ترجمة أبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي الأديب من «السير» للذهبي قال: «يقال: إنه قَصَدَ ابن عَبَّاد، فقال ابن عَبَّاد للحاجب: إن كان يحفظ عشرين ألف بيت من الشعر فليدخل! فقال الخوارزمي للحاجب: قل له: أمن شعر الرجال أم من شعر النساء؟! فأعلمه بذٰلك الحاجب، فقال: هٰذا يكون أبو بكر الخوارزمي! فأكرمه وباسطه»[١].

---

(١) «السير» (١٦/٥٢٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣٠ ـ التفقه بتخريج الفروع على الأصول:

من وراء الفقه: «التفقه»، ومعتمله هو الذي يُعَلِّق الأحكام بمداركها الشرعية.

وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(١): أن رسول اللَّه ﷺ قال: «نضَّر اللَّه امرأً سمع مقالتي فحفظها، ووعاها، فأدَّاها كما سمعها، فرُبَّ حامل فقهٍ ليس بفقيه، ورب حامل فقهٍ إلىٰ من هو أفقه منه».

قال ابن خير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢) ـ في فقه هٰذا الحديث ـ : «وفيه بيان أن الفقه هو الاستنباط والاستدراك في معاني الكلام من طريق التفهم، وفي ضمنه بيان وجوب التفقه، والبحث عن معاني الحديث واستخراج المكنون من سِرِّهِ» اهـ.

وللشيخين ـ شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية رحمهما اللَّه تعالىٰ ـ، في ذٰلك القِدحُ المُعَلَّىٰ، ومن نظر في كتب هٰذين الإمامين، سلك به النظر فيها إلىٰ التفقه طريقًا مستقيمًا.

ومن مليح كلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله في مجلس للتفقه(٣): «أما بعد، فقد كنَّا في مجلس التفقُّه في الدين والنظر في مدارك الأحكام المشروعة، تصويرًا، وتقريرًا، وتأصيلًا، وتفصيلًا، فوقع الكلام في... فأقول: لا حول ولا قوة إلا باللَّهِ، هٰذا مَبنيٌّ علىٰ أصلٍ وفصلين...».

واعلم ـ أرشدك اللَّه ـ أن بين يدي التفقه: «التفكُّر»(٤)؛ فإن اللَّه سُبْحَانَهُ دعا عباده ـ في غير آية من كتابه ـ إلىٰ التحرك بإجالة النظر العميق في «التفكر»

---

(١) رواه أحمد (٤١٥٧) والترمذي (١٠/ ١٢٤) وابن ماجه (١/ ٨٥) بسند صحيح وهو حديث متواتر.

(٢) في «فهرسته» (ص/ ٩).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (٢١/ ٥٣٤).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (ص/ ١٩٦ ـ ٣٢٤)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٤٦)، و«التفسير الإسلامي للتاريخ» لعماد الدين خليل (ص/ ٢١٠ ـ ٢١٥).

في ملكوت السماوات والأرض، وإلىٰ أن يمعن المرء النظر في نفسه، وما حوله، فتحًا للقوىٰ العقلية علىٰ مصراعيها، وحتىٰ يصل إلىٰ تقوية الإيمان وتعميق الأحكام، والانتصار العلمي: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وعليه فإن «التفقه» أبعد مدًىٰ من «التفكر»؛ إذ هو حصيلته وإنتاجه، وإلا ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

لٰكن هٰذا التفقه محجوزٌ بالبرهان محجور عن التشهي والهوىٰ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

فيا أيها الطالب، تحل بالنظر والتفكر، والفقه والتفقه، لعلك أن تتجاوز من مرحلة الفقيه إلىٰ «فقيه النفس» ـ كما يقول الفقهاء ـ ، وهو الذي يعلق الأحكام بمداركها الشرعية، أو فقيه البدن كما في «اصطلاح المحدثين»[(١)].

فأجِلِ النظر عند الواردات بتخريج الفروع علىٰ الأصول، وتمام العناية بالقواعد والضوابط.

وأجمع للنظر في فرع ما بين تتبعه وإفراغه في قالب الشريعة العام من قواعدها وأصولها المطَّردة، كقواعد المصالح، ودفع الضرر والمشقة، وجلب التيسير، وسد باب الحيل، وسد الذرائع.

وهٰكذا ـ هُديت لرشدك ـ أبدًا فإن هٰذا يسعفك في مواطن المضايق.

وعليك بالتفقه ـ كما أسلفت ـ في نصوص الشرع، والتبصر فيما يَحُف أحوال التشريع، والتأمل في مقاصد الشريعة، فإن خَلا فَهْمُكَ من هٰذا، أو نبا سَمْعُك ؛فإن وقتك ضائع وإن اسم الجهل عليك لواقع.

وهٰذه الخلة بالذات هي التي تعطيك التميز الدقيق والمعيار الصحيح

(١) وانظر عن قولهم: «فقيه البدن»، «معالم الإيمان» (٢/ ٣٣٦، ٣٤٠) و«الثقات» لابن حبان (٩/ ٢٤٢).

لمدىٰ التحصيل والقدرة علىٰ التخريج؛ فالفقيه هو من تَعْرِضُ له النازلة لا نص فيها فيقتبس لها حكمًا.

والبلاغي ليس من يذكر لك أقسامها وتفريعاتها، لٰكنه من تَسري بصيرته البلاغية من كتاب اللَّه مثلًا؛ فيُخرج من مكنون علومه وجوهها وإن كتب أو خطب؛ نظم لك عقدها.

وهٰكذا في العلوم كافة.

٣١ ـ اللجوء إلىٰ اللَّه تعالىٰ في الطلب والتحصيل:

لا تفزع إذا لم يُفتح لك في علم من العلوم، فقد تعاصت بعض العلوم علىٰ بعض الأعلام المشاهير، ومنهم من صرح بذٰلك كما يعلم من تراجمهم، ومنهم الأصمعي في علم العروض، والرُّهاوي المحدث في الخط، وابن الصلاح في المنطق، وأبو مسلم النحوي في علم التصريف، والسيوطي في الحساب، وأبو عُبيدة، ومحمد بن عبدالباقي الأنصاري، وأبو الحسن القَطيعي، وأبو زكريا يحيىٰ بن زياد الفَرَّاء، وأبو حامد الغزَّالي، خمستهم لم يُفتح لهم بالنحو.

فيا أيها الطالب، ضاعف الرغبة، وافزع إلىٰ اللَّه في الدعاء واللجوء إليه والانكسار بين يديه.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّهُ تعالىٰ كثيرًا ما يقول في دعائه إذا استعصىٰ عليه تفسير آية من كتاب اللَّه تعالىٰ: «اللهم يا معلم آدم وإبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني»، فيجد الفتح في ذٰلك[1].

○ ○ ○

الشرح:

اللجوء إلىٰ اللَّه تعالىٰ بالدعاء باب عظيم؛ فإذا فتح للعبد تتابعت عليه

(١) فتاوىٰ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (٤/ ٣٨).

الخيرات، وانهالت عليه البركات من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب، فمن رغب في تعلم العلم النافع والعمل الصالح؛ فليلجأ إلىٰ ربه، ويرفع إليه أكف الضراعة؛ فمن استعان باللَّه أعانه، ومن توكل عليه سهل له كل صعب، ويسر له كان معسر، وفهَّمه ما لم يكن يفهم؛ فهو المستعان وعليه التكلان.

▫ يقول الشافعي: «والناس في العلم طبقات، موقعهم من العلم بقدر درجاتهم فيه، فحق علىٰ طلبة العلم بلوغ جهدهم في الاستكثار منه، والصبر علىٰ كل عارض دون طلبه وإخلاص النية للَّه فيه، وفي إدراكه نصًّا واستنباطًا، والرغبة إلىٰ اللَّه في العون عليه؛ فإنه لا يُدرك خير إلَّا بعونه»[١].

▫ وقال الحسين بن هند الفارسي: «اجتهد ألَّا تُفَارِق باب سيدك بحال؛ فإنه ملجأ الكل، فمن فارق تلك السُّدَّة لا يرىٰ ـ بعدها ـ لقدميه قرارًا ولا مقامًا»[٢].

▫ وقال طيفور بن عيسىٰ ـ عفا اللَّه عنه ـ: «يا رب أفهمني عنك، فإني لا أفهم عنك إلَّا بك»[٣].

▫ وكان شيخ الإسلام ابن تيمية: يقول: «ربما طالعت علىٰ الآية الواحدة مئة تفسير، ثم أسأل اللَّه الفهم، وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلىٰ المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب، وأسأل اللَّه تعالىٰ وأقول: يا معلم إبراهيم علمني»[٤].

▫ وهٰذا كان حال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ «ودأبه حتىٰ صار إلىٰ ما صار إليه من الفتوحات الربانية في العلوم الشرعية؛ حتىٰ قال عنه ابن الزملكاني: وكان

---

(١) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٢/ ١٠٢)

(٢) «طبقات الصوفية» للسلمي (ص/ ٣٠٣).

(٣) «الحلية» لأبي نعيم (١٠/ ٣٩) و«طبقات الصوفية» (ص/ ٧١)

(٤) «مقدمة تفسير سورة الإخلاص» (ص/ ٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وذكر هٰذا الكلام ـ أيضًا ـ ابن عبدالهادي في «العقود الدرية» (ص/ ٥)، وابن القيم: في «أعلام الموقعين» (٢/ ١٩٧ ـ بتحقيق العلامة مشهور حسن حفظه اللَّه وأمتع به).

إذا سئل عن فن من العلم؛ ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدًا لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا في مذاهبهم منه أشياء، ولا يُعرف أنَّه ناظر أحدًا فانقطع معه، ولا تكلم في علم ـ سواء كان من علوم الشرع أو غيرها ـ إلَّا فاق فيه أهله، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد علىٰ وجهها»[1].

◻ وقال جعفر بن محمد: «استَلطِفِ اللَّهَ لكل عسير؛ فإن تيسير العسير علىٰ اللَّه يسير؛ جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه»[2].

(١) «مقدمة تفسير سورة الإخلاص» (ص/ ٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٢٨٩).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٢ ـ الأمانة العلمية:

يجب علىٰ طالب العلم فائق التحلي بالأمانة العلمية، في الطلب، والتحمل والعمل والبلاغ، والأداء:

«فإن[١] فلاح الأمة في صلاح أعمالها، وصلاحُ أعمالها في صحة علومها، وصحة علومها في أن يكون رجالها أمناء فيما يَرْوُون أو يصفون، فمن تحدث في العلم بغير أمانة، فقد مس العلم بقرحة، ووضع في سبيل فلاح الأمة حَجَرَ عَثْرَة. لا تخلو الطوائف المنتمية إلىٰ العلوم من أشخاص لا يطلبون العلم ليتحلوا بأسنىٰ فضيلة، أو لينفعوا الناس بما عرفوا من حكمة، وأمثال هٰؤلاء لا تجد الأمانة في نفوسهم مستقرًّا، فلا يتحرجون أن يَرْوُوا ما لم يسمعوا، أو يصفوا ما لم يعلموا، وهٰذا ما كان يدعو جهابذة أهل العلم إلىٰ نقد الرجال، وتمييز من يسرف في القول ممن يصوغه علىٰ قدر ما يعلم، حتىٰ أصبح طلاب العلم علىٰ بصيرة من قيمة ما يقرؤونه، فلا تخفىٰ عليهم منزلته، من القطع بصدقه أو كذبه، أو رجحان أحدهما علىٰ الآخر، أو احتمالهما علىٰ سواء» اهـ.

○ ○ ○

الشرح:

جوهر العلم الأمانة العلمية؛ فمن لا أمانة له لا علم له، هٰذا أصل من أصول العلم بالشرع، فقد وُجِدَ قوم ادَّعَوا العلم، وظهر من أمرهم أنهم لم يثبتوا في هٰذا المضمار؛ لأنهم ليسوا من أهل السباق، فتعثروا الطريق وضاعوا، نسأله السلامة في جميع أمورنا.

فلابد لطالب العلم أن يكون علىٰ بينةٍ من أمره، فيتحلىٰ بالأمانة العلمية

---

(١) «رسائل الإصلاح» (١/ ١٣).

وإلَّا:

فـدع عـنك الكـتابةَ لـستَ مـنها ... ولـو لطَّخـتَ وجهَـكَ بالمِـدادِ

فلا تَتعنَّ ولا تُتْعِب نفسك، ولا تسهر، ولا تُمْعِن النظر، ولا تدقق البصر، واسكت فالسكوت هنالك واجب، ولا زال شيخنا المربي ابن يعقوب ـ حفظه اللَّه ـ يوصينا بذٰلك؛ حتىٰ تيقنَّا أن الأمانة عنَّا بمبعد؛ نسأل اللَّه العفو والمسامحة.

▫ قال السَّريُّ السَّقَطي: «أربع خصال ترفع العبد: العلم والأدب والأمانة والعفة»[١].

ومن حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قلما خطبنا رسول اللَّه ﷺ إلَّا قال: **«لا إيمانَ لمن لا أمانة له، ولا دينَ لمن لا عهد له»**[٢].

---

(١) «الحلية» لأبي نعيم (١٠/ ١٢٣).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٣٥)، وفي «السنة» (ص/ ٩٧)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٥/ ٧٣) (١٦٩٩)، وقال: إن الدَّارَقُطْني قال: «والمرسل أصح». وأخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (٥/ ٢٤٧)(٨٦٣). وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «المشكاة» (٣٥) و«صحيح الجامع» (٧١٧٩).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٣ ـ الصدق[١]:

صدق اللهجة: عنوان الوقار، وشرف النفس، ونقاء السريرة، وسُمُو الهمة، ورجحان العقل، ورسول المودَّة مع الخلق وسعادة الجماعة، وصيانة الديانة، ولهٰذا كان فرض عينٍ؛ فيا خيبة من فرَّط فيه، ومن فعل فقد مس نفسه وعلمه بأذىٰ.

قال الأوزاعي: «تعلَّم الصدق قبل أن تتعلم العلم».

وقال وكيع: «هٰذه الصنعة لا يرتفع فيها إلا صادق»[٢].

فتعلم ـ رحمك اللَّه ـ الصدق قبل أن تتعلم العلم، والصدق: إلقاء الكلام علىٰ وجه مطابق للواقع والاعتقاد، فالصدق من طريق واحد.

○ ○ ○

الشرح:

قال اللَّهُ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

□ يقول ابن القيم: «فالذي جاء بالصدق: هو مَن شأنُه الصدق في قوله وعمله وحاله، فالصدق في هٰذه الثلاثة:

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان علىٰ الأقوال؛ كاستواء السنبلة علىٰ ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال علىٰ الأمر والمتابعة؛ كاستواء الرأس علىٰ الجسد.

---

(١) «فتاوىٰ شيخ الإسلام» (٢٠/ ٧٤ ـ ٨٥).

(٢) «الجامع» (١/ ٣٠٤، ٢/ ٧) للخطيب البغدادي.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح علىٰ الإخلاص، واستفراغ الوسع وبذل الطاقة.

فبذٰلك يكون العبد من الذين جاؤوا بالصَّدق، وبحسب كمال هٰذه الأمور فيه وقيامها به تكون الصديقية؛ ولذٰلك كان لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه: ذروة سنام الصديقية، سُمي الصِّدِّيق علىٰ الإطلاق، و«الصِّدِّيق» أبلغ من «الصدوق»، و«الصدوق» أبلغ من «الصادق».

فأعلىٰ مراتب الصدق: «مرتبة الصديقية؛ وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص للَّه»[١].

□ قال عبدُاللَّه بن خُبيق رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يستغني حال من الأحوال عن الصدق، والصدق مستغن عن الأحوال كلها، ولو صَدَقَ العبد فيما بينه وبين اللَّه حقيقة الصَّدق لاطَّلَع علىٰ خزائن من خزائن الغيب، ولكان أمينًا في السماوات والأرض»[٢].

□ قال أبو يعقوب ـ إسحاق بن محمد ـ : «الصدق موافقة الحق في السِّر والعلانية، وحقيقة الصدق القول بالحق في مواطن التهلكة»[٣].

□ وقال الإمام الحازمي: «الصدق هو عُمدة الأنباء، وعدة الأنبياء، وشيمة الأبرار، وأرومة الأخيار، والبرزخ بين الحق والباطل، والفيصل بين الفاضل والجاهل؛ فمن تحلَّىٰ بغير حليته فلا يخلو كذبه:

ـ إما في حديث رسول اللَّه ﷺ بوضع الحديث، أو ادِّعاء السماع أو ما شاكل ذٰلك؛ فقد ذهب غير واحد من الأئمة إلىٰ رد حديثه وإن تاب.

ـ وإما يكذب في حديث الناس؛ فإنه متىٰ جُرِّب عليه ذٰلك وظهر؛ فإنه يُرَدُّ حديثه، كذا من عُرف بقبول التلقين وتكرار ذٰلك منه واشتهر به فلا يُقبل

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم: (٢/ ٦ ـ ط: دار الغد العربي).

(٢) «طبقات الصوفية» للسلمي (ص/ ١٢٢).

(٣) السابق (ص/ ٢٨٦).

حديثه»[١].

□ وقال وكيع بن الجراح: «ما نعيش إلا في سِتره، ولو كُشِفَ الغِطَاء لكُشِفَ عن أمرٍ عظيم، الصِّدق النية»[٢].

□ وكان معروف الكرخي[٣] يقول: «ما أكثر الصالحين وأقل الصادقين!».

□ وقال بشر بن بكر: «رأيت الأوزاعي في المنام مع جماعة من العلماء في الجنة، فقلت: وأين مالك بن أنس؟ فقيل: رُفِعَ، فقلت: بماذا؟ فقال بصدقه»[٤].

□ وقال الشافعي: «أصل العلم التثبت، وثمرته السلامة، وأصل الورع القناعة، وثمرته الراحة، وأصل الصبر الحزم، وثمرته الظَّفَرُ، وأصل العمل التوفيق، وثمرته النجح، وغاية كل أمرٍ الصِّدق»[٥].

□ وقال عثمان بن عبدالرَّحمٰن: «قال الخليفةُ المنصور لهشام بن عروة: يا أبا المنذر، تذكر يوم دخلتُ عليك أنا وإخوتي مع أبي، وأنت تشرب سويقًا بقصبةِ يراع، فلما خرجنا قال أبونا: اعرفوا لهٰذا الشيخ حقه، فإنه لا يزال في قومكم بقيةٌ ما بقي؟ قال: لا أذكر ذٰلك ـ يا أمير المؤمنين ـ . قال: فليم في ذٰلك. فقال: لم يعوِّدني اللَّه في الصدق إلا خيرًا»[٦].

□ وقال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه الطويل في غزوة تبوك[٧]: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ اللَّه إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَلَّا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ! فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاهُ اللَّه فِي صِدْقِ

---

(١) «شروط الأئمة الخمسة» للحازمي (ص/ ٤٠).
(٢) «السير» (٩/ ١٥٧).
(٣) السابق (٩/ ٣٤١).
(٤) «التمهيد» لابن عبدالبر (١/ ٧٦).
(٥) «تاريخ ابن عساكر» (١٥/ ١٦)، و«السير» (١٠/ ٤١).
(٦) «السير» (٦/ ٤٤ ـ ٤٥).
(٧) أخرجه البخاري «فتح الباري» (٨/ ٧)، ومسلم (٢٧٨٩).

الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذٰلك لِرَسُولِ اللَّه ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاني اللَّه تعالىٰ. واللَّهِ ما تَعَمَّدْتُ ـ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذٰلك لِرَسُولِ اللَّه ﷺ إِلَىٰ يَوْمِي هٰذا ـ كَذِبًا، وَإِنِي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّه فِيمَا بَقِيتُ... فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّه عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلاَمِ أَعْظَمَ في نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّه ﷺ.

وقال الصادق المصدوق ﷺ: «**عليكم بالصِّدق**»[١].

▫ وقال يحيىٰ بن معين: «آلة الحديث الصدق، والشُّهْرَة بطلبه، وترك البدع، واجتناب الكبائر»[٢].

▫ وقال ابن حبان[٣]: «الصدق يرفَعُ المرءُ في الدارين؛ كما أن الكذب يهوي به في الحَالَين، ولو لم يكن في الصدق خصلة تُحْمَد إلا أن المرء إذا عُرِفَ به قُبِل كَذِبه، وصار صِدقًا عند من يسمعه؛ لكان الواجب علىٰ العاقل أن يبلغ مجهوده في رياضة لسانه حتىٰ يستقيم له علىٰ الصدق، ومُجَانَبة الكذب، والعِيُّ في بعض الأوقات خير من النُطق، لأنَّ كل كلام أخطأ صاحِبه موضِعَهُ فالعيُّ خيرٌ منه».

---

(١) أخرجه البخاري مع «فتح الباري» (١٠/ ٥٠٧) (٦٠٩٤)، ومسلم (٢/ ٤٣٨)، والترمذي (١٩٧١)، وقال: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٤٢٤)، والخطيب في «الكفاية» (١/ ٣١٧)، (٢٦١)، والهروي في «ذم الكلام» (٥/ ٧٠) رقم (١٤٠٣).

(٣) «روضة العقلاء» لابن حبان (ص/ ٦٠ ـ ط: الباز سعودية).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أما نقيضُه الكذب؛ فضروب وألوان، ومسالكُ وأودية، يجمعها ثلاثة [١]:

١ ـ كذب المتملق: وهو ما يخالف الواقعَ والاعتقاد، كمن يتملقُ لمن يعرفه فاسقًا أو مبتدعًا؛ فيصفه بالاستقامة.

٢ ـ وكذب المنافق: وهو ما يخالف الاعتقاد ويطابق الواقع؛ كالمنافق ينطق بما يقوله أهل السنة والهداية.

٣ ـ وكذب الغبي: بما يخالف الواقع ويطابق الاعتقاد؛ كمن يعتقد صلاح صوفيٍّ مبتدع فيصفه بالولاية.

○ ○ ○

الشرح:

هٰذا الكذب هو ما يُسمىٰ: النفاق، وهو نوعان:

فالذي يُبْطِنُ الكفر والتكذيب بالرسول محمد ﷺ ويظهر أنه مؤمن مصدق بالرسول؛ فهٰذا نفاق الاعتقاد أو النفاق الأكبر ـ عياذًا باللَّه ـ ، وأصحابه في الدَّرْكِ الأسفل من النار مخلدون فيها، ولا شك أنهم كفارٌ خارجون عن مِلَّةِ الإسلام.

والنوع الآخر: هو من يُصَدِّق بالإيمان والرسول ﷺ باطنًا وظاهرًا، ويدين للَّه ﷻ بدين الإسلام الحنيف؛ ولٰكنه يفعل بعض الصفات المذمومة، كالكذب المُحَرَّم، والخيانة لمن ائْتَمَنَه، والفجور في الخصومة، وإخلاف الوعد بقصدٍ منه لا بعذر من الأعذار، والغدر في العهد... وغير ذٰلك ممَّا ثبت أنه من خصال النفاق؛ فهٰذا الموصوف به ـ وإن كان مُسلمًا ـ إلا أنه من أهل الغفلة والمعصية والآثام، وهو مُعَرَّضٌ لعذاب اللَّه ﷻ، وعليه أن يتوب علىٰ الفور ويرجع إلىٰ ربه ﷻ رجوع العارف بمقام اللَّه ﷻ وشِدَّة عقابه، حتىٰ يكون من

---

(١) «رسائل الإصلاح» (١/ ٩٥ ـ ١٠٥) مهم.

عباد اللَّه الصالحين، ويتخلَّص من هٰذه الخصال المهلكة لدينه، الموجبة لعذابه؛ نسأله العفو والمسامحة.

فبالصدق يشرُف قدر المرء، وتعلو منزلتُه، ويصفو باله، ويطيب عيشه، فهو ينجي صاحبه من رجس الكذب، ووخز الضمير، وذُل الاعتذار، ويحميه من إساءة الناس إليه، ونزع الثقة به، كما أنه يكسبه عِزَّةً وثقةً في النفس، وشجاعة لا تجبن، مهيب الجناب. ولا يمكن أن يستقيم لأحد سؤددٌ، ولا تعلو له مكانة، ولا يُحرز قبولًا في القلوب ما لم يُرْزَقَ لِسَان صدقٍ؛ فأين مقام الكذَّاب من هٰذه الفضائل.

الولاية هي العلم والعمل والتقوىٰ والموافقة لرسول اللَّه ﷺ؛ مع غاية الإخلاص للَّه ﷻ؛ فمن ادَّعىٰ غير ذٰلك ولايةً فهو علىٰ غواية، وما أدراك ما الغواية، فأمُّهُ هَاوية.

ولقد رأينا بأعيننا بعض الناس كانوا يَسُبُّون في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان بعض الجُهَّال يعتقدون أن هٰؤلاء الناس أولياء، وهٰذا عين الخزي والعار.

فكن علىٰ بصيرة من كَذِبِ الغبي الأَبِي، ولا ترتدِ هٰذا الزي.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فالزم الجادَّة «الصدق»؛ فلا تضغط علىٰ عَكَدِ اللسان، ولا تضمَّ شفتيك، ولا تفتحْ فاك ناطقًا إلا علىٰ حروف تُعَبِّر عن إحساسك الصادق في الباطن، كالحب والبغض، أو إحساسِك في الظاهر، كالذي تدركه الحواسُّ الخمس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس.

فالصادق لا يقول: «أحببتك» وهو مبغض، ولا يقول: «سمعت» وهو لم يسمع... وهٰكذا.

واحذر أن تحوم حولك الظنون؛ فتخونَك العزيمة في صدق اللهجة، فتسجَّل في قائمة «الكذابين».

وطريقُ الضمانة لهٰذا ـ إذا نازعتك نفسك بكلام غير صادق فيه ـ : أن تقهرها بذكر منزلةِ الصدق وشرفه، ورذيلةِ الكذب وَدَرَكِهِ، وأن الكاذب عن قريب ينكشف.

واستعن باللَّه ولا تعجزن.

ولا تفتح للنفس سابلةَ المعاريض في غير ما حصره الشرع.

فيا طالب العلم، احذر أن تَمْرُقَ من الصَّدق إلىٰ المعاريض فالكذب، وأسوأ مرامي هٰذا المُرُوق «الكذب في العلم» لِدَاء مُنافسة الأقران، وطيران السُّمْعَةَ في الآفاق. ومن تَطَلَّعَ إلىٰ سمعة فوق منزلته فليعلم أن في المرصاد رجالًا يحملون بصائرَ نافذة وأقلامًا ناقدة؛ فَيَزِنُونَ السُّمْعَة بالأثر، فتتم تعريتُك عن ثلاثة معان:

١ ـ فقد الثقة من القلوب.

٢ ـ ذهاب علمك وانحسار القبول.

٣ ـ ألَّا تُصَدَّقَ ولو صَدَقْت.

وبالجملة: فمن يحترف زُخْرُفَ القول فهو أخو السَّاحِر، ﴿وَلَا يُفْلِحُ

ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه][1]. والله أعلم.

○ ○ ○

الشرح

زُخرف القول أخو السَّاحِرِ؛ لأنه يأخذ بِلُبِّ السَّامع فيصرفه أو يعطفه، فيظن السامع أن الباطل حقٌّ لقوة تأثير المتكلم فينصرف إليه، ولهٰذا إذا أتىٰ إنسانٌ يتكلم بكلام معناه باطل؛ ولٰكن لقوة فصاحته وبيانه يُسْحِر السامع حقًّا فينصرف إليه، وإذا تكلم إنسانٌ بليغ يُحَذِّر من حقٍ، ولفصاحته وبيانه يظن السامع أن هٰذا الحق باطل فينصرف عنه، وهٰذا من جنس السحر الذي يُسَمونه العطف والصرف.

فزخارف الأقوال التي هي في الحقيقة كذب، ربما بالفصاحة والبيان لا شك أنها تفعل فعل السحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه].

ولقد وجدنا كَذَّابينَ كُثُرًا، بفصاحتهم يُقنِعون جَهَلَةَ المسلمين بأن السُّنَّةَ المُشرَّفة ـ علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ـ لا يجوز أن تكون مصدرًا من مصادر التشريع لعدم الثقة برواتها، وأن القرآن وحده دون السُّنة هو فقط مصدر التشريع، ثم يخطِّئون الصحابيَّ أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما جمع من حديث الصادق المصدوق صلوات الله عليه وسلامه، ثم بعدها يتكلمون في أمير المحدثين وسيد الحفاظ محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم!! ويقولون بكل بَجَاحَةٍ: مَن البُخاري ومَن مُسْلِم!!.

ذٰلك بِكُل تَبَجُّح؛ وهم لا يعلمون أدنىٰ علم عن قواعد المحدثين الجهابذة النقاد في قبول الروايات وردِّها، وكيف أنهم أفنوا أعمارهم وأوقاتَهم وأنفاسهم وكل شيء معهم في تمييز ذٰلك، وأن هٰذا العلم صنعتُهم ومعرفتهم وفقههم وفنهم، وكأن الله تعالىٰ خلقهم لذٰلك وشَرَّفَهُم بذٰلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

(١) «رسائل الإصلاح» (١/ ١٠٥).

فَوَاغَوَثَاه باللَّه مِن هٰؤلاء الجُهَّال الذين حُرِمُوا معنىٰ الحديث وفنه ورجاله جرحًا وتعديلًا، وعلم «علل الأحاديث ونقد المرويات» علىٰ قواعدهم ومناهجهم العظيمة التي لم تكن علىٰ مثال سبق؛ فرضىٰ اللَّه عنهم وأرضاهم، وجعلنا علىٰ خطاهم لا علىٰ قواعد الجهل والهوىٰ، وإعمال العقول في رد المنقول بغير دليل بَيِّن وحُجَّة واضحة، ثم مذاكرة المختصين بِهٰذا الشأن وعلمه وفهمه، وجريانهم في مضماره؛ مع التأدب معهم، والتعلم تحت أقدامهم وبين أيديهم، ثم بعدها من مشايخك يُصَرِّحُون لك بأنك تأدبت وتعلَّمت.

أما غير ذٰلك: فصنعةُ البطَّالين؛ التي من أراد أن يُحسنها أحسنها في يوم أو يومين علىٰ يدي أعداء الدين والذين في قلوبهم مرض وأُشْرِبُوا الفتنة، وكم خدعوا وكم سَوَّلوا وكم زخرفوا، إن اللَّه لبالمرصاد، ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [البقرة]، وأنا أقول لهم: قل موتوا بغيظكم، وسوف تُسْألون.

وكيف تتهلل بوجهك يوم القيامة علىٰ مَقْدِمِ رسول اللَّه ﷺ عليك؟ وبماذا تنطق يا مسكين؟.

نعوذ باللَّه تعالىٰ من علم «البَلَه» الذي لا يوجد إلا في كتاب «الحَمْقَىٰ والمُغَفَّلِين»!.

قال المؤلف رحمه الله:

٣٤ ـ جُنَّةُ طالب العلم:

جُنَّة العالم «لا أدري»، ويهتك حجابه الاستنكاف منها وقوله: يقال... وعليه، فإن نصف العلم «لا أدري»، فنصف الجهل «يقال» و«أظن»[(١)].

○ ○ ○

الشرح:

▫ قال الآجُرِّي: في «أخلاق العلماء»[(٢)]: «وأمَّا الحُجَّة للعالم يُسأل عن الشيء لا يَعْلَمه، فلا يستنكف أن يقول: «لا أعلم»، إذا كان لا يعلم، وهٰذا طريق أئمة المسلمين من الصحابة رضي الله عنهم، ومن بعدهم من أئمة المسلمين، اتبعوا في ذٰلك نبيهم ﷺ، لأنه كان إذا سئل عن الشيء بما لم يتقدم له فيه علم الوحي من اللَّه عز وجل فيقول: «لا أدري»، وهٰكذا يجب علىٰ كل من سُئِلَ عن شيء لم يتقدم له فيه العلم أن يقول: اللَّه أعلم به، ولا علم لي به، ولا يتكلف ما لا يعلمه، فهو أعذر له عند اللَّه، وعند ذوي الألباب».

▫ وقال ابن وهب: «لو شئت أن أملأ ألواحي من قول مالك بن أنس: «لا أدري»، فعلت»[(٣)].

▫ وقال ابن عبداللَّه بن يزيد بن هرمز: «ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده: «لا أدري» حتىٰ يكون أصلًا في أيديهم، فإذا سُئِل أحدهم عما لا يعلم، قال: لا أدري»[(٤)].

▫ وقال عبدُاللَّه بن مسعود رضي الله عنه: «من عَلِمَ فليقُل، ومن لم يعلم فليقُل:

---

(١) «التعالم» (ص/ ٣٦).

(٢) «أخلاق العلماء» للآجري (ص/ ٨١).

(٣) إسناده صحيح في «الحلية» لأبي نعيم (٦/ ٣٢٣).

(٤) أخرجه ابن عبدالبر في «الانتقاء» (ص/ ٣٧) بسند صحيح عنه.

اللَّه أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: لا أعلم»[١].

▫ وقال ابن الجوزي[٢]: «إذا صح قصد العالم، استراح من كُلفِ التكلف؛ فإن كثيرًا من العلماء يأنفون من قول: لا أدري، فيحفظون بالفتوىٰ جاههم عند الناس، لئلا يقال: جهولًا الجواب، وإن كانوا علىٰ غير يقين مما قالوا، وهٰذا نهاية الخذلان.

وقد رُوي عن مالك بن أنس: أن رجلًا سأله عن مسألة، فقال: لا أدري. فقال: سافرت البلدان إليك! فقال: ارجع إلىٰ بلدك، وقل: سألت مالكًا، فقال: لا أدري. فانظر إلىٰ دين هٰذا الشخص وعقله، كيف استراح من الكلفة، وسَلِم عند اللَّه ﷻ.

ثم إن كان المقصود الجاه عندهم، فقلوبهم بيد غيرهم. واللَّهِ لقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت، ويتخشع في نفسه ولباسه، والقلوب تنبو عنه، وقدْرُه في النفوس ليس بذاك! ورأيت من يلبس فاخر الثياب، وليس له كبير نفل ولا تخشع، والقلوب تتهافت علىٰ محبته، فتدبرت السبب، فوجدته السريرة. كما روي عن أنس بن مالك: أنه لم يكن له كبير عمل من صلاة وصوم؛ وإنما كانت له سريرة.

فمن أصلح سريرته، فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنَشرِ طِيبه، فاللَّهَ اللَّه في السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر».

▫ وقال عكرمة: قال لي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «انطلق فأفت الناس، وأنا لك عون، قلت: لو أن هٰذا مثلهم مرتين لأفتيتهم، قال: انطلق فأفتهم، فمن جاءَك يسألك عمَّا يعنيه فأفته، ومن سألك عمَّا لا يعنيه، فلا تُفْتِه، فإنك تطرح عنك ثلثي مؤنة الناس»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٧٧٤) ومسلم (٢٧٩٨).

(٢) «صيد الخاطر» (ص/ ٢٢٠ ـ ط دار القلم بيروت).

(٣) «السير» للذهبي (٥/ ١٤).

□ وأخرج الدارمي في «سننه»(١) ـ بسند صحيح ـ : «أن عبداللَّه بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سأله رجلٌ عن مسألة، فقال: لا علم لي بها، فلما أدبر الرَّجُل، قال ابن عمر: نِعْمَ ما قال ابن عمر، سُئل عما لا يعلم فقال: لا علم لي بها».

□ وقال عبدُاللَّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الذي يُفتي الناس في كل ما يُستفتىٰ لمجنون»(٢).

□ فقال ابن بطة(٣): «فهٰذا عبدُاللَّه بن مسعود يحلف باللَّهِ: إن الذي يُفتي الناس في كل ما يسألونه مجنون. ولو حلف حالفٌ لبَرَّ ـ أو قال: لصدق ـ : إن أكثر المفتين في زماننا هٰذا مجانين، لأنك لا تكاد تلقىٰ مسؤولًا عن مسألة متلعثمًا في جوابها، ولا متوقفًا عنها، ولا خائفًا للَّه ولا مراقبًا له أن يقول له: من أين قلت؟ بل يخاف ويجزع أن يقال: سئل فلان عن مسألة فلم يكن عنده فيها جواب.

يريد أن يوصف بأن عنده من كل ضيق مخرجًا، وفي كل متعلق متهجرًا، يفتي فيما عييَ فيه عنه أهل الفتوىٰ، ويعالج ما عجز عن علاجه الأطباء، يخبط العَشوة، ويركب السَّهوة، لا يفكر في عاقبة، ولا يعرف العافية، إذا أكثر عليه السائلون وحاقت به الغاشية».

□ وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ(٤) في «منهاج القاصدين»: «ومن صفات علماء الآخرة: ألَّا يتسرَّعوا إلىٰ الفتوىٰ، وألَّا يُفتوا إلا بما يتيقنون صحته من غير تردد، وقد كان السلف يتدافعون الفتاوىٰ حتىٰ يرجع إلىٰ الأول.

قال عبدالرَّحمٰن بن أبي ليلىٰ: أدركت في هٰذا المسجد ـ المسجد النبوي ـ مئةً وعشرين من أصحاب النبي ﷺ؛ ما منهم أحد يُسأل عن حديث أو فتوىٰ

(١) «سنن» الدارمي (رقم/ ١٧٩)
(٢) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/ ٦١)، وأبو خيثمة في «العلم» (رقم/ ١٠) بإسناد صحيح
(٣) «إبطال الحيل» (ص/ ٦٧)، أفدته من كتاب «النُبذ في طلب آداب طلب العلم»، للعالم المجتهد حمد بن إبراهيم العثمان ـ حفظه اللَّه ـ (ص/ ١٣٩).
(٤) «منهاج القاصدين» لابن الجوزي (١/ ٧١ ـ ط دار التوفيق دمشق).

إلا وَدَّ أن أخاه كفاه ذٰلك.

وكان مالكٌ كثيرًا ما يقول: لا أدري.

وكان النخعي إذا سئل عن مسألةٍ بكىٰ وقال: لم تجدوا غيري؟!.

ثم قد آل الأمر إلىٰ إقدام أقوام ـ يدَّعون العلم اليوم ـ علىٰ الجواب في مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لجمع لها أهل بدر واستشارهم».

□ وقال مصعب بن حيان: «كنت عند عطاء بن أبي رباح، فسئل عن شيء فقال: لا أدري نصف العلم، ويقال: نصف الجهل»[1].

---

(١) «السير» للذهبي (٥/ ٨٥ ـ ط: الرسالة).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٥ ـ المحافظة علىٰ رأس مالك «ساعات عمرك»:

الوقتَ الوقت للتحصيل، فكن حِلْفَ عمل لا حِلْفَ بطالةٍ وبطر، وحِلْسَ مَعْمَل لا حلس تَلَّة وسمر؛ فالحفظ علىٰ الوقت بالجد والاجتهاد، وملازمة الطلب، ومثافنة الأشياخ، والاشتغال بالعلم قراءةً وإقراءً، ومطالعةً وتدبرًا وحفظًا وبحثًا، لا سيما في أوقات شرخ الشباب ومقتبل العمر، ومعدن العاقبة، فاغتنم هٰذه الفرصة الغالية، لتنالَ رتب العلم العالية، فإنها «وقت جمع القلب، واجتماع الفكر»، لقلة الشواغل والصوارف عن التزامات الحياة والترؤس، ولخفة الظهر والعيال.

ما للمُعيلِ وللعوالي إنما ... يسعىٰ إليهنَّ الفريدُ الفاردُ[١]

○ ○ ○

الشرح:

يا طالب العلم، أوقاتك هي عمرك، وعمرك رأس مالك وعليه تجارتك، وبه وصولك إلىٰ نعيم الأبد في جوار اللَّه تعالىٰ، فكل نَفَس من أنفاسك جوهرة نفيسة، فإذا فات فلا عودة له، فالأنفاس جواهر، وهل رأيت أحدًا يرمي جوهرةً علىٰ مزبلة؟! فالأنفاس أقوات أوقاتنا، والقوت لابد له من نفاد؛ فليكن وقتك كل يوم في زيادة علم أو عمل؛ فإنهما رفيقاك يصحبانك في القبر حيث يتخلف عنك أهلك ومالك وولدك وأصدقاؤك.

واعلم[٢] أن الوقت منقض بذاته، مُنْصَرِمٌ بنفسه؛ فمن غَفَلَ عن نفسه تَصَرَّمَت أوقاته، وعظم فواته، واشتدت حَسَراتُهُ؛ فكيف حاله إذا علم عند

(١) هٰذا الخبر للخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تتمة يتيمة الدهر» للثعالبي، و«الإلماع» للقاضي عياض (ص/ ١٠٧ ـ دار الكتب العلمية).

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (٣/ ٤٩).

تحقق الفوت مقدار ما أضاع، وطلب الرُّجعىٰ فحيل بينه وبين الاسترجاع وطلب تناول الفائت وكيف يُردُّ الأمس في اليوم الجديد ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ [سبأ]، ومنع مما يُحبُه ويرتضيه، وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغي للعاقل أن يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهيه.

والواردات سريعة الزوال تمر أسرع من السحاب، وينقضي الوقت بما فيه فلا يعود عليك منه إلا أثره وحكمه؛ فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك فإنه عائد عليك لا محالة؛ لهٰذا يقال للسُعداء في الجنة: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقة]، ويقال للأشقياء المعذبين في النار: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ۝٧٥﴾ [غافر]» اهـ.

ومن الغبن أن تعقَّ يومك بنفسك، فمن أمضىٰ يومه في غير حق قضاه، أو فَرْضٍ أدَّاه، أو مَجْدٍ أثَّله، أو حَمْدٍ حَصَّله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه؛ فقد عق يومه وظلَمَ نَفْسَهُ.

□ قال أبو بكر محمد بن حامد الترمذي: «رأس مالك قلبُك ووقتك، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون، وضيعت وقتك بارتكاب ما لا يعنيك، فمتىٰ يربح من خسر رأس ماله؟!»[١].

□ وقال ابن الجوزي[٢]: «اغتنم ساعات العمر ـ يا قصير العمر ـ، اغتنم يوما مِنَىٰ، وانتظر ساعة النَّفْر، وإياك أن تشغل قلبك بغير ما خلق له، واحمل نفسك علىٰ المُر، واقمعها إذا أبت، ولا تُسرِّح لها في الطِّوَل[٣]؛ فما أنت إلَّا في مرعَىٰ، وقبيح بمن كان بين الصفين أن يتشاغل بغير ما هو فيه».

□ وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «ورأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه

(١) «طبقات الصوفية» للسلمي (ص/ ٢١٩).
(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص/ ٦٤٠ ـ ط: دار ابن خزيمة).
(٣) الطِّوَل: الحبل. ويقصد: لا تُكثر لها في نيل شهواتِها.
(٤) «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/ ٤٠٥ ـ ط: دار المعرفة ـ بيروت).

النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هٰذه التجارة جملة النهار، ومعاملة نفسه الأمَّارة بالسوء، فيحاسبها علىٰ الفرائض أولًا، فإن أدَّاها علىٰ وجهها شكر اللَّه عليها، ورغبها في مثلها، وإن فوَّتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصةً كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصيةً اشتغل بعقابها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرَّط، كما يصنع التاجر بشريكه. وعليه أن يتقي النفس ومَكرها؛ فإنها خدَّاعةٌ ملبسة؛ فاغتنم أوقات عمرك وأنفاسك في طاعة اللَّه، وهٰذا هو الربح القيم السعيد».

▫ وقد قال محمد بن صُبيح بن السَّمَّاك: «دخلنا عل أبي بكر النهشلي، فجعل يحدثنا ساعة ويصلي ساعة، قال يا إخواني، لا تلوموني؛ فإني أُبَادِرُ طَيَّ الصحيفة»[(١)].

▫ وسئل عبد الرَّحمٰن بن أبي حاتم الرازي: «كيف كان سماعه من أبيه أبي حاتم وسؤالاته له؟ فقال: ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه»[(٢)].

▫ ومن أجمل صور المحافظة علىٰ الوقت: «أن سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَدِمَ علىٰ حماد بن سلمة الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلم يُسَلِّم عليه، وقال في الحال: حدثني حديث أبي العشراء عن أبيه، فقال حماد: حدثني أبو العشراء عن أبيه... الحديث. قال: فلما فرغ من الحديث أقبل عليه سفيان، فسلم عليه واعتنقه فقال: من أنت؟ قال: أنا سفيان. قال: ابن سعيد؟ قال: نعم قال: الثوري؟ قال: نعم، قال أبو عبداللَّه؟ قال: نعم، قال: فما منعك أن تسلم عليَّ ثم تسأل عن الحديث؟ قال: «خشيت أن تموت قبل أن أسمع الحديث منك[(٣)]»[(٤)].

---

(١) كتاب «الديباج» لأبي القاسم الختلي (ص/ ٦٤) أفدته من «قيمة الزمن» لأبي غدة.

(٢) «السير» للذهبي (١٣/ ٢٥٠).

(٣) الأمر موقوف علىٰ صحة القصة، وخيرُ الهدي هدي محمدٍ ﷺ الذي كان يبادر بالسلام قبل أي عمل، واللَّهُ الهادي.

(٤) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٤/ ٢٨٥ (١٥٦٢).

□ وقال عَمَّار بن رجاء: «سمعت عُبيد بن يعيش يقول: أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل، كانت أختي تلقمني وأنا أكتب الحديث»[١].

هٰكذا يكون الرجال؛ فتبًّا للهِمم الرديئة التي تنام ليل نهار، وإن تعلمت بابًا من العلم سَبَّت ونَمَّت في علماء الأمة الذين أفنوا أوقاتَهم وأعمارهم وأنفاسهم في طلب العلم ودرسه وتعليمه، وأما هم وعلماؤهم الجهال فلا يعرفون الهش من البَش[٢]، وألسنتهم ـ أعاذك اللَّه من كل سوء ـ ، فتوقف علمهم علىٰ هٰذا، ونادَوا به في كل ميدان، وبعدها يطفئ اللَّه نارهم الموقدة حتىٰ تصير رمادًا ولا ذكر لهم.

فبادر بالأدب، وبادر باستعمال الأوقات بالفضائل ولا تعجز؛ فما اختص قومٌ بالمجد ولا استأثروا بالشرف، ولا تحسبن المكارم والآداب مقصورة علىٰ أفراد من النَّاس لا تتجاوزهم إلىٰ غيرهم، فإن اللَّه تعالىٰ قد جعلها سهمًا شائعًا وغرضًا منصوبًا لكل طالبٍ، فمَن أمَّهَا وسلك سبيلها، فهو لا ريب مدركٌ أملَه ونائلٌ غرضه، فما اتخذت الفضائل حجَّابًا، ولا منعت طُلَّابًا، والسعيد من جعل المجد غايته، والشرف حليته، فنِعمَ زينةُ الرجال كرائم الخلال، وكفىٰ من العلم بالأدب.

---

(١) «السير» (١١/ ٤٥٩)(١١٢).

(٢) قال الإمام محمد بن جعفر النجار النَّحْوي في معنىٰ قولهم: «يعرف الهش من البش» قال: «الهش هو النبات القائم، والبش هو ما قد أضْجَعَتْهُ الأرض». كتاب «الطيوريات» للسِّلَفِي (٢/ ٦٥٠).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وإياك وتأمير التسويف علىٰ نفسك، فلا تسوف لنفسك: بعد الفراغ من كذا، وبعد «التقاعد» من العمل هٰذا... وهٰكذا؛ بل البدار قبل أن يَصْدُقَ عليك قولُ أبىٰ الطحان القيني:

حنتنـي حانـياتُ الدهـر حتـىٰ ... كـأني خَاتِـلٌ أدْنـو لِـصَيدِ

قـصيرُ الخطو يحسب من رآني ... ولـست مقـيدًا أني بقـيدِ

وقال أسامة بن منقذ:

مع الثمانين عاث الضعفُ فِيَّ جسدي ... وساءني ضعف رِجْلي واضطراب يدي

إذا كتـبتُ فخطـي خـط مـضطرب ... كخـطِّ مـرتعشِ الكفـين مـرتَعدِ

فأعجـب لـضعفِ يـدي عـن حملهـا ... مـن بعـد حمـل القـنا في لَـبَّةِ الأسَـدِ

فقـل لمـن يتمنـىٰ طـول مُدَّتِـهِ ... هـذي عـواقبُ طـولِ العُمـرِ والمَـدَدِ

فإن أعملت البَدَارَ، فهٰذا شاهدٌ منك علىٰ أنك تحمل «كِبَرَ الهِمَّة في العِلم».

○ ○ ○

الشرح:

قلت: وأما الكسلِ عنِ الفضائل فبئس الرفيق، وحب الراحة يورث من الندم ما يربو علىٰ كُلِّ لذَّةٍ، فانتبه واتعب لنفسك، واندم علىٰ ما مضىٰ من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين ما دام في الوقت سَعة، وَاسْقِ غُصْنَك ما دامت فيه رطوبة، واذكر ساعتك التي ضاعت فكفىٰ بها عِظَةً، ذهبت لَذَّةُ الكَسَلِ فيها وفاتت مراتب الفضائل، وإنما تُقَصِّر الهِمَمُ في بعض الأوقات، فإذا حُثَّتْ سارَت، وما تَقِفُ هِمَّةٌ إلا لِخَسَاسَتِهَا، وإلا فمتىٰ عَلَتُ الهِمَّةُ فلا تقنع بالدُّون؛ فأيقظ نهارك لأعمالك تنم في ليلك لراحتك، أمَّا إذا نِمْتَ في نهارك عن أعمالك فلا تنم في ليلك من همومك.

◻ «فبادر شبابك وأوقات عمرك إلىٰ التحصيل، ولا تَغْتَرَّ بِخُدعِ التسويف والتأميل؛ فإنَّ كل ساعة تمضي من عمرك لا بدَلَ لها ولا عوض عنها، ولابد أن تقطع ما تقدر عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل؛ فإنها كقواطع الطريق، ولذٰلك استحب السلف التَغرُّبَ عن الأهل والبعد عن الوطن؛ لأن الفكرة إذا توَزَّعَت قَصُرَت عن دَرَكِ الحقائق وغموض الدقائق»[١].

◻ وقال الإمام يحيىٰ بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «لا تربح علىٰ نفسك بشيء أجلَّ من أن تشغلها في كل وقت بما هو أولىٰ بها».

قلت: وهٰذا ما يسميه العلماء: «واجب الوقت».

◻ ولذا قال الإمام سعيد بن جبير[٣]: «اعلم أن كل يوم يعيش فيه المؤمن فهو غنيمة».

يا نفسُ ما هو إلّا صبرُ أيامِ ... كأنَّ مدَّتَها أضغاثُ أحلامِ

يا نفسُ جوزي عن الدنيا مبادرةً ... وخلِّ عنها فإن العيشَ قُدَّامي

---

(١) «تذكرة السامع» لابن جماعة (ص/ ٧٠ ـ ط: بيروت)، أفادني مؤلف «قيمة الزمن» (ص/ ٢٣٤ ـ ط: دار السلام بالأزهر).

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص/ ٦٣ ـ ط التوفيقية).

(٣) «المجالسة» للدينوري (رقم/ ١١٧٠).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٦ ـ إجمام النَّفس:

خذ من وقتك سُويعَاتٍ تُجِمُ بها نفسك في رياض العلم من كتب المحاضرات «الثقافة العامة»؛ فإن القلوب يُرَوَّحُ عنها ساعة فساعة.

وفي المأثور عن أمير المؤمنين عليّٰ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «أجمُّوا هٰذه القلوب، وابتغوا لها طرائف الحكمة؛ فإنها تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدان»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في حكمة النهي عن التطوع في مطلق الأوقات ـ: «بل في النهي عنه بعض الأوقات مصالحُ أُخَرُ مِن إجمام النفوس بعض الأوقات مِنْ ثِقَلِ العِبَادَة، كما يُجَم بالنوم وغيره، ولهٰذا قال معاذٌ: إني لأحتسب نومتي، كما أحتسب قومتي...»[٢].

وقال[٣]: «بل قد قيل: إنَّ مِن جُمْلَة حكمةِ النهي عن التطوع المطلق في بعض الأوقات: إجمام النفوس في وقت النهي لتنشط للصلاة، فإنها تَنْبَسِطُ إلىٰ ما كانت ممنوعةً منه، وتنشط للصلاة بعد الراحة. واللَّه أعلم» اهـ.

○ ○ ○

الشرح:

أيها الطالب الفطن، وَطِّنْ نفسك، وراعِ وقتك، ونظم حياتك، ولا تثقل علىٰ نفسك في طلب العلم؛ بل رويدًا رويدا حتىٰ لا تُملَّها فتعجز وتنقطع عن الطريق.

□ قال ابنُ جرو الموصلي: «ينبغي أن يؤخِّر الإنسان درسه للأخبار والأشعار لوقت مللِه»[٤].

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (٢/ ١٦٧).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» لابن تيمية (٢٣/ ١٨٧).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٣/ ٢١٧).

(٤) «الحث علىٰ طلب العلم» للعسكري (ص/ ٧٦ ـ ط: المكتب الإسلامي).

▫ وقال حماد بن زيد: «كان الزهري يُحدث ثم يقول: هاتوا مِن أشعاركم وأحاديثكم؛ فإن الأذن مَجَّاجَةٌ، وإن للنفس حَمْضَةً»[١].

فهٰذا الأدب القيم ينبغي أن يُخَاطَب به من شَغل ليله ونهاره في طلب العلم، فإنه لو حمل نفسه علىٰ محض الحق ـ في جميع الأوقات ـ ربما تَفَسَّخَتْ؛ فلذٰلك ناسب أن يعطيها شيئًا من حَظِّها ـ في حدود الحق ـ ليحملها في سائر الأوقات علىٰ محض الحق.

▫ ولذا نَبَّه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ هٰذه المسألة[٢] فقال: «وهل الاستعانة علىٰ الحق بالشيء اليسير من اللهو المباح إلَّا خاصةُ الحكمة والعقل؟ بل يصير ذٰلك من الحق إذا كان معينًا عليه، ولهٰذا كان لهوُ الرجل بفرسه وقوسه وزوجته من الحق لإعانته علىٰ الشجاعة والجهاد والعِفَّة، والنفوس لا تَنْقَاد إلىٰ الحق إلَّا ببعض المباحات؛ تنبيهًا لها لتبذل به حقًّا وجُودُه أنفع لها وخير من فوات ذٰلك، فكان هٰذا من تمام تربيتها وتكميلها، فليتأمل اللبيب من هٰذا الموضع حق التأمل؛ فإنه نافع جدًّا، واللَّه المستعان» اهـ.

▫ ومن درر كلام الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣] ـ حين تكلم عن عبداللَّه بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان يُذَكِّرُ الناس في كل يوم خميس، فقال له رجل: يا أبا عبدالرَّحمٰن، لوددنا أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: أما إنه يمنعني من ذٰلك إلا أني أكره أن أُمِلَّكَم، إني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول اللَّه ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة مخافة السآمة علينا ـ ، قال الحافظ: «وفيه ترك المداومة في الجدِّ في العمل الصالح خشية المَلَال ـ وإن كانت المواظبة مطلوبة ـ ؛ لٰكن علىٰ ضربين: إما كل يوم مع عدم التكلُّف، وإما يومًا بعد يوم؛ فيكون يوم الترك لأجل الراحة؛ ليُقْبِل علىٰ الثاني بِنشاط، وإما يومًا في الجمعة، ويختلف

(١) «السير» للذهبي (٥/ ٣٤١).

(٢) «الكلام علىٰ مسألة السماع» لابن القيم.

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٦٣) رقم (٧٠).

باختلاف الأحوال والأشخاص.

والضابط: الحاجة مع مُراعاة وجود النشاط» اهـ[١].

(١) أفدته من الكتاب القيم «النُّبذ في آداب طلب العلم» لحمد بن إبراهيم العثمان ـ حفظه اللَّه ـ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهٰذا كانت العُطَلُ الأسبوعية للطُّلَّاب منتشرة منذ أَمَدٍ بعيد، وكان الأغلب فيها يوم الجمعة، وعصر الخميس، وعند بعضهم يوم الثلاثاء، ويوم الإثنين، وفي عيدي الفطر والأضحىٰ من يوم إلىٰ ثلاثة أيام وهٰكذا...

ونجد ذٰلك في كتب آداب التعليم، وفي السير، ومنه علىٰ سبيل المثال: «آداب المعلمين» لسحنُون (ص١٠٤)، و«الرسالة المُفصَّلة» للقابسي (ص ١٣٥ ـ ١٣٧)، و«الشقائق النعمانية» (ص٢٠)، وعنه في «أبجد العلوم» (١/ ١٩٥ ـ ١٩٦) وكتاب «أليس الصبح بقريب» للطاهر بن عاشور، و«فتاوىٰ رشيد رضا» (١٢١٢)، و«معجم البلدان» (٣/ ١٠٢) و«فتاوىٰ» شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٥/ ٣١٨ ـ ٣٢٠، ٣٢٩).

٣٧ ـ قراءة التصحيح والضبط:

احرص علىٰ قراءة التصحيح والضبط علىٰ شيخ متقن، لتأمن من التحريف والتصحيف والغلط والوهم.

وإذا استقرأت تراجم العلماء ـ وبخاصةٍ الحفاظ منهم ـ تجد عددًا غير قليل ممن جرَد المطولات في مجالس أو أيام قراءةَ ضبطٍ علىٰ شيخ متقن.

فهٰذا الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ قرأ «صحيح البخاري» في عشرة مجالس، كل مجلس عشر ساعات، و«صحيح مسلم» في أربعة مجالس في نحو يومين وشيء من بكرة النهار إلىٰ الظهر، وانتهىٰ ذٰلك في يوم عرفة، وكان يوم الجمعة سنة (٨١٣ هـ)، وقرأ «سنن ابن ماجه» في أربعة مجالس، و«معجم الطبراني الصغير» في مجلس واحد، بين صلاتي الظهر والعصر.

وشيخه الفيروزآبادي قرأ في دمشق «صحيح مسلم» علىٰ شيخه ابن جَهْبَلٍ قراءة ضبط في ثلاثة أيام.

وللخطيب البغدادي والمؤتمن الساجي، وابن الأَبَّار وغيرهم في ذٰلك عجائب وغرائب يطول ذِكرُها، وانظرها في: «السير» للذهبي (١٨/ ٢٧٧

و٢٧٩، ١٩/ ٣١٠، ٢١/ ٢٥٣)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٤/ ٣٠)، و«الجواهر والدرر» للسخاوي (١/ ١٠٣ ـ ١٠٥) و«فتح المغيث» (٢/ ٤٦)، و«شذرات الذهب» (٨/ ١٢١، ٢٠٦)، و«خلاصة الأثر» (١/ ٧٢ ـ ٧٣) و«فهرس الفهارس» للكتَّاني، و«تاج العروس» (١/ ٤٥ ـ ٤٦).

فلا تنس حظك من هٰذا.

○ ○ ○

الشرح

□ قال أبو الفرج الإسفراييني[1]: «كان الخطيب البغدادي معنا في الحج، فكان يختم كل يوم ختمةً قراءة ترتيل، ثم يجتمع الناس عليه وهو راكب يقولون: حدثنا فيحدثهم».

□ وقال الخطيب: «ولما حج إسماعيل بن أحمد النيسابوري، وكان معه حِمْلُ كُتب ليجاور، منه «صحيح البخاري» سمعه من الكُشْمَيْهَني، فقرأت عليه جميعه في ثلاثة مجالس، فكان المجلس الثالث من أول النهار وإلىٰ الليل، ففرغ عند طلوع الفجر» اهـ.

قلت ـ أي الذهبي ـ : «هٰذه ـ واللَّهِ ـ القراءة التي لم يُسمع قط بأسرع منها»[2].

□ وقال السخاوي[3]: «ولقد سألته ـ أي شيخه ابن حجر ـ ، فقلت له: يا سيدي كما في شريف عملكم: أن الحافظ الخطيب البغدادي لقي كريمةَ المروزية بمكة، فقرأ عليها الصحيح في أيام مِنًىٰ، فهل وقع لكم استيفاء يوم في القراءة؟ فقال: لا؛ ولٰكن قراءتي «الصحيح» في عشرة مجالس لو كانت

---

(١) «تبين كذب المفتري» (ص/ ٢٦٨) لابن عساكر، و«طبقات الشافعي» (٤/ ٣٤) للسبكي، والسير للذهبي (١٨/ ٢٧٩).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢٨٠ ـ ط: الرسالة).
(٣) «الجواهر والدرر» للسخاوي (١/ ١٦٣ ـ ط: دار ابن حزم رعاها اللَّه).

متتالية، لنَقَصَت عن هٰذه أيام، ولٰكن أين الثُّرَيَّا من الثَّرىٰ! فإن الخطيب: قراءته في غاية من الصحة والجودة والإفادة وإبلاغ السامعين».

رحم اللَّه ابن حجر وعلَّمنا من أدبه وتواضعه آمين.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٨ ـ جَرْدُ المُطوَّلات:

الجرد للمطوَّلات من أهم المهمات، لتعدُّد المعارف وتوسيع المدارك واستخراج مكنونها من الفوائد والفرائد، والخبرة في مظان الأبحاث والمسائل، ومعرفة طرائق المصنفين في تآليفهم واصطلاحهم فيها.

وقد كان السالفون يكتبون عند وقوفهم: «بَلَغَ»، حتىٰ لا يفوته شيء عند المعاودة، لا سيَّما مع طول الزمن.

٣٩ ـ حُسْنُ السؤال:

التزم أدب المُبَاحَثة من حُسْنِ السؤال، فالاستماع، فَصِحَّة الفهم للجواب، وإياك إذا حصل الجواب أن تقول: لٰكن الشيخ فلان قال لي كذا، أو قال كذا، فإن هٰذا وَهْنٌ في الأدب، وضَربٌ لأهل العلم بعضهم ببعض، فاحذر هٰذا. وإن كنت لابد فاعلًا، فكن واضحًا في السؤال، وقل: ما رأيك في الفتوىٰ بكذا، ولا تُسَمِّ أحدًا.

قال ابن القيم[1]: «وقيل: إذا جَلَسْتَ إلىٰ عالمٍ، فَسَلْ تَفَقُّهًا لا تَعَنُّتًا» اهـ.

○ ○ ○

الشرح:

هٰذه من أعظم خِصال طالب العلم المؤدب.

- ولذا قال الإمام يوسف بن الحسين: «بالأدب تَفهم العلم»[2].
- وقال سليمان بن موسىٰ: «حُسنُ المسألة نصف العلم»[3].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص ١٨٤).

(٢) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (ص/ ١٧٠).

(٣) أخرجه أبو زرعة الدمشقي في «تاريخه» (ص/٥٩٨) بسند صحيح رجاله ثقات كما قال شيخنا العلامة محمد عمرو عبداللطيف رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه القيم: «تبييض الصحيفة بأصول =

فتبين هنا أن استخراج العلم بشيئين: «**حسن المسألة مع مراعاة الأدب**».

◻ وقد نبه علىٰ ذٰلك العلَّامة ابن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «ينبغي للمستفتي أن يحفظ الأدب مع المفتي، ويُبَجِّلَه في خِطابه وسؤاله ونحو ذٰلك، ولا يومئ بيده في وجهه ولا يقول له: ما تحفظ في كذا وكذا؟ وما مذهب إمامك الشافعي في كذا وكذا، ولا يقل إذا أجابه: هٰكذا قلتُ أنا، أو كذا وقع لي، ولا يقل له: أفتاني فلان، أو أفتاني غيرك بكذا وكذا، ولا يقل إذا استفتىٰ في رقعة: إن كان جوابك موافقًا لما أجاب فيها فاكتبه، وإلا فلا تكتب» اهـ[(١)].

ولا يزالون يَسألون حتىٰ الممات:

◻ فذكر عبدُالرَّحمٰن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه شهد موت سفيان الثوري، فقال حين أدخلوه ليُغَسَّل: «وجدنا في حُجْزَتِهِ ـ يعني موضع عقد الإزار ـ رقاعًا فيها أطراف أحاديث ليَسأل عنها»[(٢)].

هٰذا سفيان الثوري أمير المحدثين.

وكانوا يكرهون السؤال فيما لا يعني:

◻ قال عبدُالملك بن حبيب: «كنا عند زياد بن عبدالرَّحمٰن شبطون؛ إذ جاءه كتاب من بعض الملوك؟ فكتب فيه وختمه، ثم قال لنا زياد: إنه سأل عن كفتي الميزان أهو من ذهب أو من فضة؟ فكتب: من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[(٣)].

◻ وذكر الخطيب البغدادي ابن خلَّاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقال: «كان لا يعرف شيئًا من العلم؛ غير أن سماعه صحيح، قد سأل أبا الحسن الدَّارَقُطْني فقال: أيما أكبر الصاع أو المُد؟ فقال للطلبة: انظروا إلىٰ شيخكم!!»[(٤)].

= الأحاديث الضعيفة» القسم الثاني (ص/ ٦٢) رقم (٦٧).

(١) «أدب المفتي والمستفتي» لابن الصلاح (ص/ ١٦٨).

(٢) «الجامع» للخطيب (١/ ٢٢٦).

(٣) «السير» للذهبي (٩/ ٣١٢ ـ ط: الرسالة).

(٤) السابق (٥/ ٢٢٠).

قلت: وهٰذا من العَجَب؛ إذ كان تلاميذ الدَّارَقُطْني رَحِمَهُ ٱللَّهُ دومًا يشتاقون إلىٰ سؤاله في الرجال تعديلًا وتجريحًا، وفي الأحاديث تصحيحًا وتعليلًا، وكأن اللَّه تعالىٰ خلقه لذٰلك الفن تشريفًا وتكريمًا لأهل العلم، فكان سؤالُه في غير محله، واللَّه أعلم.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن القيم ـ أيضًا ـ «وللعلم ستُّ مَراتب»:
أولها: حُسْنُ السؤال.
الثانية: حُسْنُ الإنصات والاستماع.
الثالثة: حُسْنُ الفهم.
الرابعة: الحفظ.
الخامسة: التعليم.
السادسة: وهيٰ ثمرتُه، العمل به ومراعاة حدوده. اهـ .
ثم أخذ في بيانها ببحثٍ مهم.

○ ○ ○

الشرح:

▫ تكملة كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذىٰ ذكره الشيخ بكر هنا: «ومن الناس من يُحْرَمُهُ لعدم حُسن سؤالِهِ، إما أنه لا يسأل بحال، أو يسأل عن شيء وغيرُه أهم منه، كمن يسأل عن فضوله التي لا يضر جهله بها، ويدع ما لا غنىٰ له عن معرفته، وهٰذه حال كثير من الجُهَّال المتعلمين، ومن الناس من يحرمه لسوء إنصاته، فيكون الكلام والمماراة آثر عنده وأحب إليه من الإنصات، وهٰذه آفة كامنة في أكثر النفوس الطالبة للعلم، وهي تمنعهم علمًا كثيرًا ولو كان حَسَنَ الفهم».

▫ وذكر ابن عبدالبر[1] عن بعض السلف ـ أنس بن أبي شيخ ـ أنه قال: «من كان حَسَنَ الفهم رديء الاستماع لم يَقُم خيرُه بشَرِّه».

وقال بعض السلف[2]: «إذا جالست العالِم فكُن علىٰ أن تسمع أحرص

---

(١) «جامع بيان العلم» (١/ ٢١٥).

(٢) هو من قول الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ذكره الخرائطي في «المكارم» (٦٨٧) والقالي في «أماليه» =

مِنْكَ علىٰ أن تقول. وقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق]».

فتأمل ما تحت هٰذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدىٰ! وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه سبحانه ذَكر عن آياته المتلوَّة المسموعة والمرئية المشهودة أنها إنما تكون تذكرةً لمن كان له قلبٌ؛ فإن من عدم القلب الواعي عن اللَّه لم ينتفع بكل آيةٍ تَمُر عليه ـ ولو مرت به كل آية ـ، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها علىٰ من لا بَصَرَ له؛ فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مَرَّت به المرئيات فإنه يراها؛ ولٰكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين: أحدهما: أن يُحْضِرَه، و[الثاني]: يُشْهِدُهُ لِمَا يُلْقَىٰ إليه؛ فإن كان غائبًا عنه مُسافرًا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به؛ فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يُلْقي سمعُه ويصغي بِكُلِّيَتِهِ إلىٰ ما يُوعَظ به ويُرْشَدُ إليه.

وها هنا ثلاثة أمور:

أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق.

الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال علىٰ الذكر.

فذَكَر اللَّه تعالىٰ الأمور الثلاثة في هٰذه الآية.

أما حِرمان العلم من هٰذه الوجوه الستة:

أحدها: ترك السؤال.

الثاني: سوء الإنصات وعدم إلقاء السمع.

الثالث: سوء الفَهم.

= (١/ ٢١٩) وابن عبدالبر في «الجامع» (١/ ٢٥٦).

الرابع: عدم الحِفْظ.

الخامس: عدم نشره وتعليمه؛ فإن من خَزَنَ عِلْمَهُ ولم ينشره ولم يُعَلِّمْهُ ابتلاه اللَّه بنسيانه وذهابه منه؛ جزاءً من جنس عمله.

السادس: عدم العمل به؛ فإن العمل به يوجب تذكُّره وتدبُّره ومراعاته والنظر فيه؛ فإذا أهمل العمل به نسيه»[(١)].

واللَّهُ أعلم.

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم: (١/ ٤٧٧ : ٤٨٤ ـ ط: دار ابن حزم).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٠ ـ المناظرة بلا مُمَارَاة[(١)]:

إياك والمماراة، فإنها نِقْمَةٌ، أما المُنَاظَرَةُ في الحَقِّ، فإنها نِعْمَةٌ، إذ المُنَاظَرَةُ الحقَّة فيها إظهار الحق على الباطل، والراجح على المرجوح؛ فهي مَبْنِيَّة على المُنَاصَحَة، والحِلم، ونَشرِ العِلْم، أما المماراة في المحاورات والمناظرات، فإنها تَحَجُّجٌ ورياء ولغطٌ وكبرياء ومغالبة ومراء، واختيالٌ وشحناء، ومجاراة للسفهاء؛ فاحذرها واحذر فاعلها، تسلم من المآثم وهتك المحارم، وأعرض تسلمْ وتَكبتِ المأثم والمغرم.

○ ○ ○

الشرح:

▫ «نعم؛ لابد أن يعلم العاقل أن من صفة العالم العاقل الذي فَقَّهَهُ اللَّه في الدين ونفعه بالعلم: ألَّا يُجادل ولا يُماري، ولا يُغالب بالعلم إلا من يريد الحق بالعلم الشَّافي؛ وذلك يحتاج في وقت من الأوقات إلى مُناظرة بعض أهل الزيغ ليدفع بحقه باطلَ من خالف الحق وخرج عن جماعة المسلمين؛ فتكون غلبته لأهل الزيغ والباطل، وذلك تعود بركته على المسلمين، على جهة الاضطرار إلى المناظرة ـ لا على الاختيار ـ؛ لأن من صِفة العالم العاقل ألا يجالس أهل الأهواء ولا يُجادلهم»[(٢)].

▫ ولأجل ذلك قال الإمام الشافعي: «ما ناظرت أحدًا فَأَحْبَبْتُ أن يُخطئ، وما في قلبي من عِلم إلَّا وددت أنه عند كل أحد، ولا ينسب إليَّ»[(٣)].

▫ وقال ـ أيضًا ـ: «ما ناظرت أحدًا وأحببت أن يُخطئ»[(٤)].

---

(١) «فتاوى» شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٤/ ١٧٢ ـ ١٧٤).
(٢) «أخلاق العلماء» للآجري (ص/ ٣٩).
(٣) «آداب الشافعي» لابن أبي حاتم (ص/ ٦٨).
(٤) السابق.

▫ وقيل لحاتم الأصَم: «أنت رجل أعجمي لا تفصح، وما ناظرتَ أحدًا إلا قطعته، فبأي شيء تغلب خصمك؟ قال: بِثلاث: أفرحُ إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ لساني عن أقول ما يسوؤه»[(١)].

وقد نبَّه النبي ﷺ لهٰذا الأمر الجَلل؛ فقال: «**ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هدًى كانوا عليه إلَّا أُوتوا الجدلَ**»، ثم تلا رسولُ اللَّه ﷺ هٰذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [الزخرف]»[(٢)].

▫ وقال إمام دار الهجرة مالك بن أنس: «الجدال في الدين يُنشئ المِراء، ويَذهبُ بنور العِلم من القلب، ويُقَسي القَلب، ويورث الضغن»[(٣)].

▫ وهنا كلام عظيم لابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «فما سَكَتَ من سَكَتَ عن كثرة الخِصام والجِدال جهلًا أو عجزًا، ولٰكن سَكتوا عن عِلم وخشية للَّه، وما تكلم وتوسع من توسع بعدهم لاختصاصه بعلمٍ دونهم؛ ولٰكن حُبًّا للكلام وقلة ورع؛ كما قال الحسن عندما سمع قومًا يتجادلون: هٰؤلاء مَلُّوا العبادة وخَفَّ عليهم القول، وقَلَّ ورعهم فتكلموا» اهـ[(٤)].

▫ وأحسن ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: «واعلم أن المُناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والمباهاة منبعُ الأخلاق المذمومة، ولا يَسْلَم صاحب هٰذه المناظرة من كِبْرٍ لاحتقار المقصرين عنه وعُجب بنفسه؛ لارتفاعه علىٰ كثير من نُظَرائه، وحَسَدٍ لمن هو أنظر منه، وحِقد علىٰ مُناظِرِهِ إذا أحَسَّ منه بقلة مُبالاة بكلامه وتزكية النفس بمدح كلامها وفرح بمساءَة خصمه. فأين الإخاء المُنْعَقِد بالعلم بين أهله؟! فالعلم بين أهله رَحِم مُتَّصِلٌ، أما الرَّعاع من المُناظِرين فربما خرجوا إلىٰ المُجالدة عن المُجادلة، فلابد من قصد الحق ـ لا

---

(١) «الحكم الجديرة بالإذاعة» (ص/ ٣٥).

(٢) سنده صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٥٣) من حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقال: «حسن صحيح».

(٣) أخرجه ابن عبدالبر في «الجامع» (٨٨٧) بسند صحيح.

(٤) «فضل علم السلف» لابن رجب الحنبلي (ص/ ٣٥).

الغلبة ـ والإذعان للصواب»[١].

---

(١) «منهاج القاصدين» (١/ ٥٣).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤١ ـ مُذَاكَرَة العِلْم:

تَمتع مع البُصَراء بالمذاكرة والمُطارحة، فإنها في مواطن تفوق المُطالعة وتَشْحَذُ الذِّهْنَ، وتُقَوىٰ الذاكرة، مُلتَزِمًا بالإنصاف والمُلاطفة، مُبتعدًا عن الحَيْف والشَّغَب والمجازفة.

وكنْ علىٰ حذرٍ، فإنها تكشف عَوَار من لا يَصْدُق.

فإن كانت مع قاصر في العلم، بارد الذهن، فهي داءٌ ومُنَافَرة، وأما مُذاكرتك مع نفسك في تقليبك لمسائل العلم؛ فهٰذا ما لا يسوغ أن تنفك عنه.

وقد قيل: «إحياء العلم مذاكرته».

○ ○ ○

الشرح:

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إنما مثلُ صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المُعَقَّلَةِ؛ إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت**»[(١)].

▫ قال ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا كان القرآن الميسر للذكر كالإبل المُعَقَّلَة من تعاهدها أمسكها، فكيف بسائر العلوم؟!»[(٢)].

▫ وقال الزهري: «إنما يُذهب العلمَ النسيانُ وتركُ المذاكرة»[(٣)].

▫ «فينبغي لطالب العلم أن يراعي ما يحفظه، ويستعرض جميعه كُلَّما مَضَت له مُدَة، ولا يغفل ذٰلك؛ فقد كان بعض العلماء إذا عَلَّمَ إنسانًا مسألةً من العلم سأله عنها بعد مدة، فإن وجده قد حفظها علم أنه محب للعلم فأقبل عليه وزاده، وإن لم يره قد حفظها، وقال له المُتَعَلِّم: كنت قد حفظتها

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٣١) ومسلم (٧٩١).

(٢) «التمهيد» لابن عبدالبر (٣/ ٢٠٢).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٣٧).

فأُنسيتها، أو قال: كتبتها فأضعتها، أَعْرَضَ عنه ولم يُعَلِّمْهُ»[١].

▫ وقال أبو الهلال العسكري: «والحفظ لا يكون إلا مع شدة العناية وكثرة الدرس، وطولُ المذاكرة حياة العلم، إذا لم يكن درس لم يكن حفظ، وإذا لم تكن مذاكرة قَلَّت منفعة الدرس، ومن عوَّل علىٰ الكتاب وأَخَلَّ بالدرس والمذاكرة؛ ضاعت ثمرة سعيه واجتهاده في طلب العِلم»[٢].

▫ ومن قيِّم كلام ابن الجوزي: «فكم ممَّن ترك الاستذكار بعد الحفظ؛ فضاع زمن طويل في استرجاع محفوظٍ قد نُسِيَ»[٣].

▫ «واعلم أن الذكاء وجودة القريحة وثقوب الذهن جواهر نفيسة؛ فإذا طلب صاحبها العلم، فبلغ فيه مبلغًا، فقد حفظ جمالها علىٰ نفسه، وأحرز منفعتها له، ومن ترك الطلب حتىٰ كَلَّ ذهنه وعميت فطنته، وتَبَلَّدَت قريحته مع إدبار عُمره، كان كمن عَمَدَ إلىٰ ما عنده من الياقوت والدُّر فَرَضَّه، وأبطل الجمال والنفع به، وإذا كان ما جمعته من العلم قليلًا وكان حفظًا كَثُرَت المنفعة به، وإذا كان كثيرًا غير محفوظ قَلَّت منفعته»[٤].

فعليك بالمذاكرة حينًا بعد حين، يأت النفع كُلَّ حين بإذن رب العالمين.

---

(١) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٢/ ١٠١).

(٢) «الحث علىٰ طلب العلم» للعسكري (ص/ ٧٧).

(٣) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص/ ١٣٧).

(٤) «الحث علىٰ طلب العلم» للعسكري (ص/ ٨٥).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٢ ـ طالبُ العلم يعيش بين الكتاب والسنة وعلومهما؛ فهما له كالجناحين للطائر، فاحذر أن تكون مَهيضَ الجناح.

○ ○ ○

الشرح:

أصل الأصول، وغاية أهل السُّنَّة والجماعة، ومبنىٰ علمهم وفهمهم وعقيدتِهم الصحيحة: علم «**الكتاب والسُنَّة بفهم سلف الأُمَّة**».

▫ قال الإمام الجُنيد: «عِلْمُنا هٰذا مُقَيَّدٌ بالكتاب والسنة، من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يُعْتدُ به في علمنا هٰذا»[١].

▫ قال أبو حفص النيسابوري: «من لم يَزِن أفعاله وأقواله ـ كلَّ وقت ـ بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره؛ فلا يُعَدُّ في ديوان الرِّجال»[٢].

▫ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمن بنىٰ الكلام في العلم ـ الأصول والفروع ـ علىٰ الكتاب والسُنَّة والآثار المأثورة عن السابقين؛ فقد أصاب طريق النبُوَّة»[٣].

▫ وقال إمام أهل الجرح والتعديل أبو حاتم الرازي: «العلم عندنا ما كان عن اللَّه تعالىٰ من كتاب ناطق غير مَنسوخ، وما صَحَّت الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ مما لا معارض لها، وما جاء عن الألِبَّاء مِن الصحابة ما اتفقوا عليه»[٤].

وقد اتسع الخرقُ في هٰذا الزمان، ورأينا أُناسًا ـ ما هم بأُناسٍ ـ يَتكلمون بألسِنَتِنَا، وفي الحقيقة هم يُحَادُّون اللَّه ورسوله؛ إذ أنهم يقولون بُهتانًا وزورًا:

---

(١) «فضل علم السلف» لابن رجب الحنبلي (ص/ ٤٤).

(٢) «الكلام علىٰ مسألة السماع» لابن القيم (ص/ ٢٢٧).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٣٦٣).

(٤) «إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ٢٢٩).

لا نؤمنُ إلا بكتاب اللَّه!! أما السنة فقد دخل فيها الدخيل، ثم هم ينكرونها بالكُلِّية ويظنون أن هٰذا هو الدين، وهم لا يعلمون أن هٰذا هو المُخرِجُ من الدين! نعوذ باللَّه من الخِزي والعار. فواغوثاه باللَّه منهم وممن اتبعهم علىٰ هٰذا الضلال، فعليك بالعتيق الأمر الأول: الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة وعلمائها السائرين علىٰ هٰذا المنوال.

□ وقال الإمام الزاهد العَلَم أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ربما يقع في قلبي النكتة ـ أي كلمة الحكمة ـ من نكت القوم؛ فلا أقبلها منه إلَّا بشاهدين عدلين: الكتاب والسُنَّة».

□ قال مُبْدِعًا شارح القشيرية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلام أبي سليمان معناه: أي فلا أكتفي باستحسان قلبي اتهامًا لنفسي بسبب بقاء بعض الحظوظ، حتىٰ أعْرِضَهَا علىٰ شاهدين عدلين ـ وهما الكتاب والسُنَّة ـ ، فإن شَهِدا إليَّ بحسنها أقدمتُ، وإلَّا أحجمتُ».

---

(١) «شرح الرسالة القشيرية» (١/ ١٧٥).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٣ ـ استكمال أدوات كُلِّ فَنٍّ:

لن تكون طالب عِلْم متقنًا مُتَفَنِّنًا ـ حتىٰ يلج الجملُ في سم الخياط ـ ما لم تستكمل أدوات ذٰلك الفن، ففي الفقه بين الفقه وأصوله، وفي الحديث بين عِلمَي الرواية والدراية... وهٰكذا، وإلا فلا تَتَعَنَّ.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١].

فيستفاد منها أن الطالب لا يترك علمًا حتىٰ يتقنه[١].

○ ○ ○

الشرح:

□ قال الإمام الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعْلَم أنَّ للعلوم أوائلَ تؤدِّي إلىٰ أواخِرها، ومداخِلَ تُفضِي إلىٰ حقائقها، فلْيَبتدئْ طالبُ العلم بأوائلها لينتهيَ إلىٰ أواخرها، وبمداخلها ليفضيَ إلىٰ حقائقها، ولا يطلبِ الآخِرَ قبلَ الأوَّل، ولا الحقيقةَ قبلَ المَدخل، فلا يدرك الآخِر، ولا يعرفَ الحقيقة؛ لأنَّ البناء علىٰ غير أُسٍّ لا يُبْنَىٰ، والثمَرَ من غير غَرْسٍ لا يُجْنَىٰ. فينبغي لطالب العلم ألَّا يَنِيَ[٢] في طلبه، ويَنتهزَ الفرصة به؛ فربَّما شحَّ الزَّمانُ بما سَمَح، وضَنَّ بما مَنَح، ويبتدِئُ من العلم بأوَّله، ويأتيه من مَدخلِه، ولا يتشاغل بطلب ما لا يضرُّ جهلُه، فيمنعه ذٰلك من إدراك ما لا يسَعُه جَهلُه؛ فإنَّ لكل علمٍ فضولًا مُذْهِلة، وشذُورًا مُشغِلة، إنْ صَرَف إليها نفسَه قطعته عمَّا هو أهمُّ منها. وقد قيل: العلمُ أكثرُ من أن يُحصَىٰ، فخُذوا مِن كُلِّ شيءٍ أحسَنَه» اهـ[٣].

□ ويقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: «علىٰ طالب العِلم ألَّا يَدَعَ فَنًّا من العلوم

---

(١) «شرح الإحياء» (١/ ٣٣٤).

(٢) يَني: يتكاسل ويتهاون.

(٣) «آداب الدين والدنيا» (ص/ ١١٣ ـ ط: دار ابن الجوزي).

(٤) «منهاج القاصدين» لابن الجوزي (١/ ٥٨ ـ ط: دار التوفيق دمشق).

المحمودة إلا وينظر فيه نظرًا يَطَّلعُ به علىٰ مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه، وإلا اشتغل بالأهم منه؛ فإن العلوم ـ علىٰ درجاتها ـ إمَّا سالكة بالعبد إلىٰ اللَّه، أو معينة علىٰ السلوك نوعًا من الإعانة؛ فلابُد أن يأخذ من كل شيء أحسنه؛ لأن العُمر لا يتسع لجميع العلوم، ثم يصرف جِمَامَ قوَّته إلىٰ أشرف العلوم، وهو العلم المتعلق بالآخرة».

▫ وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي(١): «إذا أردت أن تكون عالمًا فاقصد لفنٍّ من العلم، وإن أردت أن تكون أديبًا فخذ من كل شيء أحسنه».

▫ وقال أبو عبيد القاسم بن سَلَّام(٢): «ما ناظرني رجل قط وكان مُفَنَّنًا في العلوم إلا غَلَبْتُه، ولا ناظرني رجل ذو فن واحد إلا غلبني في علمه ذٰلك».

وعلىٰ طالب علم الحديث ـ خاصةً ـ أن يعتني به عِنايةً تامَّة ليل نهار، ولا يتوانىٰ في تحصيله وفهمه وإتقانه، ولا يشغل بَالَهُ إلا به مع معرفةٍ بالفقه والعربية، مع صحة اعتقاد تامَّة بعلم التَوحِيد وشيءٍ من باقي العلوم الشرعية، ولا يشوش علىٰ قلبه بعلوم أخرىٰ تشغله عن إتقان علم لحديث؛ فإن هٰذا العلم واللَّه عزيز للغاية.

▫ كما قال الإمام الهروي(٣): «هٰذا الشأنُ شأنُ مَن ليس له شأنٌ سِوَىٰ هٰذا الشأن». يعني طلب الحديث.

▫ وقال السخاوي(٤): «وذٰلك أن التَوَغُّل فيه ـ أي في علم اللُغة ـ قد يُعَطِل

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبدالبر (١/ ٥٢٢) (٨٥٠)، ط دار ابن الجوزي.

(٢) السابق (١/ ٥٢٣) (٨٥٢)، وقال شيخنا أبو الأشبال الزهيري ـ حفظه اللَّه ـ بعد تخريجه: رجاله ثقات.

(٣) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٨/ ٥٠٦) ترجمة شيخ الإسلام الهروي: وهٰذا الإمام من أحب الأئمة عندي واللَّه هو والقشيري صاحب الرسالة وابن تيمية والعز بن عبد السلام ومن قبل الإمام أحمد بن حنبل والبخاري والدارقطني وابن رجب الحنبلي وابن حجر والمعلمي اليماني والألباني رحمهم اللَّه جميعًا.

(٤) «الغاية شرح الهداية» للسخاوي (١/ ١٨٥).

عليه إدراك هٰذا الفن ـ يعني علم الحديث ـ ؛ الذي صَرَّح أئمته بِأنه لا يَعْلَقُ إلا بمن قَصَرَ نفسه عليه ولم يضم غيره إليه».

▫ وهٰذا كلام الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قبله؛ قال: «علم الحديث لا يَعْلَقُ ـ يعني عُلوقًا تامًّا ـ إلا بمن قصر نفسه عليه، ولم يضم غيره من الفنون إليه»[(١)].

▫ وقال الإمام الزَّرنوجي[(٢)]: «لِيَعْلَمْ الطالب أن سَفَر التعلم لا يخلو عن النصب؛ لأن طلب العلم أمرٌ عظيم، وهو أفضلُ من الغذاء عند أكثر العُلماء والأجرُ علىٰ قدر التعب والنصب، فمن صبر علىٰ ذٰلك وجد لَذَّةً تَفُوقُ سائر لَذَّات الدنيا، فينبغي لطالب العلم أَلَّا يشتغل بشيء آخر، ولا يُعْرِض عن الفقه، فإن صناعتنا هٰذه من المَهْدِ إلىٰ اللحد؛ فمن أراد أن يترك عِلمَنا هٰذا ساعة فليتركه السَّاعة».

▫ ولابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)] كلام عجيب جدًّا؛ حيث قال: «ليس علىٰ المحدث عيب أن يَزِلَّ في الإعراب، ولا علىٰ الفقيه أن يَزَّلَ في الشعر، وإنما يَجِبُ علىٰ كل ذي علم أن يتقن فَنَّه إذا احتاج الناس إليه فيه، وانعقدت له الرئاسة به».

وهو كلام قيم لابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيه بعض الشيء كما ترىٰ يحتاج إلىٰ التنبيه، وليس هٰذا مكانه، واللَّه أعلم.

لذا يجب علىٰ طالب العلم أمور ستة؛ ذكرها الأمام الزرنوجي:

▫ فقال[(٤)]: «لا يتم العلم إلا بستة أشياء: ذهن ثاقب، وزمان طويل، وكفاية، وعمل كثير، ومُعَلِّم حاذق وشهوة، وكلما نقص من هٰذه الستة نقص

---

(١) الرسالة المستطرفة» للكتاني (ص/ ١٦٥).

(٢) «تعليم المتعلم» للزرنوجي (ص/ ١٠٠) ط مكتبة القرآن بمصر.

(٣) «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (ص/ ١٦٧ ـ ط: دار ابن القيم).

(٤) «تعليم المتعلم» للزرنوجي (ص/ ٥١).

بمقداره من العلم».

□ وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ كلامًا يكتب بماء الذهب، حيث قال: «فَحقٌّ علىٰ المُحَدِّث أن يَتورَّع فيما يُؤديه، وأن يسأل أهل المعرفة والورع لِيُعِينُوه علىٰ إيضاح مروياته، ولا سبيل إلىٰ أن يصير العارف ـ الذي يزكي نَقَلَةَ الأخبار ويجرحهم ـ جهبذًا إلا بإدمان الطلب، والفحص عن هٰذا الشأن، وكثرة المذاكرة والسهر والتيقظ والفهم، مع التقوىٰ والدين المتين والإنصاف، والتردد إلىٰ مجالس العلماء، والتحري والإتقان، وإلَّا تفعل:

فـدع عـنك الكـتابةَ لـستَ مـنها ... ولـو سـوَّدتَ وجهَـك بالمِـدادِ

«قال اللَّه تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل].

فإن آنست ـ يا هٰذا ـ من نفسك فَهمًا وصِدقًا ودينًا وورعًا، وإلَّا فلا تَتَعَنَّ. وإن غلب عليك الهوىٰ والعصبية لرأي ولمذهب؛ فباللَّهِ لا تَتْعَب. وإن عرفت أنك مُخَلِّط مُخَبط مهمل لحدود اللَّه، فأرِحنا منك؛ فبعد قليل ينكشف البهرج، وينكب الزغل، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

فقد نصحتك، فَعِلْمُ الحديث صلف، فأين علم الحديث؟ وأين أهله؟ كدت ألَّا أراهم إلا في كتاب أو تحت تراب»[(١)].

وعلم اللَّه تعالىٰ محبتي لهٰذا العلم وأهله، وأن دمي لا يروق إلَّا به، وروحي لا تَسْكُن إلَّا عليه، وعقلي لا يذهب إلا إليه، ولولا الإطالة لأسهبت في الكلام علىٰ شرفه وفضله[(٢)]، ومقصودي ـ كما علمت ـ دراسةُ هٰذا الكتاب وتعليمه لا كثرة الكلام حتىٰ لا يضيع المقصود، واللَّه الهادي.

ومعنىٰ كلام الشيخ بكر رَحِمَهُ اللَّهُ: عناية الطالب بفنه المحبب إلىٰ قلبه، وصرف

(١) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ٤ ـ ط دار الكتب العلمية).

(٢) وقد تكلمت عن شرف الحديث وأهله بنوادر الآثار وأحلىٰ المرويات العذبة في كتابي: «شأن علم العلل وشرف أهله»، ط: دار أصحاب الحديث بالأزهر، واللَّه الموفق.

همته ووقته فيه حتىٰ يتم له الإتقان.


الفصل السادس
التحلي بالعمل

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٤ ـ مِن عَلامَات العِلْم النَّافِع:

تساءَل مع نفسك عن حَظِّكَ مِنْ عَلامات العلم النافع، وهي:

١ ـ العمل به.

٢ ـ كراهية التزكية والمدح والتكبُّر علىٰ الخلق.

٣ ـ تكاثُر تواضعك كلما ازددت علمًا.

٤ ـ الهرب من حُب الترؤس والشهرة والدنيا.

٥ ـ هجْرُ دَعوَىٰ العلم.

٦ ـ إساءة الظَّن بالنفس، وإحسانه بالناس تَنَزُّهًا عن الوقوعِ بهم.

وقد كان عبدُاللَّه بن المبارك إذا ذُكِرَ أخلاق من سَلَف ينشد:

لا تَعْرِضَنَّ بِذِكْرِنَا مَعَ ذِكْرِهِم ... لَيْسَ الصَّحيحُ إذا مَشَىٰ كَالمُقْعَدِ

○ ○ ○

الشرح:

نعم؛ حقيقة العلم العمل به، وإلا فما فائدة العلم.

□ لذا قال الإمام محمد بن الفضل البلخي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ذَهاب الإسلام من أربعةٍ: أولها: لا يعملون بما يعلمون، والثاني: يعملون بما لا يعلمون، والثالث: لا يتعلمون ما لا يعلمون، والرابع: يَمْنَعُون الناس من التعلُّم».

□ وقال القاسِمُ بنُ هَزَّان: «سمعت الزُهري يقول: لا يُرضي الناسَ قَولُ عالم لا يعمل، ولا عَمَلَ عامِلٍ لا يَعْلَم»[2].

---

(١) «طبقات الصوفية» (ص/ ١٧٣)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠/ ٢٤٧)، و«السير» للذهبي (١٤/ ٥٢٥).

(٢) «السير» للذهبي (٥/ ٣٤١).

□ وقال سهل التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «شُكر العلم العمل، وشكر العمل زيادة العلم».

□ ودخل أصحاب الحديث يومًا علىٰ بشر الحافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال لهم: «ما هٰذا الذي معكم أظهرتموه؟ قالوا: يا أبا نصر، نطلب هٰذه العلوم؛ لعل اللَّه ينفع بها يومًا، قال: قد علمتم أنه يجب عليكم فيها زكاة؟ كما يجب علىٰ أحدكم إذا ملك مِئتي درهم خمسة دراهم؛ فكذٰلك يجب علىٰ أحدكم إذا سمع مِئتي حديث أن يعمل منها بخمسة أحاديث، وإلا فانظروا إيش يكون هٰذا عليكم غدًا[(٢)]»[(٣)].

ولابُد مع العمل بالعلم من كراهيةِ التزكية والمدح، وعدم التكبر علىٰ الخلق، وتُكثر تواضعك كلما ازددت علمًا.

□ وَرَدَ في «السِّير» عن سعيد المؤدب قال: «قُلت لأبي بكر الخطيب عند قدومي: أنت الحافظ أبو بكر؟ قال: انتهىٰ الحفظ إلىٰ الدَّارَقُطْني»[(٤)].

□ وفي «التذكرة»[(٥)]: «أنا أحمد بن عليٍّ الخطيب: انتهىٰ الحفظ إلىٰ الدارقطني».

□ وقال يوسف بن أحمد الشيرازي في «أربعين البُلْدَان» له: «لمَّا رَحَلْتُ إلىٰ شيخنا رُحلة الدنيا ومسند العصر أبي الوقت السِّجزي الهَرَوي، قَدَّرَ اللَّه لي الوصول إليه في آخر بلاد كِرْمَان، فسَلَّمْتُ عليه وقَبَّلْتُه وجلستُ بين يديه، فقال لي: ما أَقْدَمَكَ هٰذه البلاد؟ قلتُ: كان قَصْدي إليك، ومُعَوَّلي ـ بَعْدَ اللَّه ـ

---

(١) «الحلية» لأبي نعيم (١٠/ ٢٠٣).

(٢) لم يقصد بشرٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المعنىٰ الحرفي من أن يُعمل من كلِّ مئتي حديث بخمسة؛ وإنما أراد: إذا تعلَّمتُم علمًا فاعملوا به ولو قليلًا. وهٰذا ـ بلا ريب ـ في غير الفرائض والواجبات الدائمة.

(٣) أثر صحيح: أخرجه الخطيب في «التاريخ» (٧/ ٦٩)، وفي «شرف أصحاب الحديث» رقم (٢٤٠).

(٤) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٨/ ٢٨١) ترجمة الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٥) «تذكرة الحفاظ» للذهبي ـ أيضًا ـ (٣/ ١١٤١) ترجمة الخطيب.

عليك، وقد كتبتُ ما وقع إليَّ مِن حديثك بِقَلَمي، وسَعَيتُ إليك بقدمي؛ لأُدْرِك بَرَكَةَ أنفاسِك وأحْظَىٰ بعلو إسنادك[١].

فقال: وفقك اللَّه وإيانا لمرضَاتِه، وجعل سعينا له وقصدنا إليه، لو كنت عَرَفْتَني حق مَعْرِفَتي لَمَا سَلَّمت عليَّ، ولا جَلَست بين يَدَيَّ. ثم بَكَىٰ بُكاءً طويلًا وأَبْكَىٰ مَنْ حَضَرَه، ثم قال: اللهم استُرنا بسِتْرك الجميل، واجعل تحت السِّتْر ما ترضىٰ به عنا.

يا ولدي، تعلمُ أني رَحلتُ ـ أيضًا ـ لِسَماع «الصحيح» ماشيًا مع والدي مِنْ هَرَاة إلىٰ الداوديِّ ببُوشنْج ـ ولي دون عشر سنين ـ ، فكان والدي يضع علىٰ يَدَيَّ حَجَرَين، ويقول: «احملهما»، فكنت من خوفه أحفظهما بيدي، وأمشي وهو يتأملني، فإذا رآني قد عييت أمرني أن ألقي حجرًا واحدًا، فأُلقي، ويخفُّ عني، فأمشي إلىٰ أن يتبين له تعبي، فيقول لي: هل عَييتَ؟ فأخافه وأقول: لا. فيقول: لِمَ تُقَصِّر في المشي؟ فأُسْرِعُ بين يديه ساعة، ثم أعجِزُ، فيأخذ الآخر فيُلقيه فأمشي حتىٰ أعطب، فحينئذٍ كان يأخذني ويحملني، وكنا نلتقي جماعةً الفلاحين وغيرهم، فيقولون: يا شيخ عيسىٰ، ادفع إلينا هٰذا الطفل نُرْكِبُهُ وإياك إلىٰ بوشنج، فيقول: مَعَاذَ اللَّه أن نركب في طلب أحاديث رسول اللَّه ﷺ؛ بل نمشي[٢]، وإذا عجز أركبتُه علىٰ رأسي إجلالًا لحديث رسول اللَّه ﷺ ورجاء ثوابه، فكان ثمرةُ ذٰلك من حُسْن نيَّته أني انتفعت بسماع هٰذا الكتاب وغيره، ولم يبق من أقراني أحدٌ سواي، حتىٰ صارت الوفود تَرْحَلُ إليَّ من الأمصار.

ثم أشار إلىٰ صاحبنا عبدالباقي بن عبدالجبار الهَرَوي أن يُقدم لي حلواء،

---

(١) ما أحوجنا لهٰذا الأدب مع مشايخنا ويا ليت مشايخنا رأوا مِنَّا شِبْهَ ذٰلك؛ فما كانوا حرمونا من أدبهم وعلمهم وجهدهم.

(٢) هٰذا ورعٌ وليس بالأمر الواجب، ويكفينا قصة جابر بن عبداللَّه وعبداللَّه بن أُنيس رضي الله عنهما، لما رحل الأول للثاني ليسمع منه حديثًا عن رسول اللَّه ﷺ، فقد سافر إليه علىٰ راحلته وليس ماشيًا، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨].

فقلت: يا سيدي قراءتي لجزء أبي الجَهم أَحَبُّ إليَّ من أكل الحلواء. فتبسم، وقال: إذا دخل الطعامُ خَرَجَ الكلام. وقَدَّمَ لنا صَحْنًا فيه حلواء الفانيذ، فأكلنا وأخرجت الجزء، وسألته إحضار الأصل فأحضره، وقال: لا تَخَف ولا تحرص؛ فإني قد قبرتُ ممَّن سَمعَ عليَّ خلقًا كثيرًا، فسل اللَّه السَّلامة.

فقرأت الجزء وسرُرت به، ويَسَّرَ اللَّه سماع «الصحيح» وغيره، ولم أزل في صُحبَتِه وخِدْمَتِهِ إلىٰ أن تُوفِّي ببغداد في ليلة الثلاثاء من ذي الحجة، قلت: وَبيَّضَ لليوم وهو سادس الشهر، قال: ودفناه بالشُّونيزيَّة، قال لي: تدفنني تحت أقدام مشايخنا بالشونيزية، ولمَّا احتُضر سندته إلىٰ صدري، وكان مُسْتَهْتَرًا[1] بالذكر، فدخل عليه محمد بن القاسم الصوفي، وأكَبَّ عليه وقال: يا سيدي، قال النبي ﷺ: «**مَن كان آخر كلامه: «لا إله إلا اللَّه» دخل الجنة**»[2]، فرفع طرفه إليه وقال ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ [يس]، فدهش إليه هو ومن حضر من الأصحاب، ولم يزل يقرأ حتىٰ ختم السورة، وقال: اللَّه اللَّه اللَّه، وتُوفِّي وهو جالس علىٰ السجادة»[3].

◻ وقال القُطْبُ النيسابوري رَحِمَهُ اللَّهُ يومًا للقائد المُجاهِد محمود نور الدين زنكي بن الأتابك: «باللَّهِ لا تُخاطِر بنفسك، فإن أُصِبْتَ في مَعْركة لا يبقىٰ للمسلمين أحدٌ إلَّا أخذه السيف، فقال: ومن محمود حتىٰ يُقال هٰذا؟! حَفِظَ اللَّه البلاد قبلي؛ لا إله إلا هو»[4].

◻ وقيل لعمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا أمير المؤمنين، لو أتيت المدينة؛ فإن

---

(١) أي: مولعًا به.

(٢) أبو داود (٣١١٦) والحاكم (١/ ٣٥١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأحمد (٥/ ٢٣٣)، وقال الألباني في «الإرواء» (٣/ ١٤٩ ـ ١٥٠): صحيح.

(٣) حسن: وله شاهد عند ابن حبان في «موارد الظمآن» (٧١٩).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٣٠٧ : ٣٠٩ ـ ط: الرسالة)، «مرآة الزمان» (٨/ ١٩٤) و«السير» للذهبي (٢٠/ ٥٣٥).

قضىٰ اللَّه موتًا، دُفنت في موضع القبر الرابع مع رسول اللَّه ﷺ، قال: واللَّه لأن يعذِّبني اللَّه بغير النار؛ أحب إليَّ من أن يَعْلَم مِنْ قَلبي أني أُراني لذٰلك أهلًا».

ثم من علامات العلم النافع: الهرب من حُب التَّرؤس والشهرة والدنيا، وهجر دعوىٰ العلم، وهٰذا الأمر هو الذي أدخل علينا ـ واللَّه ـ هٰذه الآفات التي عَشَّشَتْ في القلوب، ثم باضت ثم فَرَّخَت، وبعدها طَغَتْ ثم ادَّعت السيادة والرِيادة ومرجع العلم إليها، وهٰذا قَلَّ أن يُعالَج، ولا يُعالَج إلا برحمة من اللَّه وفضل.

وهٰذا المرض علاجه في بدايته الأولىٰ قبل أن يتوغل في الوجدان، وكان السلف ـ رُغْم علمهم وعقيدتهم وتربيتهم وخوفهم وهَلَعِهِم ـ يخافون منه حق الخوف؛ لأنه مدخلٌ من مداخل الشيطان إلىٰ النفس سريع ومهلكٌ في الحال للقلوب والأعمال وكل شيء!.

بك أستجيرُ ومن يُجيرُ سواكا فأجِرْ ضعيفًا يحتمي بحماكا

هٰذا هو لسان حالهم؛ لأن هٰذا المضمار خَسِرَ وهَلَك فيه كثير لا يحصون ـ نسأله السَّلامة والعافية ـ؛ فالمرء لا يجسر؛ بل يهضم نفسه في كل حركاته وسكناته حتىٰ ينجو، والسلامة من هٰذا الأمر بيد اللَّه وحده لا شريك له.

▫ قال أبو العباس السرَّاج: «سمعت فتح بن نوح: سمعت أحمد بن حنبل يقول: أشتهي ما لا يكون، أشتهي مكانًا لا يكون فيهِ أحدٌ من الناس».

▫ وقال الميموني: «قال أحمد: رأيت الخلوة أروحَ لِقلبي».

▫ وقال المروزي: «قال لي أحمد: قل لعبدالوهاب: أَخْمِل ذكرك؛ فإني قد بُليتُ بالشُّهْرَة».

▫ وقال محمد بن الحسن بن هارون: «رأيت أبا عبداللَّه إذا مَشَىٰ في الطريق يكره أن يتبعه أحد».

▫ قال الذهبي ـ معلِّقًا ـ: «إيثار الخمول، والتواضع، وكثرة الوجَل: من

علامات التقوىٰ والفلاح»[١].

□ وقال بشر الحافي: «ما اتقىٰ اللَّهَ عبدٌ أَحَبَّ الشُّهْرَة، لا تعمل لتُذكَر، اكتم الحسنة كما تكتُم السيئة»[٢].

وعليك إساءة الظن بالنفس ـ يا عبد اللَّه ـ ، وإحسانه بالناس تنزهًا عن الوقوع فيهم، وهٰذا أمر واجب عليك وعلىٰ أهل العلم أجمع.

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١١/ ٢٢٦ ـ ط: الرسالة)

(٢) «السير» للذهبي (١٠/ ٤٧٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤٥ ـ زَكاةُ العِلم:

أَدِّ «زكاة العلم»: صادعًا بالحق، أَمَّارًا بالمعروف، نهاءً عن المنكر، موازنًا بين المصالح والمضار، ناشرًا للعلم وحُبِّ النفع، وبذل الجاه، والشفاعة الحسنة للمسلمين في نوائب الحق والمعروف.

○ ○ ○

الشرح:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة الإمام القدوة أبي عبدالله محمد بن يحيىٰ الزَّبِيدِي: «كان يقول الحق ولو كان مُرًّا، لا تأخذه في الله لومة لائِم. قِيلَ: دخل علىٰ الوزير الزَّيْنَبي وعليه خِلْعَةُ الوزارة، وهم يُهَنِّئونَه، فقال: هو ذا يومُ عزاء لا يوم هَنَاء، فقيل: ولِمَ؟ قال: أُهَنِّئ علىٰ لبس حرير؟»[١].

وهناك مواقف عظيمة للإمام العلَّامَة العِز بن عبدالسلام وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ في مثل هٰذه المواقف مِن الصَّدْعِ بالحق والصبر علىٰ نَوائِبِ الدَهْر؛ فهٰؤلاء كانوا قدوةً في العِلمِ والعمل والجهاد والصَّبْر؛ خاصةً شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ نفعنا الله ببركة علمه.

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «إذا ماتَ الإنسانُ انقطع عملُه إلا مِن ثلاث: صدقةٍ جارية، أو عِلمٍ يُنتفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يَدعو له»[٢].

---

(١) «المنتظم» لابن الجوزي (١٠/ ١٩٨)، و«السير» للذهبي (٢٠/ ٣١٧).

(٢) أخرجه مسلم (٥/ ٧٣)، وكذا البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والنسائي (٢/ ١٢٩)، والترمذي (١/ ٣٥٩)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٩٥)، والبيهقي (٦/ ٢٧٨)، وأحمد (٢/ ٣٧٢)، من طُرِق عن العلاء بن عبد الرَّحمٰن عن أبيه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ به، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال بعض أهل العلم[١]: هٰذه الثلاث لا تجتمع إلا للعالم الباذل لعلمه؛ فبذلُهُ صَدَقةٌ ينتفع بها، والمتلقي لها ابنٌ للعالِمِ في تَعَلُّمِهِ عَليه.

فاحرص علىٰ هٰذه الحلية؛ فهي رأس ثمرة علمِك.

ولشرف العِلمِ، فإنه يزيد بكثرة الإنفاقِ، ويَنْقُصُ مع الإشفاق، وآفتُه الكتمان.

ولا تَحْمِلْك دعوىٰ فساد الزمان، وغَلَبَةِ الفُسَّاق، وضَعف إفادة النصيحة: عن واجب الأداء والبلاغ، فإن فَعلت فهي فَعْلَةٌ يسوق عليها الفُسَّاق الذهبَ الأحمر، ليتم لهم الخروجُ علىٰ الفضيلة ورفع لِواء الرذيلة.

○ ○ ○

الشرح:

□ يقول الإمام ابن رجب الحنبلي[٢]: «ومع هٰذا كله فلابُد للناس مِن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والتذكير، ولو لم يعظ الناسَ إلا معصومٌ من الزلل؛ لم يعظ الناس بعد الرسول ﷺ أحدٌ، لأنه لا عِصْمَة لأحدٍ بَعده.

وقيل للحسن: «إن فُلانًا لا يَعظُ ويقول: أخافُ أن أقول ما لا أفعل! فقال الحسن: وأَيُّنَا يَفْعَل مَا يقول؟! وَدَّ الشيطان أنه قد ظَفِرَ بِهٰذا، فلم يأمر أحدٌ بمعروف ولم ينه عن مُنْكَر».

وقال مالكٌ عن ربيعةَ: «قال سعيد بن جُبَير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهىٰ عن المُنْكَر حتىٰ لا يكون فيه شيء؛ ما أَمَرَ أحدٌ بمعروف، ولا نَهَىٰ عن مُنْكَر. قال مالِكٌ: وصَدَقَ، ومن ذَا الذي ليس فيه شيءٌ؟!».

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم بمعناه» (١٥٨ ـ ط: دار ابن عباس).

(٢) «لطائف المعارف» لابن رجب الحنبلي (ص/ ٤٢ : ٤٤ ـ ط: المكتب الإسلامي).

مـن ذا الـذي مـا سـاء قـط؟! ومـن لـه الحسنىٰ فقـط؟!

□ وقال الإمام بلال بن أبي بردة[١]: «يا معشر الناس، لا يمنعنكم سوء ما تعلمون منا أن تقبلوا أحسن ما تسمعون».

□ وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي[١]:

اعمل بعلمي ولا تنظر إلىٰ عملي ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري

□ وخطب عُمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يومًا، فقال في مَوعِظَتِهِ: «إني لأقول هٰذه المَقَالَة، وما أعلم عند أحدٍ من الذنوب أكثر ممَّا أعلم عندي؛ فأستغفر اللَّه وأتوب إليه».

قلت: ذكرت في أول شرحي هٰذا أن هٰؤلاء الأكابر كانوا أبعد الناس عن المعاصي والذنوب، ولٰكنهم ـ كما قلت ـ كأن الوعيد لم يكن إلَّا لهم؛ فلازمتهم الخشية والخوف علىٰ الحقيقة مع هضم أنفسهم حتىٰ يجعلهم اللَّه قدوةً لنا وهديًا وطريقًا، فرضي اللَّه عنهم.

□ «وكان بعض العلماء[٢] المشهورين له مجلس للوعظ، فجلس يومًا فنَظَرَ إلىٰ مَن حَولَه ـ وهم خَلقٌ كثير ـ، وما منهم إلا من قد رَقَّ قَلبُه أو دَمَعَت عينه، فقال لنفسه فيما بينه وبينها: كيف بِكِ إن نجا هٰؤلاء وهَلَكْتِ أنتِ؟ ثم قال في نفسه: اللهم إن قضيت عليَّ بالعذاب فلا تُعْلِم هٰؤلاء بعذابي صيانةً لِكَرَمِك لا لأجلي، لئلا يُقَال: عَذَّبَ من كان في الدنيا يَدُلُّ عليه. إلٰهي، قد قيل لنبيك ﷺ: اقْتُلِ ابن أُبَيٍّ المُنَافِق، فقال: «**لا يتحدث الناس أن مُحمدًا يَقْتُلُ أصحابه**»، فامتَنَع من عِقابه، لَمَّا كان في الظاهر يُنْسَب إليه، وأنا علىٰ كل حَالٍ فإليك أُنْسَبُ، وأنتَ أكرمُ الأكرَمين وأرحمُ الراحمين، فلا تُخَيِّب من عَلَّقَ أمله ورجاءه بك وانتَسَبَ إليك ودعا عبادك إلىٰ بابك وإن كان مُتطَفِّلًا علىٰ كَرَمِك، ولم يكن أهلًا للسَّمْسَرَةِ بينك وبين عبادك، لٰكنه طَمِعَ في سَعَة جودك

---

(١) «المجالسة» للدينوري (١٦٣٩).

(٢) هو الإمام العلَّامة ابن الجوزي صرح بذٰلك في كتابه الفذ «صيد الخاطر» (ص/ ١٩٧).

وكرمك، فأنت أهل الجود والكرم، وربما استحيا الكريم من رَدِّ مَن تَطَفَل علىٰ سِمَاطِ كَرَمِهِ» اهـ.

▫ وقال الإمام أصبغ الهمداني عن القاضي منذر البلوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن تواضعه في نفسه وهضمها أنه قال يومًا في وعظه: حتىٰ متىٰ وإلىٰ متىٰ أعظُ ولا أتعظ؟ وأزجر ولا أنزجر؟ أدل علىٰ الطريق المستدلين، وأبقىٰ مقيمًا مع الحائرين؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات]، ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف]، فاللهم فرغني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما تكفلتَ لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبني وأنا أستغفرك يا أرحم الراحمين» اهـ[1].

والحكمة في وقوع أهل العلم في الذنوب أحيانًا فائدتان:

الأولىٰ: اعتِراف المُذنِبين مِنْهُم بذنوبهم وتقصيرهم في حق مولاهم، وتنكيس رؤوس عُجْبهم، وهٰذا أحبُ إلىٰ اللَّه مِن فِعلِ كثيرٍ من الطاعات؛ فإنَّ دَوَام الطاعات قد توجب لصاحبها العُجب، فأنين المذنبين أحب إليه من زَجَلِ المُسَبِّحِينَ، لأن زَجَلَ المُسَبِّحِين رُبَّمَا شَابَهُ الافْتِخَار، وأنين المذنبين يزينه الانكسار والافتقار.

والفائدة الثانية: «حصول المغفرة والعفو من اللَّه تعالىٰ لعبده؛ فإن اللَّه يُحِب أن يعفو ويغفر، ومن أسمائه الغَفَّار والعَفُو والتَّوَّاب، فلو عَصَمَ الخَلق فَلِمَن كان العفو والمغفرة».

والمقصود أن العبد لا يتوانىٰ في التوبة، ولا يتوانىٰ في الدعوة إلىٰ اللَّه تعالىٰ، وهٰذا هو ما يُحبُه اللَّه ويرضاه. واللَّه أعلم.

---

(١) «التاج المكلل»، لصديق حسن خان (ص/ ٢٩٠).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٦ ـ عِزَّةُ العُلَمَاء:

التحلي بـ«عِزَّةِ العُلماء»: صيانة العلم وتعظيمه، وحماية جناب عِزِّهِ وشرفه، وبقدر ما تبذله في هٰذا يكون الكسب منه ومن العمل به، وبقدر ما تُهدره يكون الفوتُ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العزيز الحكيم.

وعليه فاحذر أن يَتَمْنَدَل بِك الكبراء، أو يمتطيك السُفهاء، فتُلاين في فتوىٰ، أو قضاء، أو بحث، أو خِطاب.

ولا تَسْعَ به إلىٰ أهل الدنيا، ولا تقف به علىٰ أعتابهم، ولا تبذله إلىٰ غير أهله وإن عظم قدره.

○ ○ ○

الشرح:

هٰذا ما يسميه العُلماء: هيئة العِلم ومَنظر العلم وشرف العلم، وليس هُناك أعَز من العلماء علىٰ وجه الأرض دنيا وآخرة؛ إلا أن في الآخرة مقام الأنبياء والصديقين والشهداء، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت: ٣٣].

□ قال أبو حازم الزاهد: «لقد أَتتْ علينا بُرهَةٌ مِن دَهْرِنا وما عالم يطلب أميرًا، وكان الرجل إذا عَلِمَ اكتفىٰ بالعلم عَمَّا سِواه، فكانت الأُمَرَاء تَغْشَاهُم في منازلهم وتقتبس منهم، فكان في ذٰلك صلاحٌ للفريقين للوالي والمولَّىٰ عليه، فلما رأت الأمُراء أن العلماء قد غَشَوْهُم وجالسوهم وسألوهم ما في أيديهم؛ هانوا عليهم، وتركوا الأخذ عنهم والاقتباس منهم، فكان في ذٰلك هلاك الفريقين الوالي والمولَّىٰ عليه».

□ وقال ابن الحاج العبدري في «مدخله»[1]: «فَعُلِمَ أن أعظم أعمال الآخرة

(١) «المدخل» لابن الحاج (١/ ١٥، ١٤ ـ ط: دار الفكر).

هو طلب العلم، ولا يخفىٰ علىٰ ذي بصيرة أن الغالب من ذٰلك راجع إلىٰ الدنيا صرفًا، يقعد أحدنا يتعلم العلم ويبحث فيه، ثم يطلب ما هو معلومٌ في الوقت من طلب المناصب به والرياسات ومحبة الظهور والرفعة به علىٰ أبناء جنسه، ومحبة الحظوة عند الأمراء والسلاطين والعلماء والعوام؛ **إن سَلِم من الداء العضال**: وهو التردد إلىٰ أبوابهم وإهانة هٰذا المنصب الشرعي العظيم بالوقوف به علىٰ أبواب الظلمة، ومعاينة ما العلم الذي عنده يُحَرِّمُه ويأمر بتغييره، قال تعالىٰ: ﴿**شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨**﴾ [آل عمران]، **فجعل العلماء في ثاني درجة من ملائكته، وفي ثالث مرتبة منه** ﷻ - **أعنىٰ في الشهادة** - .

فانظر إلىٰ هٰذا المنصب العظيم والسعادة العظمىٰ؛ كيف وقع ونزل به هٰذا المسكين المتشبه بالعلماء الدخيل فيهم، تَسَمَّىٰ باسمٍ لم يستحقه فنزل به إلىٰ أسفل سافلين، ولٰكن العلم - والحمد للَّه - ، لم ينزل، وإنما أنزل نفسه وبخسها حظها لكونه لم يتصف بالعلم الذي مَنَّ اللَّه عليه به وترك علمه علىٰ رأسه حجةً عليه يوبخه بين يدي ربه، ويكون سببًا لإهلاكه - عياذًا باللَّه - .

▫ دَخَل أعرابي البصرة فقال: «من سَيِّد هٰذه القرية؟ فقالوا: الحسن البصري، قال: فَبِمَ سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلىٰ علمه، واستغنىٰ هو عن دُنياهم».

▫ وكان الحسن يقول: «إن لكل شيء شينًا[١]، وشينُ العلم الطمع»[٢].

▫ وقال الفضيل بن عياض: «ما أقبح بالعالم يؤتىٰ إلىٰ منزله فيُقال: أين العالم؟ فيقال: عند الأمير، أين العالم؟ فيقال: عند القاضي! ما للعالم وما للقاضىٰ؟! وما للعالم وما للأمير؟! ينبغي للعالم أن يكون في مسجده يقرأ في مُصحف»[٣].

---

(١) الشَّين: العيب والعار.

(٢) «رسائل ابن رجب الحنبلي» (١/ ٥٧ - ط: دار الفاروق بمصر).

(٣) «روضة العقلاء» لابن حبان (ص/ ٤٣) رقم (٥٢).

□ وقال الفضيل ـ أيضًا ـ : «كان العلماء ربيع الناس، إذا رآهم المريض لم يسره أن يكون صحيحًا، وإذا نظر إليهم الفقير لم يَوَدَّ أن يكون غنيًّا، وقد صاروا اليوم فتنةً للناس».

□ وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

يا جَاعِل العلم له بازيًا ... يصطادُ أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذَّاتها ... بحيلة تَذهَبُ بالدِّين
أين رواياتك فيما مضىٰ ... عن ابن عون وابن سيرين
ودرسُك العلم بآثاره ... في ترك أبواب السلاطين
تقول أُكْرِهْت فماذا كَذا ... زَلَّ حِمارُ العلم في الطين
لا تبع الدين بالدنيا كما ... يفعل ضُلَّال الرَّهَابِين

□ وقال العلَّامة أبو شامة المقدسي[2]: «كان العلماء من السلف الصالح أهل نسك وعبادة وورع وزهاده، أرضوا اللَّه تعالىٰ بعلمهم، وصانوا العلم فصانهم، وتذرعوا من الأعمال الصالحة بما زانهم، ولم يشنهم الحرص علىٰ الدنيا وخدمة أهلها، بل أقبلوا علىٰ طاعة اللَّه التي خلقوا لأجلها، وعرفوا مقداره فعظموه وبجلوه ووقروه، واستغنوا به، ورأوه بعد المعرفة أفضل ما أعطي البشر، واحتقروا في جنبه كل مفتخر، وتلوا: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦]».

□ وذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[3] ـ عن عظمة وعفة الإمام ابن الأثير الجزري رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «فلما آل الملك إلىٰ السلطان نور الدين زَنْكي رَحِمَهُ اللَّهُ أرسل مملوكه إلىٰ العلَّامة ابن الأثير يطلبه للوزارة، فأبىٰ، فركب السلطان نور

---

(١) «تاريخ بغداد» للخطيب (٦/ ٢٣٦) و«السير» للذهبي (٩/ ١١٠ ـ ط: الرسالة).
(٢) «مختصر المؤمل في الرد إلىٰ الأمر الأول» (ص/ ٣٤) لأبىٰ شامة المقدسي.
(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (٩/ ٤).

الدين إليه بنفسه! فامتنع ـ أيضًا ـ ! وقال له: قد كبرت سِنْي، واشتهرت بنشر العلم، ولا يصلح هٰذا الأمر إلَّا بشيء من العسف والظلم، ولا يليق بي ذٰلك، فأعفاه».

□ وبعث الأمير خالد الذُّهْلي لمحمد بن إسماعيل البخاري: «أن احمل إليَّ كتاب «الجامع الصحيح» و«التاريخ الكبير» لأسمع منك، فبعث إليه البخاري: أنا لا أُذل العلم ولا أحمله إلىٰ أبواب الناس؛ فإن كان لك شيء منه حاجة فاحضُرني في مسجدي أو بيتي والسلام».

لا تَعرِضَنَّ لِذِكرِنا مع ذكرهم ... ليس الصحيحُ إذا مشىٰ كالمُقعَدِ

قال المؤلف رحمه الله:

ومَتِّع بصرك وبصيرتك بقراءة التراجم والسِّيَر لِأئمةٍ مَضَوا، تَـرَ فيها بذل النفس في سبيل هٰذه الحماية، لا سيَّما مَنْ جَمَعَ مُثُلًا في هٰذا، مثل كتاب «من أخلاق العلماء» لمحمد سليمان رحمه اللَّهُ تعالىٰ[1]، وكتاب «الإسلام بين العلماء والحُكَّام» لعبدالعزيز البدري رحمه اللَّهُ تعالىٰ، وكتاب «مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لفاروق السامرائي[2].

وأرجو أن ترىٰ أضعاف ما ذكروه في كتاب «عِزَّة العلماء» يسر اللَّه إتمامه وطبعه.

وقد كان العلماء يُلَقِّنُونَ طُلابهم حَفِظ قصيدة الجُرجاني ـ عليِّ بن عبدالعزيز ـ (م سنة ٣٩٢هـ) رحمه اللَّهُ تعالىٰ؛ كما نجدها عند عدد من مُتَرجِمِيه، ومطلعها:

يقولون لي: فيك انقباض! وإنما ... رأوا رجلًا عن موضع الذُّل أحْجَمَا

أرىٰ الناس من داناهُم هانَ عِنْدَهُم ... ومَنْ أكْرَمَتْهُ عِزَّة النَّفْسِ أُكْرِما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عَظَّمُوهُ في النُّفُوسِ لَعَظَّمَا

«لعظَّما» بفتح الظاء المعجمة المُشالية.

○ ○ ○

الشرح:

قلت: وتكملة هٰذه القصيدة القيمة[3]: «العالِمُ الأَبيّ»:

---

(١) مطبوع مرارًا.

(٢) طبع بجدة عام (١٤٠٧ هـ) نشر دار الوفاء بجدة.

(٣) كما ذكرها الخطيب في «الجامع» (١/ ٣٧٠)، و«يتيمة الدهر» (٤/ ٢٣)، و«السير» للذهبي (١٧/ ١٩)، وابن رجب في «رسائله» (١/ ٥٨)، و«طبقات الشافعية» للسُّبكِي (٣/ ٤٦٠)، و«معجم الأدباء» (١٤/ ١٧)، و«الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ٤٨ ـ ط دار الوفاء).

وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا
وَما زِلْتُ مُنْحَازًا بِعِرْضِي جَانِبًا ... عَنِ الذَّمِّ أَعْتَدُّ الصِّيَانَةَ مَغْنَمَا
إِذَا قِيلَ: هٰذا مَوْرِدٌ قُلْتُ: قَدْ رَأَىٰ ... وَلٰكِن نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
أُنَزِّهُهَا عَنْ بَعْضِ مَا قَدْ يَشِينُهَا ... مَخافَةَ أَقْوَالِ العِدا فِيمَ أَوْ لِمَا
فَأُصْبِحُ عَن عَيبِ اللَّئِيم مُسَلَّمًا ... وَقَدْ رَحْتُ فِي نَفْسِ الكريم مُعَظَّمَا
وإني إذا مَا فَاتَنِي الأمرُ لم أَبِت ... أقلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمَا
ولٰكنه إنْ جاء عفوًا قَبِلْته ... وإنْ مال لم أُتْبِعهُ (هلَّا) و(لَيتما)!
وأَقبِضُ خَطويَ عن حُظوظٍ كَثيرةٍ ... إذا لم أنلها وافرَ العِرضِ مُكرما
وأُكرِمُ نفسي أنْ أُضاحِكَ عابسًا ... وأَنْ أَتلقَّىٰ بالمديح مُذَمَّما
وَكَمْ طَالبٍ رِقِّي بنُعْمَاهُ لم يَصِلْ ... إليه وإنْ كَانَ الرَّئِيسَ المُعَظَّمَا
وَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ كانَتْ علىٰ الحُرِ ... وَكَمْ مَغْنَمٍ يَعْتَدُّهُ الحُرُّ مَغْرَمَا
وَلَمْ أَبْتَذِل في خِدْمَةِ العلم مُهْجَتِي ... لأَخْدُمَ مَنْ لاقِيتُ لٰكن لأُخْدَمَا
أَأَشْقَىٰ بِهِ غَرْسًا وأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذًا فاتِّباعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وأني لراضٍ عنْ فتىً مُتعففٍ ... يَرُوحُ ويَغدُو ليس يملك درهما
يَبِيتُ يُراعِي النَّجمَ مِن سُوءِ حَالِهِ ... وَيُصبِحُ طَلقًا ضَاحِكًا مُتبسِمًا
وَلا يَسأَلُ المُثْرِينَ مَا بِأَكُفِهم ... وَلَو مَاتَ جُوعًا عِفَّةً وتَكرُمًا
فَإِنْ قُلْتَ زَنْدَ العِلْم كَابَ فَإِنَّما ... كَبَا حَيْثُ لَمْ تحْمَىٰ حِمَاهُ وَأَظْلَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْم صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ في النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
وَلٰكِن أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأطماعِ حَتَّىٰ تَجَهَّمَا
ومَا كُلُّ بَرقٍ لاحَ يَسْتَفِزُّني ... ولا كلُّ من لاقيتُ أرضاهُ منعِما
وَلٰكن إِذَا مَا اضطَرَني الضُّرُّ لم أَبِتْ ... أُقَلِّبُ فِكْرِي مُنْجِدًا ثُمَّ مُتْهِمَا

إِلىٰ أَنْ أَرَىٰ مَا لا أَغُصُّ بِذِكْرِهِ إِذَا قُلْتُ قد أَسْدَىٰ إِلَيَّ وَأَنْعَمَا

□ قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ بعدها: «الحرص على الدنيا والطمع فيها قبيح، وهو من العلماء أقبح، فإن كان بعد نزول الشَّيْب فهو أقبح وأقبح»[1].

□ وقال التاج السبكي رَحِمَهُ اللَّهُ[2] بعدها: «للَّهِ هٰذا الشِّعْرُ ما أَبْلَغَهُ وأَصْنَعَهُ! وما أعلىٰ علىٰ هام الجوزاء موضِعَهُ، وما أنفعه لو سمعه من سمعه! وهٰكذا فليكن ـ وإلا فلا ـ أدبُ كُلِّ فقيه، ولمثل هٰذا النظام يحسن النَّاظِمِ الذي لا نَظِيرَ لهُ ولا شبيه، وعند هٰذا ينطق المُنْصِفُ بعظيم الثناء علىٰ ذهنه الخالص لا بالتمويه» اهـ.

(١) «رسائل ابن رجب الحنبلي» (١/ ٥٨ ـ ط: دار الفاروق مصر).
(٢) «طبقات الشافعية» للسبكي (٣/ ٤٦٠).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤٧ ـ صِيانَة العِلمِ:

إن بَلَغْتَ مَنْصِبًا، فتذكر أن حبل الوصل إليه طلبك للعلم، فبفضل اللَّه ثم بسبب علمك بلغت ما بلغت من ولايةٍ في التعليم، أو الفُتيا، أو القضاء. وهٰكذا فأعط العلم قدره وحظه من العمل به وإنزاله منزلته.

واحذر مسلك من لا يرجون للَّه وقارًا، الذين يجعلون الأساس «حفظ المنصب»؛ فيطوون ألسنتهم عن قول الحق، ويحملهم حُبُّ الولاية علىٰ المجاراة.

○ ○ ○

الشرح:

كأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصف حالنا اليوم وما آل الأمر إليه الآن إلَّا من رَحِمَ اللَّه تعالىٰ.

▫ قال ذو النون المصري[١]: «كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بُغضًا للدنيا وتركًا لها، واليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حبًّا ولها طلبًا، وكان الرجل ماله علىٰ علمه، واليوم تكسَّب الرجل بعلمه، وكان يُرىٰ علىٰ صاحب العلم زيادة في باطنهِ وظاهِرِه، واليوم يُرىٰ علىٰ كثيرٍ من أهل العلم فساد الباطن والظاهر».

▫ وقال العلَّامة ابن الحاج في «مدخله»[٢]: «وهٰذا كله بخلاف أحوالنا اليوم؛ لأن المتسبب لا يبالىٰ من أين دخل عليه كسبه، والمنقطع ناظر إلىٰ المخلوقين متطلع لما في أيديهم، راغبٌ فيهم، راهبٌ منهم، ولأجل هٰذا تجد كثيرًا منهم علىٰ أبواب المتسببين، يا ليتهم لو اقتصروا علىٰ ذٰلك، بل تجد من

---

(١) «طبقات الصوفية» للسلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص/ ٣٤).

(٢) «المدخل» لابن الحاج (٤/ ٣٠١ ـ ط: دار الفكر بيروت).

انغمس منهم في الجهل علىٰ أبواب من لا يرضىٰ حاله في الوقت، فصرنا كما قال الإمام القدوة يُمن بن رزق رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تعرف العقلاء من كثرة الحمقىٰ».

وهٰذا الذي قاله إنما كان في زمانه، وأما اليوم فقد عمَّ الأمر واشتد الكرب إلَّا علىٰ الفرد النادر، وقد كان شيخنا القدوة ابن أبي جمرة رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: لولا أن النبي ﷺ قال: «**لا تزالُ طائفة من أمتي قائمةً علىٰ أمر اللَّه؛ لا يضرهم من خالفهم حتىٰ يأتيَ أمر اللَّه**»، لأيس الإنسان في هٰذا الزمان من أن يجد واحدًا منهم، ولٰكن الحديث يَرُد هٰذا الإياس، لٰكنهم في القلة بحيث إنهم لا يعرفون. فطوبىٰ لمن عرف واحدًا منهم ورآه بعين التعظيم؛ فهم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم».

قلت: «خَرج الحسنُ من عند ابن هبيرة، فإذا هو بالقُرَّاءِ علىٰ الباب، فقال: ما أجلسكم هاهنا؟! تريدون الدخول علىٰ هٰؤلاء؟! أما واللَّهِ ما مخالطتهم بمخالطة الأبرار؛ تفرقوا فرَّق اللَّه بين أرواحكم وأجسادكم، خصفتم نعالكم، وشمَّرتم ثيابكم، وجززتم رؤوسكم، فَضَحْتُم القرَّاء فضحكم اللَّه تعالىٰ. أما واللَّه لو زهِدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم، ولٰكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيما عندكم؛ فأبعَدَ اللَّهُ مَنْ أبعَد»(١).

(١) «تاريخ دمشق» (٤٥/ ٣٦٧)، «الحلية» (٢/ ١٥١)، «المجالسة» (١/ ٢١٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فالزم ـ رحمك اللَّه ـ المحافظة علىٰ قيمتك بحفظ دينك وعلمك، وشرف نفسك، بحكمةٍ ودرايةٍ وحسن سياسة: «احفظ اللَّه يحفظك».

○ ○ ○

الشرح:

هٰذا الحديث صحيح:

أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ١٩٤) (٢٦٦٩)، وابن السُني في «عمل اليوم والليلة» (٤١٩)، وأبو يعلىٰ (٢٥٥٦) والضياء في «المختارة» (١٠/ ٢٣)، والآجُرِّي في «الشريعة» (١٩٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣١٦)، وقال التِّرمذي: «حسن صحيح»، وقال ابن منده في «التوحيد» (٢/ ١٠٧) (٢٤٨): «هٰذا إسناد مشهور رواته ثقات». وقال ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٢٢) (١٠٠٤): «وذكر العقيلي أن أسانيد الحديث كلها ليِّنة، وبعضها أصلح من بعض، وبكل حال فطريق «حنش الصنعاني» التي خَرَّجَها الترمذي من حديث ابن عباس: حسنةٌ جيدة» اهـ، وقال الشيخ العلَّامة أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٣/ ١٩٤): «إسناده صحيح»، وقال ابن حجر في «موافقة الخُبْرِ الخَبَر» (١/ ٣٢٧): «هٰذا حديث حسن»، وقال العلامة الألباني: «صحيح»، انظر: «المشكاة» (٥٣٠٢)، «وصحيح الجامع» (٧٩٥٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«احفظ اللَّه في الرخاء يحفظك في الشدة».

وإن أصبحت عاطلًا من قلادة الولاية ـ وهٰذا سبيلك ولو بعد حين ـ فلا بأس، فإنهُ عَزْلُ مَحْمَدَةٍ لا عزل مَذَمَّةٍ ومَنْقصةٍ.

ومن العجيب أن بعض من حُرِمَ قصدًا كبيرًا من التوفيق؛ لا يكون عنده الالتزام والإنابة والرجوع إلىٰ اللَّه إلا بعد «التقاعد»؛ فهٰذا وإن كانت توبته شرعية، لٰكن دينه ودين العجائز سواءٌ؛ إذ لا يتعدىٰ نفعُه، أما وقت ولايته، حال الحاجة إلىٰ تعدىٰ نفعِه، فتجده من أعظم الناس فجورًا وضررًا، أو بارد القلب أخرس اللسان عن الحق.

○ ○ ○

الشرح:

قلت: نعم؛ كثير من هٰؤلاء القوم هٰذا دأبه وعمله، تجده إذا كان في وزارة أو منصبٍ طيلة حياته لا يأتي منه خير أبدًا؛ دأبه السكوت، وربما دأبه الإنكار علىٰ أهل الحق حفاظًا علىٰ منصبه وراتبه وهيئته، ثم بعد إحالته ـ يعنىٰ علىٰ المعاش ـ لا تجده أبدًا!! وإن وجدته وجدته يدندن بما لا ينفع عامةً ولا خاصة، وأنىٰ يأتي النفع! فهٰذا مصيره عندنا كمصير خيل الحكومة إذا كبر سِنُّه أعدموه أو إذا كبر قُبِرَ لعدم نفعه ـ عياذًا باللَّه ـ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٨ ـ المُدَارَاة لا المُدَاهَنَة:

المُداهنة خُلُقٌ مُنْحَطٌّ، أمَّا المُداراة فلا، لٰكن لا تَخْلِط بينهُما، فتحملُك المُداهَنة إلىٰ حَضَارِ النفاق مجاهرةً، والمداهنة هي التي تمس دينك[(١)].

○ ○ ○

الشرح:

◻ قال الإمام سهل التُّستَري: «لا يَشُمُّ رائحةَ الصدقِ عبدٌ دَاهَن نفسَه أو دَاهَن غيرَه»[(٢)].

◻ وقال ابن منظور[(٣)]: «والمداهنة: المُصَانَعة واللِّين، وقيل: المُداهنة: إظهار خلاف ما يُضْمِرُ، والإدْهانُ: الغِشُّ، ودَهَنَ الرجُلُ إذا نافق».

فوضح أنَّ المُداهنة خُلقٌ ذَميم؛ كما قال تعالىٰ ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم].

والمقصود ممَّا سلف أن الفرق بين المداراة والمداهنة يتلخص فيما يلي:

ـ أن المداراة هي السكوت عن بعض قبائح الغير، للمصلحة الراجحة، كمن يخشىٰ إن أنكر علىٰ العاصي أن يُقتل أو يُضرب أو يُحبس أو غير ذٰلك من أنواع الضرر، وكذا قد يسكت السامع لما يأمله من تأليف العاصي بعد ذٰلك، وجرِّه إلىٰ طريق الحق بألطف وسيلة وألين سبيل.

ـ أما المداهنة، فهي اتباع أهل الضلال في ضلالهم، ومعاونتهم عليه، ومسايرتهم فيه، فهي قرينة النفاق، واللَّهُ تعالىٰ أعلىٰ وأعلم.

---

(١) انظر: «الغرباء» للآجري (٧٩ ـ ٨٠) مهم، و«روضة العقلاء» (ص٧٠) لابن حبان.

(٢) «آداب الصحبة» لأبي عبد الرَّحمٰن السُّلَمِي (ص/ ٧٤).

(٣) «لسان العرب» (٢/ ١٤٤٧) مادة «دَهَنَ».

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٩ ـ الغَرام بالكُتُب[1]:

شَرَفُ العِلْمِ مَعلوم، لعُموم نفعِهِ، وشدة الحاجة إليه كحاجة البَدَنِ إلىٰ الأنفاس، وظهور النقص بقدر نقصِه، وحصول اللَّذَّةِ والسرور بقدر تحصيلِه؛ ولهٰذا اشتد غرام الطُّلَّاب بالطلب والغرام بجمع الكتب مع الانتقاء، ولهم أخبار في هٰذا تطول وفيه مقيدات في «خبر الكتاب» يسر اللَّه إتمامه وطبعه.

وعليه فأحرِزِ الأصول من الكتب، واعلم أنه لا يغني منها كتاب عن كتاب، ولا تحشر مكتبتك وتشوِّش علىٰ فكرك بالكتب الغُثائية[2]، لا سيما كتب المُبْتَدِعَة، فإنها سُمٌّ نَاقِع.

○ ○ ○

الشرح:

◻ يقول الإمام زين الدين الغَزي رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المُحتاج إليها في العلوم النَّافعة الظَّاهِرَة ما أمكنَهُ شِرَاءً، وإلا فإِجَارَةً أو عارية؛ لأنها آلة التحصيل، ولا يجعل تحصيلها وجمعها وكثرتها حظه من العلم ونصيبه من الفهم».

◻ فالكتاب «نِعْمَ الأنِيْس في ساعة الوحدة، ونِعم المعرفة في بلاد الغُربة ونِعم القَرِين والدَّخِيل، ونِعم الوَزير والنَّزِيل، والكتاب وِعَاءٌ مُلِيء عِلْمًا، وَظَرْفٌ حُشي ظُرْفًا، وإناءٌ شُحِنَ مَزحًا وَجَدًّا، إن شئت كان أبين من سَحْبَان وائل، وإن شئت كان أعْيا من باقلٍ، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه، وإن شئت أشجتك

---

(١) انظر «روضة المحبين» (ص/ ٦٨ ـ ٦٩) مهم، و«مفتاح دار السعادة» (ص/ ٨١) ففيهما أخبار ظريفة وحكايات طريفة.

(٢) يعني رَحِمَهُ اللَّهُ المليئة بالغثاء، وهي قاذورات البدع والضلال المؤذية للقلب والعقل.

(٣) «الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد» للإمام الغَزِي: (ص/ ٤٢١).

مواعظه»[١].

▫ وقال المعافىٰ بن زكريا[٢] عن الكتاب: «فإن الكتاب إذا حوىٰ ما وصفناه من الحكمة وأنواع الفائدة؛ كان لمقتنيه والناظر فيه بمنزلة جليس كامل، وأنيس فاضل، وصاحب أمين عاقل؛ فإنه حاضر نفعه، مأمون ضره، ينشط بنشاطك فينبسط إليك، ويَمَلُّ فينقبض عنك، إن أدنَيْتَهُ دَنَا، وإن أنْأَيْتَهُ نَأَىٰ، لا يبغيك شرًّا، ولا يُفْشي لك سِرًّا، ولا يَنِمُّ عليك، ولا يسعىٰ بنميمةٍ إليك؛ ولذٰلك قال بعضهم:

نعم الصاحب والجليس كتابُ ... تلهو به إن خانك الأصحابُ
لا مفشيًا عند القطيعة سرَّه ... وتُنالُ منه حكمةٌ وصوابُ» اهـ.

▫ «وَمَرَّ رَجُلٌ بعبدالله بن عبدالعزيز وهو جالس في المقبرة، وبيده كتاب، فقال له: ما أجلسك هاهنا؟ قال: إنه لا أوعظ من قبر ولا أمتعَ من كتاب».

ولكلِّ طالب لذَّة مُتنزَه ... وألذُّ نُزهة عالم في كُتْبِهِ[٣]

وإيَّاك ثم إيَّاك من كُتبِ المُبتَدِعَة فإنها الداء العُضَال.

▫ يقول الذهبي: عن كتاب «الفصوص» لابن عربي الصوفي: «وَمِنْ أَرْدَإِ تَوَالِيفِهِ كِتَابُ «الفُصُوْصِ»، فَإِنْ كَانَ لاَ كُفْرَ فِيْهِ، فَمَا في الدُّنْيَا كُفْرٌ، نَسْأَلُ اللّه العَفْوَ وَالنَّجَاةَ، فَوَاغَوثَاهُ بِاللّهِ!!»[٤].

▫ وقال صديق حسن خان في «تاجه المكلل» (ص٢٠٤): «قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: بلغني أن الإمام ابن العطار رَحِمَهُ اللهُ رُئي في المنام في مدينة جميع جدرانِها من الكتب ـ وحوله كتب لا تحد ـ مشتغلٌ بمطالعتها، فقيل له: ما هٰذه الكتب؟ قال: سألتُ ربي أن يشغلني بما كنت أشتغل به في الدنيا فأعطاني.

---

(١) من كلام الجاحظ في كتابه «الحيوان» (١/ ٣٨).
(٢) «تقييد العلم» للخطيب (ص/ ٢٧).
(٣) «تاريخ دمشق» (٣١/ ٢٢٠)، «الحلية» (٨/ ٢٨٣)، «المجالسة» (٣٠٨٤).
(٤) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٣/ ٤٨ ـ ط: الرسالة).

قلت ـ أي: ابن الجوزي ـ : وهٰذه مسألتي من اللّٰه تعالىٰ في عالم البرزخ؛ فإن ولعي بالكتب الشريفة الحديثية والقرآنية؛ فإن شغفي بالعلم لا ينكر، وهو سبحانه علىٰ ما يشاء قدير».

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٠ ـ قِوَام مكتبتك:

عليك بالكتب المنسوجة علىٰ طريقة الاستدلال والتفقه علىٰ علل الأحكام، والغوص علىٰ أسرار المسائل، ومن أَجَلِّهَا كتب الشيخين: شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية رحمهما اللَّه تعالىٰ.

وعلىٰ الجادة في ذٰلك من قَبْلُ ومن بَعْدُ كُتُب:

١ ـ الحافظ ابن عبدالبر (م سنة ٤٦٣هـ)، وأَجَلُّ كُتُبِهِ «التمهيد».

٢ ـ الحافظ ابن قدامة (م سنة ٦٢٠هـ)، وأرأس كتبه «المُغني».

٣ ـ الحافظ الذهبي (م سنة ٧٤٨هـ).

٤ ـ الحافظ ابن كثير (م سنة ٧٧٤هـ).

٥ ـ الحافظ ابن رجب (م سنة ٧٩٥هـ).

٦ ـ الحافظ ابن حجر (م سنة ٨٥٢هـ).

٧ ـ الحافظ الشوكاني (م سنة ١٢٥٠هـ).

٨ ـ الإمام محمد بن عبد الوهاب (م سنة ١٢٠٦هـ).

٩ ـ كتب علماء الدعوة ومن أجمعها «الدُّرَر السَّنِيَة».

١٠ ـ العلَّامة الصنعاني (م سنة ١١٨٢هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، لا سيما كتابه النافع «سُبُل السَّلام».

١١ ـ العلامة صديق حسن خان القِنَّوجي (م سنة ١٣٠٧هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٢ ـ العلامة محمد الأمين الشنقيطي (م سنة ١٣٩٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لا سيما كتابة: «أضواء البيان».

○ ○ ○

الشرح:

قلت: وكُتُب العلَّامة الألباني مُحَدِّثَ الشام رَحِمَهُ اللَّهُ؛ الذي كان الزمان علىٰ

شوق من رؤياه، ولقد جدد الدنيا بعلمه، وأزاح جُلَّ البدع التي كانت ذائعة قبل مجيئه، فرحم اللَّه هٰذا الإمام العَلَم، ومن أجَلِّ كُتُبِه «السلسلة الصحيحة» و«السلسلة الضعيفة» و«صحيح وضعيف السنن الأربعة» و«صفة صلاة النبي ﷺ»... وباقي كتبه وتحقيقاته، وهٰذا الرجل يعلم اللَّه تعالىٰ كيف حُبي له ولتلامذته وتحقيقاتهم.

وكتب الإمامين العظيمين ابن باز وابن عثيمين اللذين هما كـ«الشمس وضحاها والقمر إذا تلاها».

وكتب وتحقيقات العلامة الكبير فضيلة الشيخ عبدالمحسن العبَّاد ـ حفظه اللَّه ونفع به ـ.

وتحقيقات العلامة الكبير الجهبذ، صاحب الأعمال الجليلة فضيلة الشيخ عبدالقادر الأرنؤوط رحمه الله.

وتحقيقات العلامة المحدِّث المتفنِّن صاحب الجهود العظيمة في خدمة السنة النبوية فضيلة الشيخ شُعيب الأرنؤوط ـ حفظه اللَّه[1] ـ.

وتحقيقات وتعليقات كبير المحققين وقدوة الزاهدين العلَّامة الكبير أحمد معبد عبدالكريم متع اللَّه بعمره وعلمه، وزاده خدمة للعلماء والمحققين، ورزقه جنات النعيم اللهم آمين.

وجهد العلَّامة المحدث نور الدين عِتْر شيخي وأستاذي حفظه اللَّه.

وتحقيقات شيخي العلَّامة محمد عمرو بن عبداللطيف عليه رحمة اللَّه أستاذ أهل الحديث بمصر بلا ريب، الذي كان لا يدرىٰ إلا الحديث وعلومه وعلله ورجاله وكفاه.

وتحقيقات محدث مصر العلَّامة الحويني حفظه اللَّه، وأذهب عنه الحزن والمرض.

---

(١) والشيخ شعيب ـ حفظه اللَّه ـ ليس أخا الشيخ عبدالقادر، كما صرح الشيع شعيب في عدة مواضع من كتبه، ومنها مقدمة تحقيقه لكتاب: «رياض الصالحين».

وجهود صاحب المدرسة العليا لأهل الحديث وطلبة العلم الدكتور سعد ابن عبد اللَّه الحميد زاده اللَّه شرفًا وعِزًّا ورفعة.

وتحقيقات أستاذ صنعة التحقيق والتخريج العلَّامة مشهور بن حسن سلمان زاده اللَّه علمًا وأدبًا ونفع به دومًا.

وتحقيقات شيخي العلَّامة أبي الأشبال الزُّهيري متعنا اللَّه بعمره وعلمه.

وتحقيقات العلَّامة المُحَقِق النابغة أبي الحسن المأربي حفظه اللَّه وأمتع به.

وتحقيقات العلَّامة الفاضل البدر الساطع والنور اللَّامع: بدر بن عبد اللَّه البدر حفظه اللَّه تعالىٰ وزاد من جهده وسعيه وخدمته العَبِقَة للسُّنَّة النبوية.

وجهود الدكتور الفاضل العلَّامة الشيخ بدران العياري نور علماء الأزهر.

وكتب العلامة: محمد بن إسماعيل المقدم الإسكندراني؛ متع اللَّه به وبعلمه، وهٰذا الرجل سألت اللَّه أن يجود الزمان بمثله.

وأخيرًا جهد أخي الفاضل: مازن السرساوي وفقه اللَّه، ومعه الفاضل المتواضع المحقق الشيخ محمد بن مصطفىٰ أبو بسطام زاده اللَّه أدبًا.

ولعلي نسيت من هو مثلهم في العلم والجهد والأدب؛ فاللهم اعفُ عنا بما نُسِّينَا، واجعلنا في خدمة هٰؤلاء الأكابر.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥١ ـ التعامل مع الكتاب:

لا تستفد من كتاب حتىٰ تعرف اصطلاح مُؤَلِّفِهِ فيه، وكثيرًا ما تكون المُقَدِّمَةُ كاشفة عن ذٰلك، فابدأ من الكتاب بقراءة مقدمته.

○ ○ ○

الشرح:

وفي هٰذا فوائد هامة:

الأولىٰ: عدم نسبة القول للعالم وهو لم يَقُل به، فبعض العلماء يذكر قول مُخَالِفِه أولًا، ثم يعقبه بالرد عليه فيظن القارئ أن هٰذا قوله.

والثانية: إلزام المؤلف بما لم يَلزمه ـ أو يشترطه ـ في كتابه؛ من عدم ذكر بعض الأقوال الضعيفة والاكتفاء بالراجح من القول.

والثالثة: عدم الإرهاق في تحصيل المسألة التي تبحث عنها مثل كتاب «التمهيد» لابن عبدالبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإن له فيه منهجًا خاصًّا؛ لا كما يَظُنُّ البعض أنه مُرَتَّب علىٰ الأبواب(١).

فلابُد من قراءة مقدمة الكِتَاب؛ سواءٌ كانت من المؤلف أو المحقق لِتَبيُّنِ منهج الكتاب ومصطلحاته.

ومن المُهم ـ أيضًا ـ معرفة مذهب المؤلف العقدي والفقهي، وَسَنَة وفَاتِهِ ومشايخه ومصادره وبلده ومدرسته؛ هل هي حديثية أم فقهية أم صوفية أم جَمَعَت كل هٰذه المدارس مثل شيخ الإسلام الهَروي والقُشَيري أبي القاسم ابن هوزان الإمام العَلَم، والجيلاني رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ؛ فهٰؤلاء جمعوا بين هٰذه المدارس

---

(١) ثم وجدت الأخ المفضال المجتهد أسامة بن إبراهيم حفظه اللّٰه قد رتبه علىٰ الأبواب كما كان يتمنىٰ ابن عبدالبر ذٰلك وصرح في كتابه عن نيته وحققه بجهد قيم الشيخ أسامه جزاه اللّٰه خيرًا في دار الفاروق الحديثة بمصر.

كلها.

وربما بَيَّنَ المؤلف منهجه في مقدمة كتابه صَرَاحَة؛ كما فعل الإمامُ مُسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة كتابه «الصحيح»، أو كما فعل الحافظ ابن حجر في مقدمة فتح الباري «هُدَىٰ الساري»؛ حيث بَيَّنَ فيها مَنْهَجَه القَيم في شرحه «لصحيح البخاري» أمير المحدثين وحيَّةَ الوادي وأُستاذ الأُستاذِين.

وربما بَيَّنَ المؤلف منهجه في كتاب مستقل؛ كما فعل الإمام أبو داود السِّجستاني رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب السنن «سنن أبي داود»؛ فقد كتب رسالته إلىٰ أهل مكة وفيها بيان منهجه في كتابه السنن.

أو أن العالِمَ نَفْسَهُ يُشيرُ إلىٰ مَنهجه في أحد كُتُبِهِ الأُخْرَىٰ، أو يُنْقَل ذٰلك عنه في كتب مَن بعده من العلماء خاصةً تلامذته، أو يُفهم ذٰلك بالاستقراء والتتبع من كلامه في كتابِهِ.

□ «فلابُد للطَّالِبِ مِن اليقظة في جميع أموره؛ لتحصيل العلم والفهم واستخدام الوقت»[(١)].

(١) أفادني في بعضِ هٰذه الفوائد كتاب «من بطون الكتب» لأخي العالم المتفنن يوسف بن محمد العتيق حفظه اللَّه تعالىٰ وزاده فهمًا وعلمًا.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٢ ـ ومنه: إذا حُزْتَ كِتَابًا؛ فلا تُدخِلهُ في مكتبتك إلا بعد أن تَمُرَّ عليه جَردًا، أو قِراءةً لمقدمته، وفهرسه، ومواضع منه، أما إن جعلته مع فنه في المكتبة، فربما مَرَّ زمَان وفات العُمر دون النظر فيه، وهٰذا مُجَرَّب، واللّٰه المُوفِق.

٥٣ ـ إعجام الكتابة:

إذا كتبت فأعجم الكتابة بإزالة عُجْمَتِهَا، وذٰلك بأمور:

١ ـ وضوح الخط.

٢ ـ رسمه علىٰ ضوء قواعد الرسم «الإملاء»، وفي هٰذا مؤلفات كثيرة من أهمها:

كتاب «الإملاء» لحسين والي [(١)].

«قواعد الإملاء» لعبد السلام محمد هارون [(٢)].

«المُفرَد العَلَم» للهاشمي، رحمهم اللّٰه تعالىٰ [(٣)].

٣ ـ النقط للمعجم والإهمال للمُهْمَل [(٤)].

٤ ـ الشكل لِمَا يُشْكِل.

٥ ـ تثبيتُ علاماتِ الترقيم في غيرِ آيةٍ أو حَديثٍ [(٥)].

○ ○ ○

الشرح:

□ وفي ذٰلك يقول الإمام السخاوي: «وليحرص طالب العلم ـ إذا كتب

---

(١) طبع ثم صور عام (١٤٠٥هـ) بيروت/ دار القلم.

(٢) طبع الخانجي بمصر عام (١٣٩٩هـ) الطبعة الرابعة.

(٣) الطبعة الثانية والعشرون، المكتبة البخارية الكبرىٰ بمصر.

(٤) لأن الترك يؤدي إلىٰ الاشتباه. (٥) «الترقيم وعلاماته»، أحمد زكي باشا، طبع عام ١٣٣٠هـ.

الحديث ـ : علىٰ صرف الهِمَّة في ضَبْطِهِ وتحقيقه شكلًا ونَقْطًا وإيضاحًا من غير مَشْق ـ أي سُرعَة الكتابة ـ، ولا تَعليق ـ خلط الحروف المُفرَّقَة ـ بحيث يُؤمَنُ اللَّبْسُ معه، فلو لم يكن في إعجام الخط ـ وهو نقطهُ وضبطه ـ إلَّا السَّلامة من استعجامه ـ وهو التباسه بحيث لا يقدر كل أحد علىٰ قراءته ـ، ثم قيل: إنما يُشَكَلُ المُشْكِل، ولا يُشْتَغَلُ بتقييد الواضح؛ فقد كرهه بعض العلماء؛ لٰكن قال القاضي عِياض: الصواب أن يُشَكَلَ الجميع لأجل المُبْتَدِئ وغير المُعْرِب، وهٰذا هو اللائق في زماننا، وينبغي أن يكون اعتناؤه بضبط المُلْبِسِ مِنَ الأسماء أكثر لأنه نقلٌ محض لا مَدخَل للأفهام فيه؛ مثل: «بُريد» بضم الموحدة فإنه يشتبه بـ«يزيد»، ولذٰلك قال بعضهم: أولىٰ الأشياء بالضبط أسماء الناس؛ لأنه ليس قَبلَه شيء يدل عليه، ولا بعده شيء يدل عليه، ولا مَدخَل للقياس فيه» اهـ[1].

---

(١) «الغاية في شرح الهداية» للسخاوي رَحِمَهُ اللهُ (١/ ١٢٧ : ١٢٩ ـ ط: مكتبة العلوم والحكم).



المحاذير

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥٤ ـ حُلمُ اليَقَظَة:

إياك و«حُلم اليقظة»، ومنه بأن تَدَّعِي العلمَ لِمَا لَمْ تَعْلَم، أو إتقان ما لم تُتْقِن، فإن فعلت، فهو حِجَابٌ كَثيفٌ عن العِلْم.

○ ○ ○

الشرح:

قال النبي ﷺ: «**المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[١].

□ وقال السَّري السَقَطِي: «من تَزينَ للنَّاسِ بما ليس فيهِ سَقَطَ مِن عَينِ اللَّه عَزَّوَجَلَّ»[٢].

□ وقال يوسف بن الحسين الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لِرَجُل[٣]: «أَرِ اللَّه الصدق منك في جميع أحوالك بعد أن تكون مُوافِقًا للحق، ولا تَرْقَ إلىٰ حيثُ لم يَرْقَ بك فتَزِلَّ قدمك، فإنك إذا رقيت سقطت، وإذا رُقي بك لم تسقط، وإياك أن تَترُك اليقين لِمَا ترجوه ظنًّا».

□ وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «وقد تكلم في العلم من لو أمسَكَ عن بعضٍ مَا تَكَلَّمَ فيه منه لكان الإمساك أولىٰ به وأقرب من السَّلامة له إن شاء اللَّه».

□ وقال القشيري[٥]: «ولهٰذا قالوا: قف علىٰ البِسَاط وإيَّاكَ والانْبِسَاط».

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٨٤) ومسلم (٢٧٧٨) من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) «طبقات الصوفية» للسلمي (ص/ ٥٧).

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠/ ٢٥٥).

(٤) «الرسالة» للشافعي (ص/ ٤١ ـ ط: شاكر).

(٥) «الرسالة» للقشيري (ص/ ٥٩).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٥ ـ احذر أن تكون «أبا شِبر»[١]:

فقد قِيل: العلم ثلاثة أشْبَار، من دَخَلَ في الشبرِ الأَوَّل تَكَبَّر، ومن دَخَل في الشبر الثاني تواضَع، ومن دخل في الشبر الثالث عَلِمَ أنه مَا يَعْلَم.

○ ○ ○

الشرح:

▫ نعم؛ هٰذا قول الإمام الشَّعْبِي[٢] قال: «العلم ثلاثة أشبار؛ فمن جاوز الشبر ظَنَّ نَفْسَهُ أنه أعلَمُ النَّاس، ومن جاوز الشبر الثاني أذْعَنَ بأن هُنَاك مَن يُشَاركه في العِلمْ، ومن جاوز الشبر الثالث أيقن أنه مِن أَجْهَلِ النَاس».

قلت: وواللَّهِ لقد كثرت الأشبار حتىٰ صارت اليوم أمتارًا بلا ريب. رحماك يا رب بنا وعلمائنا الكرام وأهل الفضل العظام.

فلابُد لطالب العلم والعَالِم من التواضع للَّهِ، وخفض الجناح للمسلمين، ويعلم أن ما به من نعمة فمن اللَّه، وينكسر ويَتَذلَّل ويخشع، ثم يكون علىٰ وَجَلٍ كي ينجو بعلمه ـ بإذن اللَّه ـ ، وهٰذا هو حال أهل النجاة؛ جعلنا اللَّه وإياكَ منهم برحمته.

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٦٥).

(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص/ ٨٨).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥٦ ـ التَّصَدُّر قَبْلَ التأهلِ:

احذر التصدر قبل التأهل، فهو آفةٌ في العِلْمِ والعَمَل.

وقد قيل: «من تصدر قبل أوانه، فقد تصدىٰ لهوانِهِ».

○ ○ ○

الشرح:

هٰذا هو دأب كثير من طلبة العلم اليوم؛ يتزبَّب قبل أن يتحصرم[1]، ويقول: دَرَسْتُ وحفظت، وعلمت وفهمت ورحلت!! وهو لم يتخط ظِلَّهُ قَط.

□ قال الإمام زُفَر بن الهُذَيْل[2]: «**مَنْ قَعَدَ قَبْلَ وَقْتِهِ ذَلَّ**».

□ وقال سفيان الثوري[3]: «**مَنْ تَرَأَّسَ سَرِيعًا أَضَرَّ بِكَثِيرٍ مِنَ العِلْمِ، ومن لم يَتَرأَّسَ طَلَبَ وطَلَبَ حتىٰ بَلَغَ**».

□ وقال الإمام أبو المواهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخه ابن عساكر صاحب «تاريخ دمشق»: «**قال لي ـ أي ابن عساكر ـ لما عَزَمْتُ علىٰ التحديث ـ واللَّه المُطَّلِعُ أنه ما حملني علىٰ ذٰلك حُبُّ الرئاسة والتقدم ـ، بل قلت: متىٰ أروي كل ما قد سَمِعْتُهُ، وأي فائدة في كوني أُخَلِّفُهُ بعدي صَحَائِف؟ فاستَخَرتُ اللَّه، واستَأْذَنْتُ أعْيَانَ شيوخي ورؤساء البلد، وطُفتُ عليهم؛ فكلٌّ قال: ومن أحق بِهٰذا منك؟! فَشَرَعْتُ في ذٰلك**»[4].

هٰذا هو الأدب: أن تستأذن مشايخك في التدريس والتعليم؛ لا أن تبدأ من نفسك، أو تعلم منهم الإشارة لك بالرضا في تعليمك، وأرىٰ أن هٰذا الأدب

---

(١) كنت أسمع هٰذا القول دائمًا من شيخي العلَّامة محمد عمرو بن عبد اللطيف. وانظر مطالع كتاب «التعالم» للمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) «السير» للذهبي (٨/ ٤٠).

(٣) «الحث علىٰ طلب العلم» لأبي الهلال العسكري (ص/ ٦٨).

(٤) «السير» للذهبي (٢٠/ ٥٦٥).

ضاع اليوم بالكُلِّيَّة حتىٰ صارَ الناس كلهم علماء!! فلا أدري من يستأذن؟! فيا ليت شِعْرِي متىٰ تعود هٰذه الأخلاق؟!.

◻ وقال الأحنف بن قيس: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا»[١].

◻ قال أبو عبيد القاسم بن سلَّام[٢]: «ما دُمتُم صِغارًا قبل أن تصيروا سَادة رؤساء منظورًا إليكم، فتستحيوا من الطلب فتبقوا جهلاء».

◻ وقال الإمام النووي رحمه الله[٣]: «وروينا في «صحيح البخاري» رحمه الله: قال عمر رضي الله عنه: «تفقهوا قبل أن تُسَودوا»، ومعناه: احرصوا علىٰ إتقان العلم والتمكن من تحصيله وأنتم شبان لا أشغال لكم ولا رئاسة ولا سِن؛ فإنكم إذا كبرتم وصرتم سادةً متبوعين امتنعتم من التفقه والتحصيل. ونحو هٰذا ما قاله الإمام الشافعي رضي الله عنه: تفقه قبل أن ترأس؛ فإذا رأست فلا سبيل إلىٰ التفقه» اهـ.

◻ وقال العلَّامة ابن الملقن[٤] رحمه الله معناه: «أي تعلموا العلم ما دمتم صغارًا قبل أن تصيروا سادة رؤساء ينظر إليكم؛ فإن لم تتعلموا قبل ذٰلك استحييتم أن تتعلموا بعد الكِبَر، فبقيتم جُهَّالًا، وقيل: قبل أن تزوجوا فتصيروا سادةً بالحكم علىٰ الأزواج».

وللحافظ ابن حجر[٥] كلام مثله في «الفتح».

---

(١) «سنن الدارمي» (٢٦) والبخاري معلقًا في كتاب العلم (١/ ٢٠٠).

(٢) «غريب الحديث» (٣/ ٣٦٩)، و«الإلماع» للقاضي عياض (ص/ ٢٠٤).

(٣) «بستان العارفين» للنووي (ص/ ١٣٠).

(٤) «شرح البخاري» (٢/ ٣٦٠ ـ ط غراس الكويت).

(٥) «فتح الباري» (١/ ٢٠٠ ـ ط: السلفية).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥٧ ـ التَنَمُّر بالعِلْم:

احذر ما يتسَلَّىٰ به المُفْلِسُون من العِلم، يراجع مسألة أو مسألتين، فإذا كان في مجلس فيه من يُشَارُ إليه، أثار البحث فيهما، ليُظْهِر عِلمه! وكم في هٰذا من سَوْأَةٍ، أَقَلُّها أن يَعْلَمَ أن النَّاس يَعْلَمون حقيقته.

وقد بَيَّنْت هٰذه مع أخواتٍ لها في كتاب «التَعَالُم»، والحمد للَّه رب العالمين.

٥٨ ـ تحبير الكَاغَدِ:

كما يكون الحذر من التأليف الخالي من الإبداع في مقاصد التأليف الثمانية[١]، والذي نهايته «تحبير الكاغد»[٢] فالحذر من الاشتغال بالتصنيف قبل استكمال أدواته، واكتمال أهليتك، والنضوج علىٰ يد أشياخك، فإنك تسجل به عارًا وتُبدي به شَنَارًا.

○ ○ ○

الشرح:

نعم واللَّهِ، لا أرىٰ إلا أني فَرَّطتُ وتَجَرَّأت وما يحق لي أن أخط بِقَلَمِي خَطًّا في هٰذا المِضْمَار الذي يُسْأَلُ فيه عن النيات والمَقَاصِد، هٰذا وإن كان هٰذا الأمر مع آلةِ العِلْمِ فكيف بالجهل الذي أحاط بنا، فأستغفر اللَّه العظيم من قبلُ ومِنْ بَعْد، وما كان هٰذا مني إلا تجرُّأً وتسرُّعًا رُغم قصدي النفع بما قرأت والانتفاع بما جمعت، وكله بفضل اللَّه.

---

(١) أول من ذكرها بن حزم في: «نقط العروس»، وانظر تسلسل العلماء لذكرها في: «إضاءة القاموس» (٢/ ٢٨٨) مهم.

(٢) هو القرطاس: فارسي مُعَرَّب.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

أما الاشتغالُ بالتأليف النافع لمن قامت أهليته، واستكمل أدواته، وتعددت معارفه، وتمرَّس به بحثًا ومراجعةً ومطالعةً وجردًا لمطوَّلاته، وحفظًا لمختصراته، واستذكارًا لمسائله، فهو من أفضل ما يقوم به النبلاء من الفضلاء.

○ ○ ○

الشرح:

▫ ولا تنس قول الخطيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «من صنف، فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس»[(١)].

▫ وقال الأصمعي: «سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: الإنسانُ في فُسْحةٍ من عقلِه وفي سَلَامةٍ من أَفْواهِ النَّاسِ؛ ما لم يَضَعْ كتابًا أو يَقُلْ شِعرًا»[(٢)].

▫ وقال أحمد بن أبي طاهر: «قال الجاحظ في بعض كتبه: لا يَزَال المرءُ في فُسْحةٍ من عقلِه ما لم يَضَعْ كتابًا يَعْرِضُ على النَّاسِ مَكْنُونَ جهلِه، ويَتَصَفَّحُ به إن أخطَأَ مَبْلغَ عقلِه»[(٣)].

اللهم استرنا بسِتْرك الجميل، واجعل تحت السِّتر ما ترضاه.

▫ ومن أروع كلام ابن الجوزي[(٤)] قوله: «رأيتُ من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأني أشافه في عمري عددًا من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقًا لا تحصى ما خلقوا بعد، ودليل هٰذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢٨١).

(٢) «الطيوريات» للسلفي (٢/ ٥٨٢)، و«أبجد العلوم» لصديق حسن خان (١/ ١٩٤).

(٣) «الطيوريات» للسلفي (٢/ ٥٨٢). وهٰذا الكتاب فيه جواهر ودُرَر.

(٤) «صيد الخاطر» (١/ ٢٤٢، ٢٤٣ ـ ط دار القلم).

فينبغي للعالم أن يتوفر علىٰ التصانيف ـ إن وفق للتصنيف المفيد ـ؛ فإنه ليس كل من صنف صنف، وليس المقصود جمع شيء كيف كان، وإنما هي أسرار يطلع اللَّه ﷻ عليها من شاء من عباده، ويوفقه لكشفها، فيجمع ما فُرق، أو يرتب ما شتت، أو يشرح ما أهمل، هٰذا هو التصنيف المفيد.

وينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر؛ لأن أوائل العمر زمن الطلب، وآخره كلال الحواس.

وربما خان الفهم والعقل من قدر عمره؛ وإنما يكون التقدير علىٰ العادات الغالبة؛ لأنه لا يعلم الغيب؛ فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل إلىٰ الأربعين.

ثم يبتدئ بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم، هٰذا إذا كان قد بلغ مع ما يريد من الجمع والحفظ، وأعين علىٰ تحصيل المطالب.

فأما إذا قلَّت الآلات عنده من الكتب، أو كان في أول عمره ضعيف الطلب، فلم ينل ما يريده في هٰذا الأوان، أخر التصانيف إلىٰ تمام خمسين سنة، ثم ابتدأ بعد الخمسين في التصنيف والتعليم إلىٰ رأس الستين.

ثم يزيد فيما بعد الستين في التعليم، ويسمع الحديث والعلم، ويقلل التصانيف[١] إلا أن يقع مهم إلىٰ رأس السبعين.

فإذا جاوز السبعين، جعل الغالب عليه ذكر الآخرة والتهيؤ للرحيل، فيوفر نفسه علىٰ نفسه، إلا من تعليم يحتسبه، أو تصنيف يفتقر إليه؛ فذٰلك أشرف العدد للآخرة.

ولتكن همته في تنظيف نفسه، وتهذيب خلاله، والمبالغة في استدراك زلاته، فإن اختطف في خلال ما ذكرناه، فنية المؤمن خير من عمله، وإن بلغ إلىٰ هٰذه المنازل، فقد بينا ما يصلح لكل منزل.

وقد قال سفيان الثوري: من بلغ سن رسول اللَّه ﷺ، فليتخذ لنفسه كَفَنًا.

---

(١) بل الأولىٰ الإكثار من التصانيف، ويمكن تفريق الوقت بينه وبين التعليم ـ بعون اللَّه تعالىٰ ـ.

وقد بلغ جماعة من العلماء سبعًا وسبعين سنةً، منهم أحمد بن حنبل، فإن بلغها، فليعلم أنه علىٰ شفير القبر، وأن كل يوم يأتي بعدها مستطرف.

فإن تمت له الثمانون، فليجعل همته كلها مصروفة إلىٰ تنظيف خلاله، وتَهيئة زاده، وليجعل الاستغفار حليفه، والذكر أليفه، وليدقق في محاسبة النفس، وفي بذل العلم، أو مخالطة الخلق، فإن قرب الاستعراض للجيش يوجب عليه الحذر من العارض، وليبالغ في إبقاء أثره قبل رحيله، مثل بث علمه، وإنفاق كتبه، وشيء من ماله.

وبعدُ؛ فمن تولاه اللَّه ﷻ علَّمه، ومن أراده ألهمه. نسأل اللَّه ﷻ أن ينعم علينا بأن يتولانا، ولا يتولىٰ عنا، إنه قريب مجيب».

□ قال محمد بن الوزير[1]: «الكُتَّابُ سبعة: الكامل الذي ينشئ ويملي ويكتب، والأعزل: وهو المنشئ ولا خط له، والثالث: المبهم: وهو صاحب الخط ولا إنشاء له، الرابع: الرقاعي: وهو من يجيد رقعةً ولا خط له في طول نفس، الخامس: المخبل: وهو ذو الحفظ والرواية، ولا عبارة له، فيجيء منه نديم، السادس: المخلط؛ وهو الآتي بدُرِّه مع بعره، السابع: السكيت؛ وهو الذي يجهد نفسه حتىٰ يأتي بما يستحسن».

---

(١) «الوافي بالوفيات» (٢/ ١٣٥)، «والسير» للذهبي (١٨/ ٤٦ ـ ط: الرسالة).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٩ ـ مَوقِفُكَ مِنْ وَهَم مَن سَبَقَك:

إذا ظفرت بوهم لعالم فلا تفرح به لِلْحَطِّ منه، ولٰكن افرح به لتصحيح المسألة فقط، فإن المُنصفَ يكاد يجزم بأنه ما من إمام إلا وله أغلاطٌ وأوهام، لا سيما المكثرين منهم.

وما يشغِّب بِهٰذا ويفرح به للتنقُّص إلا متعالم؛ «يريد أن يُطِبَّ زكامًا فيحدث به جُذامًا»[١].

نعم، ينبه علىٰ خطأ أو وهم وقع لإمام غُمر في بحر علمه وفضله، لٰكن لا يُثير الرَّهَجَ عليه بالتنقص منه والحط عليه؛ فيغتر به من هو مثله.

○ ○ ○

الشرح:

مِن هنا يظهر العلم العتيق والإنصاف النزيه.

▫ قال الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما في زماننا شيءٌ أَقلُّ مِنَ الإنصاف»[٢].

▫ ومن أجود الإنصاف ما ذكره مُحَمَّدُ بنُ الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ بنِ بَحْرٍ: حَدَّثَنَا الفَلَّاسُ، قَالَ: رَأَيْتُ يَحْيَىٰ[٣] يَوْمًا حَدَّثَ بِحَدِيْثٍ، فَقَالَ لَهُ عَفَّانُ: لَيْسَ هُوَ هٰكذا.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ، أَتَيْتُ يَحْيَىٰ، فَقَالَ: هُوَ كَمَا قَالَ عَفَّانُ، وَلَقَدْ سَأَلتُ اللَّه أَنْ لاَ يَكُوْنَ عِنْدِي عَلَىٰ خِلاَفِ مَا قَالَ عَفَّانُ»[٤].

---

(١) «مجمع البلاغة» للراغب.

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٣١) (٨٦٦) وقال بعده شيخنا أبو الأشبال ـ حفظه اللَّه ـ : «يرحم اللَّه الإمام مالك بن أنس ولد ومات في خير القرون؛ بل نحن نتمنىٰ أن يكون في زماننا مِعشار ما كان في زمن مالك من إنصاف».

(٣) هو ابن معين.

(٤) «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٧٥) و«السير» (١٠/ ٢٤٩).

□ وقال العلاء بن الحسين: «أخبرنا سفيان بن عيينة بحديث، فقلت له: ليس هو ـ يا أبا عبد اللَّه ـ كما حَدَّثت!! قال وما علمك ـ يا قصير ـ ؟! قال: فسكتُّ عنه هُنيَّة، ثم قلتُ: يا أبا عبد اللَّه، أنت معلمنا وسيدنا، فإني كنت أوهمت فلا تؤاخذني، فسكتَ هنيةً، ثم قال: الحديث كما ذكرت أنت، وأنا أوهمت»(١).

□ وقال يَحْيَىٰ بنُ أَكْثَم: «صَحِبْتُ وَكِيْعًا في الحَضَرِ وَالسَّفَرِ، وَكَانَ يَصُوْمُ الدَّهْرَ، وَيَخْتِمُ القُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ».

□ قُلْتُ ـ أي الذهبي ـ : «هٰذه عِبَادَةٌ يُخضَعُ لَهَا، وَلٰكنهَا مِنْ مِثْلِ إِمَامٍ مِنَ الأَئِمَّةِ الأَثَرِيَّةِ مَفضُولَةٌ، فَقَدْ صَحَّ نَهْيُهُ عليه الصلاة والسلام عَنْ صَوم الدَّهْرِ، وَصَحَّ أَنَّهُ نَهَىٰ أَنْ يُقْرَأَ القُرْآنُ في أَقَلَّ مِنْ ثَلاَثٍ، وَالدِّيْنُ يُسْرٌ، وَمُتَابَعَةُ السُّنَّةِ أَوْلَىٰ، فَرَضِيَ اللَّه عَنْ وَكِيْعٍ، وَأَيْنَ مِثْلُ وَكِيْعٍ؟!.

وَمَعَ هٰذا فَكَانَ مُلاَزِمًا لِشُرْبِ نَبِيذِ الكُوْفَةِ الَّذِي يُسكِرُ الإِكْثَارُ مِنْهُ، فَكَانَ مُتَأَوِّلًا في شُرْبِهِ، وَلَوْ تَرَكَهُ تَوَرُّعًا، لَكَانَ أَوْلَىٰ بِهِ، فَإِنَّ مَنْ تَوَقَّىٰ الشُّبَهَاتِ، فَقَدِ اسْتَبرَأَ لِدِيْنِه وَعِرْضِهِ، وَقَدْ صَحَّ النَّهْيُ وَالتَّحرِيْمُ لِلنَّبِيذِ المَذْكُوْرِ، وَلَيْسَ هٰذا مَوْضِعَ هٰذه الأُمُوْرِ، وَكُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ، فَلاَ قُدْوَةَ في خَطَأِ العَالِمِ، نَعَمْ، وَلاَ يُوَبَّخُ بِمَا فَعلَهُ بِاجْتِهَادٍ نَسْأَلُ اللَّه المُسَامَحَةَ»(٢).

□ وقال الحافظ عبدالغني بن سعيد الأزدي: «لما حَمَلَ إليَّ عُمَرُ بن داود النيسابوري كتاب «المدخل إلىٰ معرفة الصحيح» الذي صنعهُ أبو عبداللَّه الحاكم بن البَيِّع، فوجدت فيه أغلاطًا، فأعلمت عليها وأوضحتها في كتاب، فلمَّا وصل الكتاب إليه، أجابني علىٰ ذٰلك بأحسن جواب، وشكر عليه أتم شكر، وذكر في كتابه إليَّ أنه لا يَذكر ما استفاده من ذٰلك أبدًا إلا عني، وذكر لي قول أبي عبيد القاسم بن سلام: من شُكْرِ العلم أن تستفيد الشيء فإذا ذكر

---

(١) «الإلماع» للقاضي عياض (ص/ ١٩٩ ـ ط دار التراث).
(٢) «السير» للذهبي (٩/ ١٤٣).

قلتُ: خفي علي كذا وكذا، ولم يكن لي به علم؛ حتىٰ أفادني فلان فيه كذا وكذا، فهٰذا شُكر العلم»[(١)].

▫ ولمَّا تَعَرَّضَ الإمام ابن طاهر القيسراني لحديث مُعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ضَعفَّهُ الأئمة[(٢)]: «بمَ تقضِي ـ يا معاذ ـ ؟» قال: بكتاب اللَّه... الحديث؛ قال ابن القيسراني: «وأقبح ما رأيتُ فيه قول إمام الحرمين في كتاب «أصول الفقه»: «والعمدة في هٰذا الباب علىٰ حديث معاذ!»، قال: وهٰذه زَلة منه ولو كان عالمًا بالنقل لما ارتكب هٰذه الجهالة».

▫ فتعقبه الحافظ في «التلخيص» (٤/ ١٨٣)، فقال: «قلت: أساء الأدب علىٰ إمام الحرمين، وكان يمكنه أن يعبِّر بألين من هٰذه العبارة، مع أن كلام إمام الحرمين أشد مما نقله عنه، فإنه قال: والحديث مدون في الصحاح متفق علىٰ صحته، لا يتطرق إليه التأويل»[(٣)].

▫ وقال يحيىٰ بن معين: «ما رأيت علىٰ رجل خطأ إلا سترتُه، وأحببت أن أزيِّن أمره، وما استقبلت رجلًا في وجهه بأمر يكرهه، ولٰكن أُبَيِّن له خطأه فيما بيني وبينه، فإن قَبِلَ وإلا تركته»[(٤)].

▫ وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزُّهَّاد الأفراد والشُّجْعَان الكبار، والكرماء الأجواد، أثنىٰ عليه الموافق والمخالف وسارت بتصانيفه الرُّكْبَان، وقد انفرد بفتاوي نِيلَ مِن عِرْضِهِ لأجلها، وهي مغمورة في بحر علمه، فاللَّهُ تعالىٰ يسامحه ويرضىٰ عنه؛ فما رأيت مثله، وكل أحد من الأمة فيؤخذ من قوله ويُترَك، فكان ماذا؟»[(٥)].

---

(١) «الإلماع» للقاضي عياض (ص/ ١٩٣)

(٢) راجع تحقيق الشيخ الفاضل/ مشهور حسن سلمان علىٰ هٰذا الحديث في «إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ٣٤٤ ـ ٣٥١) فإنه أجاد وأفاد، اللهم اغفر لآل سلمان ومن علَّمَهم.

(٣) «إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ٣٥١) هامش. دار ابن الجوزي.

(٤) «السير» للذهبي (١١/ ٨٣).

(٥) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٤/ ١٤٩٦، ١٤٩٧).

◘ وانظر إلىٰ هٰذا الكلام البديع الذي قاله الإمام اللُّغَوي أبو عبيد البِكري: «هٰذا كتاب نبهت فيه علىٰ أوهام أبي علي القالي رَحِمَهُ اللَّهُ في «أماليه»، تنبيه المنصِف ـ لا المتعسف ولا المعاند ـ ، محتجًّا علىٰ جميع ذٰلك بالدليل والشاهد؛ فإني رأيتُ من تَوَلَّىٰ مثل هٰذا ـ من الرد علىٰ العلماء والإصلاح لِأغلاطهم والتنبيه علىٰ أوهامهم ـ ، لم يعدل في كثير مِمَّا رَدَّهُ عليهم، ولا أنصف في جُمَل مما نسبه إليهم، وأبو عليٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ من الحفظ وسَعةِ العلم والنُّبْلِ، ومن الثقة في الضبط والنقل بالمحل الذي لا يجهل؛ بحيث يقصر عنه مَن الثناء الأحفل، ولٰكن البَشَر غير معصومين من الزلل، ولا مبرئين من الوهم والخطل، والعالم من عُدَّت هفواته وأحصيت سقطاته؛ كفىٰ المرء نُبْلًا أن تُعَدَّ مَعَايبه»[(١)].

◘ ومن هنا قال الإمام ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «فمن أراد أن يقبل قول العلماء الثقات الأئمة الأثبات بعضهم في بعض؛ فليقبل قول من ذكرنا من الصحابة رضوان اللَّه عليهم بعضهم في بعض؛ فإن فعل ذٰلك ضل ضلالًا بعيدًا وخسر خسرانًا مبينًا. وكذٰلك إن قبل في سعيد بن المسيب قول عكرمة، وفي الشعبي وأهل الحجاز وأهل الكوفة وأهل الشام علىٰ الجملة، وفي مالك والشافعي وسائر من ذكرناه في هٰذا الباب ما ذكرناه من قول بعضهم في بعض؛ فإن لم يفعل ـ ولن يفعل إن هداه اللَّه وألهمه رشده ـ ؛ فليقف عند ما شرطناه في أن لا يقبل فيمن صَحَّت عدالته، وعُلمت بالعلم عنايته، وسَلِمَ من الكبائر ولزوم المروءة والتصاون، وكان خيره غالبًا وشره أقل عمله؛ فهٰذا لا يُقبل فيه قول قائل لا برهان له به، وهٰذا هو الحق الذي لا يصح غيره ـ إن شاء اللَّه ـ ».

◘ وقال الإمام القدوة المعافىٰ بن زكريا[(٣)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأنشأ الصولي كتابًا

---

(١) مقدمة كتاب «التنبيه علىٰ أوهام أبي علي في أماليه» (ص/ ١٥) للبكري رَحِمَهُ اللَّهُ وهو مُلْحَق بكتاب «ذيل الأمالي» لأبي علي القالي. ط دار الجيل.

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبدالبر (٢/ ١١١٧) بتحقيق شيخنا أبي الأشبال الزهيري حفظه اللَّه.

(٣) «الجليس الصالح» للمعافىٰ بن زكريا (ص/ ٦ ـ ط التوفيقية).

سماه: «الأنواع» مبوبًا أبوابًا شتىٰ غير مستوفاة، وأتىٰ فيه بأشياء مستحسنة علىٰ ما ضم إليه من أمور مستهجنة، وصنف كتابًا كأبي قماش سماه «النوادر»، فهجاه بعض الشعراء بما كرهت حكايته؛ غير أن الجميل أجمل، والتسلم من أعراض الناس أمثل».

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٠ ـ دفع الشُّبُهَات[١]:

لا تجعل قلبك كالسَّفِنْجَة تَتَلقَّىٰ ما يَرِدُ عَلَيْهَا، فاجْتَنِب إثارة الشُّبَه، وإيرَادها علىٰ نفسك أو غيرك، فالشُّبَهُ خطَّافَةٌ، والقلوبُ ضَعيفَةٌ، وأكثرُ مَنْ يُلْقِيهَا حَمَّالةُ الحطب ـ المُبْتَدِعَة ـ فتوقَّهُم.

○ ○ ○

الشرح:

ما ضاعَ مَنْ ضَاعَ مِنْ طَلَبَةِ العِلْم اليوم ومِن قَبلُ إلا مِن إلقاءِ السَّمْع لأهلِ الأهواء وعُلماء السوء؛ الذين سُرعَان ما تَخمد نارهم فتصيرُ رَمَادًا كأن لم تَغْنَ بِالأمْس، رُغْمَ تحذير عُلماءِ الحق مِنْ مَنَاهِجِهِم والسَّيْرِ علىٰ دَرْبِهِم. وما تَتمكن هٰذه الأهواء في القلوب إلا من مرض فيها كامن لا يعلمه إلا اللطيفُ الخبير ـ نسأله السلامة ـ ، فإذا أراد اللَّه بعبده خيرًا وفَقَّهُ إلىٰ عُلمَاء الحق فيتأدب بآدابهم، ويتسنَّىٰ بأخلاقهم، ويتشرف بخدمتهم وَوَدِّهِم.

▫ قَالَ أَبُو الوَقْتِ السِّجزيُّ[٢]: «دَخَلْتُ نَيْسَابُوْر، وَحَضرتُ عِنْد الأُسْتَاذِ أَبِي المَعَالِي الجُوَيْنِيِّ، فقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: خَادمُ الشَّيْخ أَبِي إِسْمَاعِيْل الأَنْصارِيِّ، فقَالَ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

▫ وقال عبدُاللَّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تُمكِّن صاحب هَوىٰ مِن أُذنيك فيقذف فيهما داءً لا شِفاءَ له».

▫ وقال مُصْعَب بن سعد: «إما يُمْرِض قلبك لتتابُعِهِ، وإمَّا أن يُؤذيك قَبْلَ أن تُفَارِقَهُ»[٣].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص/ ١٥٣).

(٢) «السير» للذهبي (١٨/ ٥١٣) (٢٦٠).

(٣) «ذم الكلام وأهله» (٤/ ٢٤) (٧٣٩) لشيخ الإسلام الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ. ط: مكتبة الغرباء، وهٰذا الكتاب من أعظم الكتب قيمة وفائدة؛ كنت أسأل اللَّه تعالىٰ أن أراهُ بعيني.

▫ وقال مَعْمَر بن راشد: «كان طاووس جالسًا، فجاء رجل من المُعْتَزِلَة فجعل يَتَكَلم، قال: فأدخل طاووس إصبعيه في أُذُنَيه، وقال لابنِهِ: أي بُنَي أدخل أُصْبَعيك في أُذُنَيك واشْدُد لا تسمع مِن كلامِهِ شيئًا، قال مَعْمَر: يعني أن القلب ضعيف»(١).

▫ وقال عبد الرازق بن هَمَّام الصَّنْعَانِي: «قال لي إبراهيم بن أبي يحيىٰ: إني أرىٰ المُعتَزِلَة عنْدَكُم كثيرًا، قال: قلت: نعم، ويَزْعُمُونَ أنَّك مِنْهُم، قال إبراهيم: أَفَلا تَدْخُل مَعي هٰذا الحَانوت حتىٰ أُكَلِّمَك؟ قلت: لا، قال: لِمَ؟ قلتُ: لأن القلب ضعيف، وإن الدين ليس لِمَنْ غَلَب»(٢).

▫ «ودخل رجلان من أهل الأهواء علىٰ محمد بن سيرين فقالا: يا أبا بكر نُحَدِّثك بحديث؟ قال: لا، قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب اللَّه؟ قال: لا، قال: تقومان عَنَّي وإلا قُمت، فقام الرجلان فَخَرَجا، فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرآ آية؟ قال: إني كَرِهْتُ أن يقرآ آيةً فَيُحَرِّفَانِها، فيَقِرَّ ذٰلك في قلبي»(٣).

فإِيَّاك إيَّاك، والحَذَر الحَذَر، والجَادَّة الجَادَّة؛ وَفَقَّكَ اللَّه لِخَيرِ سُبُلِه.

---

(١) «ذم الكلام للهروي» (٤/ ٤٥) (٧٧٢)، و«شرح السنة» للالكائي (١/ ١٣٥) (٢٤٨)، وعبدالرازق في «مصنفه» (٢٠٠٩٩).

(٢) «شرح السنة» للالكائي (١/ ١٣٥) (٢٤٩)، و«ذم الكلام» للهروي (٤/ ٤٦) (٧٧٣).

(٣) «الإبانة» لابن بطة (١/ ٤٠)، والآجري في «الشريعة» (١/ ٥٧)، وابن وضَّاح في «البِدَع والنهي عنها» (ص/ ٥٣)، واللالكائي في «شرح السنة» (٢٤٢).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦١ ـ احْذَر اللَّحْن:

ابتعد عن اللَّحن في اللفظ والكتب، فإنَّ عَدَمَ اللَّحن جَلالةٌ وصفاءَ ذَوقٍ، ووقوفٌ علىٰ مِلاَح المعاني لسلامة المباني.

○ ○ ○

الشرح:

اللَّحْن: تَركُ الصواب في القراءةِ والنشيد[١].

◻ وقال السخاوي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «قال أحمد بن فارس ـ إمام اللغة ـ : إن غاية علم النحو، وعلم ما يحتاج إليه منه: أن يقرأ فلا يلحن، ويكتب فلا يلحن، فأما ما عدا ذٰلك فمشغلة عن العلم وعن كل خير.

قلت ـ أي السخاوي ـ : وناهيك بِهٰذا من مثله» اهـ.

◻ وقال الإمام الأصمعي: «بَيْنَا أنا في بَعضِ البَوادي، إذا أنا بصبي مَعَه قربة قد غَلَبَتْهُ فيها ماء وهو يُنَادِي: يا أبَتِ أدْرِك فَاهَا، غَلَبَني فوهَا، لا طَاقَة لي بِفِيهَا، قال: فواللَّه لقد جَمَع العَربِية في ثلاثٍ في حالٍ: الرفع والنصب والخفض»[٣].

◻ قال عبدُاللَّه بن بُرَيدَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أبيه: «كُنَّا نُؤْمَر أن نَتَعلَم القرآن ثُم السنة ثُم الفَرائِض ثم العربية الحروف الثلاثة، يعني: الجر والنصب والرفع»[٤].

◻ وقال الإمام خلف بن هشام: «أُشْكِلَ عَلَيَّ بابٌ مِنَ النَّحو؛ فأَنْفَقْتُ فِيهِ ثَمَانِيةَ آلاف دِرْهَم حتىٰ حَذَقْتُهُ»[٥].

---

(١) «تهذيب اللغة» (٤/ ٣٢٥٠).

(٢) «فتح المُغِيث» للسخاوي (٣/ ١٦٢).

(٣) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٣٧/ ٨٣) و«الأذكياء» لابن الجوزي (٢٠١)

(٤) «الإلماع» للقاضي عياض (ص/ ١٨٣).

(٥) «معرفة القراء الكبار» (١/ ١٧٢)، و«السير» للذهبي (١/ ٥٧٨).

▫ وقال أبو العباس «ثَعْلَب» عن تلميذه إبراهيم الحربي: «ما فقدته في مجلس نحوٍ ولا لُغَةٍ نحوًا من خمسينَ سنة»(١).

▫ وسُئِلَ أبو عبدالرَّحمٰن النَّسَائِي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ صاحب «السُّنَنْ» ـ عن اللَّحن في الحديث؟ فقال: «إن كان شيئًا تقوله العرب فلا يُغَيَّر، لأن النبي ﷺ كان يُكَلِّمُ النَّاس بلسانهم، وإن كان ما لا يوجد في كلام العرب فرسول اللَّه ﷺ لا يَلْحَن»(٢).

▫ وقال العلامة صديق حسن خان رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه القيم: «التاج المكلل» (ص/ ٢٩٦): «قال ابن الحاج في «مدخله»: «إن معجزة كل نبي علىٰ وفق زمانه وقومه، ولما كان أشرف الخلق العرب، وأعظم ما عندهم الشجاعة والفصاحة والكرم، كان أعظم معجزات نبينا ﷺ القرآن المعجز بفصاحته وبلاغته، ولما كان خاتم الرسل ولا نبي بعده، جعل له معجزةً باقيةً إلىٰ قيام الساعة لا تزال تتلىٰ، وجديدةً علىٰ كثرة التِّرداد لا تخلق ولا تبلىٰ».

قلتُ ـ صديق خان ـ : ومن هنا طالت يد سلف هٰذه الأمة وأئمتها إلىٰ تعلم العربية حتىٰ ملكوا ناصيتها، وبلغوا قاصيتها، وهٰذا اللسان العربي المبين هو لغة شريعتنا الحقة، فكان من الواجب علينا أخذه علىٰ وجهه، ولٰكن تقاعدت همم الخلف عن بلوغ ذروته، حتىٰ بقوا غير عارفين به وبمحاورته وصلاته، وحيث عاد بهم الحال إلىٰ هٰذا المقام، فمن أين رجاء فهم معاني الكتاب والسنة لهم؟!!» اهـ.

▫ وقال الخليل بن أحمد: «لَحَنَ أيوب السختياني في حَرْف(٣)؛ فقال: أَسْتَغْفِرُ اللَّه»(٤).

---

(١) «طبقات الحنابلة» (١/ ٨٩).

(٢) «الإلماع» للقاضي عياض (ص/ ١٥٩ ـ ط: دار التراث).

(٣) أي: في جملة، والحرف في اصطلاح الشرع وأهل العلم يختلف عنه في اصطلاح النحاة.

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١١) بسند صحيح، والفراء في «أخبار النحويين» (ص/ ٤٩)، و«السير» (٦/ ١٩).

□ وقال السخاوي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «قال ابن الصلاح: علىٰ طالب العلم أن يَتَعَلَّم مِنَ النَّحو واللُّغَةِ مَا يَتَخلَّص بِهِ عن شين اللَّحن والتحريف ومَعَرَّتْهِمَا.

قال السخاوي: لٰكن لا يجب التَوغُّل فيه؛ بل يَكفِيه تحصيل مُقَدمة مشيدة لمقاصده بحيث يفهمها ويميز بها حركات الألفاظ؛ لِئلا يَلتَبِس فاعل بمفعول، أو خبرٌ بأمرٍ.

وقال شيخنا ابن حجر: وأَقَل ما يكفي فيه لِمَن يُريد قِراءة الحديث: أن يَعْرِف من العَرَبيَة ألَّا يَلحَن».

---

(١) «فتح المغيث» للسخاوي (١/ ١٨٤ ـ ط: مكتبة العلوم والحكم).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فعن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «تَعَلَّموا العَرَبِيَّةَ؛ فإنها تَزيدُ في المُروءة»[١].

«وقد ورد عن جماعة من السلف أنهم كانوا يضربون أولادهم علىٰ اللَّحن»[٢].

وأسند الخطيب عن الرَّحبي قال: «سمعتُ بَعضَ أصحَابِنا يقول: إذا كَتَبَ لَحَّان، فَكَتَب عن اللَّحَّان لَحَّانٌ آخر، صَارَ الحَديث بالفَارِسِيَّة»[٣].

○ ○ ○

الشرح:

□ ثبت بسند صحيح عن نافع مولىٰ ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يضرب ولده علىٰ اللَّحن».

أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٥٧٠٢)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١٥٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (ص/ ٢٥٨).

□ وقال أبو العباس بن الفرج[٤]: «سمع الأصمعي رجُلًا يَدعو رَبَّه ويقول في دُعَائِه: يا ذو الجَلالِ والإِكرَام».

فقال له الأصمعي: ما اسمك؟ قال: ليثٌ، فقال الأصمعي:

يُناجي ربَّه باللَّحْن لَيْثٌ ... لِذٰلك إِذا دَعَاهُ لا يُجَابُ»[٥].

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه البيهقي في «الشُّعَب» (٢٩٣٥٥)، والخطيب في «الجامع» (٢/ ٢٥)، والفرَّاء في «أخبار النَّحْويين» (ص/ ٣٢).

(٢) الجامع للخطيب (٢/ ٢٩، ٢٨)

(٣) السابق (٢/ ٢٨).

(٤) «ذيل الأمالي» للقالي (ص/ ٣٠).

(٥) لعل الأصمعي قال هٰذا علىٰ سبيل المُزاح، وإلا فرد الدعاء الملحون يحتاج إلىٰ دليل عن المعصوم ﷺ، وفي زمان ضياع العربية من حياة المسلمين سيكون معنىٰ هٰذا الكلام أن جُلَّهم ـ في المشارق والمغارب ـ لن يتقبل اللَّهُ دعاءهم ولن يجيبهم! وهٰذا رجمٌ بالغيب، والعلم عند =

◻ وذكر الفَرَّاء[١]: «أَنَّ أبا صَفْوَان خالد بن صَفوان دَخَلَ الحَمَّام وفيه رَجُل مع ابنه، فأراد الرجل أن يُعَرِّف خالدَ بن صفوان ما عنده مِنَ البَيان، فقال: يا بُنَي، ابدأ بيداك ورجلاك!! ثم التفت إلىٰ خالد، فقال: يا أبا صفوان: كلام قد ذهب أهله!! قال له خالد: هٰذا كلام ما خلق اللَّه له أهلًا قَط».

◻ وقال أبو عبداللَّه الشقنطري[٢]: «كان إبراهيم يقرأ علىٰ الأعمش فقال: «قالَ لِمَنْ حَوْلِهِ أَلَا تَسْتَمِعُون»، فقال له الأعمش: ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ [الشعراء: ٢٥]، فقال: أليس أخبرتني أن «من» تجر ما بعدها[٣]؟!».

◻ وقال الإمام أبو العَينَاء: «سَرَقَ أصْحَاب الحَديث نَعْلَ أبي زَيد النَّحْوي، فكان إذا جاءه أهل الشِّعْرِ والنَّحو طَرَحَ ثِيَابَه ونَعْلَهُ وعِمَامَتَه ولم يَفْتَقِدها، وإذا جاء أصحاب الحديث ضَمَ ثِيَابَهُ إليه، وقال: ضُم يا ضَمَّام، واحْذَر لا تَنَام»[٤].

= اللَّه تعالىٰ.

(١) «أخبار النحويين» للفرَّاء (ص/ ٤٤).

(٢) السابق (ص/ ٥٢).

(٣) وقد التبس عليه الفرق بين «مَن»، و«مِن».

(٤) «الموضح». للخطيب (٢/ ٤٤٩)، و«نشوار المحاضرة» للتنوخي (٦/ ٦٣ ـ ط: دار صادر بيروت).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأَنْشَدَ المُبَرِد[١]:

النَّحوُ يَبْسُطُ مِن لِسَان الأَلْكن ... والمَرْءُ تُكْرِمُهُ إذا لم يَلْحَنِ

فإذَا أَرَدتَ مِنَ العُلُومِ أجَلَّها ... فأجَلُّهَا مِنْهَا مُقِيمُ الأَلسُنِ[٢]

وعليه فلا تحفل بقول القاسم بن مُخَيْمِرَة رحمه اللَّهُ تعالىٰ: «تَعَلُّمِ النَّحو أَوَله شُغل وآخِره بَغْي».

○ ○ ○

الشرح:

قُلتُ: قول القاسم بن مُخَيْمِرَة هٰذا قد رجع عنه قَبْلَ مَمَاتِهِ؛ ذَكَرَ ذٰلك الإمام الشَاطِبي رَحِمَهُ اللَّهُ في كِتَابِهِ «الاعتصام»[٣] (١/ ١٤٤).

---

(١) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٨).

(٢) لبعض العلماء تعقيب علىٰ ما قاله المبرد من أن أَجَلَّ العلوم علم التوحيد، لٰكن الجَلاَلَة هنا نِسْبَيَّة لعلوم الآلة. واللَّه أعلم.

(٣) وراجع أيضا فيه كتاب «الغاية في علم الرواية» للسخاوي (ص/ ١١٦ ـ ط: أولاد الشيخ بمصر)، وقول القاسم ذكره الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (ص/ ٩١).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا بِقَول بِشْر الحَافي: «لمَّا قِيْلَ لَهُ: تَعَلَّم النَّحو، قال: أَضِلُّ، قال: قُل ضَرَب زَيْدٌ عَمْرًا، قال بِشْرٌ: يا أخي لِمَ ضَرَبَهُ؟ قال: يا أبا نصر، ما ضربه وإنما هٰذا أصْلٌ وُضِعَ، فقال بِشْرٌ: هٰذا أولُه كَذِبٌ لا حَاجَةَ لي فِيهِ».

رواهما الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (ص/ ٩٤).

○ ○ ○

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

▫ وقال مالك بن دينار: «تَلْقَىٰ الرَّجُل ومَا يَلْحَنُ حَرْفًا، وعَمَلُهُ لَحْنٌ كُلُّه».

▫ وقال إبراهيمُ بنُ أدهم: «أعْرَبْنَا في الكَلام فَمَا نَلْحَنْ، ولَحَنَّا في الأعمال فَمَا نُعْرِب».

رواهما الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (ص/ ٩١).

▫ وقال الإمام هلال بن العلاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

فَيَا ليْتَهُ في وَقْفَةِ العَرضِ يَسْلَمُ ... سَيبْلىٰ لِسَانٌ كَان يُعرِبُ لَفظُهُ

وَما ضَرَّ التَّقْوَىٰ لِسَانٌ مُعْجَمُ ... ومَا يَنْفَعُ الإعْرَابُ إنْ لَمَ يَكُنْ تُقَىٰ

▫ وقال عبدالرَّحمٰن بن مهدي: «مَنْ طَلَبَ العَرَبِيَّةَ فآخره مُؤدِّب، ومن طلب الشِّعْرَ فآخِره شَاعِر يَهْجُو أو يَمْدَح بِالبَاطِل، ومَنْ طَلَبَ الكَلام فآخِرُ أمْرِهِ الزَنْدَقَة، ومَنْ طَلَب الحَديث فإِنْ قَامَ بِهِ كان إِمَامًا، وإن فَرَّطَ ثُم أنَاب يَومًا يَرْجِعُ إليه وقَد عَتُقَتْ وجَادَتْ».

هٰذا مَا يُسَمُّونه: الاسْتعْجَال.

---

(١) «بستان العارفين» للنووي (ص/ ١٥٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦٢ ـ الإِجْهَاضُ الفِكْرِي:

احْذَر «الإجهاض الفكري» بإِخْرَاج الفكرة قبل نُضُوجِهَا.

○ ○ ○

الشرح:

قال العُلماء: الاستعجال آفةُ العَصْر. فلابُد في كُل أمرٍ مِن الأمور مِن التفكر والتَدَبُر بِصَبْرٍ وحِكْمَةٍ حتىٰ تأتي علىٰ الوجه اللائِق والمرجو، وكم من مُتَعَجِّل صَحِبَتْهُ النَّدَامَةَ إلىٰ المَمَات، فما قَطعَ العَبْدَ عن كَمَالِهِ وفلاحه وسعادته العاجِلة والآجِلَة قاطع أعظم من ذٰلك، وهٰذه الآفة هي التي مَنَعَت النَّفُوس من كمالها والهِمَمَ من سبَاقها، فانظر متىٰ تُقْطَف الثَمَرَة من غُصْنِهَا وفَرْعِهَا.

كثيرٌ مِن أهل العلم تصاحبهم الندامة بسبب إخراج ما عندهم علىٰ عَجَلة، وقد تقدم في أول هٰذا الشرح الكلام عن معنىٰ التأمل، وقلنا هناك: إنه لابد عند الكلام من التأمل والتفكر حتىٰ تخرج الكلمة علىٰ الصواب؛ فكذٰلك هنا في إخراج الفكرة خاصةً في الأمور العلمية والأمور الدنيوية؛ فكم من بنيانٍ بُنِي علىٰ غير فكر وإتقان صار أطلالًا وهٰكذا.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣ ـ الإسرائيليات الجديدة[١]:

احذر الإسرائيليات الجديدة في نفثات المُستشرقين، من يهود ونصارىٰ، فهي أشدُّ نِكَايةً وأعظم خَطَرًا من الإسرائيليات القديمة، فإن هٰذه قد وضَحَ أمرُها ببيان النبي ﷺ الموقف منها، ونشر العُلَماء القول فيها، أما الجديدة المُتسربة إلىٰ الفكر الإسلامي في أعقاب الثورة الحضارية واتصال العالم بعضه ببعض، وكبح المَد الإسلامي، فهي شَرٌّ محض، وبلاء مُتَدَفِق، وقد أخَذَت بعضِ المسلمين عنها سِنَةٌ، وخفض الجناح لها آخرون، فاحذر أن تقع فيها. وَقَىٰ اللَّه المسلمين شرها.

○ ○ ○

الشرح:

إن من أكبر الفتن علىٰ المسلمين اليوم تعظيم الغَرْب الأُوروبي وألَيتِهِ المُستحضرة التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع، والغريب أن بعض من كان يُشار إليه بالبنان قد أُولع بِهٰذه التُرَّهَات التي تركها المسلمون من قبل وظهرت تحت الأطلال، وهٰؤلاء المُسْتَغْرِبون من جلدَتِنَا ويَتكلمون بألسِنَتِنَا؛ غَرَّهُم الغرب بزينةِ القَول وزُخْرُف الكلام المَعْسُول وجوائِز السُلْطَان، ثم يُفاجئ بعدها أنه علىٰ عتبات جهنم نعوذ باللَّهِ، وهٰذا ما تَجْدُه اليومَ عيانًا، ولم يَعْلَم المسكينُ أنه مخدوع، فالعظيم من عظَّمَهُ اللَّه وسَيَّرَهُ علىٰ طَرِيقِه وهداه، والمخدوع من تمنىٰ الأماني وصار مع الأوهام، واللَّه تعالىٰ هو الذي يَمُنُّ علىٰ العَبْد بِفكرَةٍ صَحِيْحَة وعزم صادق يُمَيزُ به بين الوَهَم والحقيقة.

◻ قال ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «قال بعض العُلماء: ليس معي من العلم إلَّا

---

(١) «مقاصد الشريعة الإسلامية» لعلَّال الفاسي (صفحة ب).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٣٠) رقم (٨٦٣، ٨٦٢) بتحقيق شيخنا العلَّامة أبي الأشبال =

أني أعلمُ أني لَسْتُ أَعْلَم».

◻ وقال محمود الوَرَّاق: «أتَمُ النَّاس أعرفهم بنَقْصِهِ».

◻ ودخل رجل علىٰ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال له: «يا أمير المؤمنين إن من قبلك كانت الخلافة لهم زَينًا، وأنتَ زَينُ الخِلاَفَة، فأَعْرَضَ عَنْهُ».

◻ وكان عُمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «أنا الذي أمَرْتَنِي فَقَصَّرْت، ونَهَيْتَنْي فَعَصَيت».

◻ وقال ابن عيينة: «قال رجل لعمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جزاك اللَّه عن الإسلام خيرًا، فقال له: بل جزىٰ اللَّه الإسلام عني خيرًا»[1].

فهٰؤلاء السَادَة كانوا لا يَعُدُّون أنفسهم شيئًا، فَصَاروا كُلَّ شيء، وأما المستغربون ظنُّوا أنهم علىٰ شيء فهانوا علىٰ كُلِّ شيء وما نَفَعَهُم شيء، فلا تَنْخَدِع بِخُدَعِهِم الخَدَّاعَة، فلا خَير إلَّا في شَرْعِنَا الحَنِيف، والحمد للَّه علىٰ نعمة الإسلام والسنة، وكفىٰ بها نعمة.

= حفظه اللَّه.

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٤٧، ١٤١، ١٣٦) ترجمة عمر بن عبد العزيز.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦٤ ـ احذَر الجدل البِيْزَنْطيَّ[1]:

أي الجَدَل العَقِيم، أو الضَّئِيل، فقد كان البيزنطيون يتحاورون في جِنْس الملائكة والعَدُوُّ علىٰ أبواب بلدتِهِم حتىٰ داهَمَهُم، وهٰكذا الجدل الضئيل يَصُدُّ عن السبيل. وهدي السلف الكف عن كَثْرَةِ الخصام والجِدَال، وأن التوسع فيه من قِلَّة الورع، كما قال الحسن إذ سَمِعَ قَومًا يتجادلون: «هٰؤلاء مَلُّوا العبادة، وخَفَّ عليهم القول، وقَل ورَعهم فتكلموا»، رواه أحمد في «الزهد» (ص/ ٢٧٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٦).

○ ○ ○

الشرح:

▫ قال ابن رجب الحنبلي[2]: «وقد فُتِنَ كثيرٌ من المتأخرين بِهٰذا، وظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين؛ فهو أعلم ممن ليس كذٰلك! وهٰذا جهل محض، وانظر إلىٰ أكابر الصحابة وعلمائهم كأبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ كيف كانوا؟ كلامهم أَقَل من كلام ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهم أعلم منه، وكذٰلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة، والصحابة أعلم منهم، وكذٰلك تابِعوا التابعين كلامهم أكثر من كلام التابعين، والتابعون أعلم منهم؛ فليس العلم بكثرة الرواية ولا بِكثرة المَقال، ولٰكنه نورٌ يُقذف في القلب يَفْهَم به العَبد الحَقَّ، ويُمَيزُ بِهِ بينه وبين الباطِل، ويُعَبِّر عن ذٰلك بعبارات وجيزة مُحصِّلة للمقاصد من غير إطالة ولا إسهابٍ، وفي كلامهم من رَدِّ الأقوال المُخَالِفَةِ لِلسُّنَّة بألطَفِ إِشَارَة وأحْسَنِ عِبَارَة، بحيثُ يُغني ذٰلك من فهمه عن إطالة المتكلمين في ذٰلك بعدهم، بل

(١) «معجم التراكيب» (ص/ ٢٨٠).

(٢) «فضل علم السلف» لابن رجب (ص/ ٦٣، ٦٢).

ربما لم يتضمن تطويل كلام من بعدهم من الصواب في ذٰلك ما تضمنه كلام السلف والأئمة مع اختصاره وإيجازه.

فما سكت من سكت عن كثرة الخصام والجدال من سلف الأُمة جَهْلًا ولا عَجْزًا، ولٰكن سكتوا عن عِلمٍ وخشيةٍ للّٰه، وما تكَلَّمَ من تَكَلَّم وتَوسَّعَ من تَوسَّعَ بعدهم باختصاصه بعلم دونهم، ولٰكن حُبًّا للكلام وقِلَةَ وَرَعٍ، كما قال الحسن وسمع قوما يتجادلون: هٰؤلاء قوم مَلُّوا العِبَادَة وخَفَّ عليهم القول وقَلَّ ورعهم فتكلموا».

📖 📖 📖

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦٥ ـ لا طائفية ولا حِزبيَّة يُعْقَدُ الولاءُ والبراءُ عليها[١]:

«أهل الإسلام ليس لهم سِمَةٌ سِوىٰ الإسلام» والسلام.

فيا طالب العلم، بارك اللَّه فيك وفي علمك، اطلب العلم واطلب العمل، وادع إلىٰ اللَّه تعالىٰ علىٰ طريقة السلف.

«ولاتكن خَرَّاجًا ولَّاجًا في الجماعات، فتخرج من السعة إلىٰ القوالب الضيقة، فالإسلام كله لك جادة ومنهاج، والمسلمون جميعهم هم الجماعة، وإن يد اللَّه مع الجماعة؛ فلا طائفية ولا حزبية في الإسلام.

وأعيذك باللَّه أن تتصدع فتكون نِهابًا بين الفِرَقِ والطوائف والمَذَاهِب البَاطِلَة والأحْزَاب الغَالِية تعقد سلطان الولاء والبراء عليها؛ فَكُن طالب عِلم علىٰ الجَادَّة تقفو الأثر، وتتبع السُّنَن تدعو إلىٰ اللَّه علىٰ بصيرة، عارفًا لأهل الفضل فضلهم وسابِقتَهُم.

وإن الحزبية[٢] ذات المسارات والقوالب المُسْتَحْدَثَة التي لم يَعْهَدها السلف من أعظم العوائق عن العلم والتفريق عن الجماعة؛ فكم أوهنت حبل الاتحاد الإسلامي وغشيت المسلمين بسببها الغواشي.

فاحذر ـ رحمك اللَّه ـ أحزابًا وطوائف طاف طائفُها ونَجَم بالشر ناجمها؛ فما هي إلا كالميازيب تجمع الماء كدرًا وتُفَرِّقه هدرًا، إلا من رحمه ربك، فصار علىٰ مثل ما كان عليه النبي ﷺ هو وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند علامة أهل العبودية[٣]: «العلامة الثانية: قوله «ولم يُنْسَبوا إلىٰ اسمٍ» أي: لم يشتهروا باسمٍ يُعْرَفون به عند الناس من الأسماء التي

---

(١) انظر فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية(٣/ ٣٤١ ـ ٤١٥، ٣٤٤ ـ ٤١٩، ٤١٦ فهو مهم و(٤/ ٤٦ ـ ١٥٤) مهم ـ أيضًا ـ (١١/ ٥١٥، ٥١٤، ٥١٢) (٣/ ٣٤٢ ـ ٤١٦ ـ ٤٢١) فهرسها.

(٢) وفي «حكم الانتماء» لراقمه فوائد وزوائد.

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (٣/ ١٧٢).

صارت أعلامًا لأهل الطريق، وأيضًا: فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد يجري عليهم اسمه فيُعْرَفون به دون غيره من الأعمال؛ فإن هٰذا آفةٌ في العبودية وهي عبودية مُقيَّدَة، وأما العبودية المُطْلَقَة فلا يُعْرَف صاحِبُهَا باسم مُعيَّن من معاني أسمائها؛ فإنه مجيب لداعيها علىٰ اختلاف أنواعها، فله مع كل أهل عبودية نَصيب يَضْرِبُ مَعَهُم بِسَهْمٍ، فلا يَتَقَيَد برسم ولا إشارة، ولا اسم ولا بِزيٍّ، ولا طريق وضعي اصطلاحي، بل إن سُئِلَ عن شَيْخِهِ؟ قال: الرسول ﷺ، وعن طريقه؟ قال: الاتباع، وعن فِرْقَتِهِ؟ قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة وعن مقصده ومطلبه؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، وعن رباطه؟ وعن خانكاه؟ قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] وعن نسبه؟ قال:

إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمٍ ... أبي الإسلام لا أبَ لي سواهُ

وعن مأكله ومشربه؟ قال: «مَا لَكَ ولَهَا» معها حذاؤها وسقاؤها ترد الماء وترعىٰ الشجر حتىٰ تلقىٰ ربها».

وا حسرتاهُ تقضَّىٰ العمرُ وانصرمتْ ... ساعاتُه بين ذُلِّ العجزِ والكسلِ
والقوم قد أخذوا دربَ النجاة وقد ... ساروا إلىٰ المطلب الأعلىٰ علىٰ مهلِ

ثم قال: «أولٰئك ذخائر اللّٰه حيث كانوا»، ذخائر الملك: ما يخبأ عنده، ويذخره لمهماته، ولا يبذله لكل أحد، وكذٰلك ذخيرة الرجل: ما يذخره لحوائجه ومهماته، وهٰؤلاء لما كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم غير مشار إليهم ولا متميزين برسم دون الناس، ولا منتسبين إلىٰ اسم طريق أو مذهب أو شيخ أو زي، كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة، وهٰؤلاء أبعد الخلق عن الآفات، فإن الآفات كلها تحت الرسوم والتقيُّد بها، ولزوم الطرق الاصطلاحية والأوضاع المُتَدَاوَلَة الحادِثَة، هٰذه هي التي قطعت أكثر الخلق عن اللّٰه وهم لا يشعرون، والعجب أن أهلها هم المعروفون بالطلب والإرادة

والسير إلىٰ اللَّه، وهم ـ إلَّا الواحد بعد الواحد ـ المقطوعون عن اللَّه بتلك الرسوم والقيود، وقد سُئِلَ بعض الأئمة عن السُّنَّة، فقال: ما لا اسم له سوىٰ السنة».

يعني: أن أهل السُنَّة ليس لهم اسم يُنْسَبُون إليه سِواها، فَمِن النَّاس مَن يَتَقَيَّد بلباس غيره، أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره، أو مشية لا يمشي غيرها، أو بِزِيٍ وهيئةٍ لا يخرج عنهما، أو عبادة مُعيَّنَةٍ لا يَتَعَبَّد بغيرها وإن كانت أعلىٰ منها، أو شيخ مُعَيَّن لا يلتفت إلىٰ غيره وإن كان أقرب إلىٰ اللَّه ورسوله منه، فهٰؤلاء كُلُّهُم مَحْجُوبُون عن الظَّفَر بالمطلوب الأعلىٰ، مصدودون عنه، قد قَيَّدَتْهُمُ العوائد والرسوم والأوضاع والاصطلاحات عن تجريد المُتَابَعة، فأضحَوا عنها بمعزِلٍ، ومنزلتُهُم منها أبعدُ منزلٍ فترىٰ أحدهم يتعبد بالرياضة والخلوة وتفريغ القلب، ويُعِدُّ العلم قاطعًا له عن الطريق، فإذا ذُكِرَ له الموالاة في اللَّه والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عَدَّ ذٰلك فضولًا وشرًّا، وإذا رأوا بينهم من يقوم بذٰلك أخرجوه من بينهم، وعَدُّوه غيرًا عليهم؛ فهٰؤلاء أبعد الناس عن اللَّه وإن كانوا أكثر إشارة. واللَّه أعلم» اهـ.

٦٦ ـ نواقِضُ هٰذه الحِلية:

يا أخي ـ وقَانَا اللَّه وإياك العثَرَات ـ إن كُنْتَ قرأت مُثُلًا من «حلية طالب العلم» وآدابه، وعَلِمْتَ بعضًا من نواقِضِهَا؛ فاعلم أن من أعظم خَوارِمِهَا المُفْسِدَةِ لِنِظَامِ عِقْدِهَا:

١ ـ إفشاء السِّرِّ.

○ ○ ○

الشرح

□ قال الإمام أبو طاهر السِّلَفِي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «مُعْجَم السَّفَر» (ص/ ٥٩): «أنشدني أبو العباس أحمد بن علي بن عَمَّار النابلسي بالثَّغْر لأبي عبد اللَّه بن

محمد بن شَرَف القيرواني رَحِمَهُ اللَّهُ ابتدأ قصيدة:

كَمْ قد وشَتْ لٰكن كُفيتُ لِسَانها　　عَين وفَتْ للدَّمع حَتَّىٰ خَانهَا

أودعتُها سِرَّ الهوىٰ فَوَشَتْ بهِ　　ما كُلُّ مَن مُنِحَ السَّرائِرَ صَانَها»

◻ وقال أكثم بن صيفي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «أملك لنفسه من كتم سره من صديقه وخليله؛ لئلا يتغير الذي بينهما يومًا فيفشي سره».

◻ وكان يقول ـ أيضًا ـ : «سرك من دمك؛ فربما أفشيته فيكون سبب حتفك».

◻ وقال الإمام ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ: أنشدني محمد بن عبداللّٰه البغدادي[٢]:

إذا ما المرء أخطأ في ثلاثٍ　　فبعه ولو بكف من رماد

سلامة صدره والصدق منه　　وكتمان السرائر في الفؤاد

وقال الإمام القدوة النوري رَحِمَهُ اللَّهُ:

لَعَمْري ما استودعت سري وسرها　　سِوَانَا حِذارًا أن تَشيْعَ السَّرائر

ولا لاحظتْهُ مُقْلَتَايَ بِنَظْرَةٍ　　فتشهدُ نجوانا العيون النواظر[٣]

◻ وقال الإمام الفاضل الأحنف بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ لما سُئل عن المروءة: «هي كتمان السِّر والتباعد عن الشر»[٤].

◻ وقال الإمام أبو عبدالرَّحمٰن السلمي في كتابه الرائع[٥]: «ومن آدابها

---

(١) «الأمثال» لأبي عبيد (ص/٥٨)، وابن قتيبة في «عيون الأخبار» (١/ ٩٦)، «المجالسة» للدينوري (٨٨٨).

(٢) «روضة العقلاء» لابن حبان (ص/ ٨١ ـ ط دار ابن الجوزي).

(٣) «اللمع» للطوسي (ص/ ٢٢٢).

(٤) «المجالسة» (٣١٥٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ٣٣٧)، وابن العديم في «بغية الطلب» (١٣١٦).

(٥) «آداب الصحبة» (ص/ ٧٠ ـ ٧١).

حفظ أسرار الإخوان: قال أبو عليٍّ الحكيم سمعت أبي يقول: أفشىٰ رجل إلىٰ صديق سرًّا من أسراره، فلما فرغ قال: حفظتهُ؟ قال: لا؛ بل نسيتُه».

▫ وقال الإمام الهمام العَرْجي عبدُاللَّه بن عمر رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

أناس أمناهم فنمُّوا حديثنا ... فلما كتمنا السر عنهم تقوَّلوا

ولم يحفظوا الود الذي كان بيننا ... ولا حين هموا بالقطيعة أجملوا

▫ وأنشدني محمد بن طاهر قال: أنشدني المطرفي لبعضهم[2]:

ليس الكريم الذي إن زل صاحبه ... بث الذي كان من أسراره علما

إن الكريم الذي تبقىٰ مودته ... ويحفظ السر إن صافا وإن صرما

---

(١) «الصداقة والصديق» لأبي حيان (ص/ ١٤٥).

(٢) «آداب الصحبة» (ص/ ٧١).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢ ـ نقل الكلام من قَومٍ إلىٰ آخرين.

○ ○ ○

الشرح:

أي: لإفساد القلوب ونشر الفتن بينهم، وهٰذه الصِّفة من أبغض صفات طالب العلم؛ فما جرىٰ ما جرىٰ بين العُلماء بعضهم ببعض وبين طلبة العلم إلَّا من هٰذه الصفة السيئة الخبيثة، ومن ابتُلي بِهٰذا المرض كاد أن لا يبرأ منه عياذًا باللَّه؛ فما من فتنة وقعت بين العلماء إلا بكلمة رُمِيَت بينهم أشعلت نارًا في النفوس قد كان يُطفئها حسن الظن ومحامل الخير، ولٰكن القلوب خَدَّاعَة والشيطان هَمَز ساعة، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧].

وأنا أقول ـ أيها الطُّلاب ـ : اتقوا اللَّه في علماء الأمة، وكُفوا ألسنتكم عن نفثها السوء فيهم؛ فإنهم سُرُج البلاد وهداية العباد، واللَّه تعالىٰ يَغار عليهم؛ فاتقوا غضب اللَّه جلَّ وعلا، فقد علمتم أن أولياء اللَّه اليوم هم أهل العلم الأتقياء الصادقون المُخْلَصون. اللهم أدبنا بأدبهم، واجعلنا من خدمهم.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣ ـ والصَّلَفُ واللَّسَانَة.

○ ○ ○

الشرح:

آهٍ ثُم آه من هٰذه الصفة الوخيمة رُغم صغر الجارحة التي جرحَت ـ وهي اللسان ـ ، وقد قيل: «المرء بأصغريه: لسانه وقلبه»، وهٰذا اللسان تعلقت به أحكامٌ كثيرة في شريعتنا الغرَّاء، وقليلٌ من يمسك هٰذه الجارحة ويطبق عليها شفتيه وأسنانه ويتم عليه حبسه؛ لأنه إذا خرج من سجنه بغير زمامٍ أورد موارد الهلكة.

هٰذا الذي أوردني الموارد.

و«**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**».

«**ثكلتك أمك يا معاذ**».

□ وقد قيل: «الكلمة إذا لم تخرجها ملكتها، وإن أخرجتها ملكتك».

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤ ـ وكثرة المُزاح.

○ ○ ○

□ قال العلَّامة بدر الدين الغَزِّي: «وبعد؛ فقد سُئِلتُ قديمًا عن المُزاح وما يُكره منه وما يُباح، فأجبتُ بأنه مندوبٌ إليه بين الإخوان والأصدقاء والخِلَّان، لما فيه من ترويح القلوب والاستئناس المطلوب، بشرط ألَّا يكون فيه قَذْفٌ ولا غِيبَة، ولا انْهِمَاك فيه يُسْقِطُ الحِشْمَة ويُقَلِّلُ الهيبة، ولا فُحْشٌ يُورث الضغينة ويحرك الحقود الكمينة، وقد ورد في مدحه وَذَمِّهِ أخبار، فحملنا ما ورد في ذَمِه علىٰ ما إذا وصل إلىٰ حد المُثَابَرة والإكثار، فإنه إِزَاحَة عن الحقوق، ومخرج إلىٰ القطيعة والعقوق، يَصِمُ المازِحَ، ويَضِيمُ المُمَازَح:

فوصمة المازح: أن يُذهِب عنه الهيبة والبهاء، ويُجَرِّئُ عليه الغوغاء والسُّفَهاء، ويورث الغِل في قلوبِ الأكابِر والنُّبهَاء.

وأما إضامة الممازح: فلأنه ربما كان للعداوة والتباغض سببًا؛ فإن الشرَّ إذا فُتِحَ لا يستَدّ، وسهم الأذىٰ إذا أرسل لا يرتَدّ، وقد يُعرِّض العِرض للهتك والدماء للسفك، فحقُ العاقل يتقيه، وينزِّه نَفْسَه عن وصمة مَساوِيَه، وقد قال عمر بن عبدالعزيز: «إنما المُزاح سِبَاب إلَّا أن صاحبه يَضْحَك». وقال بعض الحكماء: «من كثُرَ مُزاحَهُ زالت هيبته، ومن كَثُرَ خِلافه طابت غِيبَته». وذكر خالد بن صفوان المزاح فقال: «يَصُكُّ أحدكم صاحبَه بأشدَّ من الجندل، ويُنَشِقهُ أحرق من الخردل، ويُفرغ عليه أحَرَّ مِن المِرْجَل، ثُم يقول: إنما كُنت أُمَازِحُكَ»!!» اهـ.

□ ثم قال: «فالعاقل يتوخَّىٰ بمزحِه إحدىٰ حالتين: إما إيناس المصاحبين، والتودد إلىٰ المُخَاطَبِينَ؛ وهٰذا بما أَنِسَ من جميل القول، وبُسط من مُستحس الفعل، وإمَّا أن ينفي بالمُزاحِ ما طرأ عليه من سأم أو حَدَث به من هَمٍّ وغَم،

فقد قيل: لابُدَّ لِلمَصْدور أن ينفث» اهـ[١].

---

(١) من كتاب «المراح في المزاح» للإمام العلامة بدر الدين محمد الغزي (ص/ ٥ : ٩ ـ ط: مكتبة الثقافة الدينية ـ ت : سنة ٩٨٤ هـ).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥ ـ والدخول في الحديث بين اثنين.

٦ ـ والحقد.

٧ ـ والحسد.

٨ ـ وسوء الظن.

○ ○ ○

الشرح:

◻ قال ابن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «كان عمير بن هانئ يضحك ثم يقول: بلغني أن أبا الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إني لأستجم ليكون أنشط لي في الحق، فقلت: أراك لا تفتُر عن الذكر فكم تُسبح؟ قال: مئة ألف إلَّا أن تُخطئ الأصابع»[١].

رحماك بنا ـ يا رب ـ، نضحك ليل نهار، ولا ذكر لنا إلَّا للدنيا، كأننا بُشِّرْنا بالجنَّة.

هٰذه آفات الأُمَّة، وعَوائِقُ الطَّلَب، وسوء التربية الشرعية وغيرها، وكمْ جَرَّت من سوآت وعواقب! وكم ذَلَّ بها أقوام! وكم ضَيعت من محبةٍ كانت في القلوب عامرة! ولو استخدم صاحب هٰذه الأمراض من البداية: حُسن الظن والتأدب، وحمل المحامل الطيبة؛ لكان الأمر أهون من هٰذا، وهٰذا ما ابتُلينا به في هٰذه الآونة، وهٰذا الكلام لايقع من العَوَام؛ بل ممن يُشار إليهم بالبَنَان، وهٰذا في النفوس أوجع، وفي القلوب أوقع.

◻ وقد ذكر أبو علي القالي في «أماليه»[٢]: قال: «أخبرني عبدُاللَّه بن إبراهيم الجُمحي قال: نشأ في قُريش ناشئان: رَجُلٌ مِن بني مَخْزُوم، ورجل من بني جُمَحٍ، فبلغا في الوداد ما لم يبلغ بالغ؛ حتىٰ كان إذا رُؤِي أحدهما فكأنْ قد

(١) «السير» للذهبي (٥/ ٤٢١).

(٢) «ذيل الأمالي والنوادر» لأبي علي القالي (ص/ ١٤، ١٥ ـ دار الجيل).

رُئيا جميعًا، ثُمَّ دَخَلَتْ وَحشَةٌ بينهما من غير شيءٍ يعرفانه فتغيرا، فَلَمَّا كان ليلة من الليالي، استيقظ المخزومي، فَفَكَّر ما الذي شَجَرَ بينهما ـ وكان المخزومي يُقال له محمد، والجُمَحِي يحيىٰ ـ، فنزَل مِن سطحه وخرج حتىٰ دَقَّ عليه بابه، فاستيقظ له فنزل إليه، فقال له: ما جاء بك هٰذه الساعة؟ قال: جئتك لهٰذا الحدث ما أصله وما هو؟ فقال: واللَّه ما أعرف له أصلًا! فبكيا جميعًا حتىٰ كادا يُصبحان، ثُم قال المخزومي:

كنتُ ويحيىٰ كَيَدَي واحدٍ نَرْمِي جميعًا ونُرامىٰ معًا
يَسُرني الدهر إذا سَرَّه وإن رُمينا بالأذىٰ أُوجِعا»

انتهىٰ كلامه.

فالمرءُ يتساءل اليوم: أين ضاع هٰذا الأدب، حتىٰ صارت القلوب جافة، ونَدَّعي بعضنا لبعض الأخوَّة، ونَدَّعي العِلم، ونَدَّعي السَّبْق في طريق الدعوة حتىٰ ظهر علىٰ قلوبنا الرياء وألسنتنا الكذب، ولو صَدَق هٰذا لقَال: ما أنا بِمُحِب وما أحببتُ غير نفسي!!.

فَدَعْهُ وما هو هالِك؛ فَصِدْق الأخوَّةِ هُنالِك لا تجده إلَّا في كتاب أو تحت تراب.

فإلىٰ اللَّه المُشْتكَىٰ من هٰذا الجيل وذاك الرعيل، ونحمد اللَّه علىٰ أن رأينا أدب عُلمائنا الكرام، وإلَّا لَنَبَشْنَا التُّراب علىٰ من مات من الأحباب، وبكينا كَمَدًا علىٰ ضياع الآداب.

رُحماك ـ يارب ـ بأهل الصدق، واجعلنا من أهله.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٩ ـ ومجالسة المبتدعة.

١٠ ـ ونقل الخطىٰ إلىٰ المحارم.

فاحذر هٰذه الآثام وأخواتها، واقصر خُطَاكَ عن جميع المحرمات والمحارم، فإن فَعَلْتَ وإلَّا فاعْلَم أنكَّ رَقِيقُ الديانة، خفيفٌ لعَّاب مُغْتَابٌ نَمَّام، فأنىٰ لك أن تكون طالب عِلْم يُشَارُ إليك بالبَنَان مُنَعَّمًا بالعلم والعمل.

سدد اللَّه الخُطىٰ، ومَنَحَ الجميعَ التقوىٰ وحُسْنَ العاقِبَة في الآخرة والأولىٰ.

وصلىٰ اللَّه علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

بكر بن عبدالله أبو زيد

٢٥/١٠/١٤٠٨ هـ

○ ○ ○

الشرح:

رحم اللَّه العلَّامة الشيخ بكر أبو زيد علىٰ ما جاد به وأفاد، وما كان هٰذا إلَّا مِن حُسْن النيَّة في النَّصيحة واللَّه حسيبه، فاللَّهُ يَمُّن بفضله علىٰ من يشاء بيده الخير، ولا أجد كلامًا يليق بهٰذا الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلا ما قال العلَّامة ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: «إلَّا رجالٌ مؤمنون من أهل العلم يحفظ اللَّه بهم الدين، بواطنهم كظواهرهم ـ بل أجلىٰ ـ، وسرائرهم كعلانيتهم ـ بل أحلىٰ ـ، وهممهم عند الثُّريا ـ بل أعلىٰ ـ، إن عرفوا تنكروا، وإن رؤيت لهم كرامة أنكروا فالناس في غفلاتهم، وهم في قطْعِ فَلاتهم، تحبهم بقاع الأرض، وتفرح بهم أفلاك السماء، نسأل اللَّه التوفيق لاتِّبَاعِهِم، وأن يجعلنا من أتباعهم» اهـ.

□ ونختم شرحنا بكلام العلامة الخطابي الذىٰ سطَّرَهُ بقوله: «وكل من عَثَرَ

مِنْهُ عَلَىٰ حَرْف أو مَعْنًىٰ يجب تغييره، فنحن نُنَاشِدهُ اللَّه إصلاحهُ وأداء حق النصيحة فيه؛ فإن الإنسان ضعيف لا يسلم من الخطأ ـ إلا أن يعصم اللَّه بتوفيقه ـ، ونحن نسأل اللَّه ذٰلك ونرغب إليه في دركه؛ إنه جواد وهوب»[(١)].

□ «ربِّ تَقبَّل عَمَلِي، ولا تُخَيِّب أَمَلِي، أَصْلِح أموري كُلَّهَا قبل حُلول الأَجَل»[(٢)].

وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبينا محمد بن عبداللَّه ومن والاه وسار علىٰ خطاه.

وقَيَّدَه لقارئه ودَارِسِه.

العبد الفقير

أبو محمد/ محمد بن حسنين بن رجب الغول

السلفي الكِرداسي

عفا اللَّه عنه وعن والديه ومشايخه والمسلمين
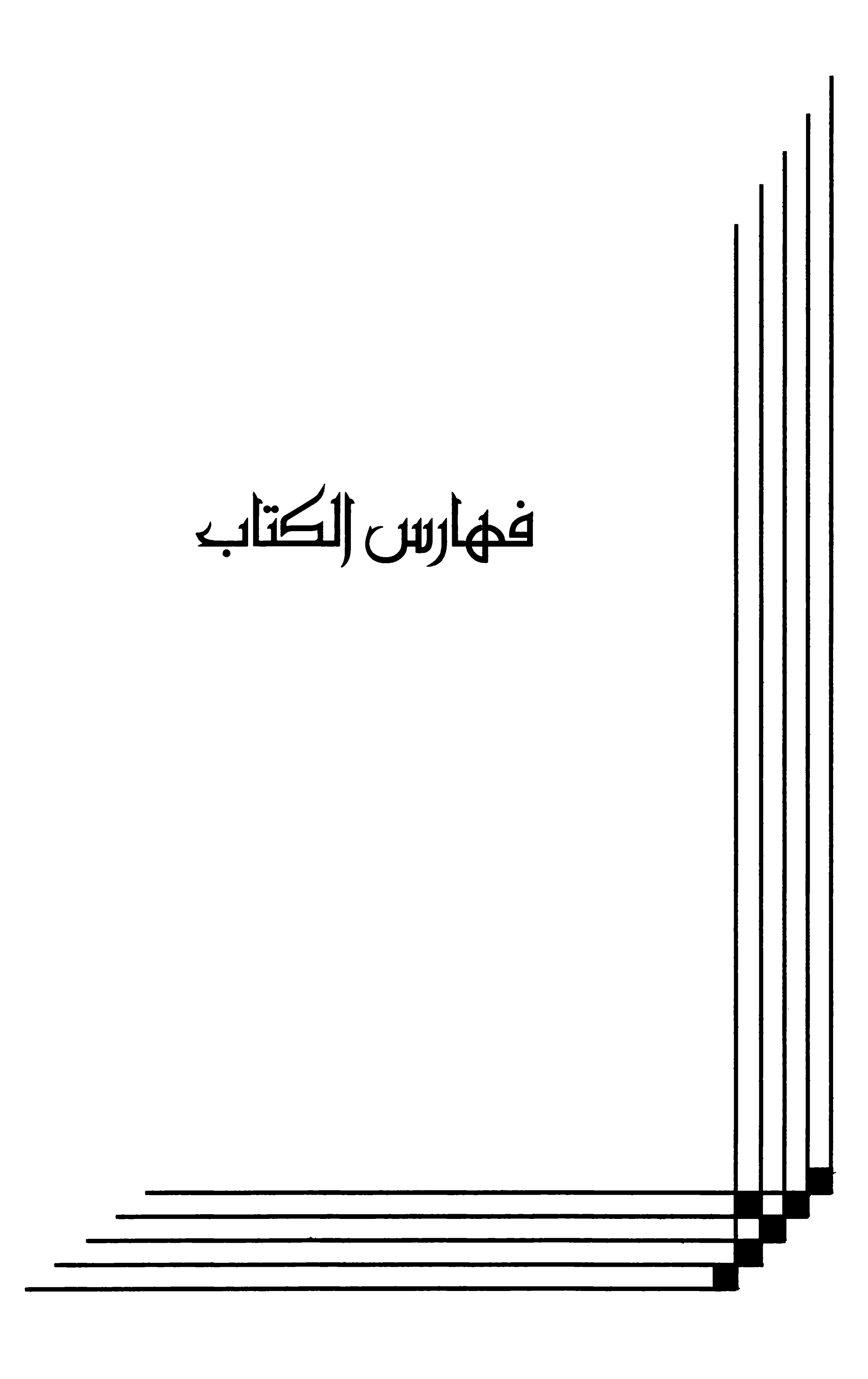
٢٩ من المحرم، ١٤٣٣ هـ

٢٤ من ديسمبر، ٢٠١١ م

---

(١) مقدمة «غريب الحديث» للخَطَّابي (١/ ٤٥ ـ ط: جامعة أم القرىٰ).

(٢) من قول الإمام الداوديِّ البوشنجيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «السِّير» (١٨/ ٢٢٥ ـ الرسالة).



فهارس الكتاب

(١) فهرس الأحاديث النبوية

إذا مات الإنسانُ انقطع عملُه إلا مِن ثلاث ٢٩٧
إن اللَّه يُحبُّ الرفق ١٣١
إنما الأعمال بالنيات.. ٣٢، ٣٥
إنما مثلُ صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المُعَقَّلَةِ.................. ٢٧٩
إني أعلمُكم باللَّهِ، وأشدُّكم له خشيةً.................................. ٧٦
اتقِ اللَّهَ حيثما كنت ٦٦
الإحسان أن تعبد اللَّهَ كأنك تراه ٨٥
المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ.................................. ٣٢٥
المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.............................. ٣٥٨
بمَ تقضِي ـ يا معاذ ـ؟ ٣٣٥
تبسُّمُك في وجهِ أخيك صدقة ١١٧
ثكلتك أمك يا معاذ.. ٣٥٨
ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وجد بِهنَّ حلاوة الإيمان ٥٧
عليكم بالصِّدق... ٢٤٨
كفىٰ بالمرء إثمًا أن يُضيِّعَ من يقوت.................................... ١٠٨
كلمتان خفيفتانِ علىٰ اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلىٰ الرَّحمٰن....... ٣٣
لا إيمانَ لمن لا أمانة له ٢٤٤
لا تزالُ طائفة من أمتي قائمةً علىٰ أمر اللَّه ٣٠٩
لا تزالُ طائفةٌ من أمتي منصورين؛ لا يضرهم من خذلهم ١٤٧
لا يتحدث الناس أن مُحمدًا يَقْتُلُ أصحابه.............................. ٢٩٩
لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبر ٩٦
لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسنُ الظن بربه............................. ٨٧

لن تسَعُوا الناسَ بأموالكم، فلْيَسعهُم منكم بَسطُ الوجه ١١٨
لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ٨٧
ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هدًى كانوا عليه إلَّا أُوتوا الجدلَ ٢٧٧
مَن أحدث في أمرنا هٰذا ما ليس منه فهو رد ٣٤
نضر اللَّهُ امرأً سمع مقالتي ٣٠
وعن عِلمه: ماذا عمل فيه ٧٩
ومَن حام حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه ١٣٠
يحمل السماوات علىٰ إصبع ١٨٧
يدرُسُ الإسلامُ كما يدرُسُ وَشْيُ الثوب ٧٨

(٢) فهرس الآثار

أَتَمُ النَّاس أعرفهم بنَقْصِهِ ٣٤٩

أتىٰ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عمر بن ربيعة فأنشده ٢٣٥

أحببتُ اللَّه حُبًّا هَوَّن عليَّ كل مصيبة ٥٨

أحضر بين يديه طبق تمر ٩٩

أخبرنا سفيان بن عيينة بحديث ٣٣٤

أدُّوا زكاة الحديث ٧٩

أدركت في هٰذا المسجد ـ المسجد النبوي ـ مئةً وعشرين ٢٥٦

إذا أردت أن تكون عالمًا فاقصد لفنٍّ من العلم ٢٨٤

إذا بلغك شئ من الخير فاعمل به ٨١

إذا جالست العالِم فكُن علىٰ أن تسمع أحرص مِنْكَ ٢٧٤

إذا خرج الكلام من القلب وقع في القلب ٥٥

إذا رأيتُ رجلًا من أصحاب الحديث؛ فكأني رأيت ١٤٧

إذا رجعتُ من عند سفيان الثوري أخذتُ نفسي بخير ما علمتُ ١١٢

إذا شئت لقيته أبيض بَضًّا، حديدَ النظر ١٨٤

أَرِ اللَّه الصدق منك في جميع أحوالك ٣٢٥

أربع تُعْرَف بِهن الأُخوَّة: الصفح قبل الانتقاد له ١٩٩

أربع خصال ترفع العبد ٢٤٤

أردت الخروج ـ يعني الرحلة ـ، فمنعتني أمِّي ١٧٠

أردتُ سَفَرًا، فقال لي الأعمش: سَلِ اللَّه أن يرزقك صُحبةً صالحةً ٢٠٥

أرفع الناس قدرًا من لا يرىٰ قدره ٩٩

أشتهي أن أموت ببلدٍ غير بغداد ٨٩

أشتهي ما لا يكون، أشتهي مكانًا لا يكون فيه أحدٌ ٢٩٥

أُشْكِلَ عَلَيَّ بابٌ مِنَ النَّحو ٣٤٠
أصبحت وما لي سرور إلَّا في مواقع القضاء والقدر ٥٩
أصل العلم التثبت، وثمرته السلامة ٢٤٧
أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول اللَّه ﷺ ٧١
أعْرَبْنَا في الكَلام فَمَا نَلْحَنْ، ولَحَنَّا في الأعمال فَمَا نُعْرِب ٣٤٦
أعلىٰ الدرجات أن تنقطع إلىٰ ربِّك ٢١١
أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل .... ٢٣١، ٢٦١
أقمتُ لأَستفيد من شمائله ١٧٦
أقوىٰ القوىٰ غلبتُك نفسك ٩٩
أكلت الطعام حتىٰ لم أجد طعمه ٢٠٢
ألا تستوحش؟ قال: ويستوحش مع اللَّه أحد؟ ٢١١
آلة الحديث الصدق، والشُّهْرَة بطلبه ٢٤٨
ألك صديق؟ قال: لا؛ ولٰكن أليف ١٩٩
إلٰهي، همك عطل عليَّ كلَّ الهموم ٨٧
إما يُمْرِض قلبك لتتابُعِهِ، وإمَّا أن يُؤْذيك ٣٣٨
أَمَرَ الرشيد أبا يوسف القاضي بأن يجمع له أصحاب الحديث فيحدثوه........................ ٥١
أمرُنا هٰذا مبني علىٰ فصلين ٨٥
أملك لنفسه من كتم سره من صديقه ٣٥٥
أن أبا جعفر الطحاوي كان يقرأ علىٰ المُزني ١٣٦
أن ابن الدجاجي كان ذا وجاهةٍ وتقدُّمٍ وحالٍ واسعة ٥١
أن ابن سيرين كان قد ثقُل وتخلَّف عن الحج ١١١
إن استطعت ألَّا تحك رأسك إلَّا بأثر فافعل ٢٣٤
إن استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل ٨١
إن الذي يُفتي الناس في كل ما يُستفتىٰ لمجنون ٢٥٦
إن العالم إذا لم يعمل زَلَّت موعظته عن القلوب ٥٦

إن اللَّه أحب قبضه، وأعوذ باللَّه أن تكون لي محبة تخالف محبة اللَّه ٥٩
أن رجلًا سأله عن مسألة، فقال: لا أدري ٢٥٥
إن رجلًا قال في أصحاب الحديث: إنهم كانوا قوم سوء ١٤٧
إن رسول اللَّه ﷺ هو الميزان الأكبر ١٧٦
أن سفيان الثوري قَدِمَ علىٰ حماد بن سلمة الحافظ ٢٦٠
أن عبداللَّه بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سأله رجلٌ عن مسألة ٢٥٦
إن عرفت أستاذًا أعلم مني ـ أو في الفضل مثلي ـ ١٦٩
إن غاية علم النحو، وعلم ما يحتاج إليه منه ٣٤٠
إن فُلانًا لا يَعظُ ويقول ٢٩٨
إن قومًا يأتونك من أقطار الأرض فتغضب عليهم ٩٣
إن كان شيئًا تقوله العرب فلا يُغَيَّر ٣٤١
إن كنتَ تظن أنه شهد الموقف أحدٌ شرٌّ مني ومنك ٩٨
إن لكل شيء شينًا، وشينُ العلم الطمع ٣٠٢
إن لم يكن أصحاب الحديث الأبدال؛ فمن يكون ١٤٧
إن ما بين العبد وبين الوجود أن تسكن التقوىٰ قلبه ٦٧
إن من كان قبلنا كانوا يجعلون لدنياهم ما فضل عن آخرتِهم ٨٨
إن نفسي تَوَّاقه، وإنها لم تُعط شيئًا من الدنيا إلا تاقت ٢١٦
إن هٰذه الأحاديث دين؛ فانظروا عمن تأخذوا دينكم ١٧٦
أنا أطلبُ العلم إلىٰ أن أدخل القبر ١٤٦
أنا الذي أمَرْتَنِي فَقَصَّرْت، ونَهَيْتَنْي فَعَصَيت ٣٤٩
أنا لا أُذل العلم ولا أحمله إلىٰ أبواب الناس ٣٠٤
إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع ٧٢
أنت رجل أعجمي لا تفصح ٢٧٧
أنفع الخوف ما حجزك عن المعاصي ٨٧
إنما يُذهب العلمَ النسيانُ وتركُ المذاكرة ٢٧٩

أَنَّ أبا صَفْوَان خالـد بن صَفوان دَخَلَ الحَمَّام وفيه رَجُل ٣٤٤
إنَّ صَوْت المُحب من أَلَمِ الشوق وخوف الفِراق ٦٠
إنه قَصَدَ ابن عَبَّاد، فقال ابن عَبَّاد للحاجب ٢٣٧
أنه كان يُذَكِّرُ كل يوم خميس ١٧٩
إني أصبت راحة قلبي في مجالسة من لديه حاجتي ٢١١
إني لأذكر المُعافَىٰ بن عِمران اليوم فانتفع بذكره ١٧٥
إني لأقول هٰذه المَقَالَة، وما أعلم عند أحدٍ ٢٩٩
إنىٰ لأنظر في المرآة كل يوم مرارًا.. ٩٠
أوصني. قال: هٰذا زمان السُّكوت ٢٠٩
أوصيك أن تكون ملكًا في الدنيا والآخرة ١٠٦
أول المروءة: طلاقة الوجه. والثاني: التودد إلىٰ الناس ١٢٠
أولىٰ الزهد الزهد في الحرام، ثم الزهد في المباح......................... ١٠٥
أيما أكبر الصاع أو المُد؟ ٢٧١
ابك يا أبا بشر فإنه قد بلغني أن العبد لا يزال يبكي....................... ٨٨
اتقوا زلَّة العالم ٤٧
اتقوها بالتقوىٰ ٦٦
اجتهد ألَّا تُفَارِق باب سيدك بحال ٢٤١
احذروا عالم الدنيا؛ لا يصدكم بسُكره ١٢٨
اختلفت إلىٰ أبي عبداللَّه ـ أحمد بن حنبل ـ ثنتي عشرة سنة .... ١١٢، ١٧٥
استأذنت ابن خزيمة في الخروج إلىٰ العراق ١٦٩
استشرت البَرقاني في الرحلة إلىٰ أبي محمد النحاس بمصر ١٦٩
استَلطِفِ اللَّهَ لكل عسير ٢٤٢
استواؤه غير محدود، والجواب فيه تكَلُّف ١٨٧
اشتغِلوا بتعلم العلم، ولا يغرنكم كلام الصوفية ١٤٧
اعلم أن كل يوم يعيش فيه المؤمن فهو غنيمة.............................. ٢٦٣

الإخلاص إذا عملت عملًا صالحًا فلم تحبَّ أن تُذكر به قط........ ٢٩
الإنسانُ في فُسْحةٍ من عقلِه وفي سَلَامةٍ من أَفْواهِ النَّاسِ ٣٣٠
التثبت نصف العلم ١٣٦
التواضع ألَّا ترىٰ لنفسك قيمة........ ٩٤
الجدال في الدين يُنشئ المِراء ٢٧٧
الخوف له ظُلَم يتحير صاحبُه تحته........ ٧٧
الدراسة صلاة السر........ ٢٥
الرجاء ترويح من اللَّه تعالىٰ لقلوب الخائفين ٧٧
الزهدُ بعد المقدرة........ ١٠٥
الصحبة مع اللَّه بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة........ ١٩٩
الصدق موافقة الحق في السِّر والعلانية ٢٤٦
العلم الذي لا ينتفع به صاحبه ٨٠
العلم ثلاثة أشبار؛ فمن جاوز الشبر ٣٢٦
العلم عندنا ما كان عن اللَّه تعالىٰ من كتاب ناطق غير مَنسوخ........ ٢٨١
العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلَّا ارتحل ٨٣
الكُتَّابُ سبعة: الكامل الذي ينشئ ويملي ٣٣٢
الكلمة إذا لم تخرجها ملكتها........ ٣٥٨
الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول........ ١٨٧
اللهم لا ترد أهل الموقف من أجلي........ ٩٨
المادح والذام عندي سواء........ ٣١
المتواضع في طلب العلم أكثرهم علمًا ٩٢
المُزاح من سُخف أو بَطر........ ١١٦
الناس في العلم طبقات........ ٢٤١
النظر إلىٰ مَن تكرهُ حُمَىٰ باطنة ٢٠٥
انطلق فأفت الناس، وأنا لك عون ٢٥٥

بالأدب تفهم العلم ٢٧٠
باللَّهِ لا تخاطر بنفسك ٩٩
باللَّهِ لا تُخَاطِر بنفسك ٢٩٤
بحسب الرجل من العلم أن يخشىٰ اللَّه ٤٥
بطلبة الحديث يدفع اللَّه البلاء عن أهل الأرض ١٤٧
بكيت الدموع علىٰ تخلفي عن واجب حق اللَّه ١١٤
بِمَ أدركتَ ما أدركتَ؟ ٨١
بمَ أدركت ما أدركت؟ قال: بالعلم ٢٣٤
بَيْنَا أنا في بَعضِ البَوادي، إذا أنا بصبي مَعَه قربة ٣٤٠
تحدثوا بكتاب اللَّه وتجالسوا، وإذا مللتم ١٧٩
تستطل علىٰ الناس وأمك اشتريتها بأربعمئة درهم ٩٩
تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا ٣٢٨
تَلْقَىٰ الرَّجُل ومَا يَلْحَنُ حَرْفًا ٣٤٦
تُوفِّي ابنٌ ليونس بن عُبَيد ٢٠٠
توكل علىٰ اللَّه؛ حتىٰ يكون جليسك وأنيسك ٢١٢
ثَبَتُّ عند حماد بن سليمان فنبتُّ ١٣٦
جلست إلىٰ عبدالرَّحمٰن بن أبي ليلىٰ ١٦٢
جماع الخير في حرفين: حِلُّ الكِسرة وإخلاص العمل للَّه ٢٩
حتىٰ متىٰ وإلىٰ متىٰ أعظُ ولا أتعظ؟ ٣٠٠
حدِّث الناس كل جمعة مرة ١٧٨
حدَّث يحيىٰ بن أبي كثير بأحاديث ٢٣٢
حُسنُ المسألة نصف العلم ٢٧٠
حضرتُ وفاة أبي القاسم الجُنيد رَحِمَهُ اللَّهُ ٨٢
خَرج الحسنُ من عند ابن هبيرة، فإذا هو بالقُرَّاءِ ٣٠٩
دخل الإمام أبو عبد اللَّه الخُتَّلي علينا البصرة ٢٣٦

دخل رجلان من أهل الأهواء علىٰ محمد بن سيرين ٣٣٩
دخلت بروجرد، فقعدت أنسخ في جزء بجامعها ١٧٣
دخلت علىٰ السَّري ـ وهو شبيه بالمتغير اللون ـ........................ ٢٢٥
دخلت مُرسية، فتشبث بي أهلها يسمعوا عليَّ ٢٣٦
دَخَلْتُ نَيْسَابُوْر، وَحَضَرتُ عِنْد الأُسْتَاذِ أَبِي المَعَالِي الجُوَيْنِيِّ ٣٣٨
دخلنا عل أبي بكر النهشلي ٢٦٠
ذَهاب الإسلام من أربعةٍ........................ ٧٩، ٢٩١
رأس مالك قلبُك ووقتك ٢٥٩
رأيت أبا عبداللَّه إذا مَشَىٰ في الطريق يكره أن يتبعه أحد ٢٩٥
رأيت الأوزاعي في المنام مع جماعة من العلماء........................ ٢٤٧
رأيت الثوري في طريق مكة ١٠٦
رأيت الخلوة أروحَ لِقلبي........................ ٢٩٥
رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له: غدًا القيامة ٢١٧
رَأَيْتُ يَحْيَىٰ يَوْمًا حَدَّثَ بِحَدِيْثٍ ٣٣٣
ربما يقع في قلبي النكتة ـ أي كلمة الحكمة ـ ٢٨٢
رحلت وقاسيت الذل والمشاق........................ ٢٢٤
روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتموها ٥٧
سألت أبا عمرو بن العلاء: حتىٰ متىٰ يحسُن بالمرء أن يتعلم........................ ١٤٦
سألت أبا نصرٍ الجُهَيْني عن المروءة ١٢٠
سألنا حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رجل قريب السمت والهدي من النبي ﷺ ١١١
سجنك نفسُك، إذا خرجت منها وقعت في راحة الأبد........................ ١٠٢
سَرَقَ أصْحَاب الحَديث نَعْلَ أبي زَيد النَّحْوي ٣٤٤
سرك من دمك؛ فربما أفشيته فيكون سبب حتفك ٣٥٥
سمع الأصمعي رجُلًا يَدعو رَبَّه ويقول في دُعَائِه........................ ٣٤٣
سمعت الحسن يحلف في المسجد باللَّه الذي لا إله إلا هو ٩٥

شُكر العلم العمل، وشكر العمل ٢٩٢
شهدت فضيلًا ابن عياض في مجلس سفيان ابن عيينة ٥٠
صَحِبَ أيوبَ رجلٌ في طريق مكة، فآذاه الرجل ٢٠٥
صحبت إبراهيم بن أدهم، فمرضت فأنفق عليَّ نفقته ١٠١
صَحِبْتُ وَكِيْعًا في الحَضَرِ وَالسَّفَرِ ٣٣٤
صدق، أنا كما قال ١٠٢
طُفْتُ الأرض كلها في طلب العلم ٢٢٣
طوبىٰ لمن استوحش من الناس ٢١١
عجبتُ للخليقة! كيف أرادت بك بدلًا منك ٤١
عجبت لمن ترك الأصول وطلب الفصول ١٤٢
علامة المحب علىٰ صدق محبته ست خصال ٦٢
علمنا هٰذا مقيد بالكتاب والسنة ٢٢٩
عِلْمُنا هٰذا مُقَيَّدٌ بالكتاب والسنة ٢٨١
عليكم باتباع السواد الأعظم ٧٣
عملوا واللَّهِ بالطاعات، واجتهدوا فيها ٧٦
عند الصَّبَاح يَحْمَدُ القوم السُّرَىٰ ٤٠
فقيه واحد أشد علىٰ إبليس من ألف عابد ٢٢٨
قال الخليفةُ المنصور لهشام بن عروة ٢٤٧
قال بعض الخلفاء لأبي حازم: ما مالُك؟ ١١٠
قال رجلٌ لزهير بن محمد البابي: ٦٥
قال رجل لعمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: جزاك اللَّه عن الإسلام خيرًا ٣٤٩
قال لي إبراهيم بن أبي يحيىٰ: إني أرىٰ المُعتَزِلَة عنْدَكُم كثيرًا ٣٣٩
قال لي أبو قلابة: احفظ عني أربعًا ١٨٤
قال لي الشافعي عليك بالزهد ١٠٥
قال لي خالي محمد بن سوار يومًا ٨٦

قال لي ربيعة بن عبدالرَّحمٰن: أدركت مشيخة أهل المدينة ١٢٦
قال لي عتبة الغلام: يا رياح، إن كنتُ كلما دعتني نفسي ١٣٢
قال لي مسروق: ما بقىٰ شيء يُرْغَبُ فيهِ إلَّا أن نُعَفِّرْ وجُوهَنا بالتراب ٤٥
قدم علينا الحكم بن المطلب ـ ولا مال معه ـ ١٧٦
قدمت الكوفة، وبها ابن عجلان.................. ١٦٦
قف حيث وقف القوم؛ فإنهم عن علم وقفوا ٧٢
قف علىٰ البِسَاط وإيَّاكَ والانْبِسَاط ٣٢٥
قل لعبدالوهاب: أخْمِل ذكرك ٢٩٥
قُلت لأبي بكر الخطيب عند قدومي: أنت الحافظ أبو بكر؟ ٢٩٢
قلت لأُمِّي: أذهب فأكتب العلم.................. ١٢٦
قيل لعمر بن عبدالعزيز يا أمير المؤمنين، لو أتيت المدينة.................. ١٠١
قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ ١١٢
قيل للشافعي: كيف شهوتك للعلم ١٧٧
قيمة كل امرئ ـ أو قدر كل امرئ ـ ما يحسن.................. ٢١٩
كأنك تكره أن تؤتىٰ؟ قال: أجل.................. ٢١١
كان إبراهيم يقرأ علىٰ الأعمش فقال ٣٤٤
كان أَجَلُّ أحكامنا في مبادئ أمرنا.................. ٢٠٠
كان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ يريد أن يسأله ٩٢
كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يضرب ولده علىٰ اللَّحن.................. ٣٤٣
كان الأبَّار من أزهد الناس ١٧٠
كان الخطيب البغدادي معنا في الحج.................. ٢٦٨
كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بُغضًا للدنيا ٣٠٨
كان الزهري يُحدث ثم يقول: هاتوا مِن أشعاركم ٢٦٥
كان العقيلي جليل القدر، عظيم الخطر ١٦٧
كان العلماء ربيع الناس.................. ٣٠٣

كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم ١٠٨
كان بسمرقند أربعُمئةٍ ممن يطلبون الحديث........ ١٦٧
كان جدي أبو بكر بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يدخر شيئًا جهده ١٠٩
كان شيخنا الفرَّاء يخرج إلينا وقد لبس ثيابه ٢٣٦
كان طاووس جالسًا، فجاء رجل من المُعْتَزِلَة ٣٣٩
كان عمير بن هانئ يضحك ثم يقول ٣٦١
كان كثير السَّماع، حسن السيرة ٢٣١
كان مالك بن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني........ ٦١
كان والدي أبو جعفر يصلي صلاةَ المغرب مع أبي عثمان الحيري ٨٠
كان يقال: إن الرجل يطلب العلم لغير اللَّه........ ٣٧
كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلىٰ هديه ١١١
كتب فيلسوف إلىٰ من في درجته........ ٢٠٢
كفىٰ بالعُزلة علمًا، ورأيت الوحدة أروح لقلبي ٢٠٦
كل من كتبت عنه حديثًا فأنا له عبد........ ٩٢
كل مَن لا يُزهِدك لَحْظُهُ عن لَفْظِهْ ٥٦
كلام القلب يقرع القلب ٥٥
كم بينكم وبين القوم: أقبلت عليهم الدنيا فهربوا ١٠٩
كنا عند الحسن بن سفيان، فدخل ابن خزيمة........ ١٦٦
كنا عند زياد بن عبدالرَّحمٰن شبطون؛ إذ جاءه كتاب ٢٧١
كنا عند معتمر بن سليمان يُحدثنا ١٧٢
كنا في جنازة فيها عبيداللَّه بن الحسن ـ وهو علىٰ القضاء ـ........ ١٣٦
كنا في مجلس سفيان بن عيينة، فقام إليه رجل فقال ٥٣
كنا ندخل علىٰ عطاء، فإذا قلنا له زاد الطعام........ ٩٩
كنت إذا أتيت هبة اللَّه بالرِّباط، أخرجني إلىٰ الصحراء ٢٢٥
كنتُ إذا أحسست من قلبي قسوةً؛ أتيتُ محمد بن واسع ١١٣

كنت إذا نظرت إلىٰ يحيىٰ القطان ظننت أنه لا يحسن شيئًا ١٢٨
كنتُ أرىٰ يحيىٰ القطان يصلي العصر ١٦٢
كنت أصفِّح الورقة بين يدي مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ صفحًا رقيقًا ١٦٣
كنت أقرأ عليه وهو يبكي ١٧٥
كنت أكتب في الأكتاف والعِظام ٢٣١
كنت أوتيتُ فهم القرآن؛ فلما قَبِلتُ الصُّرة من أبي جعفر سُلبته ٥٠
كنت عند بشر بن الحارث يومًا، فرأيته مغمومًا ١٢٢
كنت عند جعفر الخلدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوم مات الشبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٨١
كنت عند عطاء بن أبي رباح، فسئل عن شيء ٢٥٧
كُنَّا نُؤْمَر أن نَتَعلَم القرآن ثُم السنة ثُم الفَرائِض ٣٤٠
كيف ترىٰ حال الناس ٨٩
كيف كان سماعه من أبيه أبي حاتم وسؤالاته له ٢٦٠
كيف يُعرف العالم الصادق ١١٠
لأن أكون كتبت كل ما أسمع أحب إليَّ ٢٣١
لأن لا يكون فِيَّ نفاقٌ أحب إليَّ من الدنيا وما فيها ٩٥
لَأَنْ يَلْقَىٰ اللَّهَ ﷻ المرء بكل ذنب ـ ما خَلا الشِرك ١٨٢
لا أحب أن أموت حيث أُعرف ٩٠
لا آنسني اللَّه إلا به أبدًا ٢١١
لا تأخذوا العلم إلا ممن شُهِدَ له بالطلب ١٤٨
لا تربحِ علىٰ نفسك بشيء أجلَّ من أن تشغلها ٢٦٣
لا تُمكِّن صاحب هَوىٰ مِن أُذنيك ٣٣٨
لا تُمِلُّوا الناس ١٧٨
لا يتعلم العلم مستحيي ولا مستكبر ٩٤
لا يتم العلمُ إلا بستة أشياء ١٤٨
لا يُرضي الناسَ قَولُ عالم لا يعمل ٢٩١

لا يرىٰ أحدٌ عيب نفسه وهو يستحسنُ من نفسه شيئًا ١٠٢
لا يَزَال المرءُ في فُسْحةٍ من عقلِه ما لم يَضَعْ كتابًا........ ٣٣٠
لا يستغني حال من الأحوال عن الصدق ٢٤٦
لا يَشُمُّ رائحةَ الصدقِ عبدٌ دَاهَن نفسَه أو دَاهَن غيرَه ٣١٢
لَحَنَ أيوب السختياني في حَرْف ٣٤١
لقد أَتتْ علينا بُرهَةٌ مِن دَهْرِنا وما عالم يطلب أميرًا ٣٠١
لقد أدركتُ بالمدينة أقوامًا لو استُسقي بهم القطر لسُقُوا........ ١٠٦
لقد أصبت في خروجك........ ٢٢٣
للمروءة أربعة أركان........ ١٢٠
لم أرَ أعبدَ من يحيىٰ بن حماد، وأظنه لم يضحك........ ١١٧
لم أر شيئًا أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة........ ٢٠٦
لم تجدوا غيري ٢٥٧
لم يجد أحد تمام الهمة بأوصافها إلَّا أهل المحبة ٥٧
لما رحلت إلىٰ شيخنا ـ رُحلة الدنيا ومُسْنِد العَصْر أبي الوَقْت السِّجْزِي ١٠٠
لما عَزَمْتُ علىٰ التحديث؛ واللَّه المُطَّلِعُ أنه ما حملني علىٰ ذٰلك ٣٢٧
لما عَلِمُوا أن العَطَبَ في المؤَانَسَة ٢٠٩
لما ورد أبو الفضل الهمذاني نيسابور تعصبوا له........ ١٦٧
لمَّا رَحَلْتُ إلىٰ شيخنا رُحلة الدنيا ومسند العصر ٢٩٢
لو أن رجلًا جمع العلوم كلها ١٤٩
لو أن هٰؤلاء الذين يطلبون العلم طلبوا به ما عند اللَّه ١٠٩
لو شئت أن أملأ ألواحي من قول مالك بن أنس ٢٥٤
لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهىٰ عن المُنْكَر ٢٩٨
لو نظرتَ إلىٰ ثياب شُعبة لم تكن تساوي عشرة دراهم ١٠٥
لولا الجماعة ما خرجت من بابي أبدًا حتىٰ أموت ٢١١
ليس العلم عن كثرة الحديث ٧٧

ليس علىٰ المحدث عيب أن يَزِلَّ في الإعراب........................ ٢٨٥
ليس معي من العلم إلَّا أني أعلمُ أني لَسْتُ أَعْلَم ٣٤٩
ما أجلسك هاهنا؟ قال: إنه لا أوعظ من قبر ٣١٤
ما أحسن الإيمان يزينه العلم........................ ١٣٣
ما أعز اللَّه عبدًا بعزٍّ هو خيرٌ له من أن يَذُلَّه........................ ١٠٢
ما أعلم أني رأيت أحدًا أنظف بدنًا، ولا أشد تعهدًا لنفسه........................ ١٢٥
ما أقبح بالعالم يؤتىٰ إلىٰ منزله فيُقال: أين العالم؟........................ ٣٠٢
ما أكثر الصالحين وأقل الصادقين........................ ٢٤٧
ما أنا عالم، ولا رأيت عالمًا........................ ٣٢
ما اتقىٰ اللَّهَ عبدٌ أَحَبَّ الشُّهْرَة ٢٩٦
ما استحسنت من نفسي عملًا فأحتسبت به........................ ١٠٢
ما بالُ المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد ٥٥
ما بالمشرق ولا بالمغرب له نظير ١٤٦
ما بلغني عن رسول اللَّه ﷺ حديثٌ قط إلَّا عملت به .... ٨١، ٢٣٤
ما تردَّىٰ أحدٌ بالكلام فأفلح........................ ١٨٢
ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة اللَّه........................ ٢١١
ما جاءني أحد من بغداد يطلب هٰذا الأمر للَّه إلا رجل واحد........................ ٣٢، ٥٤
ما جلس إلىٰ جانبي ثقيل إلَّا وجدت الجانب الذي هو فيه........................ ٢٠٤
ما خرج عبد من ذُل المعاصي إلىٰ عز التقوىٰ ٦٨
ما رآني رسول اللَّه ﷺ إلا تبسم ١١٧
ما رأيت علىٰ رجل خطأ إلا سترتُه ٣٣٥
ما رأيت مع شيخنا الفرَّاء كتابًا قط........................ ٢٣٦
ما شرط السلامة في الصحبة؟ فقال: أن يوسع علىٰ أخيه ماله........................ ١٩٩
ما عبد اللَّه بشيء أفضل من العلم........................ ٢٥
ما عرضتُ قولي علىٰ عملي إلَّا خشيت أن أكون مُكذَّبًا ٥٣

ما فقدته في مجلس نحوٍ ولا لُغَةٍ ٣٤١
ما في زماننا شيءٌ أَقلُّ مِنَ الإنصاف ٣٣٣
ما كتبتُ حديثًا إلا وقد عملت به ٨١
ما كتبت حديثًا إلَّا وعملت به ٢٣٤
ما من أحد لا يعرف عيب نفسه؛ إلا وهو أحمق ٧٥
ما ناظرت أحدًا فَأَحْبَبْتُ أن يُخطِئ ٢٧٦
ما ناظرني رجل قط وكان مُفَنَّنًا في العلوم إلا غَلَبْتُه ٢٨٤
ما نعيش إلا في سِتره ٢٤٧
ما هٰذا الذي معكم أظهرتموه؟ ٢٩٢
ما وقع في مسامعي شيء فنسيته ٢٣٦
ما يجد المطيعون للَّه لذَّة في الدنيا أحلىٰ من الخلوة ٢١١
مات يتيم لعائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٢٠٥
مجالسة الثقيل حُمىٰ الرِّبْع ٢٠٤
مَشيت بسبب نُسخة مُفَضَّل ابن فَضَالَة سبعين مرحلة ٢٢٣
مضيتُ إلىٰ عباس الدُّوري وأنا حَدَث ٢٢٨
مع المَحبَرة إلىٰ المقبرة ١٤٧
ملاك هٰذه الأعمال النيات ٥٤
من آثر العُزلة حَصَلَ العِزُّ لَهُ ٢٠٦
من أراد أن يَسلَم له دينه ويستريح بدنه ٢٠٦
مَنْ أَصْحَب؟ قال: من تقدر أن تُطْلِعَهُ ١٩٨
مَنْ أَصْحَب؟ قال: من يقدر أن ينسىٰ ما لَه ١٩٨
من أعظم البلية تشيخ الصُّحُفية ١٤٩
من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير ١٣٤
من ألزم نفسه آداب السنة، نَوَّرَ اللَّه قلبه ٢٣٣
من أَمَّرَ السنة علىٰ نفسه قولًا وفعلًا نَطَقَ بالحكمة ٢٣٤

من ادعىٰ محبة اللَّه ولم يحفظ حدوده؛ فهو كاذب ٥٨
مَن الناس: فقال العلماء، قيل: ومن الملوك، قال: الزهاد ١٠٧
مَنْ تَرَأَّسَ سَرِيعًا أَضَرَّ بِكَثِيرٍ مِنَ العِلْم ٣٢٧
من تَزينَ للنَّاسِ بما ليس فيهِ سَقَطَ مِن عَينِ اللَّه ٣٢٥
من تفقَّه من بطون الكتب ضيع الأحكام ١٤٩
من سَيِّد هٰذه القرية؟ ٣٠٢
من صنف، فقد جعل عقله علىٰ طبق ٣٣٠
مَنْ طَلَبَ العَرَبِيَّةَ فآخره مُؤدب ٣٤٦
من طلب العلم جُملةً فاته جُملة ١٤١
من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذُل ١٣٤
من علامة المحبين للَّهِ ألَّا يأنسوا بسواه ٢١٢
من عَلِمَ فليقُل، ومن لم يعلم فليقُل ٢٥٤
مَنْ قَعَدَ قَبْلَ وَقْتِهِ ذَلَّ ٣٢٧
من كَثُر مُزاحه زالت هيبته ١١٦
منَ لا ينفعك لَحْظُه، لا يَنفعك لَحْظَة ٥٦
من لم تَقَرَّ عَينُهُ بك فلا قَرَّت عينُه ٢١١
من لم يحسن باللَّه ظنه لم تَقر باللَّه عينه ٩٠
مَن لم يحمل ذل التعلم ساعة ٩٢
من لم يَزِن أفعاله وأقواله ـ كلَّ وقت ـ بالكتاب والسنة ٢٨١
من مِثلُك يا ابن آدم؟ خُلِّيَ بينك وبين المحراب والماء ٢١٠
منزلة الجهل بين الحياء والأنفة ٩٤
نحن إلىٰ كثير من الأدب أحوج منَّا إلىٰ كثير من الحديث ١٧٦
نُسَلِّمُ هٰذه الأحاديث كما جاءت ١٨٧
نشأ في قُريش ناشئان: رَجُلٌ مِن بني مَخْزُوم ٣٦١
نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هٰذا ٢٩

هَبْ أنَّك ما تخاف، أما تشتاق؟ ٨٧
هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلىٰ وقتنا ٢١٦
هو حجة، وكانت كتبه صحاحًا ١٢٨
هو ذا يومُ عزاء لا يوم هَنَاء ٢٩٧
هي كتمان السِّر والتباعد عن الشر ٣٥٥
هٰذا الشأنُ شأنُ مَن ليس له شأنٌ سِوَىٰ هٰذا الشأن ٢٨٤
هٰذا مثل حاطب ليل، يقطع حزمة الحطب فيحملها ١٤٩
هٰذا من أجلي يصيبكم ٩٩
هٰذه سُرُج الإسلام ١٤٧
واللَّهِ ما استطعت أن أقول: إني ذهبت يومًا ٣١
وجَّه إليَّ هارون الرشيد يسألني أن أحدثه ٥٠
وجدنا في حُجْزَتِهِ ـ يعني موضع عقد الإزار ـ رقاعًا ٢٧١
وقد تكلم في العلم من لو أمسَكَ عن بعضِ مَا تَكَلَّمَ فيه ٣٢٥
ولما حج إسماعيل بن أحمد النيسابوري ٢٦٨
ومن تأمل ظفر، ومن جَدَّ وَجَد ١٣٤
يا أبا يوسف، قد كان في بَنيك وغِلمانك ١٠٢
يا أخي، إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس ٦٦
يا أمير المؤمنين إن من قبلك كانت الخلافة لهم زَينًا ٣٤٩
يا أمير المؤمنين، أنشدني الأصمعي في الرفق بيتين ١٣٣
يا أمير المؤمنين، لو أتيت المدينة ٢٩٤
يا بُني، استعن علىٰ الكلام بطول الفكر ١٣٥
يا بني، اصحب الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم ١٧٦
يا رب أفهمني عنك، فإني لا أفهم عنك إلَّا بك ٢٤١
يا شيخ، ما يمنعك أن تنشر ما عندك وتحدِّث به هٰؤلاء؟ ٥٤
يا فرقد، ضع نصرانيتك هٰذه عنك ١٢٩

يا مسكين، كم تبكي وتندب أخلِص تَخلَص ٣٢
يا معشر الناس، لا يمنعكم سوء ما تعلمون ٢٩٩
يدخل في ثلاثين بابًا من العلم ٣٣
يدخل في سبعين بابًا ٣٣
يُستحب للرجل إذا دَعَا أن يقول: اللهم استُرنا بسِتْرك الجميل ١٠٠
يَصُكُّ أحدكم صاحبَه بأشد من الجندل ١١٦
ينبغي أن يؤخِّر الإنسان درسه للأخبار ٢٦٤
ينبغي أن يُجعل هٰذا الحديث رأس كل باب ٣٣
ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده ٢٥٤

(٣) فِهرسُ المَوضُوعات

هٰذا الكتاب ٣
الإهداء ٥
مقدمة فضيلة الشيخ بدران العياري ٧
مقدمة المؤلف ١١
التعريف بمؤلف «الحلية» رَحِمَهُ اللَّهُ ١٥
مقدمة العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ ١٩

الفصل الأول: آداب الطالب في نفسه ـ ٢٣

١ ـ العلم عبادة ٢٥
الإخلاص ٢٨
الحذر من الرياء ٣٦
بعض مفسدات النية ٤٢
النهي عن الطبوليات ٤٧
الخوف من عدم الانتفاع بالعلم ٥٠
الخوف من نواقض الإخلاص ٥٣
صدق العالم ٥٥
الخصلتان الجامعتان للخير: محبة اللَّه تعالىٰ ومحبة رسوله ﷺ ٥٧
الأسباب الجالبة لمحبة اللَّه تعالىٰ ٦٣
تقوىٰ اللَّه في السر والعلانية ٦٥
٢ ـ كن سلفيًّا علىٰ الجادة ٦٩
منزلة أهل السنة والجماعة ٧٥
٣ ـ ملازمة خشية اللَّه تعالىٰ ٧٦

العمل بالعلم ٨٣
٤ ـ دوام المراقبة ٨٥
٥ ـ خفض الجناح ونبذ الخيلاء والكبرياء ٩١
الحذر من نواقض الآداب السابقة ٩٤
الحذر من داء الجبابرة: الكبر ٩٦
أمثلة من تواضع العلماء ٩٨
٦ ـ القناعة والزهادة ١٠٦
الاعتدال في المعاش والتقلل من الدنيا ١٠٨
٧ ـ التحلي برونق العلم: حسن السمت ١١١
آداب عامة لطالب العلم ١١٥
٨ ـ التحلي بالمروءة ١١٩
٩ ـ التمتع بخصال الرجولة ١٢٢
١٠ ـ هجر التَّرفُّه ١٢٤
كلام مهم عن ضوابط لباس طالب العلم ١٢٥
١١ ـ الإعراض عن مجالس اللغو ١٣٠
١٢ ـ الإعراض عن الهيشات ١٣١
١٣ ـ التحلي بالرفق ١٣٢
١٤ ـ التأمل ١٣٤
١٥ ـ الثبات والتثبت ١٣٦

الفصل الثاني: كيفية الطلب والتلقي ـ ٣٩

١٦ ـ كيفية الطلب ومراتبه ١٤١
أمور لابد من مراعاتِها في كل فنٍّ يطلبه طالبُ العلم ١٤٣
١٧ ـ تلقي العلم عن الأشياخ ١٤٨
فساد قول من زعم أن طلب العلم من الكتب أفضل من تلقيه عن العلماء ١٥٠

الفصل الثالث: آداب الطالب مع شيخه ـ ١٥٩

١٨ ـ رعاية حرمة الشيخ ١٦١
توقير المدارس وإظهار السرور بالدروس ١٦٤
الحذر من إضجار الشيخ ١٦٦
استئذان الشيخ عند الانتقال إلىٰ غيره ١٦٩
رعاية حرمة الشيخ سبيل الفلاح والنجاح ١٧٢
تنبيه مهم علىٰ آداب خارجةٌ عن قواعد الشرع المطهر ١٧٤
١٩ ـ الاقتداء بصالح أخلاق الشيخ ١٧٥
٢٠ ـ نشاط الشيخ في درسه ١٧٧
من حقوق الفوائد ألَّا تساق إلَّا لمن يبتغيها ١٧٨
٢١ ـ الكتابة عن الشيخ حال الدرس والمذاكرة ١٨١
٢٢ ـ التلقي عن المبتدع ١٨١
كلام مهم للإمام الذهبي وغيره حول التلقي عن أهل البدع ١٨٥

الفصل الرابع: أدب الزمالة ـ ١٩٥

٢٣ ـ احذر قرين السوء ١٩٧
تقسيم الصديق في أدقِّ المعايير ٢٠٢
كلام مهم عن العُزلة ٢٠٦

الفصل الخامس: آداب الطالب في حياته العلمية ـ ٢١٣

٢٤ ـ كِبَر الهمة في العلم ٢١٥
٢٥ ـ النهمة في طلب العلم ٢١٩
٢٦ ـ الرحلة في الطلب ٢٢٢
الحذر من مسلك الصوفية: تفضيل علم الخِرَق علىٰ علم الورق ٢٢٥

٢٧ ـ حفظ العلم كتابةً ٢٣٠
٢٨ ـ حفظ الرعاية ٢٣٣
٢٩ ـ تعاهد المحفوظات ٢٣٥
٣٠ ـ التفقه بتخريج الفروع علىٰ الأصول ٢٣٨
٣١ ـ اللجوء إلىٰ اللَّه تعالىٰ في الطلب والتحصيل ٢٤٠
٣٢ ـ الأمانة العلمية ٢٤٣
٣٣ ـ الصدق ٢٤٥
التحذير من الكذب وأنواعه ٢٤٩
ضرورة لزوم الصدق في كافة مناحي الحياة ٢٥١
الحذر من المعاريض ٢٥١
٣٤ ـ جُنَّةُ طالب العلم: «لا أدري» ٢٥٤
٣٥ ـ المحافظة علىٰ رأس مالك: «ساعات عمرك» ٢٥٨
الحذر من التسويف ٢٦٢
٣٦ ـ إجمام النفس ٢٦٤
أهمية العطل الأسبوعية ٢٦٧
٣٧ ـ قراءة التصحيح والضبط ٢٦٧
٣٨ ـ جرد المطوَّلات ٢٧٠
٣٩ ـ حسن السؤال ٢٧٠
مراتب العلم الستة ٢٧٣
٤٠ ـ المناظرة بلا مماراة ٢٧٦
٤١ ـ مذاكرة العلم ٢٧٩
٤٢ ـ حياة طالب العلم بين الكتاب والسنة وعلومهما ٢٨١
٤٣ ـ استكمال أدوات كل فن ٢٨٣

الفصل السادس: التحلي بالعمل ـ ٢٨٩

٤٤ ـ من علامات العلم النافع ٢٩١
٤٥ ـ زكاة العلم ٢٩٧
٤٦ ـ عِزَّةُ العلماء ٣٠١
أهمية قراءة تراجم وسير العلماء ٣٠٥
٤٧ ـ صيانة العلم ٣٠٧
احفظ اللَّهَ في الرخاء يحفظك في الشدة ٣١١
٤٨ ـ المداراة لا المداهنة ٣١٢
٤٩ ـ الغرام بالكتب ٣١٣
٥٠ ـ قِوام مكتبتك ٣١٦
٥١ ـ التعامل مع الكتاب ٣١٩
٥٢ ـ جرد الكتاب قبل إدخاله المكتبة ٣٢١
٥٣ ـ إعجام الكتابة ٣٢١

الفصل السابع: الْمَحَاذير ـ ٣٢٣

٥٤ ـ حلم اليقظة ٣٢٥
٥٥ ـ احذر أن تكون «أبا شِبْر» ٣٢٦
٥٦ ـ التصدر قبل التأهل ٣٢٧
٥٧ ـ التنمُّرُ بالعلم ٣٢٩
٥٨ ـ تحبير الكاغد ٣٢٩
الاشتغال بالتأليف النافع من أهم المهمات للمتأهل ٣٣٠
٥٩ ـ موقفك من وهم من سبقك ٣٣٣
٦٠ ـ دفع الشبهات ٣٣٨
٦١ ـ احذر اللحن ٣٤٠

السلف والعربية ٣٤٣
٦٢ ـ الإجهاض الفكري ٣٤٧
٦٣ ـ الإسرائيليات الجديدة ٣٤٩
٦٤ ـ احذر الجدل البيزنطي ٣٥٠
٦٥ ـ لا طائفية ولا حزبية يعقد الولاء والبراء عليها ٣٥٢
٦٦ ـ نواقض هٰذه «الحلية» ٣٥٤
(١) إفشاء السر ٣٥٤
(٢) نقل الكلام من قومٍ إلىٰ آخرين ٣٥٧
(٣) الصلف واللسانة ٣٥٨
(٤) كثرة المزاح ٣٥٩
(٥) الدخول في الحديث بين اثنين ٣٦١
(٦) الحقد ٣٦١
(٧) الحسد ٣٦١
(٨) سوء الظن ٣٦١
(٩) مجالسة المبتدعة ٣٦٣
(١٠) نقل الخطىٰ إلىٰ المحارم ٣٦٣
* فهرس الأحاديث النبوية ٣٦٧
* فهرس الآثار ٣٦٩
* فهرس الموضوعات ٣٨٦

